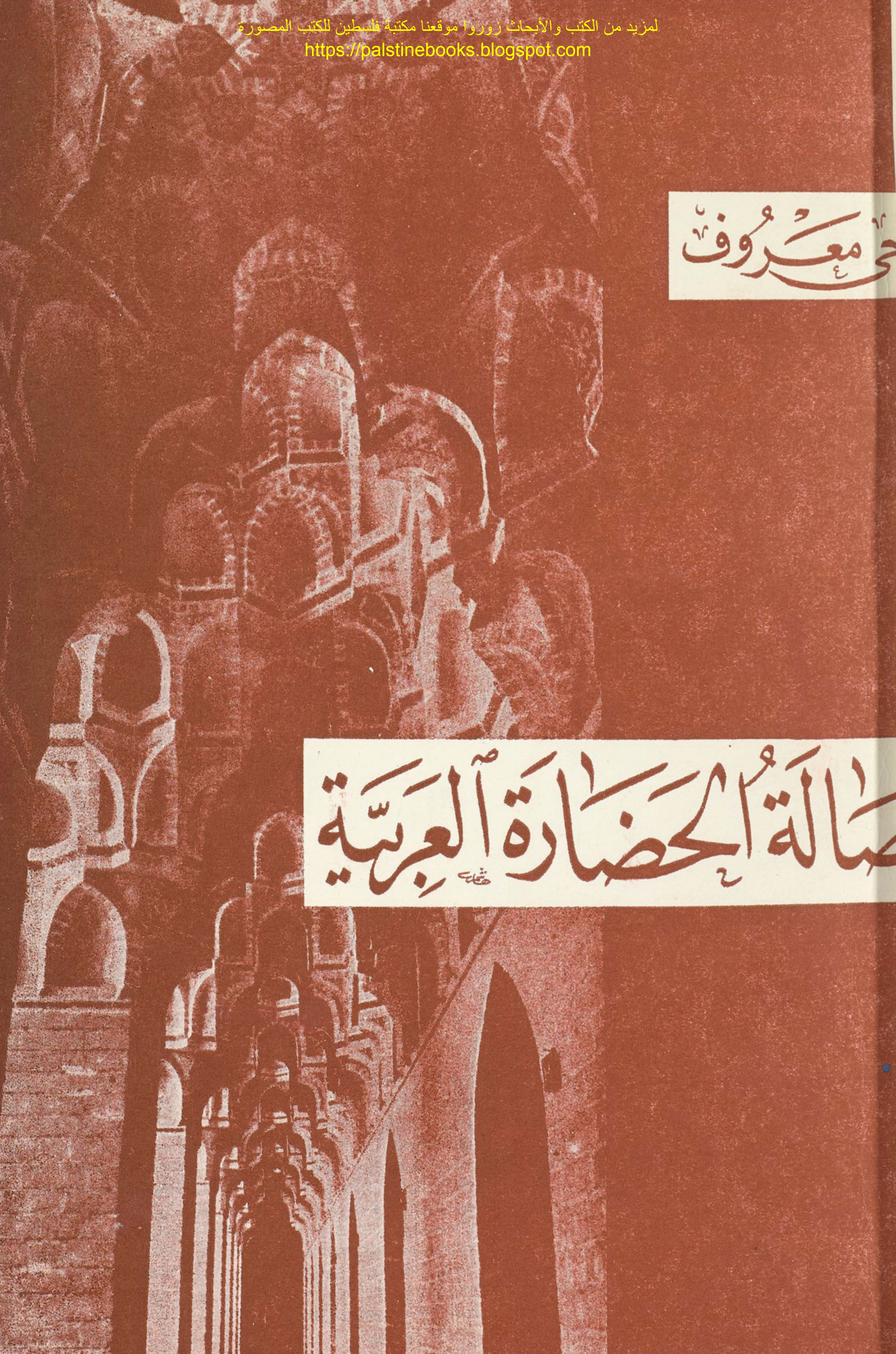

حي معروف
صالة الحضارة العربيّة



تـــاليف

ناجي معروف

الاستاذ في الدراسات العليا
وكلية الاداب بجامعة بغداد
(وسابقاً) : عميد كلية الشريعة
وعميـــد كليـــة الآداب
وعضو مجلس الخدمة العامة

الطبعة الثانية
منقحة ومزيدة

مطبعـة التضامن ـ بغـداد

الاهداء

الى : مخرج الناس من الظلمات الى النور ، رسول الانسانية ، وهادي البشرية ، المعترف بانسانية الانسان وآدميته .

الى : اول من وضع اسس الحرية والاخاء والمساواة في العالم قولاً وعملاً .

الى : الداعي الى العمل ، والتأمين من الفقر والمرض والجهل .

الى : محرر الرقيق وجاعله عضواً محترماً في المجتمع .

الى : مشرع حقوق الانسان والحيوان قبل اربعة عشر قرناً .

الى : مانح المرأة حقوقها في كل ناحية من نواحي الحياة .

الى : الداعي الى الشورى والعلم والعقل .

الى : المبشر بالرحمة والعدل والسلام .

الى : العقل الملهم الذي جعل من العرب امة واحدة موفورة الكرامة مرهوبة الجانب .

الى : الفكر المبدع الذي جعل للحضارة العربية الاسلامية شخصية مستقلة تمتاز بالشموخ والتجديد والابتكار لا التقليد والجمود والتبعية .

الى رسول الله سيدنا محمد النبي العربي القرشي وآله الطاهرين .

وأصحابه الغر الميامين .

واتباعه في العالمين .

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

روح الحضارة العربية

للامة العربية حضارة يمكننا أن نقول عنها باطمئنان : انها حضارة اصيلة ابتدأت في الجاهلية ونمت في الاسلام بسرعة فائقة ، وبلغت ذروة ازدهارها في خلافة العباسيين ببغداد ، والامويين بقرطبة والفاطميين بالقاهرة ، وفي عهود الدول الاسلامية المختلفة في آسية وافريقية واوربة ويمكننا ان نجزم بانها ليست من الحضارات المقلدةاو التبعية أو الذيلية لان التقليد يمنع الاصالة ، ولان المعرفة التبعية ليست معرفة حقيقية ، ولان الذيلية تفرض الذلة والمسكنة .

وكان لهذه الحضارة العربية العريقة في جانبيها السياسي والروحي شخصية فذة ، ونظم خاصة ، وتشريعات رائعة تميزها عن سائر الحضارات قديمها وحديثها فهي تختلف في مبادئها ومذاهبها وعقائدها عن سائر المبادىء والمذاهب والعقائد في العالم . فليست مذاهبها السياسية بالديمقراطية الغربية ولا أنظمتها الاقتصادية بالرأسمالية لأن الزكاة تنقل من رأس المال باستمرار . وليست بالاقطاعية لأن العرب لم يعرفوا قط في جاهليتهم ولا في اسلامهم نظام الاقطاع الذي عرفته أوربة. وهي تفوق الاشتراكية الحديثة وتفضلها في التكافل الاجتماعي ، والتأمين من الفقر والمرض والجهل . وليست تشريعاتها الأخرى بالماركسية او الشيوعية ، ولا بالنازية أو الفاشية . وهي أول حضارة في العالم أعلنت حقوق الانسان ، وحررت الناس من العبودية والرق ومنحتهم مبادىء الحرية والاخاء والمساواة نظريا وعمليا . ولا تعترف بالطبقية الاجتماعية ، ولا تؤمن بالعنصرية المتطرفة ، وانما هي نسيج خاص قائم بنفسه . ولا يمكن أن تنطبق عليها صفة من صفات العقائد الحديثة . ولا يمكن أن تسمى بمذهب من المذاهب العالمية المعروفة ، لأن كل ما هو حسن في هذه المذاهب داخل في الاسلام . والحكم في الاسلام للشرع المنزل. والاسلام هو المعبّر الاعظم عن الحضارة العربية، وعن الروح العربية الحقيقية بل هو أعظم أطوارها على الاطلاق . والنبوة

فيها تعد من الخصائص المميزة لها، ولذلك يتعاون الاسلام والعروبة ، ويتعاضدان فيما بينهما ولا غنى للواحد منهما عن الآخر . ولعل العربي إذا تطرف في عروبته كان أقرب الى الاسلام ، والمسلم اذا تطرف فى اسلامه كان أقرب الى العروبة بل كان عربيا . واذا كان العرب هم كل من تكلم العربية ، واعتنق الاسلام ، وكانوا من الناحية السياسية تحت الحكم العربي ، وجمعتهم ثقافة إسلامية واحدة فاننا نجد في الأمة العربية عددا عظيما من أوائل الرواد والمكتشفين والمبتكرين في العلوم والآداب والفنون من عناصر عربية بارومتها أو بلغتها العربية او ثقافتها الاسلامية .

ولقد كان للحضارة العربية من القوة والمنعة ما جعلها تبقى على الدهر ، وتخلد الى الابد . وقد ساعد على ذلك وجودها في موقع وسط بين الأمم ، فلم تكن كالحضارات التي نشأت في طرفي العالم كالحضارات الهندية والصينية التي عاشت في الشرق ، والحضارات الغربية التي عاشت في الغرب . وقد وصلت هذه الحضارة العربية الاسلامية الى المرتبة التي استطاعت فيها أن توحد بين الدين والدولة ، وأن تشرع الحرب لاقرار السلام ، ودفع الأذى عن النفس والعقيدة والوطن ، وليس لايقاع الاذى على الناس ، وان تمنع التسلط والاسترقاق ، وان تعلن حقوق الانسان قولا وعملا . وقد أصبح للحضارة العربية «ايديولوجية» خاصة بها ، وعاش اهلها حتى اليوم في ثروة من مبادئها، وهم على كل حال لا يعيشون في فراغ كما يتوهم البعض ، ولا يحتاجون الى استيراد المبادىء والنظم والنظريات من الغير ، لان للعرب في ماضيهم وحاضرهم هويتهم الخاصة وشخصيتهم المستقلة ومبادءهم الاصيلة ، ونظمهم التي توافق طباعهم وسجاياهم لانبثاقها من واقعهم ودينهم وتجاربهم عبر العصور ، فقد التقى في حضارتهم الاسلامية العلم الشرعي بالعقل الفلسفي ، أي انهم استطاعوا أن يفلسفوا الشريعة ، وأن يلبسوا الفلسفة والعلوم لبوس الشرع لأن كمال الانسان بالعقل والعلم . وكانت غاية الاسلام في هذه الحضارة تهذيب النفس الانسانية ، وتزكيتها بالسمو الخلقي ، وتوثيق عرى المحبة للوصول الى الكمال الروحي ، ورفع شأن الانسانية ، وهذا كله مما لا يحصل عليه الانسان في الدنيا إلا بالسعي المتواصل الذي يأمر به الاسلام ، وتمثله الآية الكريمة : « يا أيها الانسان انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه » .

وقد يحاول البعض وصف الحضارة العربية ببعض أوصاف الحضارات الغربية أو الشرقية ، وينسبون اليها النقص والتأخر ،وعدم الاستعداد لتقبل المدنية ، ويتعصبون عليها بشدة وهم انما يفعلون ذلك بدون أدنى ريب ، بسبب من جهلهم العميق بالحضارة العربية الاسلامية ونظمها ومثلها العليا ، وسجاياها النبيلة ، ومبتكراتها التي لا تحصى في العلوم والآداب والفنون والاخلاق .

ولئن جحد كثير من الغربيين ما لنا من دَيْن حضاري في أعناقهم وأنكروا أن النظم والمباديء التي منحناها للعالم منذ عصر الرسالة والعصور التي تلته هي التي يعيدها الينا المكابرون منهم على إنها من مبتكرات العصر الحديث ، فقد نسوا أن العرب يملكون تراثا يزخر بالمثل العليا والمباديء السامية ، وفاتهم أن الاسلام رسالة سماوية لا تأخذها في الحق لومة لائم فتسمي الحق حقا وتسمي الباطل باطلا ، كما غاب عنهم أن العرب يمتازون بشرف السيرة ، وحسن الخلق في جيع الاقطار التي حملوا اليها الدين الاسلامي والعربية والخط العربي والحرية والاخاء والمساواة وحقوق الانسان وغيرها من التشريعات التي رافقت العرب انّى ذهبوا ، وعملوا على إنهاض الامم ومدّها بأسباب الحياة وبنهضة علمية واخلاقية انتظمت آفاق الدنيا . وان ما حدث في أوربة من ثورات للتحرر والانعتاق في كافة الميادين السياسية والعلمية كان مدينا الى حد بعيد للعرب ، والى النفحات الاسلامية العطرة والى ذلك الفجر الوضيء لحضارتهم الزاهرة في عصورهم الغابرة .

ولا شك في أن العرب في العصر الحاضر سيكون لهم دور فعال يعيدون فيه للانسانية الحائرة كرامتها المهدورة التي عصفت بها العواصف فزلزلت أركانها ، ويهدهدون آلام الامم ويضمدون جراحاتها من جديد إذ لا يزال في الوقت متسع ، وفي الحياة ميادين فسيحة للعمل على حفظ التوازن بين المعسكرين الشرقي والغربي وذلك عندما تستطيع الأمة العربية أن تفرض وجودها في الحياة على أساس استقلال شخصيتنا ونظرتنا للحسن من الامور والضار منها ، وعلى أساس ما يصلح لنا منها وما يتنافر مع حضارتنا وتأريخنا وطباعنا ؛ وما هو منبثق من تجاربنا ، ومستمد من واقعنا باعتبار أن العرب عندما اقاموا الدين الاسلامي ، وأنظمتهم الحضارية المختلفة انقادت لهم الدنيا واطاعتهم الامم ، وصلحت بهم البشرية وبخاصة حينما بذلوا جهودهم

لنشر العربية لغة القرآن الكريم التي تعد الوسيلة الفعالة في الوحدة القومية والثقافية والدينية والسياسية ووحدة التفكير .

واما بالنسبة الى شخصية الحضارة العربية فيمكن ان نقول : ان الحضارة العربية ترفعت عن التقليد واتجهت بكل قواها واستعدادها الذهني الى الابداع والابتكار والتجديد والاتقان في كل حقل من حقول المعرفة لذلك لابد من الاشارة الى ما اقتبسته من الغير باعتبار ان الاقتباس يدل على الحيوية والانتفاع من تجارب الامم شريطة عدم الاكتفاء به ، ونبذ التقليد والجمود . ولا بد أن نذكر في هذا الصدد ان العرب لم يقتبسوا أصول الدين الاسلامي من احد بل هو مما أوحى الله به الى رسوله الكريم . ولم يأخذوا اللغة العربية ولا الخط العربي عن الغير ، وأن اخلاقهم الاصيلة وسجاياهم النبيلة لم يقتبسوها من أحد فكان عمل هذه الأمة الكريمة التي اختارها الله لحمل الامانة في العالمين أكبر دليل على أهلية العرب لتبليغ الرسالة والارتفاع بالبشرية الى أعلى المستويات الانسانية . وهناك أمر آخر في غاية الأهمية والخطورة وهو اننا لا نريد أن نتلقى حضارتنا عن أعدائنا لا في أسلوب التفكير ولا في الفهم الخاص لتراثنا ، ولذلك رأيت ـ اظهارا لشخصية الحضارة العربية ـ ان اذكر ما اضافته الى المعرفة والى الحضارة العالمية من امور جديدة لا عهد للحضارات الاخرى بها باعتبار ان الاضافة في العلوم الانسانية والطبية والرياضية والطبيعية ، والفلك تدل على الاصالة . ورأيت أن اقارنها بالحضارات الاصيلة التي كانت قبلها والتي جاءت بعدها وأؤكد أن المكتشفات والمبتكرات العربية وتصحيح اغلاط مَنْ سبقهم من الامم هما من الاضافات الحضارية المهمة التي اضافتها الامة العربية الى الحضارة العالمية .

وقد حاولت أن اكون موضوعيا في كل الآراء والبحوث التي دونتها سواء كانت مقتبسة من الغير أم مما توصلت اليه في بحوثي ، وتتبعاتي الشخصية ، ولذلك عمدت في كثير من الاحيان الى مناقشة بعض هذه الآراء ونقدها وتقليبها على وجوهها المختلفة ، وحاولت عرض البعض الآخر منها للأخذ به او رده أو مناقشته ، لا سيما تلك البحوث والآراء الخاصة التي توصلت اليها ونشرتها في بعض مؤلفاتي من كتب ورسائل وبحوث . وحاولت من ناحية أخرى أن أشير الى تاثيرها العظيم في أمم الشرق والغرب مستنيرا بآراء الباحثين من المستشرقين ، والعلماء

الغربيين المنصفين الذين ثمّنوا الحضارة العربية ، وأشادوا بقيمتها وحيويتها وعمقها وتنوعها وتسامحها ، وشهدوا على أممهم بالجهل والتعصب . ولئن أخذت ذلك عنهم فلئلا نتهم بالتحيز لحضارتنا والتعصب لديننا ، ولندين الاوربيين من أفواههم والسنتهم ، وأقلامهم، ولنجعل منهم شهودا على انفسهم ينصفون حضارتنا ويغضون من حضارتهم . ولم أركن الى آراء العرب والمسلمين في حضارتنا ، أو في الحضارة الغربية الا قليلا ، والا في الأمور التي لم يتطرق اليها من ذكرت من المستشرقين والعلماء الغربيين .

واجتهدت أن أنبه الانسان العربي المسلم دوما الى أثر الاستشراق والشعوبية والاسرائيليات والتبشير في تشكيك العرب والمسلمين بانفسهم والنيل من دينهم وتأريخهم وحضارتهم . والتشكيك بقدراتهم على الابداع والابتكار ليسلخوهم من ماضيهم المجيد ومن أرومتهم التي يعتزون بها ليهون عليهم دينهم وبلادهم وليتمكنوا من التأدب بأدب غيرهم من الامم .

ومما ينبغي ملاحظته : ان مجموعة الآراء التي اشتمل عليها الكتاب تتكون اما من رأي اقتبسته من علماء العرب القدماء أو المعاصرين أو من العلماء المسلمين أو من الباحثين الغربيين ، واما من رأي توصلت اليه بنفسي نتيجة ملاحظاتي الشخصية وتتبعاتي العلمية ، واستنتاجاتي الخاصة المبنية على البحث والتحري الدائبين خلال تدريسي مادة الحضاره العربية والتأريخ الاسلامي في دار المعلمين العالية (كلية التربية) وكلية الملكة عالية (كلية البنات) وكلية الشريعة ، وكلية الآداب ، ومعهد الدراسات الاسلامية العليا بجامعة بغداد والكلية الجامعة والجامعة المستنصرية وكلية الدراسات الاسلامية وكلية الامام الاعظم مدة تربو على ثلاثين سنة عميداً واستاذاً أو محاضرا او مشرفاً على طلبة الماجستير واستاذاً باحثاً بجامعة بغداد .

ولطالما ناقشت طلابي وجادلت زملائي من العراقيين والعرب والاجانب ، في هذه الآراء وقلبناها على وجوهها المختلفة . واستطيع ان أقول باطمئنان انني كونت مدرسة خرجت أجيالا ممن يؤمنون بهذه الآراء وهم اليوم نخبة ممتازة من المدرسين والمدرسات والاساتذة رجالا ونساء وممن تسنموا أعلى المناصب في البلاد . وقد الحقت الاصاغر منهم بالاكابر فلا تخلو جامعة من جامعات العراق وكلياته الرسمية وشبه الرسمية والاهلية والدوائر الرسمية والاهلية من طلابي وطالباتي الذين يحمل

أكثرهم هذه الآراء . ومن لم يدرس عليّ حضورا فقد درس عليّ في مؤلفاتي من كتب ورسائل أو قرأ مقالاتي وبحوثي في أمهات المجلات العراقية كمجلة كلية الآداب، ومجلة كلية الشريعة، ومجلة الكتاب، ومجلة الاقلام، ومجلة المعلم الجديد ، ومجلة الاجيال ، والاخوة الاسلامية ، والرسالة الاسلامية، وفي عدد من الصحف العراقية ،وفيما اذعته من اذاعة الحكومة العراقية سنين عديدة ، وما ناقشت به في الندوات التلفزيونية من الموضوعات الحضارية والتاريخية والاثرية والثقافية ، وفيما تحدثت به للعرب والمسلمين والاجانب في رحلاتي العديدة في اوربة وبخاصة في فرانسة وانكلترا وبلاد الاندلس وصقلية وجزر البحر المتوسط وايطالية واليونان وفي تركية وسورية ولبنان وفلسطين وتونس والحجاز وبعض بلدان الخليج العربي ، وفيما الفته وحدي أو بالمشاركة مع أساتذة آخرين من رسائل وكتب في التاريخ الاسلامي والحضارة العربية ، وفيما دونته من آراء ومقترحات في مذكراتي التي رفعتها الى المسؤولين في العهود المختلفة . ويمكنني أن أقرر بانني لم اؤلف كتابا أو رسالة ، ولم أكتب بحثا ، ولم انشر مقالة ، ولم اذع حديثا مما ذكرت الا ولي فيه رأي جديد توصلت اليه بنفسي ، ونبهت الى اهميته وقيمته لنا ولتراثنا الحضاري .

وعندما شرعت في وضع هذا الكتاب كنت اضع دوما نصب عيني القرآن كتاب الله العظيم ، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، باعتبارهما أساسين عظيمين من أسس حضارتنا اقتبس منهما كثيرا من الآيات والاحاديث واستمد منهما الشيء الكثير عن شؤون الحياة العربية قبل الاسلام وفي الاسلام لاطلع على البيئة العربية التي عاش فيها الاسلام قبل خروجه من الجزيرة العربية ، وانتشاره في أقطار العالم ، ولاضع يدي على حقيقة الامة العربية ولغتها ، واثر الاسلام فيها ، والجهود الجبارة التي بذلها الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام وصحبه الأبرار في نشر الاسلام ، وعلى النتاج الاصيل الذي انتجته الامة العربية عندما ساد دين الله على يدها ، وازدهرت حضارتها في العالم .

وقد توخيت من تأليف هذا الكتاب تكوين جيل عربي مؤمن بالله وبأمته العربية ، وبدينها الاسلامي ، وانسانيتها ، وبالخلال النبيلة ، والأخلاق الحميدة ، ومحاسن الافعال ، وشرائف الخصال التي جاء بها الاسلام ودعا اليها الناس كافة ، لما لاحظته من صدوف النابتة الجديدة

عن الدين الاسلامي وجهلهم بتاريخ العرب وحضارتهم ، وقيمة الاسلام للبشرية . وفي الوقت نفسه كنت أهدف من وضع هذا الكتاب اطلاع الجيل العربي الصاعد على تراثهم المجيد ، وعلى آراء الاجانب في تلك الأمجاد الناصعة من هذه الحضارة الرائعة التي خدمت الانسانية اكثر من اية حضارة عالمية اخرى كما يقرر ذلك الدكتور لوبون الفرنسي وغيره من الغربيين المنصفين ، وليعلموا ان الوطن العربي مهد الحضارات الانسانية . وليبنوا على ضوء ذلك حضارتهم في العصر الحاضر ، وليخدموا الانسانية كما خدمها اسلافهم الكرام بشتى الخدمات الجليلة باعتبار أن الأمة العربية تستطيع ان تلعب مرة اخرى دورا مهما في بناء الحضارة العالمية الحديثة اذا عملنا على تأكيد المبدأ الملائم لنا باعتبارنا أمة يحسب لها حسابها قبل أن تضيع علينا معالم الطريق ، وقبل ان تغمرنا المبادىء الوافدة أو المستوردة . على أن هذا الامر لا يتم الا اذا عرفنا مبدأنا الذي ينسجم مع ديننا ونفسياتنا وأخلاقنا وتراثنا الحضاري ولذلك ينبغي معالجة أمورنا على أساس عرض الخطوط العامة وتثبيت القواعد الاساسية التي تلائمنا ، وتجديد الدعوة الى تلك المبادىء والنظم الباهرة وايضاح اهميتها للناس كافة ، وتقوية العرب لينذروا الناس من جديد بلسان عربي مبين ، وعقل اسلامي مؤمن ، وليكونوا أمل الناس المرتقب ، وليصبحوا رحمة للعالمين مرة اخرى ، لأن الله تعالى هو الذى أختارهم لنشر دينه في العالم ، واخراج الناس من الظلمات الى النور . ولم يسقط هذا التكليف عن العرب ولا عن غيرهم من المسلمين مادام الاسلام قائما والقرآن يتلى . ولا عزة للاسلام الا بالعرب لأن العرب مادة الاسلام كما أنه لا عزة للعرب الا بالاسلام والمسلمين لأن المسلمين يؤلفون اليوم قوة يحسب لها حسابها في الاوساط السياسية .

ولقد عمدت في هذه الطبعة وفي الطبقة الاولى الى عدم الخوض في المباحث السياسية أو العسكرية الا ماذكرته عرضا في بعض المناسبات الضرورية . غير انني أطنبت وأفضت في الامور الحضارية التي تثبت :

وجود الحضارة العربية اولا .

وتؤكد اصالتها في الفترة التي سبقت الاسلام ثانيا .

وتبرهن على تطورها وازدهارها وابداعها وابتكارها واتجاهها في الاسلام وجهة جديدة شملت مختلف نواحي الحياة ثالثا .

وكان منهاجي دوما ان ابحث باسهاب في الامورالحضارية التي لم يبحثها احد في كتاب أو رسالة . وان اتدبر الامور التي ظن الكثيرون انها من نتاج الغرب وليس من نتاج العرب . ولتوضيح هذا المنهاج اذكر الامثلة الاتية :

أولا — اننا كنا نتلقى في مراحل الدراسة الابتدائية والمتوسطة والاعدادية والعالية ان مبادىء الحرية والاخاء والمساواة ، وتحرير الرقيق تعزى الى الثورة الفرنسية التي حدثت عام ١٧٨٩م وتعد من نتائجها الكبرى ، ثم أن هذه المبادىء انتقلت من فرانسة الى الشرق والغرب ، وان البلاد العربية والاسلامية كانت من جملة البلاد التي تأثرت بها . ولم يذكر لنا احد من المعلمين او المدرسين أو الاساتذة ،ولم نقرأ في كتاب ان هذه المباديء النبيلة قد جاء بها الاسلام قبل الثورة الفرنسية باثني عشر قرنا ، ولذلك عمدت الى دراسة هذه المباديء في فصلين كبيرين متخذاً القرآن الكريم المصدر الاول ،وما أثر عن الرسول العظيم (ص) في السنة النبوية من أقوال وافعال وتقريرات ، المصدر الثاني ، وما شرعه الصحابة والفقهاء والخلفاء ، المصدر الثالث . وتتبعت المجالات الحيوية التي طبقت فيها عمليا ، وقارنت ذلك بما عند الأمم الاخرى فتوصلت الى ان الاسلام اول دين في العالم اتى بهذه التشريعات منذ أربعة عشر قرنا .وقد طبقها الخلفاء والحكام قولا وعملا في صدر الاسلام وفي خلافة الامويين والعباسيين وسائر الدول والدويلات الاسلامية في آسية وأفريقية واوربة .

ثانيا — اننا درسنا على أساتذتنا ،وفي كثير من المؤلفات الحديثة أن تنظيم العمل والعناية بالعمال والفلاحين ، والضمان الاجتماعى من الفقر والمرض والجهل من الامور التي عرفت من الحضارة الغربية ولم نجد الا قليلا من الرسائل او البحوث التي صارت تنشر مؤخرا عن الاشتراكية بوجه عام أو الاشتراكية في الاسلام لمعالجة الفقر ولذلك عمدت بين سنة ١٩٥٢—١٩٥٨ عندما كنت عميدا لكلية الشريعة ببغداد الى بحث مبدأ الضمان الاجتماعى في الاسلام ،وهو ما نسميه بالكفالة الاجتماعية أو التكافل الاجتماعى فجمعت معلومات مهمة من امهات الكتب العربية ليس عن الضمان الاجتماعي من الفقر فقط بل عن العمل في الاسلام ، وعن الضمان الاجتماعى من المرض ، والضمان الاجتماعي من الجهل وقمت باذاعة عشرات الاحاديث من اذاعة الحكومة العراقية ، كما نشرت عدة بحوث ومقالات في مختلف المجلات البغدادية المشهورة ، ولذلك

عندما بحثتها في هذا الكتاب جعلتها وافية جدا ليعلم المتتبعون لهذه البحوث ان ماذكرته فيها انما كان من المبتكرات الفريدة في حضارتنا ، وانها كانت من التشريعات الاصيلة التي جاء بها الاسلام لاسعاد البشرية قبل ان تفطن اليها الحضارة الغربية بقرون عديدة .

ثالثا ـ كنا نقرأ بين الأونة والاخرى تهجما شديدا على الاسلام واهله والحضارة العربية واصحابها وبخاصة في كتب المستشرقين أو المبشرين أو الشعوبيين والضالعين في ركبهم بدعوى ان الاسلام لا ينزع نزعة سلمية ، ولا يميل الى الشورى (او الديمقراطية) ، ولا ينزع نزعة انسانية ، ولا علمية ، ولا عقلية .. ولذلك حاولت أن أفصل القول في مزايا الحضارة العربية واتجاهاتها في الاسلام فأحصيت الآيات التي تمثل موضوعات مختلفة واستنبطت من تلك الآيات والاحاديث العديدة ما كان في الاسلام من نزعة علمية وعقلية وشورية وسلمية وانسانية ليس نحو العرب او المسلمين حسب ، بل للبشرية جمعاء ولذلك نجد القرآن الكريم قد أكثر من ترديد كلمة الناس، والعالمين ، والانسان ، وبني آدم والعباد .. سوى ما ذكره في مئات من الآيات عن العلم والسلم والعقل والشورى .

رابعا ـ لقد نظرت الى الجزيرة العربية على انها مهد العرب وموطنهم الاصلي ، وكان من تحصيل الحاصل أن أؤكد : « ان كل من سكنها فهو عربي منسوب اليها ، وان كل من خرج منها على هيأة طوالع أو هجرات أو موجات فهم عرب. وقد أخذت بأوثق الآراء التي تقول بقدم الحضارة العربية قدم حضارة العراقيين والفراعنة،وان دول العرب عاصرت اليونان والرومان وأن حضارتهم تضاهي الحضارات القديمة .

ولعل من ابسط الدلائل على ذلك قوة اللغة العربية ومتانة الشعر الجاهلي وآثار العرب في اليمن وحضرموت وعمان والحجاز والهلال الخصيب وحتى في أواسط الجزيرة العربية ،ولذلك حرصت على ابراز اهمية هذه الجزيرة في الاسلام وقبله كما حرصت على دراسة أحوال

العرب في العصور التي سبقت الاسلام وان كانت دولهم قد أضحت تحت الرمال كما يحلو للبعض أن يقول . على ان أهمية العرب قبل الاسلام تبرز في اختيار الله تعالى لهم لحمل الأمانة وتبليغ الرسالة الى

العالم كافة بلسان عربي مبين لهداية البشر وإخراجهم من الظلمات الى النور.

ان قيام الحضارة العربية قبل الاسلام باكثر من عشرين قرنا وانتماءها الى الامة العربية التي سكنت الجزيرة العربية ، وتكلم العرب باللسان العربي كل اولئك من العوامل التي تفسر لنا سبب تسميتها بالحضارة العربية . أضف الى ذلك ان النبي الكريم عربي هاشمي في الذؤابة من قريش . والقرآن العظيم كتاب عربي بنص من التنزيل ، والحكم الذي جاء به القران حكم عربي « وكذلك انزلناه حكما عربيا ».

ولذلك كان القرآن اساسا للحضارة العربية بل اعظم أسسها ،كما أن الاسلام كان أساسا لحضارة اوسع يدخل في نطاقها المسلمون كافة رغم تنكر بعضهم لها ، وتعصبهم عليها . وحتى اولئك الذين لم يدخلوا في دين الله قد استفادوا فوائد كثيرة لم يستفيدوا مثلها من الامم التي حكمتهم قبل العرب ولا بعدهم ولذلك رضوا بحكم الاسلام .

أما الطريقة التي اتبعتها في جمع المادة وتصنيفها ، وفي تدوين الآراء الجديدة التي توصلت اليها فتستند الى ماكنت استنبطه من آراء ، واستنتجه من أفكار من مختلف النصوص والوقائع والاحداث ولذلك تراني في كثير من الاحيان قد اكتفيت بتثبيت النصوص او الآيات أو الاحاديث أو النظريات الفقهية وبعض الاخبار التأريخية أو الامثلة التطبيقية التي تدل على أفكار معينة ، أو تشير الى آراء خاصة . وأحيانا كنت أعمد الى التحليل والتعليل . أما الآراء التي توصل اليها غيري من الباحثين ، واستشهدت بها في الكتاب فقد أشرت الى مظانها ومراجعها فقرة فقرة ، وصفحة صفحة بقدر الامكان .

ومع ان الكتاب بلغ اكثر من ٥٠٠ صفحة فما هو في الحقيقة الا بحث موجز اثبت فيه أمرا مهما هو اصالة الحضارة العربية لأن الاسهاب في النواحي الحضارية الاخرى قد يحتاج الى عدد من المجلدات لتدوينها تدوينا علميا شاملا .

واني لأرجو أن أكون بعملي هذا قد وضعت بين أيدي العلماء والباحثين والباحثات والجامعيين والجامعيات في البلاد العربية والاسلامية كافة صفحات ناصعات من الأمجاد العربية والمبادىء الاسلامية الاصيلة التي يعتز بها كل عربي وكل مسلم بل كل انسان اذا كان انسانا حقا ،مؤيدة بمراجع عديدة عربية وأجنبية يمكن الرجوع اليها عند الحاجة بسهولة ويسر ،على أن اتمم هذا البحث بكتاب آخر عن الابتكار عند العرب

في العلوم والاداب والفنون . وقد زودت الكتاب ببعض الخرائط والصور باعتبارها من وسائل الايضاح المفيدة التي قد تغني اكثر من المتون والشروح والآراء . وعمدت الى ضبط كثير من الكلمات والاعلام بالشكل مخافة الخطأ فيها . كما رسمت أسماء الاعلام الاجنبية بالحروف العربية والافرنجية حرصا مني على ضبطها ضبطا صحيحا . وقد استعملت التاريخ الهجري في كل احداث التاريخ الخاصة بالعرب والمسلمين قبل الاسلام وبعده ، وخرجت على المألوف في استعمال التاريخ الميلادي وحده في تلك الحوادث الا قليلا نظرا لما في ذلك من تخلص من استعمار فكري وادبي لا نحسه يصدنا عن تراثنا ويشدنا من حيث لا نشعر الى تراث الغير وآدابهم .

وقد الحقت بالكتاب ملحقا بالشروح والمصطلحات والتعليقات شرحت فيه كثيرا من المصطلحات والمعاني ، وضفت اليه بعض الفوائد التاريخية والنصوص والاخبار التي لم يتسع لها متن الكتاب. وقد ذكرت في هذا الملحق رقم الصفحات والاسطر التي شرحتها أو علقت عليها ليسهل على الباحث الرجوع اليها. وكنت قد زودت الطبعة الاولى بفهارس مفصلة للامكنة والبقاع وللاعلام غير انني لم اثبتها في الطبعة الثانية مخافة التطويل لان متن الكتاب زاد كثيراً في الطبعة الثانية . فان اصبت فتلك بغيتي . وإن أخطأت فلله العصمة والكمال . والله تعالى من وراء القصد هو حسبي وهو ولي التوفيق، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الاعظمية ــ ١٢ شهر رمضان سنة ١٣٨٩ هـ

٢٢ تشرين الثاني سنة ١٩٦٩ م

المؤلف

ناجي معروف

الباب الأوّل

الحضارة العربية في الجاهلية والاسلام

الفصل الأوّل

الادوار والمراحل التي مرت بها الحضارة العربية

يمكننا أن نجزم بأن الحضارة العربية بدأت في العصور التي سبقت ظهور الاسلام بنحو عشرين قرناً ، وأن جذورها تمتد عميقة في الجزيرة العربية في قرون موغلة في القِدَم ، وانها تعد من حيث الاهمية كحضارة الفراعنة وحضارة البابليين والآشوريين ، وانها ساهمت في الحضارة الانسانية ، ولم تكن في عزلة عن العالم ، بل اتصلت به عن طريق التجارة اتصالاً وثيقاً ، وأثرت فيه ، وتأثرت به ، وشاركت في الحياة البشرية مادياً وروحياً .

ويمكننا أن نذكر ان هذه الحضارة التي بدأت قبل الاسلام وتكاملت في الاسلام خلال العصور لا يمكن ان تسمى الا بالحضارة العربية ذلك لأن الحضارة العربية هي المؤثرة في الشعوب الاسلامية والاجنبية وفي لغاتها واديانها وتقاليدها . يضاف الى ذلك ان أصل منشئها هو الجزيرة العربية . وقد تأثرت بالعقلية العربية ، والذهنية العربية ، وباسلوب التفكير العربي ، ودونت ثقافتها باللغة العربية ورسمت حروفها بالخط العربي المقدس الذي اقسم الله تعالى به بالآية « ن . والقلم وما يَسْطُرُون » . ونحن نسميها بالحضارة العربية ايضاً باعتبار ان كل من يسعى لرفع راية الاسلام يسمى عربياً . وان كل من يعتز برسالة محمد (ص) والدين الاسلامي الحنيف ويسعى لنشر الاسلام يسمى عربياً .

ويبدو لنا ان هذه الحضارة العربية قد مرت بأربع مراحل متداخلة في بعضها لا يمكن تعيين بداياتها ولا نهاياتها الزمنية بدقة ولكن على وجه التقريب نذكرها فيما يأتي :

المرحلة الاولى :

مرحلة النشوء والتكامل في الجزيرة العربية: وتظهر هذه المرحلة في حضارة العرب في اليمن وحضرموت والحجاز واطراف الجزيرة العربية . وتتم بظهور الاسلام ، وانتشار تعاليمه ، واعتناق الناس له ، وتعلمهم العربية ، وأخذهم منهم ما ورثوه عن اجدادهم في الجزيرة من مثل عليا ، وسجايا نبيلة ، ومن شهامة وشجاعة ، ونخوة وكرم ، وقوة نفس تحملهم على الصبر والمكاره ، ومن حِلْم ومروءة وسماحة وفروسية وعفة ووفاء وبخاصة للجار الذي كان مقدماً عندهم على الابناء والاخوان. أما الحليف فكان يعد من افراد القبيلة التي دخل في حلفها ، وكان ينال شرفها ، ويتزوج منها . والعرب بعد ذلك كله : « النجدة ، والقِرَى ، والوفاء ، والبلاء ، والجود، والذّمام ، والخطابة والبيان »[1] .

المرحلة الثانية :

مرحلة الاقتباس من الامم بعد الفتوح الاسلامية ومنها الامم التي انضوت تحت حكم العرب في الاسلام حيث اقتبسوا منها ما ينقصهم ، وما يلائم اذواقهم ، فاضافوه الى ما عندهم من تراث كانوا يعتزون به . على أن ما اقتبسوه من الغير كان

---

(١) الامتاع والمؤانسة ج١ ص ٧٤

يسيراً جداً إذا قيس بما قدمه العرب للعالم من ثقافة ابتكروها وحضارة ابتدعوها •

المرحلة الثالثة :

مرحلة الابتكار والابداع والتجديد : وهي أهم هذه المراحل ، ذلك ان العرب استطاعوا ان يضيفوا الى الحضارة العالمية أمورا جديدة ابتكروها لم تكن موجودة قبلهم تمتاز بالعمق والشمول وتتمثل في العلوم ، والآداب ، والفنون ، والاخلاق ، والانظمة ، والقوانين ، وفي حقوق الانسان والحيوان • كما أنهم استطاعوا ان يصلحوا اغلاط اليونان والرومان والهنود وغيرهم من الامم التي سبقتهم في مضمار الحضارة • وقد أضفوا عليها من خصائصهم العربية الأصيلة ما جعلهم اصحاب حضارة انسانية ، وقادة أمم في الشرق والغرب قروناً عديدة •

المرحلة الرابعة :

مرحلة التأثير في الشرق والغرب : حيث كان للحضارة العربية أثر فعّال في أمم الشرق والغرب ، وفي خدمة الانسانية وفيما تركته من نبْل في السجايا ، وسمو في الاخلاق ، وتكريم للانسان ، ورفع لشأن المرأة ، ومنحها حقوقها الاجتماعية ، وأزدهار في العلوم والآداب ، وفيما لقيه هؤلاء العرب من حب الامم التي حضّروها في الشرق والغرب، وفيما قوبلوا به من تنكر امم الغرب لهم بعد ان مدنوها ، وحضروها بثقافتهم ، واخلاقهم وعلومهم قروناً عديدة •

وسنُعْنَى في هذا الكتاب وفصوله ببيان الاسس الاصيلة

للحضارة العربية ، وشرح الابتكارات التي تثبت لنا « اصالة الحضارة العربية » في شتى الميادين العلمية والادبية والفنية والانسانية ، وبقاءها مصدر الالهام والقوة للعرب • وسنذكر — للبرهنة على ذلك — ان عدداً كبيراً من العلماء الغربيين ، وعقلاء الاوربيين زاروا بلاد العرب ، وديار الاسلام في فترات مختلفة من الزمن ودرسوا احوال العرب والمسلمين عن كثب في ظروفهم المختلفة وحياتهم المتطورة فجذبهم الاسلام في قوته الذاتية فدافعوا عنه ، او آمنوا به واعتنقوا مبادئه أمثال : هنري دكاستري De Castries في كتابه « اوربة والاسلام »[٢] • واللورد هدلي الانكليزي في كتابه « ايقاظ الغرب للاسلام »[٣] • وتولستوي الروسي في كتابه « الآفات الاجتماعية وعلاجها »[٤] • ولين پول Lane Poole الانكليزي وناصر الدين بينيه الفرنسي الذي اعلن اسلامه في الجزائر واصدر كتباً مهمة عن الاسلام مثل كتبه : عن « محمد » وعن « الحج » و « اشعة خاصة بنور الاسلام » و « الشرق كما يراه الغرب » • ورينيه جينو الفرنسي أو الشيخ عبدالواحد الذي اسلم وألف كتابه « ازمة العالم الحديث » وكارلايل Carlyle في كتابه « الابطال »[٥] ، ووليم موير في كتابه « سيرة محمد » ومونتيه الفرنسي في كتابه « حاضر الاسلام ومستقبله » ولوثروپ استودارد Lothrop Stoddard الامريكي في كتابه « حاضر العالم الاسلامي » واوجين يونغ Eugène Yung في كتابه « يقظة الاسلام والعرب » ودريپر Draper في كتابه

---

(٢) ترجمة أحمد فتحي زغلول .
(٣) ترجمة اسماعيل حلمي البارودي .
(٤) ترجمة محمد رضا .
(٥) تعريب محمد السباعي .

« تاريـــخ الارتقـــاء العقلي في أوربة » وشـــارل سنـــيوبوس
Charles Seignobos في كتابه « تاريـخ الحضارة » وسيدِيّو
Sèdillot في كتابه « تاريـخ العرب » ولويس ماســـــنيون
Louis Masignon في كتابه « تقويم العـالم الاســلامي »
(Annuaire du monde Musulman)
وقد ألف المنصفون منهم كتباً علمية عديدة ونشروا بحوثاً مستفيضة امتازت بآرائها الصريحة، ومعلوماتها الدقيقة التي اشادوا فيها بحضارة العرب الزاهرة ، وما اسداه الاسلام من خدمات جليلة للعالم • وبحثوا في الحيوية الكامنة في عناصر الحضارة العربية ، وذكـروا مزاياهـا المختلفة ، ودرجة الابتكار والابداع التي وصلت اليها في كل ناحية من نواحي الحياة أمثال المستشرق الدكتور گوستاف لوبـون الفرنسي Gustave Le Bon في كتابه « حضارة العرب » ، والمستشرقة الالمانية الدكتورة زيگريد هونكه Zigrid Hunke في كتابها « شمس العرب تسطع على الغرب » ، والمستشرق الالماني الدكتـور فون گرونباوم Grunebaum في كتابه « الوحدة والتنوع في الحضارة الاسلامية » الذي كتب فصوله عدد من العلماء • والمستشرق الانكليزي هاملتون جب Hamilton Gibb في كتابه « دراسات في حضارة الاسلام » • والمستشرق الهولندي دوزي Dozy في كتابه «تاريخ المسلمين في اسبانية» واميل درمنكهام Emile Dermenghem في كتابه « حياة محمد » •••

ونحن حين ندرس تأريخ الامة العربية وحضارتها بحسب المراحل والادوار التي نوهنا بها انما نرمي الى الاحاطة بأمرين مهمين :

اولهما —

انه كان للعرب منذ اقدم الازمنة كيـان سياسي يتمثل في دول

عريقة ذات قوانين ونظم وآداب وسيادة جدير بنا أن نتفهم نشوءها ، وندرك نماءها وتطورها وعوامل تدهورها وانقراضها • ولم يكن العرب جميعاً كما يدعي البعض بدواً وقبائل متخاصمة لا رابطة تربطهم بعضهم ببعض ولا دولة تجمعهم •

وثانيهما —

انه كان للعرب حضارة عربية ابتكرها العقل العربي ، نبتت جذورها في العصر الجاهلي ثم نمت وازدهرت خلال العصور المختلفة قبل الاسلام وبعده • وقد تغذت هذه الحضارة من نتاج الشعوب الاخرى ولكنها لم تفقد شخصيتها بل حافظت عليها وتمكنت ان تستوعب ما اقتبسته وان تتمثله ، وان تطبعه كله بالطابع العربي وان تضيف اليه من نتاج عقول ابنائها اضافات عقلية مهمة طغت على الحضارات التي تقدمتها ، ثم كان لهذه الحضارة بعد ذلك أثر واضح في شعوب الشرق الادنى والاوسط أولاً ثم في نماء الحضارة الغربية وتطورها فيما بعد •

الفصل الثاني

شخصية الحضارة العربية

يظهر للباحث ان الحضارة العربية تمتاز بشخصية قلَّ أن نجد لها مثيلاً في الحضارات الاخرى • لان فيها ما يملأ الدنيا بحقولها المختلفة وآفاقها الواسعة ، وعناصرها المتعددة • فهي غنية بثروتها اللغوية ، والدينية ، وتراثها العلمي والادبي والفكري ، وبكل مقومات الحياة الحرة الكريمة • وهي غنية برجالها ، وبالامة العربية ، معتزة بامجاد الاسلام ، فخورة بالنبي العربي ، وباصحابه من المهاجرين والانصار الذين خلقوا الامة العربية خلقاً جديداً وكونوا منها أمة اسلامية اضاءت العالم بنور الدين الاسلامي الحنيف • واليك ما يبرز شخصية هذه الحضارة العربية :

أ ـ اللغة العربية :

ليست العربية لغة شعب بدائي ، بل هي لغة أمة على جانب مهم من الحياة الفكرية • وهي صورة حية ، ومظهر بارز لهذه الحضارة العربية ، تتجلى فيها شخصية الحضارة العربية في الجاهلية والاسلام حتى اليوم وذلك بكثرة مفرداتها ومصطلحاتها ، ودقة تعابيرها ، وآدابها ، وعلومها المختلفة • والعربية هي لغة أهل الحجاز واليمن وأقطار الجزيرة العربية كلها وان اختلفت لهجاتها منذ أول وجودهم في دول وامارات قبل المسيح وبعده وقبل الاسلام وفي الاسلام ، واختلاف اللهجات

قديماً هو كاختلاف اللهجات العربية في البلاد العربية اليوم . والفرق بين هذه اللهجات في الجاهلية والاسلام هو انها تباعدت عن بعضها في الجاهلية . أمـا في الاسلام فان القرآن كان يقلل من هذا التباعد . يضاف الى ذلك ان القرآن قد حفظ هذه اللغة ، ووحد بـين الناطقين بها في البلاد العربية كافة . وظل العرب جميعاً حتى اليوم يتفاهمون بها في كل اقطارهم[1] في آسية وافريقية ومهاجرهم في امريكة .

وقوام هذه اللغة في العصر الجاهلي : الشعر العربي الذي يظهر في المعلقات المشهورة ، وفي شعر الشعراء العديدين الذين عاشوا قبل الاسلام ، وفي النثر الذي تتبينه في سجع الكهان ، وخطب الجاهليين ، والحِكَم البليغة ، والامثال السائرة التي أثرت عن حكماء العرب ، فقد كان للعرب كما قال الطبيب الحارث بن كَلَدَة لكسرى « لغة فصيحة ، وألسُن بليغة ، وانساب صحيحة ، واحساب شريفة . يمرق من افواههم الكلام مروق السهم من نبعة الرّام ، اعذب من هواء الربيع ، وألْيَن من سلسبيل المعين »[2] .

وقوامها في الاسلام : القرآن الكريم ، وأحاديث الرسول (ص) وخطبه وخطب أصحابه وخلفائه مـن بعده ، وخطب ولاتهم ، ونثر الكُتّاب ورسائل البلغاء ، وكتب العلماء ، وشعر الشعراء خلال العصور . على أن القرآن الكريم الذي نزل بلغة قريش أهمها جميعاً فهو الذي حفظ اللغة العربية ، وحفظ الوحدة الثقافية في البلاد العربية والاسلامية بحيث لا يزال العرب يفهمون نصوصه ، ومؤلفات الكُتّاب

---

(١) راجع بحثنا عن مزايا الحرف العربي في مجلة الاقلام ج١ السنة الاولى . ص ١٤٥ – ١٥١ .

(٢) عيون الانباء ج١ ص١٠١ وبلوغ الارب ج٣ ص ٣٢٩ .

والمصنفين منذ أربعة عشر قرناً حتى اليوم • ويتكلم العربية حالياً جميع سكان الجزيرة العربية وبلاد العراق وسورية ولبنان والاردن وفلسطين وبلاد مصر والسودان وليبية وتونس والجزائر والمغرب وامم في مدغشقر وزنجبار وجزر الملايو والجنوب الشرقي من الهند ، وفي أقطار كثيرة تقع في اواسط افريقية وفي النيجر والسنغال والصحراء الغربية بين السنغال والمغرب الاقصى ومنها موريتانيا والكمرون والصومال •• هذا عدا من يتكلمها ويكتبها أو يؤلف بها من المسلمين في الهند وتركستان والصين وايران وبلاد الافغان وجاوة •

وقد جاءت في القرآن آيات كثيرة تشير الى نزول القرآن بلسان عربي مبين نذكر منها قوله تعالى :

« انا انزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون » (٣ ــ يوسف) •

« وهذا لسان عربي مبين » (١٠٣ ــ النحل) •

« وانه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذِرين بلسان عربي مبين » (١٩٥ ــ الشعراء) •

« وكذلك انزلناه حكماً عربياً » (٣٧ ــ الرعد) •

« وكذلك انزلناه قرآناً عربيا وصرّفنا فيه من الوعيد » (١١٣ ــ طــه) •

« قرآناً عربيا غير ذي عوج لعلهم يتقون » (٢٨ ــ الزمر) •

« حم • والكتاب المبين أنا جعلناه قرآناً عربيا لعلكم تعقلون » (٣ ــ الزخرف) •

«كتاب فصّلت آياته قرآناً عربيا لقوم يعلمون» (٣ــفصلت)•

« كذلك اوحينا اليك قرآناً عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها » (٧ ـ الشــورى) •

« وهذا كتاب مصدّق لسانا عربيا لينذر الذين ظلموا » (١٢ ـ الاحقــاف) •

«وانه لَذِكْرٌ لك ولقومك وسوف تُسألون» (٤٤ـالزخرف)•

« لقد انزلنا اليكم كتاباً فيه ذكركم افلا تعقلــون » (١٠ ـ الانبيـــاء) •

٢ ـ الاســلام :

والاسلام صورة حية أخرى للحضارة العربية وللانسانية الكريمة، ذلك ان هذا الدين ظهر في الجزيرة العربية وإنْ هي الا فترة وجيــزة حتى آمن به العرب الصُرَحاء ، وتجاوبوا معه في اتجاهاتهم الاصيلة ، وخصالهم الشريفة ، وسجاياهم النبيلة ، ومشــاعرهم العميقة المرهفة فكانوا « •• خير أمة اخرجت للناس •• » الآية • واستطاع العرب ان يجعلوا الدين الاسلامي دستوراً للانسانية الجديدة دعــوا فيــه الى التعارف والتمازج « •• وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا •• » الآية•

وقد حافظ العرب في الاسلام على شخصيتهم ومزاياهم ، وصبغوا كل شيء بالصبغة الانسانية وحرصوا على هذه الصبغة لحضــارتهم ونشروها في العالم فسارعت الامم التي اسلمت الى الدعوة اليها بحماس منقطع النظير ، وهكذا انبثق الاســلام دينا انسانياً عالميا ، وحضارة عربية جديدة ، وعقيدة اسلامية شملت جميع آفــاق الحيــاة الدينية والاقتصادية والسياسية ، والثقافية ، والمهنية ، والفكرية •• الخ •

ولقد تحرر الانســان في هذه العقيدة الاســلامية من الرق ،

والعبودية ، والاثرة والانانية ، ومن نظام الطبقات ، والاجناس ، والتمييز العنصري، والتفريق بين الملونين، ومن عبودية المال والانسان، والآلهة المصطنعة من الخشب والحجر والذهب والبقر والتمر ...

ولا تزال الامة العربية قادرة على الاحتفاظ بتلك الحضارة ، وبعثها حضارة عربية جديدة تُعْنَى بالانسان مرة أخرى في الاتجاهات الجديدة المبشرية على اساس احلال السلام في العالم والحيلولة بين القوتين المتناحرتين في الشرق والغرب لأن العرب لم تزل عناصر حضارتهم وان شئت فقل دياناتهم ولغتهم وفنونهم وآدابهم وعلومهم عامرة تنعم بالحياة ، وتزخر بكل ما يكرّم الانسان ويبوؤه المنزلة التي تليق به .

٣ - الرسول عليه السلام :

لقد كان محمد صلى الله عليه وسلم (..رسول الله وخاتم النبيين..). وقد وصفه القرآن بالآيات الآتية : « وانك لعلى خلق عظيم » ، « ولو كنتَ فَظّاً غليظ القلب لانفَضّوا من حولك » ، وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل » .. وهو الى جانب ذلك يعد العقل المبدع لحضارة الاسلام والفكر العربي الجبار، وهو الذي استطاع ان يكون من العرب أمة جديدة في كل شيء .

وان عظماء العالم ليقفون بخشوع واجلال بين يدي شخصية الرسول العظيمة الفذّة في سمو الخلق ، وكرم النفس ، وفي المرونة السياسية ، والبراعة العسكرية ، والجدال بالتي هي أحسن ، والقدرة على التأثير في الناس ، وفي البيان ، وقوة الحجة ، وفي التواضع والصبر في جهاد دام ثلاثة وعشرين عاماً . وفي حب السِّلم ، وفي النزعة الانسانية التي تقصد لخير العرب والمسلمين والبشرية جمعاء . وكان قدوة أصحابه وأسوتهم الحسنة لانه كان مَثَلَهم الاعلى . ولم نعثر

في تاريخ الامم على شخصية عظيمة كشخصية الرسول الخالدة التي عظمها العرب والمسلمون والاجانب وقدروها حق قدرها .

ولعل المستشرقين وعلماء الغرب من فرنسيين وانكليز وألمان وبلجيكيين وهولنديين وروس ... لم يختلفوا في أمر اختلافهم في أمر الرسول العربي ، والدين الاسلامي فقد تعصب فريق منهم للرسول ورفعوه الى أعلى الدرجات . وأنصفوا الاسلام انصافاً ارضوا به العرب والمسلمين . وتعصب الفريق الآخر عليه ، وتطرفوا في ذمه والتشنيع به فوصفوه باقبح الاوصاف . وتنقصوا الاسلام وجعلوه في الدرك الاسفل من الانحطاط والوحشية . وكانوا بذلك كمشركي الجاهلية ، والغلاة ، وكالشعوبية اواشد غلواً منهم . وأصبحت آراؤهم المتضاربة ، وكتبهم المتناقضة مراجع اساسية للامم الغربية عن تاريخنا منها يستمدون معلوماتهم ، ومنها يصدرون احكامهم القاسية على رسولنا وأمتنا وعلى حضارتنا ومدنيتنا . واود هنا ان انقل طائفة من آراء هذين الفريقين المتناقضين ، واذكر شيئاً مما جاء في كتبهم التي وضعوها عن الرسول (ص) والعرب والمسلمين،واسرد امثلة مما وردفيها من الاخطاء التأريخية والعلمية والمتناقضات العقلية والمنطقية ليطلع عليها المثقفون من العرب والمسلمين وليقفوا بوجه المغرضين من المستشرقين والمفكرين الاوربيين وليذبوا عن تراثهم المقدس وليفهموهم حقيقة محمد (ص) والاسلام ، وما اسداه العرب والمسلمون للحضارة العالمية من الخدمات الجليلة في ميادين السياسة والثقافة والاجتماع والاقتصاد والحرب والفن والفضائل والاخلاق ...

لقد كتب عن الرسول والاسلام كثير من العلماء من أشهرهم :

Weil وقيل Muir وموير Coussin de Perceval

ومار گُلْيوث Margoliouth ونولدِكه Noldekè وشپرنگر Sprenger وسنوك هرگرونييه Snouk Hurgronje ودوزي Dozy وكيتاني Caetani ولامنس Lamens وماسنيون Massignon وكازانوفا Casanova وبيـــل Bell وهوار Huart وهودَاس Houdas ومارسيه Marçais وآرنولد Arnold وگُرِم Grimme وكولدزيهر Goldziher وديمومبين Demombynes ودينيه Dinet واميل درمنكهام Emill Dermenghem وپول برت Paul Bert ومونتيـــه Montet ولوشـــاتليه Le Chateler وگروسيه Grousset وكثير غيرهم(٣) .

اما الأب لامنس Lamens اليسوعي الفرنسي فقد نسب الى الرسول الاكثار من الطعام ، ووصفه بالشره والاسترسال في اللذات البدنية وقــال عنه : انه مات بالبطنة . بينما يقــول بينيه ســانگليه

---

(٣) راجع حاضر العالم الاسلامي ج١ مبحث السيرة النبوية للامير شكيب أرسلان . والمؤلفات العربية الآتية:
«الاسلام والرد على منتقديه » تأليف الشيخ محمد عبده
و «الاسلام والنصرانية » تأليف الشيخ محمد عبده .
و « العروة الوثقى » للســيد جمال الدين الافغاني
و «الرسالة المحمدية » تأليف حسين الجسر
و «المدنية و الاسلام» تأليف فريد وجدي .
و « روح الاسلام » تأليف امير علي الهندي .
و « عبقرية الاسلام » تأليف عثمان بك قبرصلي زاده .

Binet Sanglè عنه أنه كان سيء الغذاء صابراً على الجـوع متقشفاً ، وأنه مات من الضعف • وقد رد Dinet الفرنسي على الاب لامنس وغيره من المستشرقين ممن تنقصـوا الاسـلام ، وفنّد اقوالهم ، وأضعف حججهم وقـال : ان هؤلاء المستشرقين حاولوا ان يهدموا ما اتفق عليه جُمهور المسلمين من سيرة نبيهم غـير أنهم لـم لم يتمكنوا من الاتيان بأي شيء جديد في بحوثهم • ثم ذكر دينيـه : الألم الذي كان يحز في نفس « لامنس » Lamens اليسـوعي بسبب القرآن الذي صرف العرب عـن الانجـيل عندما بدأ العـرب يتذوقون حلاوته ثم قال : ان « لامنس » لم يتمكن أن يغفر للقرآن ذنبه في ادخال مئات الملايين من البشر في الدين الاسلامي ولم يُخْفِ « لامنس » آلامه حين كان يرى الاسلام ينمو وينتشر في العالم بمرأى ومسمع من المبشرين • قـال Dinet ومن أجل ذلك كله حاول « لامنس » ان يشنها على الاسـلام غارة شـعواء ويحمل عليه حملة صليبية ليصرع الاسلام • وختم Dinet كلامه بقوله : ان عقلية « لامنس » لا تتلاءم مع البحث العلمي الذي يجب ان يكون متجرداً من العاطفة ، بعيداً عن الاهواء ، خالياً من الاغراض •

وقال نولدكه Noldekè : كان ينتاب النبي داء الصَّرع وهو سبب الوحي النازل على محمد • امـا دي غويـه De Goeje فقد نفـى داء الصرع عن الرسـول • وفسر شپرنكر Sprenger الوحي عند النبي بكونه نوبات هستيرية • امـا سنُوك هرگر ونييه Snouk Hurgonje فينفي هذه النوبـات الهسـتيرية • اما مار گـُلـْيوث وهو أشد المستشرقين بغضاً للرسول فيقول : ان محمداً كان يمارس الشعوذة ، وكانت له مجالس اشبه بمحافل الماسونية ،وعلامات

يتعارف بها مع اصحابه ، وكانوا يُرخون عَذبة العمامة فوق مناكبهم. وقد رد عليه پاركنسون Parkenson .

ومثّل كثير من الأوربيين الاسلام ومحمداً بصور غريبة ، واحتقروا الاسلام ، وحملوا عليه حملات عنيفة بدون تمحيص ولا دراسة . فقد مثّلوا محمداً رجلاً كاذباً . وعدوا الاسلام عملاً من اعمال الشياطين . وصوروا المسلمين على صورة قوم همج . وقالوا : إن القرآن كتاب من أوله الى آخره مليء بالمستحيلات. وكانوا يزعمون انهم ليسوا بحاجة الى لمناقشة في هراء كهذا . إنهم يقولون كل ذلك في الوقت الذي نستطيع فيه أن نؤكد أنه لا يوجد عالم مسلم أو عامي مسلم يتفوه بكلمة بذيئة على سيدنا المسيح أو أمه العذراء منذ جاء الاسلام حتى اليوم. بينما لم يزل العلماء والكتاب المسيحيون ينتقصون الرسول العربي والاسلام والقرآن ، ويؤذون المسلمين بانواع الاذى ، ويضمرون لهم حقداً وبغضاً شديدين خلا بعض افراد منهم : الفيلسوف الفرنسي Condocet الذي يقول في كتابه «تقدم العقل البشري»: ان ديانة محمد هي أبسط الديانات في قواعدها ، وأقلها استحالة في شعائرها ، واكثرها تسامحاً في مبادئها . ويقول Atterbury بمجرد ما يدخل الزنجي في الاسلام يشعر بكرامة نفسه ، وبعد ان كان يعتقد ذاته عبداً يصبح في نظر نفسه حُراً . ويقول دوزي Dozy الهولندي ان محمداً كان ميالاً الى الصمت والكآبة والهيام في الاودية البعيدة ، ويطيل التأمل في الليالي . أما اميل درمنكهام Emill Dermenghem الفرنسي فهو من أولئك الذين أنصفوا الرسول والاسلام ، وهو كاثوليكي اقام ببلاد المغرب، وخالط المسلمين وعرف الشيء الكثير عن عن دينهم ، وهو ذو وجدان وميل الى الانصاف . ويتبين رأيه بوضوح عندما اقدمت الحكومة الفرنسية في

المغرب على الغاء الشريعة الاسلامية من بين البربر وأخذت تتشبث بالوسائل المتعددة لاخراجهم من الاسلام وتنصيرهم على أسس الظهير البربري اي المرسوم الذي اصدرته فرانسة لتنصير البربر المسلمين فقد كان أميل درمنكهام ممن اقاموا النكير على هذه السياسة اذ رآها مخالفة لمصلحة فرانسة وماسة بكرامتها في العالم • وقد نشر رأيه هذا في الصحف دون خوف أو وجل • ويعتبر كتابه عن « محمد » من أهم الكتب والمراجع التأريخية •

اما الفيلسوف الفرنسي ڤولتير ــ أحد مفكري فرنسة العظماء الذين اوقدوا نار الثورة الفرنسية ــ فله رأي في الرسول (ص) يتلخص بما يأتي : في شهري ايلول وتشرين الاول من سنة ١٧٦٤ م كان الامير النمساوي تسنسدورف Zinzdorf الذي تولى حكومة النمسا في اواخر ايامه قد زار سويسرة في شبابه وزار كلا من ڤولتير وجان جاك روسو ووضع عن هذه الزيارة رسالة محفوظة في دار الآثار الوطنية اطلع عليها المسيو لوڤال الفرنسي وكتب عنها مقالاً في جريدة « الطان » بتاريخ ١٤ تشرين الاول سنة ١٩٢٤م لخصها الامير شكيب ارسلان في مجلة الزهراء في عددها المؤرخ ١٥ صفر سنة ١٣٤٤ هـ جاء فيها ان ڤولتير في أحد مجالسه مع الامير النمساوي تسينسدورف ذكر « لوثر وكلڤن » المصلحين الدينيين العظيمين في المانيا وسويسرة فقال للامير النمساوي : انهما لا يستحقان ان يكونا صانعي احذية عند محمد • وانهما كانا رجعيين مقصرين لأنهما لم يتجاسرا على اعلان الحقائق التي اعلنها « محمد » مع أنه قد تقدمهما في الزمن •

وجاء في كتاب « اظهار محاسن الاسلام » لڤاليري Valgleiri المترجم الى الفرنسية : « أنه مما لا شك فيه أن وصف محمد بتلك الاكاذيب التي كانوا يشيعونها في القرون الوسطى عنه وعن ديانته قد

خف كثيراً في هذا العصر • وصار الناس ينشـدون الحقيقة التاريخية عن محمد وعن الاسلام الذي قلب وجه العالم • ولكن مما لا مراء فيه ان صوت المسلم الحر الذي يحب الله ورسوله ، ويـرى في الاسلام الحسنات التي لا نهاية لها في الدنيا والآخرة لا يزال غير مسموع تماماً• والنادر من الاوربيين يعلم هذا الصوت[٤] » •

ويقـول Montet الفرنسي في كتابه « محمد والقرآن »: إن محمداً كان كريم الاخلاق ، حسن العشرة ، عذب الحديث ،صحيح الحكم ، صادق اللفظ • وقد كانت الصفات الغالبة عليه هي صـحة الحكم ، وصراحة اللفظ ، والاقتناع التام بما يعمله ويقوله • وقـال أيضاً : ان طبيعة محمد الدينية تدهش كل باحث مدقق نزيه القصد بما يتجلى فيها من شدة الاخلاص • وقال : لقد جهـل كثير من الناس محمداً وبخسوه حقه وذلك لأنه مـن المصلحين النادرين الذين عرف الناس اطوار حياتهم بدقائقها • وقال أيضاً : لقد منع الاسلام الذبائح البشرية ، ووأد البنات ، والخمر والميسر • وكان لهذه الاصلاحات تأثير غير متناهٍ في الخُلق بحيث ينبغي أن يعد « محمد » في صـف اعاظم المحسنين للبشرية •

ويقول ويلز Wells الفيلسوف الانكليزي : ان الاسلام ساد وانتشر لانه افضل نظام اجتماعي وسياسي تمخضت به العصور •

٤ ـ الصحابة من المهاجرين والانصار :

وهم أصحاب الرسول (ص) الذين صحبوه ورووا عنه ودافعوا عنه بارواحهم ومهجهم وذبوا عن الاسلام باموالهم وانفسهم • وقد بلغ

---

(٤) حاضر العالم الاسلامي ج٣ ص ٣٩٤ •

عددهم اثني عشر الفاً كما تنص احدى الروايات[٥] وفي روايةأخرى ان عددهم ١١٤ الفاً وهم الذين شهدوا معه حجة الوداع وكلهم رأوه وسمعوا منه بـ (عَرَفَة)• وانك لاتجد قطراً عربياً أو بلداً اسلامياً يخلو من ضريح أو مشهد أو مقبرة تضم رفاتهم •

وقد قال الله تعالى في النبي وأصحابه كثيراً من الآيات نذكر منها الآيات الاتية :

« لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، عزيز" عليه ما عَنِتُّم ، حريص عليكم ، بالمؤمنين رؤوف رحيم » (١٢٨ ــ التوبة) •

« لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من انفسهم يتلو عليهم آياته ويزكّيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبلُ لفي ضلال مبين » (١٦٤ ــ آل عمران) •

« كما ارسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون » (١٥٠ ــ البقرة) •

« محمد رسول الله والذين معه اشدّاء على الكفار رحماء بينهم تراهم رُكّعاً سُجداً يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، سيماهم في وجوههم من اثر السجود •• » (٢٩ ــ الفتح) •

« ان الذين يغُضّون اصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم » (٣ ــ الحجرات)•

« والمؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهَوْن عن المنكر ويقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ويطيعون الله

---

(٥) العواصم من القواصم ص٢٤٣ .

ورسوله اولئك سيرحمهم الله ان الله عزيز حكيم » (٧١ ـ التوبة) •
« اولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة واولئك هم المهتدون » (١٥٧ ـ البقرة) •
« الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله باموالهم وانفسهم اعظم درجة عند الله واولئك هم الفائزون » (٢٠ ـ التوبة) •
« يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم » (٢١ ـ التوبة) •
« اولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون » (٦١ ـ المؤمنون) ••• الخ •
وقال (ص) : « المهاجرون والانصار بعضهم اولياء بعض »•
ويقول الشهرستاني[٦] : « قد شهدت نصوص القرآن على عدالتهم والرضا من جملتهم قال الله تعالى : « لقد رضي الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة » وكانوا اذاك الفا واربعمئة • وقال تعالى ثناء على المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان : « والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه » • وقال : « لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والانصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة » وقال : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض •• » «وفي ذلك دليل على عظم قدرهم عندالله وكرامتهم ودرجتهم عند الرسول ص » •

٥ ـ الامة العربية :

والامة العربية هي الامة التي ينتسب اليها الرسول الاعظم

---

(٦) الملل والنحل ص١٢٣ـ١٣٤ •

والمهاجرون والانصار وبقية العرب في الجزيرة العربية وفي خارجها . وقد اعتبروا مادة الاسلام فيهم نزل القرآن الكريم ، واليهم تحدث الرسول (ص) في حديثه ، ومعهم كان جداله ، ومناقشته ثلاثة وعشرين عاما من لدن مبعثه حتى التحاقه بالرفيق الاعلى . ومن هؤلاء العرب المسلمين كان الفاتحون الذين فتحوا بلاد الانبراطوريتين : الساسانية، والبيزنطية في خلافة الراشدين والامويين . وجاهدوا اعداءهم باموالهم وانفسهم في سبيل اعلاء كلمة الله ، ونصرة الاسلام . ومنهم كان القادة ، والساسة ، والخلفاء ، والمشرّعون ، وحملة العلم . وفيهم ظلت الرياسة والسيادة طَوال عصر الراشدين ، والامويين والعصر العباسي الاول . وهم الذين كونوا المدنية العربية والامجاد الاسلامية . وقد عدّهم الله تعالى خير الامم ، وأشرفها نسباً اذ جعلهم شهداء على الناس . (×)

وقد اصبحت لفظة «العرب» عَلَماً على الامة العربية وعلى جزيرتهم.

وفي هؤلاء العرب المسلمين يقول الله تعالى :

« كنتم خير امة اخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله » (١١٠ ــ آل عمران) . وروي ان هذه الآية نزلت في المهاجرين الذين هاجروا مع النبي من مكة الى المدينة (مسند احمد ج١ ص ٣٥٤) .

« وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيدا ... » (١٤٣ ــ البقرة) .

«وان هذه امتكم أمةً واحدة وأنا ربكم فاتقون» (٥٢ــ المؤمنون)

وفيهم قال الرسول صلى الله عليه وسلم احاديثه الآتية :

« من سب العرب فاولئك هم المشركون[٧] » رواه محدّث بلخ

(×) تفسير ابن كثير القرشي ج١ ص ١٩٠

(٧) الخطيب البغدادي ج١٠ ص ٢٩٥ .

في عصره عبدالرحمن أبو القاسم الزاهد البلخي المتوفى سنة ٣٥٥ هـ بالسند عن انس بن مالك الانصاري عن عمر بن الخطاب عن رسول الله (ص) .

و « ان من اقتراب الساعة هلاك العرب »[٨] روته أم جرير .

و « من أبغض العرب فقد أبغضني »[٩] حدث به أبو الصهباء النَّمِري عن سلمان الفارسي وكانا يسكنان المدائن. قال أبو الصهباء: كنا عند سلمان بالمدائن فقال لنا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اتحبني ؟ قلت : اي والذي لا إله غيره . قال : فلا تبغضني ؟ قلت : ومن يبغضك يا رسول الله ؟ قال : « من ابغض العرب فقد ابغضني ».

وقال عليه السلام : « أنا سيد ولد آدم ، ولدت من خيار من خيار من خيار »[١٠] . يريد انه من قريش وهم خيار العرب ، وان العرب خيار الامم .

ومن احاديثه عليه الصلاة والسلام في الامة العربية قوله :

« لا يكره العربَ الا منافق » رواه علي بن ابي طالب (مسند حمد ج١ ص ٨١) .

و « حب العرب ايمان وبغضهم نفاق » رواه اصحاب السنن .

و « أُحب العرب لثلاث : لأني عربي ، والقرآن عربي ، ولسان أهل الجنة في الجنة عربي » رواه اصحاب السنن أيضاً .

وقال عليه السلام : « من اهان قريشاً اهانه الله » (مسند احمد ج١ ص ٦٤) .

---

(٨) المشتبه للذهبي ص ١٥١ .

(٩) الخطيب البغدادي ج ١٤ ص ٣٦٦

(١٠) رواه اصحاب السنن .

و « اذا عز العرب عز الاسلام ، واذا ذل العرب ذل الاسلام » رواه الطبراني .

وكان الخلفاء يوصون بالعرب خيراً ، فقد اوصى ابو بكر عمرو ابن العاص عندما وجهه الى ارض فلسطين بقوله : « واعلم يا عمرو ان معك المهاجرين والانصار من أهـل بدر فاكرمهم واعرف حقهم . ولا تتطاول عليهم بسلطانك ، ولا تداخلك نخوة الشيطان فتقول : انمـا ولاني أبو بكر لاني خيرهم ، واياك وخدائع النفس . وكن كأحدهم وشاورهم فيما تريد من امرك »

وأوصى عمر بن الخطاب بالاعراب خيراً لانهم أصل العرب ومادة الاسلام . واوصى ان يؤخذ من حواشي أمـوال اغنيائهم فيرد على فقرائهم[11] .

ومن وصاياه لولاته فيهم : « لا تجلدوا العرب فتَذِلّوهم ، ولا تُجَمِّروهم فتفتنوهم » . وقد ذكرت اقوال كثيرة لعمر بن الخطاب في روايات مختلفة[12] .

وأوصى عمر بن الخطاب الخليفة بعده بتقوى الله لا شريك له ، وبالمهاجرين الاولين خيراً ، وان يعرف لهم سابقتهم[13] .

وأوصاه بالانصار خيراً ، يقبل من محسنهم، ويتجاوز عن مسيئهم .
كما أوصاه بأهل الامصار خيراً لأنهم دَرْءُ العدو وحياة الفَيء[14]
وقيل للاحنف بن قيس : ما فيه بقاء العرب ؟ قال : « إذا تقلدوا

---

(11) سيرة عمر ص ٢١٥ .
(12) راجع سيرة عمر بن الخطاب ص ٩٥ .
(13) البيان والتبيين ج٢ ص ٣٥
(14) سيرة عمر ص ٢١٥ و محمد كرد علي ج٢ ص١١٠و١٣٨ .

السيوف وشدوا العمائم ، وركبوا الخيل ، ولم تأخذهم حَميّة الاوغاد » اي ان يعدوا التواهب فيما بينهم ضيماً[١٥] .

٦ ـ التراث الحضاري :

ويتمثل هذا التراث في عديد من الامور منها :

أ ـ المدن والمراكز الحضارية التي انشأها العرب في الجاهلية والاسلام في جزيرة العرب وفي آسية وأفريقية وأوربة خلال العصور ، ويناهز عددها نحو ثلاثمئة مدينة[١٦] .

ب ـ العلماء الذين انجبتهم الامة العربية وبرزوا في كل ناحية من نواحي التمدن[١٧] .

جـ ـ عبقرية العلماء المسلمين الذين نبغوا بفضل العرب والدين الاسلامي فملأوا الدنيا بنتاجهم وخدماتهم .

د ـ عروبة الثقافة الاسلامية في الدول الاسلامية التي اتخذت اللغة العربية لغة لها ودونت علومها بها وتبنت نتاج العرب الحضاري بجميع اشكاله والوانه .

هـ ـ التراث العربي : إن نظرة عجلى على تلك الاعداد الزاخرة من الكتب المخطوطة والالوف المؤلفة من الكتب المطبوعة التي تمتلكها مكتبات البلاد العربية والاسلامية ، والمكتبات الاجنبية العامة والخاصة ، وما ضاع بالاتلاف ، والتغريق والتحريق تطلعنا على

---

(١٥) البيان والتبيين ج٢ ص ٧٠
(١٦) راجع كتابنا «عروبة المدن الاسلامية» .
(١٧) راجع كتابنا «علماء ينسبون الى مدن اعجمية وهم من ارومة عربية » ، وكتابنا «التوقيعات التدريسية» .

ان العرب والمسلمين وضعوا هذا التراث والفوا تلك المؤلفات[18] باللغة العربية ، وبالخط العربي[19] في مختلف البحوث العلمية والادبية والفنية[18] التي تمتاز بالتنوع والعمق والاصالة • كما نجد اعداداً عظيمة من العلماء الذين تخصصوا بعلم أو أكثر وتركوا لنا تراثاً ضخماً وثروة علمية عظيمة كل أولئك يدل دلالة صريحة على رسوخ العرب في الحضارة والتمدن ، وعلى شموخ الحضارة العربية وحيويتها ، وعلى تراث العرب الحضاري الاصيل •

---

(١٨) راجع بحثنا عن « مزايا الحرف العربي » في مجلة الاقلام السنة الاولى • ج ١ ص ١٤٥ – ١٥١

(١٩) راجع كشف الظنون . والفهرست لابن النديم • و « هدية العارفين واسماء المؤلفين والمصنفين » . والخطيب البغدادي. وابن بشكوال . ومجمع الآداب . ومعجم المؤلفين لكحالة .

الفصل الثالث

أهمية العصر الجاهلي في دراسة الاسلام والحضـــارة العربية

لا بد لنا من دراسة الحضارة العربية في البيئة التي نشأت فيهـــا ونمت وترعرعت لان دراسة البيئة في مكانها أمر ضروري لمن يريد ان يبحث في تأريخ الامم ذوات الامجاد العريقة كالامة العربية صـــاحبة الآثار الكثيرة الجليلة في الاقطار التي ازدهرت حضارتها فيها • ومن هنا تتجلى لنا أهمية دراسة العصر الجاهلي والجزيرة العربية التي تعد المكان الاول الذي نبتت فيه الحضارة العربية • ومن هنا أيضا ندرك السر في حث القرآن الكريم على الســـير في الارض ، والتنقيب في البـــلاد ، والاطلاع على اخبار الماضين عياناً ، ودراسة أحوال الانسان وآثاره ، وأسباب انقراض الامم ، وزوال الحضارات قال تعالى :

« قـــل ســـيروا في الارض فانظروا كيف بدأ الخلق » (٢٠ ـــ العنكبـــوت) •

«وقدّرنا فيها السير سيروا فيها ليالي واياما آمنين» (١٨ــسبأ)•

« افلم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين مـــن قبلهم ، ولدار الآخرة خير » (١٠٩ ـــ يوسف) •

« افلم يســـيروا في الارض فتكون لهم قلـــوب يعقلون بهـــا » (٤٦ ـ الحج) •

« او لم يســيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشَدَّ منهم قوة » (٩ ـــ الروم) •

« افلم يسيروا في لارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم » (٨٢ ـــ غافر) • « قــد خلت من قبلكم ســنن فسيروا في الارض » (١٣٧ ـــ آل عمران) • « قل سيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » (٣٦ ـــ النحل) • « قل ســيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين » (٦٩ ـــ النمل) •

يضاف الى ذلك أن العرب حاولوا ان يجمعوا أخبار العرب من البادية وجدّوا في الطلب ، واقبلوا على جمع الشعر الجاهلي ومفردات اللغة العربية من افواه الاعراب •

فالباحث مثلاً في لاحكام التي وردت في القرآن الكريم ، والسنة النبوية ، وما استنبط الفقهاء والقضاة ، من فتاوى واقضية واحكام ، يجد صلة وثيقة باحوال العرب في الجاهلية ، وعلاقة قوية بحضارتهم• ولذلك كان لزاماً على المفسرين والمحدِّثين والفقهاء ومؤرخي الاديان والتشريع الاسلامي والحضارة العربية •• ان يُعنَوا بدراسة العصر الجاهلي عناية كبرى مــن جميع نواحيه ، وان يتفهموه تفهماً صحيحاً ليقفوا على ما كان فيه من تعقيدات وملابسات كانت سبباً مهما في نزول النصوص القرآنية المختلفة والآيات الناسخة لبعض الاحكام ، وعاملاً قويا في وجود السنة النبوية ، والمذاهب الفقهية المختلفة ، والتشريعات العديــدة •

لقد جــاء الاسلام وفي العرب عُرْف وتقاليد ، وأنظمة قبلية، ومناسك وشعائر منها الضار للمجتمع كالشرك وعبادة الاوثان، والوأد، والقتل ، والربا ، وانتهاك الحرمات •• ومنها النافع للمجتمع كالوفــاء بالعهد ، والنجدة ، والامانة ، والتحكيم واكــرام الضيف وقِراه ،

والعفاف ، وصلة الرحم ، والجود ، والذمام ، والاعانة على النوائب.

إذا عرفنا ذلك كله ادركنا السر الذي جعل الرسول (ص) لا ينسخ كل ما كان عند العرب بل دعا قومه الى ترك الضار منه ورفضه رفضاً باتا . وفي الوقت ذاته أقر الحسن النافع من هذه العادات ، وعدل البعض الآخر منها ، وصقله وهذبه . ثم جاء بامور جديدة لم يكن للعرب بها عهد . وبذلك يكون الاسلام قد راعى الى حد بعيد عادات العرب وتقاليدهم والعرف الذي كان سائداً عندهم . وتمكن أن يعالج نظام مجتمعهم معالجة جذرية واستطاع ان يأتي بنظام جديد يرمي الى تكوين دولة تستند الى الانظمة والقوانين والدساتير التي جاءت بها الشريعة الاسلامية .

قال محمد بن السائب الكلبي : كانت العرب في جاهليتها تحرم اشياء نزل القرآن بتحريمها . كانوا لا ينكحون الامهات ولا البنات ولا الخالات ولا العمات وكان اقبح ما يصنعون ان يجمع الرجل بين الاختين او يخلف على امرأة ابيه وكانوا يسمون من فعل ذلك الضيزن[1] .

ولما كان الاسلام قد جاء اولاً لابادة الشرك ، والقضاء عليه ، واحلال التوحيد فانه لذلك لم يتساهل مع مشركي العرب ولم يقبل منهم الا الاسلام .

ويمكننا ان نقرر أن ما جاء به الرسول(ص) من أمر التوحيد والايمان بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر .. إنْ هو الا امتداد لما جاء به الانبياء والرسل من قبله نوح وابراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام كما في الآيات الآتية : « شَرَعَ لكم من الدين ما وصَّى به نوحاً ، والذي أوحينا اليك ، وما وصَّينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيمُوا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كَبُرَ على المشركين ما تدعوهم اليه ، الله يجتبي اليه

---

(1) هو الذي يزاحم أباه في امرأته .

مَنْ يشاء ، ويَهْدي اليه من يُنيب » (١٣ ـ الشورى) • « انا اوحينا اليك كما اوحينا الى نوح والنبيين من بعده ، واوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط وعيسى وايوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داودَ زبورا • ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ، ورسلاً لم نقصصهم عليك ، وكلّم الله موسى تكليماً • رُسُلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حُجّةٌ بعد الرسل ، وكان الله عزيزاً حكيما » (١٦٣ ـ ١٦٥ ـ النساء) •

« وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا واوحينا اليهم فعل الخيرات وإقامَ الصلاة وايتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين » (٧٣ ـ الانبياء) •

« وما ارسلنا قبلك من رسول إلا نُوحي اليه أنه لا إله الا انا فاعبدون » (٢٥ ـ الانبياء) •

ومما لا شك فيه ان دعوة الانبياء من لدن آدم الى الرسول الاعظم (ص) تتحد في المبدأ وهو « التوحيد » ولا تختلف الا في الجزئيات والطقوس والتحريف الذي اصاب اليهودية والمسيحية • وان الله تعالى بعث نبيه محمداً (ص) ليتمم مكارم الاخلاق التي جاء بها الانبياء قبله • قال تعالى :

« وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم •• » (١٤ ـ الشورى) •

« ان الدين عند الله الاسلام ، وما اختلف الذين اوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ••• » (١٩ ـ آل عمران) •

« من الذين هادوا يحرّفون الكلم عن مواضعه ويقولون : سمعنا وعَصَيْنا ، واسمع غيرَ مُسْمَع ، وراعِنا ليّاً بألسنتهم وطعناً في الدين ولو أنهم قالوا : سمعنا وأطعنا واسمعْ وانْظُرْنا لكان خيراً لهم وأقومَ ، ولكنْ لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً » (٤٦ ـ النساء) •

« وما قَدَروا الله حقَّ قدره اذ قالوا : ما انزل الله على بشر من شيء ، قل : من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً ، وعُلِّمْتُم ما لم تعلموا انتم ولا آباؤكم ؟ قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون » (٩١ ـ الانعام)

« فبما نَقْضِهِم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسيةً يحرفون الكلم عن مواضعه، ونَسُوا حظا مما ذُكِّرُوا به، ولا تزال تَطَّلعُ على خائنة منهم الا قليلا منهم فاعف عنهم واصفح ان الله يحب المحسنين » (١٣ ـ المائدة) •

« ومن الذين قالوا إنا نصارى اخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة ، وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون » (١٤ ـ المائدة) •

« تالله لقد ارسلنا الى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان اعمالهم فهو وليهم اليوم ولهم عذاب أليم • وما انزلنا عليك الكتاب الا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه ، وهدىً ورحمة لقوم يؤمنون » (٦٣-٦٤- النحل) •

والاسلام يعترف بالكتب السماوية : صحف ابراهيم ، والتوارة، والزبور والانجيل ويهيمن عليها :

« وانزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما انزل الله ، ولا تَتَّبِع اهواءهم عما جاءك من الحق ، لكلٍ جعلنا منكم شرعةً ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم امة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات ، الى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون » (٤٨ ـ المائدة) •

« ألم يأن للذين آمنوا ان تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من

الحق ، ولا يكونوا كالذين اوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الامد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون » (١٦ ـ الحديد) .

« قل يا أهل الكتاب تعالَوْا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ، ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا باننا مسلمون » (٦٤ ـ آل عمران) .

اننا اذا عرفنا ذلك كله ادركنا أهمية الدراسات الاجتماعية والتشريعية للعصر الجاهلي ، ومعرفة الاديان التي سبقت الاسلام ، والتطور العقلي للبشرية وموقف المسلمين من الانبياء ومن أهل الكتاب لتنظيم علاقاتهم السياسية والمالية والاجتماعية معهم .

وعلى هذا يمكننا ان نقرر ان دراسة العصر الجاهلي مهمة وجد ضرورية للدراسات الاسلامية ، وللباحثين الذين نذكرهم فيما يأتي :

١ ـ المؤرخ :

لما كان الرسول (ص) وكُتّاب الوحي البالغ عددهم ٤٢ كاتبا وأكثر الصحابة من الرجال والنساء قد عاشوا في العصر الجاهلي وكان عددهم يربو على اثني عشر ألف صحابي من المهاجرين والانصار في رواية أو ١١٤ ألفاً في رواية أخرى كما اسلفنا . ولما كانت تربطهم بهذا العصر شتى الروابط فقد وجب على المؤرخ الذي يؤرخ تاريخ الاسلام ان يُعْنَى بتاريخ العصر الجاهلي لمعرفة رجاله وحروبه ، والاحلاف التي عقدت ، وطرق التحكيم التي اتبعت لحل الخصومات وغيرها من الامور التي شارك فيها الرسول (ص) وكثير من اصحابه كحرب الفِجار وحلف الفضول .. هذا الى جانب البحث في تاريخ الاقوام التي ذكرها القرآن كعاد وثمود وقوم نوح وقوم لوط

واصحاب الأيكة والتبابعة وأخبار سبأ وبني اسرائيل واصحاب الاخدود وحروب داود وجالوت وعلاقة سليمان بملكة سبأ ، واخبار الفراعنة والروم والفرس ، والرسل والانبياء والحواريين وذي القرنين ، واخبار ابراهيم الخليل في العراق ومصر والحجاز ... الخ ، وتاريخ الاسلام السياسي والحضاري ، والجهود التي بذلت للتوفيق بين مآثر الاسلام وما حققه من حضارة وبين الحضارات العريقة للاقوام الذين اعتنقوا الاسلام والذين كانوا يشعرون ان الاسلام قد رفع من مكانتهم ، وأعلى منزلتهم في الدارين .

٢ ـ الجغرافي :

أما الجغرافيون فينبغي ان يبحثوا في المواقع التي جرت فيها الحروب على عهد دول الجزيرة العربية وفي حرب داحس والغبراء وحرب الفجار والطرق التي سارت فيها الجيوش في عصر الرسالة والاماكن التي وقعت فيها كبدر واحد ... والمواقع التي وقعت فيها حروب الردة في خلافة ابي بكر ، والاقطار العربية التي انتشر فيها الاسلام، والطرق التجارية وطرق القوافل التي كان العرب يتبعونها قبل الاسلام ، والبلدان التي تولّى حكمها ولاة الرسول ، وعمال الخلفاء. ولذلك ينبغي على الجغرافيين ان يرجعوا الى جغرافية الجزيرة في العصر الجاهلي لمعرفة هذه المواقع والمسالك والبلدان والحصون والقلاع ، وطبيعة الارض ، والمناطق البحرية والجبلية والصحراوية ، التي كان يسكنها العرب ، وللاطلاع على الجغرافية البشرية للامة العربية واحوال السكان ومعايشهم .

٣ ـ المفسر :

ولما كان في القرآن الكريم آيات كثيرة بحثت في شؤون

الجاهلية لا يستطيع المفسر معرفتها الا بالوقوف على اسباب النزول ومعرفة أحوال العرب قبل الاسلام . فقد اسلم مثلاً بعض من كان له نساء كثيرات في الجاهلية فأمر الاسلام هذا وضرباءه ان يمسكوا اربعا منهن ويتركوا سائرهن . فاذا اراد المفسر ان يفسر قوله تعالى « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع .. الآية » فانه لا يستطيع تفسير هذه الآية الا اذا رجع الى سبب نزولها والاحوال التي كانت متبعة عند عرب الجاهلية في نكاح الاستبضاع ونكاح الذواق ونكاح الرهط أو المشاركة تلك الا نكحة التي نرى أنها كانت نادرة جداً أو معدومة لانها لا تتفق وتقاليد العرب في الحِرْص على العِرْض والحفاظ عليه ، ولما عرفوا به من شدة الغيرة والحمية ، واشتهروا به من العزة والشرف . ويظهر ان القرآن ، لم يشر اليها لعدم اهميتها وانما اشار الى نكاح « المَقْت » وهو التزوج بزوجة الاب بعد موته بقوله « ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء الا ما قد سلف انه كان فاحشة ومَقْتاً وساء سبيلا » (٢٢ ــ النساء) .

ومثل ذلك يقال في الظّهار والايلاء والطلاق . وقد أقر الاسلام الطلاق عند تباين الاخلاق ، ووجود البغضاء . وحرّم الطلاق بلا سبب باعتبار أنه إضْرار . والغي الظهار قال تعالى « ان الذين يظاهرون من نسائهم ماهنّ امهاتهم إنْ امهاتهم الا اللاتي ولَدْنَهم » . وحدد الايلاء باربعة أشهر وهي المدة الكافية لردع الزوجة بحيث لا تستطيع الصبر عن زوجها أكثر من هذه المدة الا بمشقة بالغة « للذين يُؤْلُون من نسائهم تربُّصُ أربعة أشهر فان فاءوا فان الله غفور رحيم (٢٢٦ ــ البقرة) وان عزموا الطلاق فان الله سميع عليم (٢٢٧ ــ البقرة) . ونهى النبي (ص) عن « الشِّغار[٢] » وهو الزواج بالمقابلة (وهو ما نسميه گصة بگصة) . أي ان يتزوج اثنان كل واحد منهما يتزوج أخت الآخر أو ابنته ... بدون مهر . كما نهى عن نكاح المتعة وهو النكاح الى

اجل معين[٣] وأقر الاسلام التزوج من زوجة المتبنَّى بعد موته أو عند طلاقها منه • وأما المحارم في الجاهلية فهي المحارم نفسها التي حرمها الاسلام بالآية «حُرِّمَتْ عليكم امهاتكم وبناتكم واخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الاخ وبنات الاخت ، وامهاتكم اللاتي ارضعنكم ، وأخواتكم من الرضاعة وامهات نسائكم ، وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن ، فان لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم ، وحلائل ابنائكم الذين من اصلابكم ، وأن تجمعوا بين الاختين الا ما قد سلف ان الله كان غفوراً رحيماً » (٢٣ ـ النساء) • ومثل ذلك يقال عن تفسير الآيات التي حرمت فيها الخمرة او الآيات التى حرم فيها الميسر والانصاب والازلام ••

٤ ـ المحدث :

لما كانت السنة النبوية وهي أحاديث الرسول (ص) وأعماله وتقريراته شرحاً للقرآن الكريم أو تبياناً لآيات القرآن المجملة وحلاً للمعضل منها ، ولما كان الحديث قد حدَّث به الرسول (ص) في مناسبات مختلفة تتعلق ببعض الحوادث السياسية والاجتماعية والاخلاقية والدينية والمالية والعادات والتقاليد الموروثة عن الجاهلية كالسِّدانة والسقاية والرفادة والاشهر الحُرُم ومناسك الحج ، وما لم ينكره الرسول (ص) على العرب في البيع والشراء والنكاح والطلاق لتنقيحها وتهذيبها فقد كان لزاماً على المحدِّثين ان يُعْنَوا بالعصر الجاهلي لمعرفة تلك الحوادث والعادات والتقاليد وسِيَر المحدِّثين ، ومعرفة الوضّاعين والمطعون في اخلاقهم أو نسبهم والمُجَرَّب عليهم شهادة الزور ••

وتعد كتب الحديث من أغنى المصادر لدراسة الحضارة العربية في

العصر الجاهلي ، وما كان للعرب من علاقات بالدول وبالعالم الخارجي يومئـــــذ .

٥ ـ الفقيه :

وإذا كانت الاحكام الفقهية التي وردت في القرآن والسـنة النبوية قد بحثت في الامور الدينية والدنيوية من عادات ومعاملات كان كثير منها شائعا في العصر الجاهلي فقد وجب على الفقهاء ان يرجعوا الى هذا العصر أيضا لمعرفة ما له علاقة بهذه الامور كشؤون التركات والمواريث وأمور اليتامى ، ونظـام الاسـرة ، والعلاقات التجارية ، والامور الاجتماعية كالزواج والطلاق والرق والعتق وحقوق المرأة وما يتعلق بأمر الحروب والقتال ، وما له أثر في المعاملات والبيـوع كبيع الفحش والغَبن والحكر والربا والشفعة والاجارة والاعـارة والهبة والكفالة والرهان والودائع والقروض .. وغير ذلك مما يكوّن رصيداً ضخماً في الاحوال الشخصية والامور التجارية . ولذلك كان واجب الفقهاء ومن يتصدى لدراسة الشريعة الاسلامية ان يحيطوا علماً بكل ذلك وان يلموا المامة كافية بتاريخ العرب قبل الاسلام ليعرفوا مدى تغلغل هذه الامور في هـذا المجتمع العربي ، وليقفوا على ما أحـدثه الاسلام وما حرمه ، وعلى ما استبدله أو عدله أو غير منه ببطء وتدرج أو بسرعة وبدفعة واحدة تبعا لهذا التغلغل والتمكن اللذين حظيت بهما تلك العادات والتقاليد .

٦ ـ مؤرخ الاديان :

لقد وردت في القرآن الكريم أخبار عن الديانات السـماوية كالديانة اليهودية والمسيحية كما وردت فيه أخبار تتعلق بديانة الصابئة وقوم ابراهيم الخليل ، والنبي يونس وقومه وأمور كثيرة تتعلق بالشرك

وعبادة الاوثان والاصنام وأماكن العبادة واسماء عدد من الآلهة التي كان يعبدها العرب قبل الاسلام كاللات والعُزّى ومناة الثالثة الاخرى .. والاديان المختلفة التي كانت تدين بها الاقوام والدول في الجزيرة في العصر الجاهلي .

ولا يستطيع مؤرخ الأديان فهم هذه الاديان الا اذا رجع الى العصر الجاهلي ليقف على اصول هذه الديانات عند الملل والنحل المختلفة وعلى أخبار الصوامع والبِيَع والصلوات ، وأساليب العبادة فيها ، ومعرفة الطقوس الدينية التي كان يتبعها العرب عند البيت كالمُكاء وهو التصفير بالفم والتشبيك بالاصابع والنفخ فيها ، والتصدية أي التصفيق . وما كان يعمله الحُمْس والطَّلس والحِلة في الحج من طقوس في أثناء النسك والاحرام والطواف . فالحُمْس وهم قريش وكنانة وجديلة ومن تابعهم في الجاهلية سموا بذلك لتحمسهم في دينهم أو لالتجائهم الى الحَمْساء وهي الكعبة وكانوا يطوفون فيها وعليهم لباسهم في أثناء الاحرام ، وكانوا لا يأكلون من نبات الحرم ولا يظلمون أحداً ولا يخفرون ذمة ، ولا يدخلون من ابواب بيوتهم بل من فتحات في ظهورها . وكانوا يقولون : نحن أهل الحرم لا نخرج من الحرم ونحن الحمس . وكانوا اذا احرموا لا يدخلون بيتاً من البيوت ولا يستظلون بسقف . وفي هؤلاء نزلت الآية : « ... وليس البرّ بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتّقى وأتُوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون » (١٨٩ — البقرة) .

والحلة : كانوا يحرمون الصيد في النسك فقط ولا يحرمونه في الحِل أي خارج الحرم وكان غنيهم يمنح الفقير ماله أو اكثره في اثناء نسكه . وكانوا لا يلبسون الجديد مدة نسكهم . وكان لا يأويهم ظلّ مدة احرامهم . وكانوا اذا دخلوا مكة تصدقوا بأحذيتهم وثيابهم

وطافوا بثياب الحمس لانهم كانوا يعتقدون ان في ثيابهم ذنوبا وآثاماً فان لم يجدوا ثياباً طافوا حول الكعبة عراة، الرجال نهاراً والنساء ليلاً .

أما الطلس فيختلفون عن الحلة لانهم كانوا لا يتعرون في أثناء الطواف حول الكعبة ولا يستعيرون ثياب غيرهم . وكانوا يختلفون عن الحمس لانهم كانوا يدخلون البيوت من ابوابها وليس من ظهورها .

كما ينبغي دراسة الشعوبيين الذين كانوا يكيدون للاسلام والذين احيَوا أدياناً قديمة كانت متبعة في البلاد التي فتحها العرب المسلمون ، والفِرَق الدينية التي تكونت كالسبأية والكيسانية والبيانية أو السمعانية والمغيرية والخطابية والمانوية والمزدكية والزنادقة والقرامطة .. وانتشار فكرة الحلول وهي حلول جزء من الذات الآلهية في بعض الاشخاص الذين أُلِّهوا أو تنبأوا . والمحاولات التي قامت بها بعض الحركات المناوئة للعرب والمسلمين لاحياء امجاد اممهم، واعادة كياناتهم السياسية والقومية التي قضى عليها العرب كما هو واضح عند الفرس وبعض الفِرَق الدينية التي نشأت في العراق في أواخر أيام الامويين وفي خلافة العباسيين .

٧ - مؤرخ الادب العربي :

ولما كان القرآن الكريم قد نزل بلغة قريش العربية فقد كان لزاماً على مؤرخ الأدب العربي ان يُعْنَى بلغة قريش واللهجات العربية الاخرى التي أحتوى القرآن على كثير من كلماتها . كما ان عليه ان يرجع الى العصر الجاهلي ليعرف أصول اللغة العربية التي نزل بها القرآن وشعر الشعراء الذين قاوموا الاسلام أو دافعوا عنه وذبوا عن حياضه . وعليه ان يعرف الخطباء والحكماء الذين اشتهروا بحِكَمِهم البليغة وأمثالهم السائرة ، والكُهّان الذين عُرفوا باسجاعهم لان ذلك

كله يكون ثروة ادبية ضخمة في العصر الجاهلي لا يستطيع الباحث بدونها تدوين الآداب العربية وتاريخها ومعرفة اساليبها البلاغية واللهجات والهنوات التي كان بعض القبائل يتكلمون بها ولا يزال بعضها منتشراً في أكثر البلاد العربية بعد أن انتشرت بواسطة القبائل العربية التي سكنت البلاد الاسلامية المفتوحة . كما ان عليه ان يعرف العربية الجنوبية التي كانت متداولة في دول اليمن وحضرموت لاسيما بعد أن حلت رموز الخط « المُسْنَد » الذي كانت تكتب به .

٨ ـ المشرع المالي والاقتصادي :

لقد شدد القرآن الكريم والسنة النبوية على تحريم الرِّبا الذي كان يؤخذ في العصر الجاهلي اضعافاً مضاعفة كما شدد الاسلام على التطفيف والمُطَفّفين . وأتى الاسلام بتشريعات اقتصادية دقيقة تتعلق بالتركات والمواريث وقسمتها وقد بنيت هذه التشريعات على الانظمة التي كانت سائدة في الجزيرة العربية فحرم الاسلام بعضها كالربا واحل البيع ونظم الضرائب والمواريث باساليب جديدة تتفق وروح الاسلام كالغنائم والانفال والزكاة والخراج والاخماس والاعشار . وكذلك ينبغي على من يبحث في التشريع المالي والاقتصادي في الاسلام وفي الضرائب الشرعية التي كان يدفعها المسلم ان يرجع الى ما كان متبعاً في العصر الجاهلي سواء كان ذلك في الدول العربية التي كانت في الجزيرة أم في مجتمعاتها الحضرية والبدوية . كما ان عليه ان يبحث في أصول التجارة التي ذكرها القرآن والتي أشتهر بها العرب في رحلاتهم الى الاقطار المجاورة وايلاف قريش وايلافهم رحلة الشتاء الى اليمن ورحلة الصيف الى الشام واسواقهم ومواسمهم ، والاتجار بالتوابل والبخور وتزويد معابدهم ومعابد الامم المجاورة لهم بها . وكيفية التعامل بالدينار البيزنطي والدرهم الفارسي ، وأثر مكة في تصفية هذين النقدين .

٩ ـ الآداب والنظم الاجتماعية :

لقد وضع الاسلام تشريعات اجتماعية كانت تهدف الى ايجاد

مجتمع اسلامي تنعدم فيه الفوارق الطبقية ، وتسود فيه الحريةوالاخاء والمساواة ، وتصان فيه الحقوق العامة والخاصة . وقد تناولت هذه التشريعات أسباب الحياة وشؤونها المختلفة كآداب المخاطبة وآداب الزيارة والطعام والمعاشرة الزوجية ، والحشمة في اللباس وغير ذلك من الآداب العامة كما تناولت الحرية الفردية والحريات العامة ، وبحثت في الاسرة والزواج والطلاق . والى جانب ذلك فقد الغى الاسلام كثيراً من العادات السيئة التي كانت متبعة في العصر الجاهلي ولذلك ينبغي على من يبحث الآداب الاجتماعية في الاسلام ان يبدأ أولاً بما كان متبعاً من ذلك في العصر الجاهلي من آداب ونظم اجتماعية ...

١٠ ـ النظم العسكرية :

لقد كان للعرب في الجاهلية بعض الانظمة والقواعد الحربية التي كانوا يتبعونها في سلمهم وفي حروبهم كحرب داحس والغبراء وحرب الفِجار ، وفي احلافهم كحلف الفضول وحلف لُعَقَة الدم ، وحلف المُطَيَّبين وفي معاملة الاسرى والرقيق ، والقتال في الاشهر الحرم : ذي القعدة وذي الحجة والمحرم ورجب الفرد ، وفيما يعرف بالنَّسيء الذي كانوا يُحِلّونه عاما ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله « انما النسيء زيادة في الكفر ، يُضَل به الذين كفروا ، يحلونه عاماً ، ويحرمونه عاما ليواطئو عدة ما حرم الله ، فيحلوا ما حرم الله ... » (٣٧ ـ التوبة) . وكانت لهم بعض الانظمة العسكرية في الدول العربية الجنوبية والدول العربية الشمالية . ولما جاء الاسلام شرَّع الحرب لدفع الاذى عن الناس والدفاع عن النفس ووضع قواعد للسلم وشروطاً للحرب ، واحترم العهود والمواثيق ، وبذل جهوداً مشكورة في سبيل العتق وفك الرقاب . وعني بالجيوش وبالسلاح وآلات القتال . لذلك ينبغي على من يبحث في الشؤون العسكرية في الاسلام ان يرجع الى ما كانت عليه الحال عند عرب الجاهلية قبل الاسلام .

١١ ـ الفنون والمهن والصناعات :

ولما كان للعرب في العصر الجاهلي مهارة فنية في بناء السدود وفي الصناعة في بلاد اليمن وحضرموت ، وفي نحت الآلهة من أصنام وأوثان • ولما كانوا ينحتون من الجبال بيوتا ، ويبنون المدن ، ويسكنون في القصور الشامخة ، والبيوت المزخرفة ، والجنان الجميلة في سبأ وفي الطائف ويعيشون في صروح اليمن وقصورها ذات الطوابق المتعددة كقصر غمدان في نجران ، ويتخذون المصانع والكهاريز والقلاع والصياصي والآطام • ويمتهنون حرفا مختلفة فقد وجب على من يبحث في تاريخ الفنون والمهن عند العرب في العصور الاسلامية أن يدرس ضرب النقود وطبع صور الملوك عليها ونقش الثياب المرجّلة التي تظهر فيها صور الرجال والمخيّلة التي عليها صور الخيل والمُعيّنة اذا ظهرت فيها نقوش صغيرة تشبه عيون الوحوش والمهلّلة التي فيها تصاوير وزخارف كالاهلة والمطيّرة التي فيها صور الطيور(٤) الى حياكة البرود، ودباغة الجلود وصناعة السيوف والدروع والمغافر • وأن يرجع دوماً الى أصولها في الجزيرة العربية أيام العصر الجاهلي ليستطيع تفسير الظواهر الفنية والمهنية عند العرب بعد إسلامهم وبخاصة في خلافة الأمويين والعباسيين •

١٢ ـ مؤرخ الآثار :

واذ كان القرآن الكريم قد حث على السير في الارض للاطلاع على آثار الطغاة وسيَر الظالمين ، وأعمال الملوك العادلين ، فقد وجد في جبابرة العصر الجاهلي وعمالقته وتبابعته ، وفي العتاة من سكان الجزيرة العربية ما ينبغي معرفته لفهم العصر الجاهلي ، وما ترك هؤلاء الجبابرة من آثار كأرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد ، ومدائن صالح التي كان أهلها ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين ، وسد

(٤) راجع التصوير عند العرب لتيمور باشا ص ١٢ ـ ١٥ .

مأرب العظيم في مدينة سبأ والجنتين اللتين كانتا على يمينه وشماله ، وجنان الطائف التي كانت مصيفاً للعرب يشبه « الريفيرا » في جنوب فرانسة كما يقول الأب لامنس الفرنسي . كل ذلك يوضح العلاقة بموضوع الآثار التي يُعنَى بها العلماء في الوقت الحاضر وتعتبر دراستها في العصر الجاهلي من الامور التي تنير السبيل أمام الآثاريين من العرب وغيرهم في الاسلام والجاهلية ، وبخاصة النقوش والكتابات في الدول العربية الجنوبية .

١٣ ـ الأبحاث في تاريخ المرأة :

وقد عُني الاسلام بالمرأة كثيراً وأوصى الرسول (ص) في إكرامها، والرفق في معاملتها . وجعل نصيبها في الميراث والتركات أكثر بكثير من النساء الغربيات ، كما جعل لهن من الحقوق مثل الذي عليهن من الواجبات ومنحها حرية واسعة . وألغى الاسلام وأد البنات الذي كان معروفاً عند بعض القبائل في الجزيرة العربية وقد أقدموا عليه مخافة السبي والتعدي على العرض في أثناء الحروب كما حرم قتل الأولاد مخافة الفقر أو تقرباً من الآلهة حين كانوا يقربون اليها أعز من عندهم . وساوى الاسلام بين المرأة والرجل في كثير من الحقوق كما قرن اسمها دوما في القرآن مع الرجل في الدنيا وفي الجنة . قال تعالى: « ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات ... » (٣٥ـ الاحزاب). وقال « يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم » (١٢ ـ الحديد) « ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة» (١٢٤ ـ النساء) « والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعدّ اللهُ لهم مغفرة وأجراً عظيماً » (٣٥ ـ الاحزاب) « هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون » (٥٦ ـ يس) « ادخلوا الجنة انتم وأزواجكم تُحْبَرون » (٧٠ ـ الزخرف) ..

ولذلك كان لا بد من دراسة العصر الجاهلي لمعرفة مكانة المرأة

العربية فيه وما نالت من حقوق • كما نظّم الاسلام العلاقات الجنسية وحرم الفوضى والنظرة الحيوانية التي كانت في الجاهلية • وعدّ الزواج نصف الدين واكمالاً له • ومن هنا كان لزاماً على الباحث في شؤون المرأة في الاسلام ان يُعْنَى بدراسة احوالها في العصر الجاهلي •

١٤ ـ التاريخ الحضاري :

وحيث ان الحضارة العربية تمتد جذورها في العصر الجاهلي نحو عشرين قرنا فلا بد من دراسة المدنية العربية في هذا العصر بالاستناد الى ما جاء في القرآن من آراء وأفكار تدل على عقلية عرب الجاهلية وطبيعة مجتمعهم وبالاستناد الى الاحاديث النبوية التي تمثل جوانب مهمة من تاريخ تحضر العرب الاقتصادي والاجتماعي والفكري فمثلاً أن عبدالله بن مسعود روى ان الرسول (ص) لعن الواصلة والمستوصَلة، والواشمة والمستوشَمة ، والنامصة والمتنمِّصة ، والقاشرة والمقشورة والمتفلِّجة[٥] • مما يدل على بلوغ الحضارة العربية مبلغاً كبيراً • ومما يدل على رقي هذه الحضارة ايضاً استعمال العرب للغناء والموسيقى نظرا للتلازم الشديد بين الشعر والغناء ، كما استعملت المغنيات المزاهر والدفوف والقصبات وغيرها من المعازف •

---

(٥) الواصلة: التي تصل الشعر بشعر النساء للزينة، والمستوصلة: التي يوصل لها الشعر . والواشمة : التي تعمل الوشم في وجه غيرها على هيأة شامة بكحل أو مداد . والنامصة التي تزيل من شعر الحاجب حتى تجعله رقيقا. والقاشرة : التي تقشر وجهها أو وجه غيرها بالزعفران أو الورس أو غيرهما ليصفو لون الوجه ، والمتفلجة التي تبرد اسنانها لتكون صغيرة او لتفارق بينها .

الفصل الرابع

مقارنة بين الحضارة العربية والحضارات القديمة

يستطيع الباحث في الحضارة العربية التي شرحنا اطوارها وأثبتنا أصالتها في أبواب هذا الكتاب وفصوله المختلفة ، أن يقارنها بالحضارات العالمية الكبرى التي ازدهرت في القرون الاولى في الهلال الخصيب ، ومصر ، وفارس ، والهند ، والصين ، واليونان ، وبلاد الرومان من حيث الاهمية ، والابداع ، والتنوع لان العرب يعدون من اخصب الامم انتاجا ، وأعظمها تراثاً . لذلك يمكننا أن نعد حضارة العرب من حيث اصالتها كحضارة السومريين والاكديين ، والبابليين ، والآشوريين والفينيقيين ، والكنعانيين ، تلك الحضارات التي وجدت في الهلال الخصيب في القرون الاولى ، وكحضارة الفراعنة في وادى النيل .وقد أمتازت كلها بمخترعات ومبتكرات لم تكن معروفة قبلهم . فالاساليب المعمارية ، والطرز الفنية ، والشرائع الدينية قبل حمورابي وبعده ، والالواح والرقم الطينية التي وجدت في بلاد الرافدين بالخطوط المسمارية ولا سيما في مكتبة « آشور بانيپال » ، ونصوص الكتابات الهيروغليفية ، وما أنتجته الحضارة اليونانية ، والرومانية من فلسفة وقوانين ، فأهل العراق القدماء أول الامم التي اخترعت الكتابة في منتصف الالف الرابع قبل الميلاد ، والعرب استطاعوا ان يصنعوا الورق

من مختلف المواد القطنية والقنَّب والكتّان والاسمال البالية ، وبذلك يكون العرب قد ساعدوا كثيرا على انتشار الكتابة . ولولا الورق لظلَّت الكتابة محصورة في الاحجار والرقوق والبَرْدِي . ثم اخترع الأوربيون الطباعة بالحروف المتحركة ، ولولا الورق الذي تفنن العرب في صنعه ونشره في العالم لما كان للطباعة كبير أهمية . ولذلك فـــان الكتابة والورق والطباعة من أهم الامور التى ميزت الحضارة العراقية القديمة وحضارة العرب والحضارة الغربية وجعلتها من الحضـــارات الاصيلة .. كل أولئك يشير الى العقول المبدعة والايدي الماهرة في هذه الامم منذ أقدم الازمنة حتى اليوم .

أما المبتكرات العلمية للعرب في عصورهم المختلفة وبلادهم الواسعة فتدل هي الاخرى على أن الامة العربية قد ابتكرت في الفقه أنواعا من الانظمة والقوانين والتشريعات كما ابتكرت ألوانا من العلـــوم والآداب والفنون تزيد على ما ابتدعته الامم التي سبقتهم في التاريخ . ولا تزال الشواهد على ذلك كثيرة جدا تمثلها آثار العرب الخالدة في الاندلس وشمال أفريقية ، وفي الهلال الخصيب والجزيرة العربية وبلاد المشرق التي حكموها قرونا عديدة ، والمكتبات العالمية الكبرى التي تحتوي على ألوف المخطوطات التي تشهد بحذقهم ومهارتهم في العلوم العقلية والادبية ، والانسانية التـــي تفـــوق ما ابتكره القدماء ولذلك سنُعنى بوجه خاص بما انتجه العرب في كتاب الابداع والابتكار في الحضارة العربية ، وبما اقتبستـــــه امم الشرق والغرب من هـــذا النتـــاج الحضاري .

وزيادة في ايضاح العلاقة بين الحضارة العربية والحضارات القديمة يمكن أن نذكر أن الاخبار والاحداث صارت تدوّن منذ الألف الثالث قبل الميلاد ، كما دوّنت العقود والصكوك والمراسلات . ويلاحظ مثل

ذلك في أوائل الحضارة العربية حيث دَوّن عرب اليمن النصوص المختلفة على الحجر . وعَلّق عرب الحجاز المعلقات المشهورة في الكعبة. ووجدت نصوص مكتوبة في مختلف نواحي الجزيرة العربية. وفي صدر الاسلام كانت عند العرب صحف ورقوق وقراطيس . ثم عرفوا في خلافة العباسيين الورق وأنشأ له الرشيد أول معمل ببغداد، وعمّ استعماله في الشرق والغرب بعد ذلك . وبنى أهل وادي الرافدين ووادي النيل والبلاد التي بين هذين الواديين معابد ومدافن وأضرحة للملوك . وكانت من طبقات متعددة . وجاء العرب بعد ذلك وتفوقوا على من سبقهم بفن البناء الذي يظهر في المساجد والقصوروالمدارس والحصون والقلاع . واخترعت في القرون الاولى الاختام الاسطوانية المنقوشة بصور معكوسة تطبع على الطين فتظهر الصورة الاصلية التي على الختم . والختم القديم يشبه « المُهْر » عندنا . وكانت الاختام تحمل أسماء أصحابها أو مناظر ومشاهد دينية . كذلك تقدم العرب في صنع السكك لتسك بها النقود في دور الضرب في البلاد العربية والاقطار الاسلامية التى أربت على (٢٠٠) دار لِسَكّ النقود الفضة أو الذهب أو النحاس ، ولطبع الاختام والاوسمة أيضا . وارتقى عند الساميين فن النحت الذي يظهر في المدنية البابلية والاشورية والكلدانية والفينيقية ... كما يظهر في المدنية المصرية . ودوّنت الاخبار التاريخية على كثير من هذه المنحوتات .. وبرع العرب فيصنع آلهتهم في الجزيرة العربية ، وقد تعدّدت الاصنام والاوثان في بلاد العرب . وبرع العرب بعد اسلامهم في فن الريازة وعُنوا بالطراز والزخرفة والمقرنصات في الآجر والرخام والخشب والمعدن . ودوّن العرب علومهم على الكاغد وسجلوا وقفياتهم أو كثيراً منها في واجهات المباني الدينية وفوق المحاريب داخل المساجد . وعرفت الحضارات القديمة كثيراً من الاسلحة وطرق تنظيم الجيوش ، وبناء المدن العسكرية . أما في الحضارة العربية

فقد مهر العرب أيضا في صنع الأسلحة ،وبناء القلاع والحصون، والمدن العسكرية واخترعـوا البارود والنار الاسلامية ، واستعملوهمـا في الحرب الصليبية ٠

وكان اوروكاجينا اول مشرع في العراق وكان قبل حمورابي بعدة قرون واحتوت مسلة حمورابي على ۲۸۲ مادة بحثتفي كل ما يتعلق بالحضارة من معاملات وعلاقات اجتماعية بين أهل العـراق ٠ وفي الحضارة العربية كان القرآن اول تشريع اسلامي كامل يرمي الىتكريم الانسان أنّى كان ٠ ودعا الى السلم والحق والعدل والعمل وعتـق الانسان وتحرير رقبته ٠ وكانت السنة النبوية ، وأحكام الفقهـاء ، وتشريعات الخلفاء مثار اعجاب الاعاجم الذين دخلوا في الاسلام كافة٠

وقد عرفت الحضارات القديمة الزراعة وتدجين الحيوانات ، أما الحضارة العربية فقد عرفت أصول الزراعة بالفسائل والترقيد والبذور٠ وبنوا الفلاحة على أسلوب علمي ، واستعملـوا فيها الاسـمدة ، واستطاعوا أن يكثّروا الدواجن بواسطة معامل التفقيس فقـد ذكر عبداللطيف البغدادى في كتابه « الافادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر»[1] أن العرب بمصر كانوا يستعملـون لتفقيس البيض أماكن خاصة في كل مكان ما لايقل عن ألفـي بيضة تفقس مرة واحدة كما هو متبع اليوم في وسائل التفريخ الميكانيكية ٠

واقتبست الامم القديمة من الهلال الخصيب كثيرا من المبتكرات الحضارية ٠ وقد ساعد الفينيقيون على نشر هذه المبتكرات في كلالبلاد التي وصلوا اليها في رحلاتهم التجارية ٠ كذلك فعل العرب حين نشروا آدابهم ومخترعاتهم العلمية في العالم عندما نشروا دينهم في آسـية

---

(۱) ص ۱۷ طبعة مصر سنة ۱۲۸٦هـ ٠

وافريقية واوربة وكان للحج والرحلات العلمية والتجارية والمدارس والجامعات الاسلامية اعظم الاثر في نشرها في العالم •

ولا بد من التلميح الى أن لاغريق اخذوا كثيرا من امور حضارتهم من الحضارات العراقية والمصرية القديمة وحضارات الشرق الاخرى وأن العرب أقتبسوا كثيراً من علوم الاغريق وأضافوا اليها من عندهم أصولاً جديدة ومخترعات عديدة ثم جاءالاوربيون فأخذوا أكثر ماكان عند العرب ممّا سنذكره في هذا الكتاب • وكان مما أخذه الاغريق من حضارة العراقيين القدماء : الزراعة وتربية الحيوان ، وتقسيم الزمن الى سنين وأشهر وأسابيع وأيام وساعات • وأخذوا عنهم استعمال المزولة في النهار ، وأسس كثير من العلوم كالجبر والهندسة • ومما يثبت ذلك ان نظريتي فيثاغورس وأقليدس وجدتا قبلهما مدونتين في الرقم الطينية البابلية التي اكتشفتها مديرية الآثار العراقية في سنة ١٩٤٩ في تل حرمل ببغداد • وهذا مما يؤكد أن أهل العراق كانوا يعرفون هذه النظريات الرياضية قبل هذين العالمين الاغريقيين بـ ١٧٠٠ سنة أي حوالى ٢٠٠٠• سنة ق•م(٢) •

وهكذا يمكن أن نذكر ان حضارات أصيلة وجدت في العراق ، والبلاد المجاورة في القرون الأولى • وقد اقتبس اليونان هذه الحضارة وأضافوا اليها كثيرا من آرائهم وفلسفتهم ثم رجعت الى العرب بعد اسلامهم واضافوا اليها اضافات أصيلة واستحدثوا فيها نظريات وعلوما جديدة ثم اقتبستها أوربة منهم مرة اخرى وبنت حضارتها عليها •

واليوم يعمل العرب من جديد على استعادة مدنيتهم من اوربة مع ما اضافه الاوربيون اليها ليتمكنوا من خدمة الانسانية كما خدموها من قبل قرونا عديدة ••

---

(٢) مجلة سومر المجلد السادس سنة ١٩٥٠م ص ٥-٢٨ من بحث للاستاذ طه باقر •

الفصل الخامس

مقارنة بين الحضارة العربية والحضارات الحديثة

وكما امكننا مقارنة الحضارة العربية بالحضارات الاصيلة في لقرون الاولى فانه يمكن كذلك مقارنتها بحضارات القرون الحديثة من حيث الاصالة والاهمية لان ما جاء به الاسلام من تعاليم ومبادىء وأنظمة لمختلف نواحي الحياة قد جعل لها خصائص ومزايا سمت بها على غيرها من الحضارات واكسبتها البقاء والخلود • وكان لهذه الحضارة العربية شأن كبير في العالم لان العرب ابتدعوا في المجالات الحيوية المختلفة حضارة اصيلة تزخر بالمبتكرات العلمية والادبية والفنية كما أسلفنا • وقد تجلت فيها عبقرية العرب،ونزعتهم الانسانية وحبهم لنظام الشورى في الحكم الذي هو كالحكم الديمقراطي ، وأخذهم بطرق المفاوضات والتحكيم والاحلاف لحل المشاكل والخصومات ، وتحاشي الحروب في الجاهلية والاسلام بالطرق السلمية ، كما يظهر ذلك جليا في الفصل الخاص بهذا الشأن في «مزايا الحضارة العربية» في الباب الثالث من هذا الكتاب • كما تتجلى عبقرية العرب بوضوح تام في اعلان حقوق الانسان بصورة عملية ومعاملتهم للناس على قدم المساواة ، وفي حرية لا نظير لها ، واخاء لا مثيل له قبل ان تعلن الثورة الفرنسية هذه الحقوق بصورة نظرية باثني عشر قرناً •

وبهذا الصدد يمكن ان نشير الى أمر آخر له أهمية حضارية كبرى

وهو رعاية العرب لحقوق الحيوان وعنايتهم به قبل غيرهم من الامم .

وقد افادت الامم التي عاصرت الاسلام في أزهى عصوره ، وفي ايام سيطرة الاجانب على أهله أي منذ القرون الوسطى حتى اليوم ـ الشيء الكثير من هذه الحضارة . وكان للعرب في هذه الميادين المهمة أثر بالغ في تمدين الامم في الشرق والغرب اضافة الى ان العرب اصحاب هذه الحضارة قد حافظوا على تراث مَنْ سبقهم من الامم القديمة كالفرس والهنود واليونان والرومان ، وصانوه من الضياع ، ونقلوه بأمانة تامة الى العالم بعد ان صححوا ما فيه من اغلاط ، واضافوا اليه الكثير من تجاربهم مما ابتدعته عقولهم . وكانوا يهدفون من ذلك كله الى اشاعة المثل الانسانية النبيلة ، وتكريم الانسان ، واسعاده في الدنيا الآخرة ، فصانوا حقوقه ، ومنعوا أكل لحومه ، وحرّموا القرابين البشرية للآلهة . وهذبوا طبائع الامم وصقلوها وعملوا على رفع مستواهم الخلقي والروحي بالصوم والصلاة والزكاة والامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومقاومة المنكرات بالعدل الآلهي ، والوعد بحسن الثواب للمظلوم في الآخرة ، وحفظ حقوق المرأة ، وتوطيد اواصر الاسرة ، وجعل الرقيق عضواً فيها . وسعوا الى انقاذ العالم من الرق والعبودية والظلم وعدم الخضوع الا لله تعالى . كما علموا الناس ان لهم من الحقوق ما للحكام وأولياء الامور، وعليهم من الواجبات ما على أولئك.

ولتوضيح العلاقة بين حضارة العرب وحضارة الغرب يمكن ايراد بعض الامثلة من الحضارتين المذكورتين :

فمنها ان الشعر العربي وصل ذروة مجده في خلافة الرشيد ١٧٠ ــ ١٩٣ هـ (٧٨٦ ــ ٨٠٩ م) في الوقت الذي كان فيه شارلمان اعظم ملوك اوربة اميا لا يعرف من الكتابة الا توقيع اسمه .

وفي عهد الرشيد أيضاً شاهدت بغداد أول معمل للورق ، وأول مستشفى للامراض بعد مستشفى الوليد بن عبدالملك الذي كان بدمشق للجذام . كما شاهدت بغداد في عهد المأمون ١٩٨ ــ ٢١٨ هـ (٨١٣ ــ ٨٣٣ م) أول مرصد فلكي بني بمحلة الشماسية بأعلى بغداد الشرقية . كما بني على سفح قاسيون بدمشق مرصد فلكي أيضاً .

أما علم الفلك ببغداد فقد وصل عصره الذهبي في عهد المأمون الذي انشأ فيها بيت الحكمة للبحث والترجمة والتأليف . ونبغ في أيامه امثال موسى بن شاكر وبنيه الثلاثة محمد واحمد والحسن في الفلك والهندسة والميكانيك .

ومن النوابغ العرب في هذا العصر ابراهيم الفزاري الذي صنع أول اسطرلاب . ومحمد بن موسى الخوارزمي الذي نبغ في الجبر والرياضيات وتولى رئاسة بيت الحكمة ، كما نبغ عدد كبير من الرياضيين والموسيقيين والاطباء . ويكفي ان نذكر أن عدد من نبغ في الفلك منهم بلغ (٥٣٤) عالما[١] منهم محمد بن جابر البتاني الذي عده الفلكي الفرنسي « لالند » La Lande واحداً من العشرين فلكياً المشهورين في العالم كله . وقد كانت أوربة في هذا العصر خالية خلواً تاماً من امثال هؤلاء العلماء .

وإذا كانت البلاد العربية في القرن الرابع الهجري أي القرن العاشر الميلادي مليئة بامثال ابن الهيثم البصري واضع علم البصريات والرئيس ابي علي بن سينا الطبيب العالم الفلكي ، وعلي بن العباس واضع أول موسوعة طبية . واذا كان علي بن عيسى أصبح أكبر طبيب للعيون وأبو القاسم اعظم جراح فان قسطنطين الاغريقي بدأ بنقل الكتب الطبية العربية الى اللاتينية في القرن الحادي عشر الميلادي .

واذا كان الادريسي قد بدأ في وصف الارض في القرن الثاني عشر وابن البيطار اصبح في القرن الثالث عشر أكبر عالم من علماء النبات

(١) هونكه ص ١٢٦ والآثار الباقية ص ١٥١ .

وابن النفيس اكتشف الدورة الدموية الصغرى في القرن الثالث عشر فان ميخائيل سرفتيوس قد أحرق حيا في أوربة لانه ادعى اكتشاف هذه الدورة الدموية • وقتل « غاليلو » لانه اعتقد بدوران الارض حول الشمس ، وحبس رومنس في روما حتى مات وحوكمت جثته ، وكتبه فحكم عليها بالحرق لانه قال : ان قوس قزح ليست قوساً بيد الله ينتقم بها من عباده ، بل هي من انعكاس ضوء الشمس في نقط الماء ، واحرق كثير غيره وشووا على النار •

واذا كان العرب قد صنعوا المدفع لقبلاي خان في سنة ١٢٧٠ م فإن پارتولدشفارتس ادعى انه اكتشف البارود سنة ١٣٢٤ والواقع ان العرب هم الذين اكتشفوه• وقد انشىء ببغداد خلال العصور العباسية عدد كبير من المستشفيات ومنها المستشفيات السيارة والمستشفيات التي كانت تعالج بالطب النفساني بينما كانت اوربة خالية من المستشفيات•

وفي سنة ١٥٠٠ عين لاول مرة طبيب واحد في مستشفى ستراسبورغ ، بينما كان في المستشفى العَضُدي ببغداد ٢٤ طبيبا في أول تأسيسه ثم ازدادوا فيما بعد الى ستين طبيبا • وكان ببغداد وحدها أكثر من ١٠٠٠ طبيب وقد دخل منهم الامتحان في أيام المقتدر نحو ٨٦٠ طبيباً •

وفي القرن الرابع عشر الميلادي وضع ابن خلدون فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع • ودون العرب نظريتهم في عدوى الامراض بينما لم تفكر أوربة في شيء من ذلك[٢] •

واعتبر الاوربيون الحمام رذيلة لانه يزيد من نظافة الجسد بينما كان للعرب عشرات الالوف من الحمامات لان النظافة في الاسلام من الايمان ولذلك اسرع الاسپان الى هدم حمّامات العرب وتخريبها عندما استولوا على بلاد الاندلس ، الى غير ذلك من الامور التي سنذكرها مفصلة في فصول هذا الكتاب •

---

(٢) شمس العرب ص ٥٤٥–٥٥١ .

البابُ الثاني

مدنيـــة العرب في الجاهلية

الفصل الأوّل

نظــرة في الجزيـــرة العربيـــة

يجدر بنا ونحن نبحث في حضارة العرب في الجاهلية والاسلام ان نلقي نظرة عَجْلَى على مهد المدنية العربية ، والبلاد التي كانت وثيقة الصلة بها والطوالع التي كانت تخرج منهـا على شـكل موجات أو هجرات الى اطراف الجزيرة العربية .

ان جزيرة العرب عبارة عن شـبه جزيرة كبيرة تقع في الزاويـة الجنوبية الغربية من قارة آسية ، وتحيط بها المياه من ثلاث جهاتها . ففي غربيها البحر الاحمر ويسـمى بحر « القُلْزم » أو « الخليـج العربي » كما سماه المؤرخون القدامى كبطليموس[1] والبحر الابيض المتوسط . وفي شرقيها بحر عُمان ، والخليج العربي . وفي جنوبيهـا البحر العربي . ومن الشمال اعالي سورية والعراق . وتختلف حدودها الشمالية عند الجغرافيين والمؤرخين باختلاف الدول والأزمنة .

وتتكون الجزيرة العربية مـن هضبة واسـعة تنتصب في غربيها سلسلة جبال السَّراة التي تخترق أرض الحجاز واليمن . وأعلى قمة فيها تبلغ نحو ٣٣٠٠ متر . وفي الجنوب الشرقي منها : الجبل الاخضر الموازي لساحل بحر عُمان . وارتفاعه نحو عشرة آلاف قدم . وفي وسط الجزيرة سلسلتان من الجبال يطلق عليهما : أجأ وسـلمى . ويبلغ ارتفاعهما نحو ٥٥٠٠ قدم .

---

(١) تاريخ العرب : جواد علي ج٣ ص ٣٥٩ .

ان الهضبة المذكورة الواقعة شرقي جبال السراة تنحدر نحو الشرق انحداراً بطيئاً وتسمى هضبة « نجد » أما التي تنحدر من الغرب نحو البحر الاحمر فانها تنحدر انحداراً سريعاً • وتسمى الأرض المحصورة بين جبال السَّراة والبحر الاحمر : « الغَوْر » أي الارض المنخفضة • وتسمى أيضاً «تِهامة» لشدة حرها وركود ريحها • ويطلق على الارض المحصورة بين تِهامة ونجد « الحجاز » لانها فصلت بينهما • وتقع اليمن جنوبي الحجاز • وكانت تسمى قديماً « بلاد العرب السعيدة » Arabia Felix أو « الارض الخضراء » وفي جنوب الجزيرة العربية تقع بلاد حضرموت وهي موطن البخور والطِّيب • أما في شرقي الجزيرة فتقع الكويت في الجنوب لغربي من العراق • وبعد الكويت : الاحساء والبحرين • وهما من الاراضي الخصبة • ويطلق اسم « العروض » على بلاد اليمامة الواقعة في الجنوب الشرقي ، وعلى عُمان والبحرين • وقد سُمي عروضاً لاعتراضه بين اليمن ونجد والعراق • وتعد عُمان بلاداً جبلية أهم جبالها : الجبل الاخضر • وتخترق البلادَ اودية كثيرة •

وفي وسط الجزيرة هضاب واسعة يقال لها « النفوذ » تمتد شمال نجد حتى جنوبي فلسطين • وتتخللها واحات عديدة تكثر فيها الزراعة والمجتمعات البشرية • ومن اشهر لبلاد في هذه المنطقة : بلاد نجد • ويقع في اسفل هذه البلاد ما يعرف بـ «الربع الخالي» أو «بادية الاحقاف» وفي الجنوب الغربي من الجزيرة العربية يقع : « الجوف »• وهو منطقة سهلة بين نجران اليمن وحضرموت • وبين العراق ونجد بادية « الدَّهْناء » وهي تلول من الرمال البيض أو الحُمْر تتغير مواقعها بفعل الرياح والعواصف • والدَّهْناء ايضا اعظم واد ببلاد العرب ، يمر ببلاد بني تميم ببادية البصرة وببلاد بني اسد وغَطَفان ويسمى « الرَّمَّة » وهو أول نجد •

ومن اخصب بلاد الجزيرة العربية : اليمن والعراق والشام وسواحل الجزيرة العربية • كما كان في هذه الجزيرة « دارات » تبلغ ستين دارة كدارة جُلْجُل ودرة الآرام • والدارة أرض مستديرة تحيط بها الجبال ، وتصلح للسكنى • وفيها أيضاً مناطق خصبة اخرى كالمدينة والطائف التي كانت مصيف أهل الحجاز ، ثم البحرين والاحساء • وكانت نجد واليمامة لا تقلان خصبا عن أرض اوربة الخصبة بل ربما كانت أكثر خصباً منها • وفي الجزيرة العربية طرق كبرى تتجه الى مكة يقال لها : « المحاجّ » مفردها : المحجَّة • وتسمى « الجوادّ » أيضاً ومفردها : الجادَّة • وقد وصف الهَمْداني وابن خُرْداذبة وغيرهما من جغرافيي العرب : منازلها والمسافات التي بينها، ودرجات العرض لكل منزلة منها • ومن اشهر هذه الجواد : جادة بغداد مكة ، وجادة الكوفة ــ مكة ، وجادة البصرة ــ مكة ، وجادة صنعاء، ومحجة عدن ، ومحجة البصرة الى البحرين ••

والجزيرة العربية غنية اليوم بثرواتها المعدنية كالنفط والكبريت والغاز • وأشهر حقول النفط العربي فيها تقع في العراق والكويت والمملكة العربية السعودية والبحرين وامارات الخليج العربي الاخرى• كما انها غنية في ثرواتها الزراعية والحيوانية والصناعية • ولها مركز تجاري ممتاز لوقوعها موقعا وسطا بين ثلاث قارات هي آسية وأفريقية واوربة •

ومناخ الجزيرة العربية قاري أي حار صيفاً وبارد شتاءً، والامطار فيها قليلة لكنها تنزل في اليمن بغزارة في الصيف بتأثير الرياح الموسمية• والمياه متوفرة في اغلب نواحي الجزيرة العربية ، وقد ساعدت هذه المياه على السكنى ، وعلى الزراعة ، ونشوء المدن والحضارات •

وقد اظهرت الاستكشافات الجغرافية الحديثة انه كان في الجزيرة العربية اماكن جمة الخصب ، غزيرة المياه ، ازدهرت فيها الزراعة منذ

آلاف السنين ، ولم تزل الحِرار واللابات في الجزء الغربي من الجزيرة العربية من الاماكن الخصبة التي كانت من المراكز الحضارية المهمة كحَرَّة يثرب ، وحرة خيبر وحرة سُلَيْم وحرة النار وحرة واقم ...

ويذكر كيتاني الايطالي : ان آثار الجزيرة العربية تشير الى وجود آثارٍ من نباتات وحيوانات ومياه . ويثبت ذلك البحيرة التي وجد بقاياها المستشرق الانكليزي برترام توماس ١٩٣١هـ وفلبي Philby المعروف بالحاج عبدالله في الربع الخالي ، ووادي الرمة الذي يظن انه كان نهراً وفير المياه ...



الفصل الثاني

نظرة في سكان الجزيرة العربية

يرى فريق من العلماء وعلى رأسهم المستشرق الايطالي كيتاني ان سكان الجزيرة العربية هم الساميون وان أصلهم من جزيرة العرب ذاتها ، وانهم جنس من أصل واحد تتشابه لغاته ، وانهم قد أتوا بحضارات اصيلة ، وان اللغة العربية تعد اقرب اللغات السامية الى الاصل الذي تنتمي اليه ..

ولما كان مناخ الجزيرة العربية في العصور الجيولوجية رطباً دافئاً ومياه الجزيرة كثيرة فقد استرجح كيتاني ان الساميين كانوا يعيشون في الجزيرة . وعندما اختلف المناخ ، واجدبت الارض تناقص السكان بسبب هجرتهم الى اطراف الجزيرة حيث يتوفر الخصب والماء . ولذلك ظلت الطوالع وهي الهجرات أو الموجات السامية تغذي بالسكان اطراف الجزيرة العربية ، كالعراق والشام ومصر حيث ازدهرت مدنيات ذات شأن عظيم في تاريخ الانسانية .

وللعلماء آراء مختلفة في مهد الساميين الاصلي نوجزها بما يأتي:

١ ــ ان مهدهم « العراق » وهو ما ذهبت اليه التوراة : واقدم السكان فيه : الاكديون والبابليون والآشوريون والكلدان . ومن العراق توجه العرب الى الجزيرة العربية ، وصار الاراميون والفينيقيون والعبريون في بلاد سورية كما صار الاحباش في بلاد الحبشة ..

٢ ــ ان مهدهم « الحبشة » ومنها عبروا البحر الاحمر الــى الجزيرة العربية عن طريق مضيق باب المندب ومن الجزيرة العربية توجهوا الى الهلال الخصيب ...

٣ ــ ان مهدهم في جنوبي الفرات ومنــه انتشروا في الجزيرة العربية والهلال الخصيب ..

٤ ــ ان مهدهم في بادية الشام حتى بلاد نجد ومنها تفرقوا في البلاد .

٥ ــ ن مهدهم جزيرة العرب منها توجهوا الىالعراق وسورية وكونوا الدول لشهيرة فيهما . كما توجهوا الى مصر عن طريق سيناء ، والى الحبشة عن طريق مضيق باب المندب . والرأي الاخير هو المعوّل عليه عند العلماء والباحثين . ويؤيد هذا الرأي ان العرب في صدر الاسلام خرجوا مــن جزيرة العرب في موجــة عظيمة متوجهين نحو آسية وافريقية واوربة ..

والعرب في الجزيرة العربية يتكونون من :

١ ــ العرب البائدة وهم الذين بادوا ولم يبق من آثارهم شيء لا ما ذكره القرآن ، والاخبار العربية . وأشهر قبائلهم : عاد وثمود وطَسْم وجَديس الاولى .

٢ ــ العرب الباقية وهم قسمان أيضاً : العرب العاربة أي العرب الخلص وهــم القحطانيون ســكان اليمن ، والعرب المستعربة الذين تكونوا من ذرية اسماعيل بن ابراهيم الخليل الذي تزوج مــن قبيلة جُرْهُم القحطانية بمكة وتعلم العربية منهم ، ونشأت عليها ذريته . ومن ذريته عدنان جد العرب المستعربة ، واليه ينتهي نسب الرســول (ص) . وقد تكاثر العدنانيون فانتشروا في الجزيرة العربية ، وسكنوا اقطارها المختلفة بقبائلهم وبطونهم وافخاذهم ..

ويفرق المؤرخون بين عرب الجزيرة العربية فيقسمونهم الى قسمين اخرين ايضا عرب الشمال ، وعرب الجنوب . وقد سكن عرب الشمال

في الحجاز ونجد واواسط بلاد العرب . وغالبهم اعراب يسكنون بيوت الشعر ، ويتكلمون العربية الخالصة ، وهي لغة القرآن . واما عرب الجنوب فهم الذين عاشوا في اليمن وحضرموت . وكانت لغتهم السبأية او الحميرية ، وهي لغة عربية بقي منها نصوص كثيرة بالخط المُسْنَد .

وكان العرب علاقات تجارية مع مصر لحاجة المصريين الى البخور والشبان اللذين كانا يستعملان في تطييب المعابد ، وفي التحنيط ، وكانا يكثران في بلاد العرب الجنوبية . كما كانوا على اتصال وثيق بالعالم الخارجي كالهند وفارس وبلاد افريقية وبلاد الروم .

وكان للعرب في الجزيرة العربية علاقات تجارية أيضاً مع السومريين في العراق ، كما كانت لهم حروب مع الآشوريين الذين جهزوا حملات كبيرة لاخضاع عرب الجزيرة لسيطرتهم .

وكان سكان الجزيرة العربية يخرجون من جزيرتهم الى خارج بلادهم على صورة طوالع وموجات خمس اشهرها : « الموجة الاولى في حدود سنة ٣٥٠٠ ق.م حيث كانت هجرة البابليين الى العراق واستيطانهم حوض الفرات . وبعد الف سنة أي في سنة ٢٥٠٠ ق.م كانت هجرة الفينيقيين والكنعانيين الى بلاد الشام . وفي سنة ١٥٠٠ ق.م وقعت هجرة العبرانيين وفي سنة ٥٠٠ ق.م طلع الانباط من الجزيرة العربية . على ان اعظم هذه الطوالع طالعة العرب الكبرى ، وهي الموجة الخامسة في أوائل القرن الاول الهجري أي أوائل القرن السابع بعد الميلاد ، وقد خرج فيها العرب المسلمون الى آسية وافريقية واوربة حيث نشر العرب رسالة الاسلام .

والعرب آخر من بقي من الساميين، بل هم خير مثل لهم..ولغتهم العربية أوسع اللغات السامية وارقاها ، وهي خير دليل يستدل به على رقي الامة العربية وتقدمها .

وقد دوّن المؤرخون والجغرافيون واللغويون كثيراً من أخبار العرب في جاهليتهم واسلامهم . كما ذكرت الكتب السماوية بعض اخبار العرب قبل الاسلام . وأهم هذه الكتب القرآن الكريم الذي يعد أكثر المصادر تفصيلاً عن تاريخهم ، واخلاقهم وعاداتهم ودياناتهم وعقليتهم وطرز تفكيرهم .

وقد أيدت الاكتشافات التي توصل اليها عدد من السياح والرحالين ، والبعوث ، والمنقبين في بلاد العرب كثيراً من اخبارهم التي وردت في القرآن . ومن أشهر الرواد الغربيين الذين طافوا في جزيرة العرب ، ووصفوها وتكلموا على أهلها منذ القرن الثامن عشر حتى العصر الحاضر العلماء والرحالون الذين نذكرهم فيما يأتي :

١ ــ في سنة ١٧٦١م زار اليمن كارستون نيبور Carston niebuhr الدانماركي . وكان عضواً في أول بعثة علمية ارسلها ملك الدانمارك . وقد جلب معه ٦٨٥ نقشاً من اليمن .

٢ ــ في سنة ١٨١٢م اكتشف برخارت Johan Luduig Burckhart السويسري مدينة « بطرا » التي يطلق البعض عليها « البتراء ». وزار جدة ومكة في الحجاز متنكراً باسم ابراهيم بن عبدالله .

٣ ــ في سنة ١٨٤٣ م اكتشف آرنو Arnaud الفرنسي آثار مدينة مأرب عاصمة سبأ في اليمن ونقل منها نحو ٦٠ نقشاً .

٤ ــ في سنة ١٨٤٥ م زار والن George Augustus Wallin الفلندي بلاد نجد لغرض الدراسة اللغوية .

٥ ــ في سنة ١٨٥٣ م زار ريشارد برتون Richard Burton مكة والمدينة متنكراً باسم الحاج عبدالله .

٦ ــ في سنة ١٨٦٠ طاف پالگريف الانكليزي اليهودي جزيرة العرب. وقد ارسله اليها ناپليون الثالث ليبحث عن منطقة نفوذ جديدة له في بلاد العرب بعد ان سحب جيشه من لبنان فوصل نجداً ووصف مدينة الرياض .

٧ ـ في سنة ١٨٦٩ ـ ٧٠ زار يوسف هاليفي Joseph Hale,vy وهو يهودي فرنسي بلاد اليمن .

٨ ـ في سنة ١٨٧٥ م اخترق شارل دوتي Charles Doughty شمال بلاد العرب متنكراً .

٩ ـ في سنة ١٨٧٩ م زارت السيدة آن بلنت Ann Blunt بلاد نجد عدة مرات وكانت احدى زياراتها للبحث عن الخيول العربية .

١٠ ـ ١٨٨٢ ـ ١٨٩٤ قام ادورد گلازر Eduard Glaser وهو يهودي نمساوي باربع حملات علمية الى اليمن حصل على نحو (٢٠٠٠) نقش واستطاع ان يرسم خارطة لسد مأرب .

١١ ـ ١٨٨٥ـ١٨٨٦ زار سنوك هرگر ونييه Snouk Hurgronje الهولاندي مكة .

وبالاضافة الى الرواد والرحالين الذين ذكرناهم يمكن ان نشير الى اسماء أخرى حاول اصحابها في القرن التاسع عشر الوصول الى بعض الحقائق عن العرب قديماً وحديثاً ومنهم :

١ ـ Seetzen الذي زار في سنة ١٨١٠ جنوبي بلاد العرب وصوّر بعض النصوص العربية .

٢ ـ الرحالة Hutton الذي جاء في سنة ١٨٣٥ بعدد من النصوص اليمانية .

٣ ـ James Wellested الذي زار في سنة ١٨٣٨ جنوب بلاد العرب وحصل على نصوص عربية منها .

٤ ـ Cruthenden الذي جاء في سنة ١٨٣٨ بنقوش أخرى عند رحلته الى صنعاء .

٥ ـ Coghlan الانكليزي الذي حصل على عشرين لوحة برنزية من مدينة « عمران » سنة ١٨٦٠ م .

٦ — Heinrich Von Malzen الالماني الذي زار في سنة ١٨٦٥ البيت الحرام ومدينة الرسول متنكراً بزي أحد الحجاج المغاربة •

٧ — Siegfrid Langer النمساوي الذي صور في سنة ١٨٨٢ بعض النقوش وانتسخ قسماً من الكتابات في اليمن

٨ — Juiious Euting الذي درس الحركة الوهابية واحوال البدو في سنة ١٨٩٦ ••• الخ •

ومن بين الذين زاروا جزيرة العرب في هذا القرن : لورانس Laurence الانكليزي مؤلف كتاب «الاعمدة السبعة» • وألواموزيل Alois Musil الجيكوسلوفاكي • وروتر Rutter الذي زار مكة بين عامي ١٩٢٥ و١٩٢٦ • وبرترام توماس Bertram Thomas المستشرق الانكليزي الذي كشف الربع الخالي سنة ١٩٣١ • وعبدالله فلبي Philby الانكليزي الذي عبر الربع الخالي من الشرق الى الغرب في ثلاثة أشهر في سنة ١٩٣٢ •

وقد اطلق الاجانب من العبريين والفرس واليونان والرومان والسريان وغيرهم على العرب مختلف الاسماء والاوصاف نشير الى بعضها والى ما يقصد منها فيما يأتي :

العربي : أي الاسماعيلي نسبة الى اسماعيل بن ابراهيم الخليل (ع)

العرب : بمعنى الصحراء •

البلاد لعربية : بمعنى صحراء الجزيرة وبلاد الشام •

العرب : بمعنى صحراء الجزيرة العربية •

الاعراب : البدو من العرب •

Saracens : بمعنى القبائل العربية الرحالة •

Saracens : بمعنى البدو •

Saracens : بمعنى جميع العرب •

Saracens : بمعنى جميع المسلمين •

Saracens : بمعنى جميع الشرقيين•

Saraceni : بمعنى العرب سكان الخيام •

Saraceni : بمعنى قبائل عربية كانت تسكن بادية الشام وسيناء وفلسطين •

Scenitae : بمعنى العرب سكان الخيام •

Arabae : بمعنى جزيرة العرب كلها الى شرقي النيل (عند هيرودتس) •

Arabae : بمعنى بادية الشام الى شرقي الفرات من بابل الى الجزيرة الفراتية (عند كزينيفون) •

العرب : بمعنى بادية الشام الى شرقي الفرات من بابل الى الجزيرة الفراتية (عند السريان) •

بيت عربابة Beth Arabaya وباعربابة Ba - Aralaya أي القسم الشرقي الذي كان خاضعاً للفرس •

سراقينو : Sarakenoi هذه الكلمة على رأي البعض مركبة من (سارة) زوجة ابراهيم الخليل و (قين) وهو العبد فتكون الكلمة «عبيد سارة» • أو من كلمة «سرق» فيكون معنى الكلمة (السراقين)• أو من «شرق» أي شرق ارض النبط • أو انها تحريف «شرقيين» •••

العرب : بمعنى Taiy أو Tayayo وهو اسم قبيلة (طي)

العرب : بمعنى Tachik, Tadgik, Tashik, Tazik.

الفصل الثالث

الدول العربيـة الجنوبيـة

يظهر ان اقدم حضارات الجزيرة العربية وجدت في اليمن ٠وكانت بلاد اليمن مقسمة الى « مخاليف » كل « مخلاف » يحكمه « قَيْل »٠ ويقسم المخلاف الى « محافد » كل « مَحْفِد » يحكمه « ذو » ٠ وكان مخلاف صنعاء أعظم المخاليف وأخصبها ٠ وكان رؤساؤه يدعون بالملوك ٠ ومنهم كان « التبابعة » ٠ و « تُبَّع » التي ورد ذكرها في القرآن لقب لملك الملوك كالانبراطور ٠ وقد ذكر ياقوت من مخاليف اليمن (٣٦) مخلافاً واليكم نبذة يسيرة عن اقدم دول اليمن وحضاراتها:

١ ـ الدولة المعينية ١٣٠٠ـ٦٥٠ ق٠م٠

كانت هذه الدولة في « الجَوْف » وعاصمتها « مَعِين » أو « مَعُون » أو « ماعون » ويطلق عليها « قرنو » أو (قارنا) أو « القرن » وهي « كارنا » عند اليونان ٠ وكانت حضارة هذه الدولة تشبه حضارة البابليين ٠ وقد حكمها خمس اسرات عربية مختلفة ٠ ويظهر ان أول أسرة من هذه الاسر حَكمتْ في « معين » في حدود سنة ١١١٠ ق٠م ٠ وكان للأسرة الثانية نفوذ تجاري امتد الى حضرموت والى شمال الحجاز حيث كانت لهم مستعمرة يمانية هناك ، ودويلات صغيرة على طول نهر الفرات الادنى في القرن السابع قبل الميلاد ٠ يضاف الى ذلك، ان المعينيين كانت لهم علاقات تجارية مع الآشوريين والفينيقيين والمصريين ٠

الدول العربية الجنوبية

نجران

عسير

قرنا

البيضاء

معين

مأرب

صرواح

صنعاء

سبأ

ظفار

حضرموت

تعز

سوزا
(مخا)

الحبشة

خليج عدن

ويظهر أن أصل المعينيين من العراق هاجروا الى اليمن مع عدد من القبائل العراقية • ومما يؤيد ذلك : التشابه بين اسماء رجالهم ، واسماء آلهتهم مع اسماء الآلهة العراقية • وقد شيدوا قصورهم في اليمن على غرار قصور بابل •

وفي اواخر أيام الاسرة المعينية الثانية وصل نفوذهم الى قَتَبان التي يرجع تاريخها الى سنة ١٠٠٠ ق • م ، والتي اتخذت مدينة (تمنع) الواقعة على مقربة من باب المندب عاصمة لهم • وصار للقَتَبانيين نفوذ كبير كان يهدد الدولة المعينية غير أن السبأيين كانوا أقوى من القَتَبانيين فاستطاعوا ان يتغلبوا على المعينيين ، ويستولوا على بلاد اليمن ، ويحدوا من سلطان القتبانيين الذين أصبح لهم شأن بسبب سكناهم في الجنوب الغربي من اليمن بجوار حضرموت حيث استفادوا من متاجرتهم معهم •

وكان نظام الحكم في الدولة المعينية ملكياً وراثياً مقيداً بمجلس استشاري وربما شارك الابن أباه في الحكم ايضاً• وكانت المدن المعينية تتمتع باستقلال ذاتي حيث كان يحكمها رؤساء ذو منزلة رفيعة •

وقد اشتهر المعينيون بالزراعة والتجارة • ويعد المجتمع المعيني مجتمعاً ارستقراطياً كان لرجال الدين فيه مكانة محترمة، وللمرأة حرمة واسعة •

٢ ـ الدولة السبأية ٩٥٠ ـ ١١٥ ق•م•

وهي الدولة التي ورثت الحكم بعد الدولة المعينية بعد استقرارها في اليمن في حدود سنة ٨٠٠ قبل الميلاد • وقد استفاد السبأيون من ضعف المعينيين فتمكنوا من القضاء عليهم ، وعلى القَتَبانيين •

وينقسم تاريخ الدولة السبأية الى ثلاثة ادوار :

الاول : كان الرئيس يطلق عليه «مكرب سبأ» أي «المُقَدِّس»

الثاني : أطلق على رئيسهم « ملك سبأ »

الثالث : اطلق عليه « ملك سبأ وريدان »

وقد حكم عدد من المكارب والملوك في هذه الدولة[1] . وظلت الدولة السبأية قوية حتى سنة ٣٧٥ ق.م ثم تولى حكمها بعد ذلك ملوك ضعفاء . وزاد في ضعفهم الحروب التي خاضوها مع قبائل اليمن فانفصلت بعض الامارات واستقلت عن السبأيين . وأخيراً جرد الرومان في عهد الامبراطور « اغسطس » حملة عسكرية على اليمن سنة ٢٥ ق.م غير ان الجيش الروماني لم يستطع الاستيلاء على « مأرب » لمقاومة أهل اليمن الشديدة . وفي هذه الفترة نقل السبأيون عاصمتهم الى « ذمار » بسبب ما أصاب العاصمة « مأرب » من التخريبات .

وللسبأيين أعمال عمرانية جليلة منها السدود كسد مأرب وهو أعظم سد في الجزيرة العربية طوله « ٨٠٠ » ذراع وعرضه « ١٥٠ » ذراعاً . بناه « ذمر على وتر » وأكمله « يثعمربيان » واضاف اليه « شمَّر يرعش » اضافات مهمة . وكان بناؤه بالحجارة بوادي «أذنه» في طرفي جبلين حيث يتفرع عدد من القنوات . وكان على فوَّهة كل قناة سد آخر مبني بالحجارة وفيه فتحة أشبه بالناظم . وكان السد أشبه بخزان عظيم لمياه السيول التي تتكون من الامطار الساقطة على الجبال المحيطة بصنعاء .

ومن أعمال السبأيين ايضاً انشاء المعابد لآلهتهم في مدينة « صِرواح » عاصمتهم الاولى ، وفي مأرب عاصمتهم الثانية ، وفي «دابر» التي تقع بين مأرب والجوف. ويذكر الدكتور «فيليب حتّي» ان كلمة سبأ تطلق على البلاد والشعب وليس على المدينة . ويذكر غيره ان عاصمة سبأ كانت تسمى « مريابه » Mariaba الواقعة في الجنوب الشرقي من مأرب .

---

(٢) راجع أسماء «المكارب» في « تاريخ العرب قبل الاسلام » للدكتور جواد علي .ج٢ ص١٤٧–١٩٨ وقائمة «الملوك» في ص ١٩٤–١٩٨ منه .

وفي اليمن قناطر على اعمدة يجري الماء فوقها لارواء المدن ، وسدود واحواض تدل على نبوغ أهل اليمن في فن العمارة ، وهندسة المباني ، ومعرفتهم بأنظمة الري ·

ومن أهم اعمالهم الاخرى : الملاحة في المحيط الهندي والبحر العربي حيث كانوا يسيّرون سفنهم فيها بحسب الرياح الموسمية ·وقد تعلم الرومان من أهل اليمن الملاحة في هذه البحار بحسب مواعيد الرياح الموسمية المشار اليها · ومنذ ذلك الوقت فلت أهمية الطريق التجاري البري الذي كان يسلكه التجار العرب في اليمن والحجاز غير ان المدن اليمانية على ساحل البحر الاحمر قد انتعشت وبذلك حل الطريق البحري عندهم محل الطريق البري ·

٣ ـ الدولة الحِمْيَرِيَّة ١١٥ق·م – ٦٢٨م·

كان الحميريون يسكنون المدن اليمنية الواقعة على الساحل الشرقي للبحر الاحمر · وقد أسسوا لهم دولة حكمت بلاد اليمن بعد انقراض الدولة السبأية · واتخذوا مدينة « ظِفار » عاصمة لهم · وتقع في داخل بلاد اليمن[٢] وكانت تسمى « ريدان » قبل ذلك · وحلّت محل « مأرِب » عاصمة السبأيين · ومحل « قرنا » أو « قرنو » عاصمة المعينيين ·

وقد توسعت مملكتهم حتى صار يطلق على ملكهم في سنة ٢٧٥م « ملك سبأ وريدان وحضرموت واعرابهم من الجبال وتِهامة » · وفي حدود سنة ٣٠٠ م أصبح اللقب الملكي « ملك سبأ وذوريدان وحضرموت ويمنات » ·

وقد ورث الحميريون عن المعينيين والسبأيين ثقافتهم وتجارتهم · واشتهروا بالتجارة بصورة خاصة · وكانت علاقاتهم بالاحباش وثيقة·

---

(٢) اما ظعار التي على الساحل الجنوبي لجزيرة العرب فتعرف ب «ظفر» وتتبع سلطان عمان وتشتهر باللبان والبخور حتى اليوم.

وفي الوقت نفسه أصبحت لهم قوة عسكرية حتى هابتهم الدول المجاورة، وحاربوا الفرس والاحباش • ويعزو المؤرخون العرب فتوحات كبيرة للحميريين وقعت في اوروبة والهند والصين وافريقية تشبه الفتوح الاسلامية غير أنها لم تثبت بعد عن طريق لآثار أو طريق المدوّنات الاجنبية •

وقد ضرب الحميريون النقود من الذهب والفضة والنحاس ، وصوّرت صورة الملك في وجه منها ونقشت على الوجه الآخر صورة بومة أو رأس أو صقر أو هلال مما قد يشير الى آلهتهم ومعبوداتهم •

وانتشرت الديانة المسيحية بين عرب اليمن وزاد انتشارها بوجه خاص بعد غزو الاحباش لبلاد اليمن • غير أنها بدأت في الانكماش بعد اخراج الاحباش من اليمن • وانتشرت اليهودية ايضاً في اليمن• واعتنق الملك الحِمْيَرِي « يوسف ذونواس » الديانة اليهودية ، ولذلك قاوم الديانة المسيحية واضطهد المسيحيين • وكان من جراء هذا الاضطهاد ان جهز الاحباش حملة على اليمن بقيادة « أرياط » نائب ملك الحبشة تمكنت من القضاء على الدولة الحميرية • وبعد مقتل « أرياط » تولى القيادة « ابرهة الحبشي » المعروف بالاشرم فعمر سد مأرِب ، وجهز حملة لغزو مكة عرفت بحملة « أصحاب الفيل » وقد أصابها الدمار والهلاك لتفشي مرض الحصبة والجدري فيها[٣] • واستنجد أحد امراء اليمن « سيف بن ذي يزن » بالساسانيين لطرد الاحباش فانجده « كسرى انو شروان » فتمكن ان يحرر اليمن من حكم الاحباش • وبعد مقتل « سيف بن ذي يزن » تولى الساسانيون حكم اليمن غير ان نفوذهم لم يتعد صنعاء وما حولها • ثم زال نفوذهم الى الابد عندما دخلت صنعاء في الاسلام على عهد « باذان » آخر حكامها من الفرس سنة ٦٢٨ م كما دخلت في الاسلام ايضاً اقيال اليمن الاخرى •

---

(٣) راجع سيرة ابن هشام •

٤ ـ دولة كندة

وهي دولة عربية قحطانية تكونت من قبيلة كندة . وكل الظواهر تدل على أنها نشأت في جنوب الجزيرة العربية . ويسترجح انها سكنت حضرموت في بلد يعرف بـ (كندة) كما أن أهلها عاشوا ايضاً في « مهرة » التي كانت قصبتها « دَمّون » التي يرد ذكرها في شعر امرىء القيس الكندي أشهر شعراء « كندة » ثم نزحت كندة عن حضرموت ، وأقامت في أرض «معدّ» وكانت لها أهمية كبيرة لوجودها بين عدد كبير من القبائل التي كانت تعيش في وسط الجزيرة العربية .

وقد ذكر ابن الكلبي وابن سلّام واليعقوبي في تاريخه ، وابن قتيبة وابن الاثير الجزري وياقوت ، وابن خلدون في تاريخه كثيراً من اخبارهم اليك موجزها :

ان أكثر المؤرخين يرون ان ملكهم « حُجْر بن عمرو » الملقب بـ (آكل المُرار) كان أول من ملك كندة ، ويوصف بأنه كان ذا رأي ووجاهة ولذلك ولاه « حسّان » ملك التبابعة في اليمن على كندة ، فقدم « حُجْر » الى نجد . وكان اللخميون في العراق قد ملكوا كثيراً من تلك البلاد فحار بهم « حُجْر » واجلاهم عن أرض بكر بن وائل، واستطاع ان يبسط سلطانه على بعض الاراضي التابعة للمناذرة ، وعلى جزء من بلاد اليمامة وأن يغزو الحجاز .

وجاء بعد « حُجْر » عدد من الملوك أشهرهم حفيده « الحارث بن عمرو » وكان أقوى ملوكها . وقد طال حكمه فبلغ أكثر من اربعين سنة . وقد تمكن أن يسيطر على المناذرة ، ويتولى الحكم على الحيرة برهة وجيزة من الزمن ، كما سيطر على أكثر انحاء الجزيرة العربية .

وكان « للحارث بن عمرو » عدد من الاولاد من زوجاته اللاتي تزوج بهن من مختلف القبائل . وقد ولّى ابناءه على القبائل التي انضوت تحت لوائه في اطراف نجد والحجاز والبحرين واليمامة .وكان

من بينهم « حُجْر بن الحارث » والد « امرىء القيس » وقد ولاه على بني أسد وكنانة وغَطَفان . وكانت قبيلة أسد قد ثارت عليه وقتلته لتعسفه معها في جباية الضرائب. وقد حاول أصغر ابنائه «امرؤ القيس» ان يثأر له منهم فاستنجد بتغلب وبكر ، غير أن أسداً لما علمت بذلك تركت ديارها خوفاً منه فلحقهم مع بكر وتَغْلِب وثأر منها لابيه غير انه لم يستطع القضاء عليها لانها استجارت بالمنذر بن ماء السماء فأجارها . وظل امرؤ القيس يتنقل في اليمن ونجد والحجاز يطلب اليها مساعدته فلم ينجده أحد من الملوك أو الامراء أو القبائل . ولما يئس منهم توجه تلقاء القسطنطينية مستنجداً بانبراطورها غير انه لم يساعده فاضطر الى الرجوع وفي طريقه مات دون ان يظفر ببغيته .

ولكندة ان تفخر على العرب بشاعرها العظيم «امرىء القيس» الذي يعد فخر كندة واكبر شاعر عربي ظهر في العصر الجاهلي . وقد اشاع في الشعر العربي أدباً راقياً اصيلاً يظهر في معلقته وباقي شعره .

وقد استطاع ملوك كندة ان ينشروا الامن في الجزيرة العربية مدة حكمهم ، ويقضوا على الحروب بين القبائل ، ويؤلفوا بينها في تلك البقاع الواسعة من الجزيرة العربية من حضرموت جنوباً الى حدود اليمن والحجاز غرباً واليمامة والبحرين شرقاً . والعراق وبلاد الشام شمالاً .

واخيراً يمكن القول بأن «كندة» ضعفت بسبب الحروب الكثيرة مع القبائل العربية، وممالأة الساسانيين والمناذرة للقبائل المعادية لكندة، فتفرقت في البحرين ، ودُومة الجندل ، ونجران اليمن الى ان ظهر الاسلام فدخلت فيه فيمن دخل من العرب .

الفصل الرابع

الدول العربية الشمالية

لقد نشأت في شمال الجزيرة العربية قبل الاسلام دول عربية كتلك التي نشأت في جنوبها . وكانت دولاً تجارية كدول الجنوب غير أنها لم تكن كلها تتمتع بالسيادة والاستقلال كدول اليمن فقد كان الغساسنة عمالاً لملوك الروم وكان المناذرة عمالاً لملوك الفرس . وسنذكر في هذا الفصل نبذة موجزة عن حضارة اربع دول عربية هي مملكة الانباط وتدمر والغساسنة والمناذرة كما ذكرنا حضارة أربع دول في الفصل السابق نشأت في الجزء الجنوبي من الجزيرة العربية .

١ ـ دولة الانباط من سنة ١٦٩ ق.م الى سنة ١٠٥ م

نشأت دولة الانباط في الجنوب الشرقي من فلسطين في القرن الثاني قبل الميلاد ولذلك عددناها من الدول العربية التي نشأت في شمال الجزيرة العربية . وكان أهلها وثنيين كسائر العرب . ومن آلهتهم « ذو الشرى » وهو وثن قوامه صخرة مستطيلة تمثل الاله « الشمس » ومن آلهتهم ايضاً : هُبَل ، واللات ، والعُزّى ، وعشتروت . وكانوا يقدمون الخمور في احتفالاتهم الدينية .

ان بلاد الانباط : بلاد صخرية تحيط بها الرمال يقال لها العربية الحجرية Arabia Petraea وعاصمتها (بطرا Petra) ودمشق وأيلة واليمن وموانيء بلاد الشام وبعض جزر البحر الابيض المتوسط . وكانت تقع على الطريق التجارية التي تبدأ من الهند فتتجه

الاناضول

انطاكية

اللاذقية

قبرص

البحر المتوسط

سوريا

حمص

بيروت

دمشق

بصرى

اورشليم

بيت المقدس

غزة

الانباط

البتراء

خليج العقبة

تدمر

التدمريون

نهر الفرات

الغساسنة

بادية الشام

الانباط والتدمريون
والغساسنة

نحو البحر العربي فعدن ثم تنقل البضائع براً فتحملها القوافل الى اليمن والحجاز مارة ببعض المدن الشهيرة كصنعاء ومكة والمدينة الى ان تصل الى مصر أو فلسطين وسورية مستفيدة من الآبار التي تمر بها •

والانباط دولة متحضرة شيد اهلها البيوت والقصور والمعابد والمسارح • كما نحتوا كثيراً من مبانيهم وبيوتهم من صخور الجبال التي تشاهد بقاياها حتى اليوم في « الرَّقيم » الواقعة في وادي موسى من بلاد الاردن • ويسترجح ان « الرَّقيْم » هي (بطرا Petra) أو « البتراء » • وقد وصلت « البتراء » الى درجة كبيرة من التقدم والعُمران فقد ضرب ملوكها النقود ، واستوزروا الوزراء ، ووسعوا رقعة المملكة ، وقاوموا أنتيغونس Antigonus خليفة الاسكندر وتحالفوا مع الروم •

ولم تتأثر تجارة « البتراء » الا بعد أن صارت التجارة تنقل من الهند بالطريق البحري والا بعد أن تحول الطريق البري الى مدينة « تدمر » •

ان الانباط من الشعوب العربية • ويجمع مؤرخو اليونان على تسميتهم بالعرب،وللمؤرخين آراء عديدة عن محل سكناهم الاول فيرى البعض انهم خرجوا من الجزيرة العربية • ومنهم من يرى انهم قدموا من العراق باعتبار ان كلمة « نبط » تطلق على سكان ما بين النهرين ولان لغتهم آرامية متخلفة عن لغة أهل العراق • ومنهم من تقول ان النبط من جبل شَمَّر في اواسط بلاد العرب انتقلوا الى الجزيرة الفراتية لما فيها من الخصب والرخاء• ثم غزاهم الآشوريون أو الماديون فتحولوا عنها • ورى آخرون انهم من شواطىء الخليج العربي• كما ان هناك من العلماء من يذكر ان بختنصر الكلداني جاء بهم من العراق في القرن السادس قبل الميلاد فأسكنهم « البتراء » وما حولها •

وتستنتج من دراسات العلماء للانباط انهم كانوا يتكلمون العربية،

وان جميع اسمائهم عربية المبنى والمعنى ، وان لغتهم عربية الا أنخطهم كان يكتب بالحروف الارمية ، واسماء ملوكهم وملكاتهم اسماء عربية. ومثل ذلك يقال عن اسماء آلهتهم التي كانت تشبه الآلهة العربية في الحجاز .

واشتهر الانباط بعدد من الملوك الذين حكموا دولتهم من سنة ١٦٩ ق.م حيث حكمهم « الحارث الاول » والملوك الذين تولوا من بعده واشهرهم : « الحارث الثالث » (٨٧ — ٦٢ ق.م) وهو الذي تمكن ان يتغلب على اليهود في مواطن عديدة ، ويحاصر القدس، وينقذ أهل دمشق من السلوقيين ، ويتولى الحكم على اواسط بلاد الشام ، وكان ذلك في عهد المسيح (ع) . وامتد سلطانهم الى بلاد « الحِجْر » المعروفة بمدائن صالح في شمال الحجاز .

واستمر حكم الانباط الى أيام الامبراطور الروماني « تراجان » الذي توجه الى الشرق في سنة ١٠٦م وقضى على دولة الانباط العربية واصبحت بلادهم جزءً من الامبراطورية الرومانية واحدى مقاطعاتها.

ويبدو ان هذه الدولة قد وصلت في توسعها الى نهر الفرات شرقاً اي انها شملت معظم شمال جزيرة العرب ، وجميع سيناء وحوران ، ووصلت الى وادي القرى جنوبا واصبحت مدينة ثمود أو « مدائن صالح » من ضمن ممتلكاتهم . وقد تطور خطها المأخوذ من الخط الارمي الى الخط العربي الذي انتشر في الحجاز ، ودُوِّنَ به القرآن ثم انتشر في البلاد العربية والبلاد الاسلامية كافة .

٣ ـ الدولة التدمرية

هي دولة عربية في لغتها وجنسها . قامت في البادية العربية المحصورة بين العراق والشام . واتخذت مدينة «تَدْمُر» عاصمة لها. وتقع على نحو (١٥٠) ميلاً من الشمال الشرقي لمدينة دمشق ، و (١٠٠) ميل شرقي حمص . وأصبحت « تدمر » محطة للقوافل

التجارية بين الحيرة ودمشق • وبلغت التجارة ذروتها في « تدمر » بعد القضاء على مدينة « البتراء » التجارية عاصمة الانباط • وكانت تدمر قد بنرت بالصفاح والعمد ، وفي ذلك يقول النابغة الذبياني في احدى اعتذارياته : يبنون تدمر بالصفاح والعمد •

وقد ظلت الدولة التدمرية تتمتع باستقلالها الى ان استطاع الامبراطور هادريان الروماني في سنة ١٣٠ م ان يجعلها تحت حمايته• ثم أصبحت مستعمرة رومانية • وزادت أهميتها في اثناء الحروب التي جرت بين الفرس والرومان • وقد ساعد التدمريون الرومان في هذه الحروب بقوة من الفرسان كما ساعدوا بختنصر قديماً بقوة من رماة النبال تقدر بـ (٨٠٠٠) رامٍ عند هجومه على بيت المقدس •

وكانت حكومة تدمر تناط بمجلس من الشيوخ يرأسه رئيس متنفذ ، ومجلس للعشائر يضم افراد العشائر كافة • وكان للمدينة رئيس اليه ادارة المدينة يساعده عدد من الموظفين للشؤون المالية ، والقضائية ، مع قائد للجيش ، وآخر للحامية العسكرية •

وكان النفوذ الحقيقي في تدمر بيد العرب وليس بيد الرومان • ومن امراء « تدمر « الاقوياء (أُذَيْنة) الذي حاول القضاء على سيادة الرومان ولذلك قتلوه في أواسط القرن الثالث الميلادي • وكان ابنه « أُذَيْنة « الثاني شديد النقمة على الرومان • وكان محبوباً من جميع العرب الساكنين حول تدمر • وقد جعله الامبراطور « ڤاليريان » قنصلاً على تدمر • وكان سابور الساساني قد احتل تدمر وأسر الامبراطور « ڤاليريان » في سنة ٢٦٠ م في الحرب التي وقعت بينهما فخرج « أُذَيْنة » الثاني على الساسانيين واسترد البلاد التي أخذوها من الرومان ، وحاصر المدائن • وبذلك امتدت سلطته على سورية وما يليها • وأصبح « أُذينة » سيد الشرق الروماني، ولقبوه بملك الملوك• ولما قتل بحمص خلفه ابنه وهب اللات ، وقامت امه زنوبية العربية

وصية عليه . وكانت ذات حزم ونفوذ وشجاعة ودهاء . وقد تلقب وهب اللات بلقب « اوغسطس » واسقط اسم الامبراطور « اورليان » من النقود . وتولت امه « زنوبية » أو « الزبّاء » قيادة الجيش ، وتمكنت ان تسيطر على الشام ومصر والعراق وآسية الصغرى ، وضيقت الخناق على اورليان . ونادت بنفسها امبراطورة على البلاد ، غير انه استطاع أخيراً ان يحاصر تدمر فحاولت زنوبية الفرار الى بلاد الفرس ، ولكن الرومان تمكنوا من القبض عليها . وفي سنة ٢٧٢ م سلمت مدينة تدمر الى اورليان فعفا عن آهلها ، واطلق سراح زنوبية ، إلا ان تدمر قامت بثورة جديدة لتستقل عن الرومان ، لكن اورليان قضى عليها ، وهدم اسوار المدينة ، وقتل أكثر سكانها ، وأخذ زنوبية أسيرة الى روما حيث قضت نحبها هناك .

لقد كانت زنوبية ملكة عربية تستعرض جيوشها بنفسها ، وتمر امام صفوفهم ممتطية صهوة جوادها ، وعليها لباس الحرب ، وعلى رأسها الخوذة مرصعة بالدر والجوهر ، واحدى ذراعيها مكشوفة على عادة اليونان والرومان .

وكانت للتدمريين نقود ضربت باسماء ملوكهم ، وصورت عليها صورهم ، ودونت فيها اسماؤهم . كما كان لهم عدد من الآلهة تحمل اسماءً عربية وإرمية من اشهرها : بعل ، وشمش ، واللات ، ورحيم ، وعزيز ، وسعد ، وبعل شمين[1] أي اله السماء ... الخ .

ومن أهم آثار التدمريين التي لم يزل بعضها قائماً :[2]

١ ـ هيكل الشمس أو هيكل بعل : وهو بناء مربع طول كل ضلع من اضلاعه (٢٢٢) مترا يحيط به سور عالٍ ارتفاعه واحد وعشرون مترا ، وفيه اساطين ضخمة يبلغ عددها مئة اسطوانة تكوّن صفوفاً منتظمة .

---

(١) لا يزال في لبنان بلدة باسم «بعلشميه» واخرى باسم «راشميه»

(٢) زيدان : العرب قبل الاسلام ص ٩٠ـ٩١

٢ ـ الرواق الأعظم : على مقربة من المعبد المذكور وهو يتكون من شارع في الوسط ومن شارعين جانبيين • والرواق يمتد على طول المدينة من الجنوب الشرقي الى الشمال الغربي في مسافة طولها (١١٢٥) متراً ، وعدد اساطينه نحو (٧٥٠) اسطوانة ولا يزال قائماً منها نحو (١٥٠) اسطوانة ، وارتفاع الاسطوانة أكثر من (١٧) متراً •

٣ ـ المدافن : وهي كالابراج المستطيلة وعددها أكثر من مئة مدفن تنتشر حول المدينة • وكل مدفن يتكون من أربع طبقات علوها (٢٤) متراً وعرضها تسعة امتار •

ومما يدل على حضارة « تدمر » اشتغالها بالتجارة بين الشرق والغرب فقد كانوا يحملون تجارتهم من جزيرة العرب ، ومن بلاد الهند وينقلونها الى الهلال الخصيب ، والى بلاد الروم ، ومدن اوربة • لان معظم ما كانت تزدان به مجالس القياصرة ، والملوك وأهل الثراء، كان يحمل اليهم من الشرق على يد الانباط والتدمريين والمعينيين •

ولم يكتف التدمريون بنقل التجارة بين الشرق والغرب بل مارسوا التجارة بأنفسهم فكانت لهم بذلك مراكز تجارية في العراق والشام والمدن الفينيقية ومصر وروما • ووصلوا الى فرانسة واسپانية • ولم تضعف تجارتهم الا بعد الحروب التي جرت بينهم وبين الرومان • وزاد ضعفها بعد سيطرة الساسانيين على طرق التجارة الهندية • وظلت تدمر على هذه الحال الى ان دخلت في حوزة الاسلام عندما مر بها خالد بن الوليد سنة ١٣ هـ (٦٣٤ م) •

٣ ـ دولة الغساسنة

لقد اتجهت الانظار بعد سقوط دولة الانباط نحو مدينة « بُصْرَى » التي جعلها الامبراطور « تراجان » عاصمة للمنطقة العربية التي انشأها جنوبي بلاد الشام ، والتي أصبحت فيما بعد عاصمة لدولة الغساسنة ، ووريثة لبلاد « تدمر » •

وسنتكلم بايجاز على هذه الدولة التي سيطرت على بادية الطرف الغربي من الهلال الخصيب ، كما سيطرت دولة المناذرة اللخميين في العراق على بادية الطرف الشرقي من الهلال باعتبارهما دولتين عربيتين من دول الجزيرة العربية لان طبيعة الهلال الخصيب من الناحية الجغرافية كطبيعة الجزيرة العربية ، ولان وجود العرب في الهلال الخصيب ، وبين العراق والشام يرجع الى زمن قديم • ولذلك فان الهلال الخصيب يُعد جزءاً لا يتجزأ من الجزيرة العربية ، بل يعتبر امتداداً طبيعياً لها • وسكانه عرب من الشعوب العربية ، التي سكنت الجزيرة العربية • وأما لغتهم التي كانوا يتكلمونها فإنما هي لغة عربية ايضاً •

ان المؤرخين يذكرون ان الغساسنة نزلوا مشارف الشام في الاراضي المعروفة اليوم بشرقي الاردن، ويقولون: انه اطلق عليهم «أزْد غسان» على أساس انهم قحطانيون جاءوا من اليمن بعد انهيار « سد مأرب » أو انهم جاءوا من الحجاز على رأي من يعتبرهم عدنانيين • ثم يذكر المؤرخون انهم ينتسبون الى جدهم الاعلى المعروف بـ « جَفْنَة » ، وأنهم استولوا على السلطة التي كانت بيد بني ضُجْعُم إحدى القبائل العربية التي يطلق عليها « الضجاعمة[٣] » •المنسوبين الى سَلِيح بن حُلوان • وبنو سليح عرب ينتمون الى سليح بن حلوان بن عمران بن إلحاف بن قضاعة • وأخيراً امتد سلطان الغساسنة الى دمشق ، وتدمر وفلسطين ولبنان • وقد استفاد منهم الرومان في ضرب خصومهم من الفرس عندما وجدوا فيهم حلفاء اقوياء لهم، ثم اتخذوهم لمخاصمة ملوك الحيرة كلما ارادوا ضرب الفرس ، ولذلك كان النزاع على أشده بين ملوك « بُصْرَى » في الشام وملوك « الحيرة » في العراق • ولقد عاهد الرومان الغساسنة ان يمدوهم دوماً بقوات

---

(٣) المحبَّر : ٣٧٠

عسكرية لمحاربة القبائل العربية ، مقابل المعونات العسكرية التي يقدمها الغساسنة للرومان إذا وقعت حرب بين البيزنطيين والساسانيين .

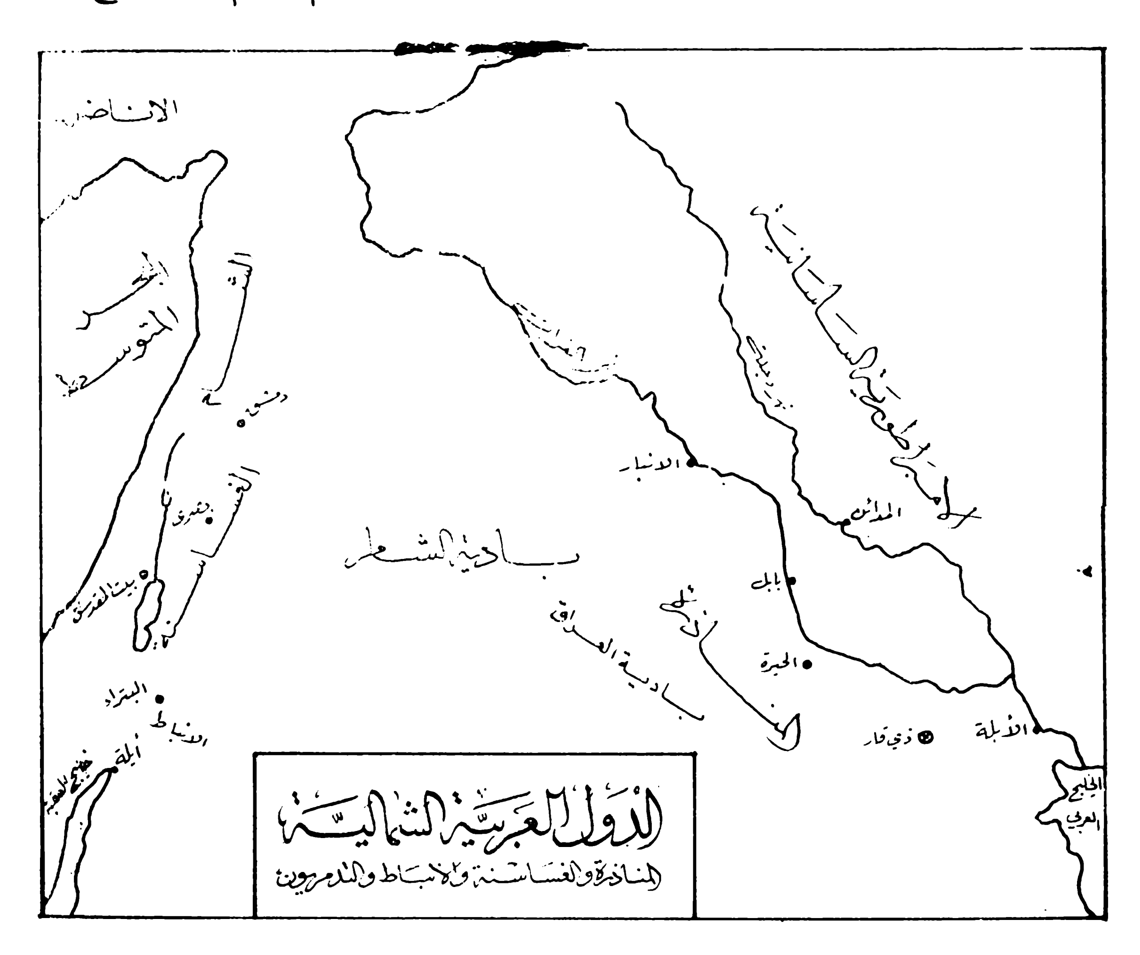
ويختلف المؤرخون العرب والغربيون في عدد الملوك الذين تولوا حكم الغساسنة ، كما يختلفون في ترتيبهم وسني حكمهم . ويذكرون من اشهر ملوكهم : « الحارث بن جَبَلَة » المتوفى سنة ٥١٩ م وهو الذي انتصر على خصمه « المنذر » بن ماء السماء ملك المناذرة وتمكن من قتله قرب قنّسْرين في موقعه تعرف بـ « مرج حليمة »[٤] سنة ٥٥٤ م وكان من أسباب هذه المعركة : النزاع على الاراضي الممتدة بين دمشق وتدمر ، عندما ادعى ملك الحيرة ان قبائلها خاضعة له . وهذا « الحارث بن جَبَلَة » هو الذي وطد مذهب « اليعاقبة » القائل بالطبيعة الواحدة للمسيح (ع) في بلاد الشام . وبعد وفاته في سنة ٥٦٩ م أو سنة ٥٧٠ م اعقبه ابنه المنذر فحارب المناذرة وانتصر عليهم في موقعة « عين اباغ » قرب الحيرة . وكان ملك المناذرة يومئذ « النعمان ابو قابوس » . وفي عهده هاجم المناذرة بلاد الغساسنة منتهزين فرصة الخلاف بين الغساسنة والروم . غير انه سرعان ما اصطلح الغساسنة والروم وكان من نتائج ذلك انعام البيزنطيين في سنة ٥٨٠ م بالتاج على حليفهم « المنذر » بعد أن كانوا يمنحون « الاكليل » لعمالهم العرب . لكنهم عادوا واختلفوا معه لاسباب سياسية ودينية فنفوه الى القسطنطينية . ثم نقلوه الى جزيرة صقلية جنوبي ايطالية حيث توفي هنالك ، فثار ابناؤه الاربعة بقيادة اكبرهم : « النعمان بن المنذر » وتحصنوا في البادية العربية ، وأخذوا بمهاجمة الروم ، غير أن البيزنطيين احتالوا على «النعمان بن المنذر» ، وتمكنوا من اسره سنة ٥٨٣ م وارساله الى القسطنطينية .

---

(٤) منهم من يجعلها معركة « عين اباغ » قرب الحيرة . راجع تاريخ العرب قبل الاسلام لجرجي زيدان ص ٩٣ وابن الاثير ص ٢٤٥

وقد حكم بعده امراء من « آل جَفْنَة » غير ان الساسانيين في سنة ٦١٣ م استطاعوا احتلال بلاد الشام فقضوا على ملكهم فاضطر بعض امرائهم الى الالتجاء الى البادية العربية ، أو الفرار الى بلاد الروم . وفي سنة ٦٢٨ م انتصر الروم البيزنطيون على الفرس الساسانيين ، وتمكنوا ان يستردوا منهم الشام . والى ذلك اشار القرآن الكريم في سورة الروم بالآيات الآتية: «الم . غُلِبَتْ الروم. في أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيَغْلِبون . في بضع سنين ، لله الأمرُ من قبلُ ومن بعدُ ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ... » (١ ـ ٥ ـ الروم) .

وكان آخر الامراء في مملكة الغساسنة « جَبَلَة بن الإيهم » الذي حارب العرب المسلمين في موقعة « اليرموك » ثم اسلم ، وحج



الكعبة في خلافة عمر بن الخطاب غير انه ارتدّ وهرب الى بلاد الروم بعد ان حكم عليه عمر بن الخطاب في قضية اعرابي في اثناء الطواف حول الكعبه • وزالت دولة لغساسنة الى الابد مع زوال البيزنطيين في بلاد الشام بعد انتصار العرب المسلمين في سنة ١٣ هـ (٦٣٤ م) في موقعة اليرموك، وفرار «جَبَلَة بن الايهم» ومن معه الى القسطنطينية•

٤ ـ دولة المناذرة :

ان دولة المناذرة دولة عربية ذات شأن في الحضارة العربية ، لاشتهارها بالتجارة ، وتعليم القراءة والكتابة، وانشاء القصور الشهيرة في الحيرة وما جاورها • وقد نشأت في الطرف الجنوبي الغربي من العراق •• وكان لها من الاهمية بالنسبة للفرس كأهمية الغساسنة بالنسبة للروم •

ويذكر المؤرخون في أخبار تأسيسها ، أن قبائل عربية من تَنُوخ سكنوا على سِقْي الفرات الادنى ، في وقت كانت أمور الدولة « الپارثية » قد اضطربت وآلت الى الزوال، وحل محلها الساسانيون• وقد حكمها عدد من الملوك العرب على عهد الدولة « الپارثية » التي كانت تحكم بلاد الفرس • ولما تولى الساسانيون الحكم بعدهم ، اعترفوا بملوك العرب في الحيرة املاً في الاستفادة منهم في صد غارات القبائل العربية ، ولمعاونتهم في حروبهم مع الروم البيزنطيين ، ولذلك منحوهم استقلالهم ، ولم يتدخلوا في شؤونهم الداخلية وسمحوا لهم بتتويج ملوكهم • ولذلك نجد لهم في بعض الاحيان نفوذاً في أمور الفرس السياسية •

ولعل أول امرائهم : «مالك بن فَهْم الأَزدي» ثم ابنه «جَذِيمة الابرش » أو « الوضّاح » الذي خلفه من بعده ابن اخته « عمرو بن عَدِيّ » الذي يُعد مؤسس الاسرة اللَّخْمية أو الدولة النَّصْرية بالعراق في أواخر القرن الثالث الميلادي • وهو الذي جعل مقره « الحيرة » على الفرات • وكان للحيرة أهمية تجارية لوقوعها على

الطريق التجاري بين جزيرة العرب ، والمدائن عاصمة الساسانيين .

وتولى بعد عمرو ابنه « امرؤ القيس » من سنة ٢٨٨ الى ٣٢٨م. وقد استفاد من اضطراب أمور الساسانيين والبيزنطيين ، فوطد سلطانه على القبائل العربية في بادية الشام والجزيرة ، كما اخضع عدداً كبيراً من القبائل العربية . وصار سلطانه يمتد الى حدود بلاد الشام ، والى قلب الجزيرة العربية . وخضع للمناذرة عدد من القبائل العربية ،ووصل نفوذهم الى نجران اليمن .

ومن ملوك المناذرة : « النعمان الاعور أو السائح » . وكان من أهم اعماله : عنايته بالجيش ، وتأسيس كتيبتين فيه يقال لهما : « الدَّوْسَر » وأهلها « تَنُوخ » و « الشهباء » وأهلها (الفرس). وكان يغزو بهما من لا يدين له من العرب بالخضوع . ومن المؤرخين من يذكر ثلاث كتائب أخرى هي : « الرهائن » التي تتكون من ٥٠٠ رجل يأخذهم الملك من قبائل العرب يكونون على بابه لمدة سنة ، ثم يبدلهم بغيرهم ، وكان يغزو بهم . و « الصنائع » وهم « بنو قيس وتَيْم اللات » وكانوا خواص الملك والمقربين اليه لا يبرحون بابه . و«الوضائع» ولعلهم هم «الاشاهب» وكانوا نحو ألف رجل من الفرس كان كسرى يضعهم تحت تصرف ملك المناذرة . وكانوا يبدلون في كل سنة .

وكان هذا النعمان هو الذي أمر ببناء القصرين الشهيرين : « الخَوَرْنَق والسَّدِير » وقد عدَّ الخورنق من معجزات الفن العربي . والنعمان هو الذي اشرف على تربية «بهرام جور بن يزدجرد» ملك الساسانيين . ولما مات أبوه ساعده على ارتقاء العرش الساساني، مما يدل على عظم نفوذه في البلاط الساساني .

وبعد وفاة النعمان المذكور تولى حكم المناذرة عدد من الملوك ، من أشهرهم : المنذر بن ماء السماء . وماء السماء لقب أمه مارية أو ماوية . وتعتبر ايامه من أزهى عهود اللخميين في العراق . وقد ساعد

هذا المنذر كسرى قُباذ في حروبه مع البيزنطيين، الا أن قباذاً عزله لانه لم يعتنق « المَزْدَكِيّة » • وولى مكانه الحارث ملك كندة نحو أربع سنوات • فلما مات كسرى قُباذ وتولى بعده كسرى انو شِروان قاوم « المزدكية » ، ورد المنذر بن ماء السماء الى عرش الحيرة مرة أخرى • وعلى آثر ذلك انتقم المنذر بن ماء السماء من دولة كندة ، وتوغل في جزيرة العرب • وناصر الساسانيين في حروبهم مع البيزنطيين • وهجم على الغساسنة واسر منهم (٤٠٠) امرأة قدمهن ضحايا « للعُزّى » • وتولى الحكم بعد مقتله عمرو بن هند الذي استطاع ان يوسع سلطانه في الجزيرة العربية • وهو الذي كان يفد الى بلاطه شعراء العرب أمثال : طرفة بن العبد ، والحارث بن حِلِّزَة اليشكري ، وعمرو بن كلثوم التغلبي • وكان يغدق عليهم الاموال ، ويجزل لهم العطاء لما لهم من قوة التأثير على الناس • وانتهى حكم عمرو بن هند عندما قتل على يد الشاعر المشهور عمرو بن كلثوم التغلبي لاهانة وجهتها هند الغسانية أو الكندية ام الملك الى ام الشاعر •

ومن أشهر ملوك الحيرة الذين تولوا الحكم بعد عمرو بن هند : « النعمان بن المنذر » الملقب بأبي قابوس (٥٨٠ ــ ٦٠٢ م) صاحب الشاعر العربي النابغة الذبياني الذي له فيه مدائح مشهورة • وهو الذي استطاع ان يوسع سلطانه الى البحرين ، ويخضع عددا من القبائل في الجزيرة العربية • وأخيراً ساءت العلاقات بينه وبين كسرى ابرويز ، فقبض عليه كسرى وأنّبه وزجه في السجن بخانقين[٥] ، حيث بقي فيه الى أن مات بالطاعون في رواية ، أو أنه قتله ورمى بجثته تحت ارجل الفِيَلَة • وعين كسرى بدلاً منه « إياس بن قَبِيصَة الطائي » وأيده بحامية فارسية قوية • وبذلك قضى على المناذرة بالحيرة ، غير أن القبائل العربية اخذت تناوىء حكم الساسانيين وتقاومه ، حتى تمكنت من التوغل في داخل العراق ، ووقعت من جراء ذلك مناوشات

---

(٥) في المعارف لابن قتيبة ص ٦٥ : اسباط .

وحروب اشهرها : وقعة « ذي قار » التي كان سببها المباشر : ان النعمان ابا قابوس اودع سلاحه وأهله عند أحد زعماء العرب « هانىء بن مسعود الشيباني » فلما طلب اليه كسرى ان يسلم اليه سلاح النعمان وأهله رفض طلبه واستعد للحرب هو وقبيلته بنو بكر • وخطب في قومه قائلاً « يا قوم ان الحذر لا يدفع القدر ، وأن الصبر من اسباب الظفر • المَنِية ولا الدَّنِيّة ،واستقبال الموت خير من استدباره » • فوقعت الحرب بين العرب وبين الفرس ، فانهزم الفرس امام العرب ، فاضطر كسرى الى اقصاء اياس بن قبيصة الطائي ، وحكم الحيرة حكماً مباشراً •

اما المناذرة بعد هذه الاحداث فقد استطاعوا ان يؤسسوا لهم دولة في البحرين ، وتمكن ملكهم « المنذر الغرور » ابن النعمان ان يضع اسس هذه الدولة في البحرين ، وأن يقلل من سلطان الفرس في الجزيرة العربية • غير أنه في هذه الظروف العصيبة ظهر الاسلام ،وأخذ ينتشر بسرعة في الجزيرة العربية ، وكان المنذر الغرور ممن قاوم الدعوة الاسلامية في البحرين غير ان المسلمين استطاعوا ان ينتصروا عليه ، وبذلك قضي على المناذرة نهائياً • وتمكن خالد بن الوليد من احتلال الحيرة واخضاعها له سنة ١٣ هـ ـــ ٦٣٤ م وكان ذلك مقدمة للقادسية التي قضت على الانبراطورية الساسانية الى الابد في خلافة عمر بن الخطاب •

ويمكن ان نشير بايجاز تام الى ان المناذرة كانوا جميعاً عرباً ، سواء كانوا من تَنُوخ ام من لَخْم • وانهم كانوا يتكلمون العربية، ويشجعون الشعراء • غير أنهم كانوا يكتبون بالخط السرياني• وكانوا جميعاً وثنيين حتى أيام ابي قابوس الذي عَمَّد على المذهب النسطوري• واشتهر أهل الحيرة ايضاً بتعليم الكتابة لقريش وغيرهم • وكان ملوك الحيرة ملوكا متوّجين يقيمون في بلاط فخم له من الابهة والعظمة ، ما للبلاط الساساني ، كما انهم اتخذوا لهم حُجّاباً • وكان الواحد منهم يخاطَب بـ « أبَيْتَ اللَّعْن » •

الفصل الخامس

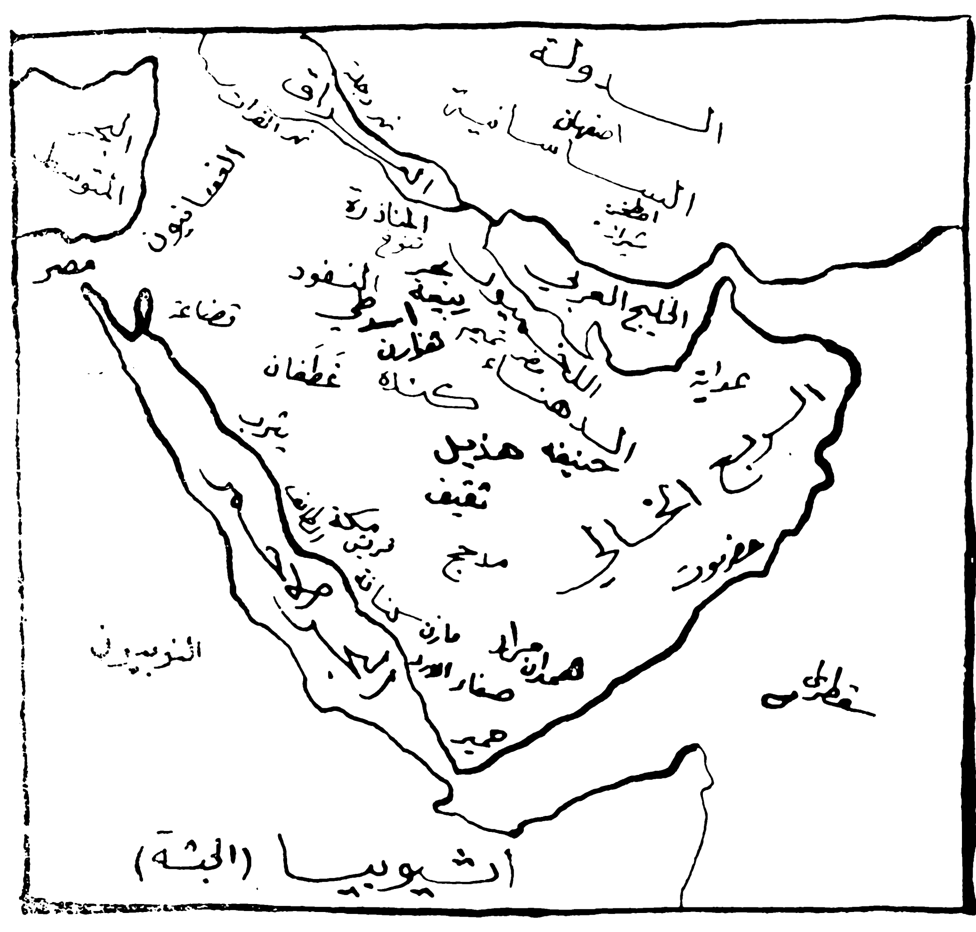
حكومة قريش

لابد ان نذكر قبل الكلام على حكومة قريش في الجاهلية ان الدول العربية الجنوبية والدول العربية الشمالية التي كانت تتكون من الانباط ، والتدمريين ، والغساسنة ، والمناذرة ، وقريش في الحجاز ، وجميع القبائل العربية التي كانت تسكن في انحاء الجزيرة المختلفة كانت تتكلم اللغة العربية . ولم تختلف العربية الجنوبية عن العربية الشمالية الا اختلافا طفيفاً في الالفاظ ونوع الخط ، حيث استعمل « الخط المُسْنَد » في الجنوب و « الخط الحِيْري » في الشمال . وقد غدت العربية اللغة الرسمية في جميع الجزيرة العربية غداة ظهور الاسلام ، واعتناق العرب له. وسرعان ما أصبحت لغةالسياسة والثقافة في البلاد التى فتحها العرب المسلمون في آسية وافريقية واوربة ، ولم يمض وقت طويل عليها حتى اصبحت لغة العلم والتدوين .

ولما كان لقريش أهمية بالغة في العصر الذي جاء فيه الاسلام فسنفرد فصلاً خاصاً بحكومة قُريش ، ووظائفها الكبرى بمكة ، ومظاهر تمدنها ، بعد أن تكلمنا بشيء من التفصيل على الدول الشمالية .

لقد سكن العدنانيون وهم جيل كبير من العرب كالقحطانيين ، بلاد الحجاز وتفرقوا بأحيائهم وبطونهم وقبائلهم ، فسكنوا تِهامة ونجداً، وبين اليمامة وَهَجَر ، وعُمان والبحرين . اما قريش فسكنت مكة وتحضرت فيها .

والعدنانيون فرعان كبيران عكّ ومَعَدّ فأما عَك فنزلت في نواحي زَبِيد جنوبي تِهامة • وأما مَعَدّ فهم البطن العظيم الذي



القبائل العربية فى الجزيرة العربية

تناسل منه العدنانيون • وأهم فروعه : نِزار ، ومنه قُضاعة ، ومُضَر، وربيعة ، وإياد وأنمـار •

وللعدنانيين حروب يطلق عليها « الايـام » وقعت بينهم وبـين القحطانيين أو بينهم وبين فارس • كما جرت وقائع وأيام فيما بينهم • وقد دوّن الاخباريون كثيراً من اخبارهم، كأخبار الاحلاف، والمنافرات والمصالحات،والتحكيم الذي كان يجري بين رؤسائهم لفض الخصومات، وحل المشاكل ، وانهاء القتال • ومن أشهر ايامهم : داحس والغبراء ، وحروب الفِجار بين قريش وكنانة وقيس عَيلان • ومـن احلافهم : حلف الفضول ، وحلف لُعَقَة الدم ، وحلف المطيّبين •

ويذكر الاخباريون ان أول من تولى امارة الكعبة قبيلة يمانية يقال لها « جُرْهُم الثانية » ويظهر أنها احتلت مكة قبل أن يَصلها اسماعيل بن ابراهيم الخليل (ع) • ويذكر المؤرخون ان قبيلة خزاعة وهم طائفة من عرب اليمن ايضاً ، استطاعت ان تخرجها من الكعبة بعد ان استعانت بِكنانة وهم بطن من مضر •

ويذكرون ايضاً ان كنانة وخزاعة تنازعتا السيادة على الكعبة فتمكنت كنانة « ان تتغلب على خزاعة » وتستقل بأمور الكعبة ، واعطت « مضر » شيئاً من وظائف الحج • وفي اثناء ذلك تشعبت بطون كنانة ومضر ، واصبحوا احياءً وبيوتات متفرقين • وصارت قريش وهي بطن من كنانة ، فرقتين : «قريش البِطاح» و «قريش الظواهر» • ويراد بقريش البطاح : البطون التي كانت تسكن بمكة • وكان بيد رجالها : الوظائف الكبرى ، والتجارة • واما قريش الظواهر : فهم الذين كانوا يسكنون في اطراف مكة • وكان للقرشيين احلاف مع قبائل مختلفة يشاركونهم في حروبهم يطلق عليهم « الاحابيش » • وهم بنو الحارث بن عبد مناف بن كنانة ، وبنو المصطلق من خزاعة ، وبنو الهون من خزيمة[1] •

ولما كانت كنانة وقريش قد تحضرتا في مكة مكان الحج فقد صار لهما التقدم والرياسة على سائر المضريين ، وأصبحت الرئاسة في قريش الى قصي بن كلاب بن مُرَّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فِهْر بن مالك بن النضر بن كنانة • وكان حكيماً عاقلاً ، ذا سياسة ودهاء •

ويذكر المؤرخون ان « قُصَيّاً » كان قد تزوج امرأة يقال لها : حُبَّى بنت حُلَيْل من قبيلة « خُزاعة » وهي ابنة رئيس الكعبة يومئذ فأنجبت له : عبد الدار ، وعبدمناف ، وعبدالعزى ، وعبدقصي• ولما مات شيخ الكعبة حُلَيل الخزاعي اوصى بولاية البيت لابنته حُبَّى

---

(١) ابن الاثير ج٢ ص ١٨

زوجة قصي فاعتذرت بأنها لا تستطيع فتح باب الكعبة واغلاقه فأوصى بالولاية لابن له يسمى المُحْتَرِش وهو ابو غُبْشان، غير ان الابن كان ضعيفاً فابتاع قصي ولاية الكعبة منه بزِقِّ خمرٍ[2] فيما يروى . ومهما يكن من خبر هذه الاسطورة فان قصيا لم يستطع السيطرة على الكعبة الا بعد منافرات وحروب طويلة مع خزاعة .

لقد عمد قصي في أوائل القرن الخامس الميلادي الى تنظيم أمور مكة والاهتمام بشؤون القرشيين ، وكانت أهم اعماله في هذا الصدد: تتلخص بما يأتي:[3]

١ ـ اسكن قريشاً بمكة وانزل كل جماعة منهم في مكان خاص ، وأقطعهم الارباع فبنوا فيها مساكنهم .

٢ ـ جمع بطون قريش كلها وألف من رؤسائهم مجلساً يعرف بـ « الملأ » وقد جعله برئاسته . وكان هذا « الملأ » ينظر في شؤون الكعبة ، وأمور التجارة ، وتجهيز القوافل التجارية ، ودخول الحروب وعقد الاتفاقيات والمعاهدات . .

٣ ـ اسس « دار النَّدْوة » في الضلع الشمالية من الكعبة ، وجعل بابها الى المسجد . وكانت « دار النَّدْوة » مقراً لمشاورات القرشيين ومناقشاتهم ، ومحلاً لاجتماع سفراء القبائل للمداولة في شؤونها ، كما استعملت مكاناً لعقد النكاح . وكانت قريش لا تقضي أمراً الا في « دار الندوة » . وكان لا يسمح للدخول فيها الا لمن بلغ اربعين سنة .

٤ ـ جعل قُصَي لنفسه « حجابة البيت » وهي « السِّدانة » أي انه كان بيده مفاتيح الكعبة ، وهو الذي يأذن للناس بدخولها . وربما عُدت الحجابة والسِّدانة منصبين لا منصبا واحداً .

---

(٢) ابن الاثير ج٢ ص١٨
(٣) زيدان : التمدن الاسلامي ج١ ص ٣٤-٣٩ وابن الاثير ج١ ص٢١

٥ ــ وجعل قصي لنفسه ايضاً : « اللواء » وهــو لواء الحرب ويراد به قيادة الجيوش. واللواء: هو العَلَم الذي يحمل في الحروب. وكان يسمى « العقاب » . وكانت الراية في بني عبد الدار .

وكان في الكعبة الىجانب ما ذكرناه وظائف أخرى كبيرة وصغيرة منها المهم ومنها غير المهم وقد شملت السياسة والادارة والدينوالحرب وكانت تتبع تنظيمات خاصة أشبه بالحكم الجمهوري أو نظام الشورى نوجزها بما يأتي[٤] :

١ ــ السِّقاية : وهي تهيئة الماء العذب من الآبار يحمل للحجاج على الابل بالقِرَب والمزاود ويجمع في حياض من «أدَم» أي من جلود توضع بفِناء الكعبة ، وفي مِنَى ، وعرَفَة . وكان هذا المــاء يمزج بالزبيب ويحلَّى بالتمر احياناً . وظلت السقاية على هذه الحال الى ان حفرت بئر « زَمْزَم » . وكانت السقاية في بني هاشم .

٢ ــ الرِّفادة : وهي الخَرْج المخصص لإطعام الحُجاج الفقراء باعتبارهم ضيوف الله ، وزوار بيته . وتكون النفقة في ذلك من أموال فرضها قصي على قريش . وظلت الرفادة والسقاية قائمتين طوال العهد الجاهلي . ولما جاء الاسلام ابقاهما . وكانت الرفادة في بني نوفل ثم في بني هاشم .

٣ــ قيادة الجيوش : وهي امارة الرَّكب . والقائد يسير امــام الركب في خروجهم للقتال أو التجارة . وكانت قيادة الجيوش بيد بني أميــة .

٤ ــ الأعِنَّة : وهي أعِنَّة الخيل ، وصاحبها يتولى خَيل قريش ويدير شؤونها في الحرب .

٥ ــ الأَشناق : وهي الدِّيات والمغارم وصاحبها اذا انفق شـيئاً فسأل فيه قريشاً صدَّقوه فيه ، وكانت لقبيلة « تَيْم » .

٦ ــ القُبَّة : وهي قبة كانوا اذا خرجوا للحرب ضربوهــا اي

---

(٤) التمدن الاسلامي ج ١ ص ٣٤ ــ ٣٩ وابن الاثير ج١ ص ٢١

نصبوها ، وجمعوا فيها ما يجهزون الجيش به من اعتدة واسلحة •

٧ ـ المشورة : وكان رئيسها يستشار في الامور المهمة• ولم يكن القرشيون يجتمعون على أمر حتى يعرضوه على صاحب المشورة •

٨ ـ السّفارة : كانت قريش اذا وقعت بينهم وبين غيرهم من القبائل حرب ومالوا الى الصلح بعثوا سفيراً يفاوضها • وكان آخر سفير لقريش في الجاهلية عمر بن الخطاب •

٩ ـ الأَيْسار : وهي الازلام التي كانوا يستقسمون بها اذا هموا بأمر عام من سفر أو قتال• فكانوا يستقسمون بالأزلام ويقترعون بها وكانت في « جُمح » •

١٠ ـ الحكومة : وهي التحكيم بين الناس اي الفَصْل بينهم اذا اختلفوا في أمرٍ وهي أشبه بالقضاء في الاسلام •

١١ ـ الأموال المحجرة : وهي أموال كانوا يخصصونها لآلهتهم وفيها النقد والحلي •

١٢ ـ العمارة : ويراد بها المحافظة على المسجد الحرام ، وصيانة حرمته ، ومنع الرَّفَث فيه ، والتكلم بكلام بذيء ، أو بصوت مرتفع•

ولما مات قُصَي اوصى من بعده لابنه عبد الدار بما كان له من الحجابة ، واللواء ، والندوة والرفادة والسقاية • وبعد موت عبد الدار توارث ابناؤه هذه الوظائف ، غير ان بني عبد مناف نافسوهم عليها • وكان من نتيجة ذلك ان تفرق القرشيون اثني عشر بطناً • وأصبحت المناصب التي كانت لبني عبد الدار بين بني عبد شمس وبني عبدالدار، وتعاقدت الاحزاب فيما بينها على الحرب بحلف اكدوه بالطِّيْب • واحضر بنو عبد مناف جَفْنَة مملوءة طيباً غمسوا ايديهم فيها فسمي هذا الحلف « حلف المطيّبين » وتأهبوا للحرب، غير أنهم تنادوا للصلح واتفقوا على تسوية تتلخص في : ـ

١ ـ ان تكون السقاية والرفادة لبني عبد مناف ورئيسهم يومئذ

هاشم جد العلويين والعباسيين .

٢ ـ أن تكون الحجابة واللواء لبني عبدالدار .

وقد نجح هاشم حفيد قصي في عقد معاهدات تجارية مع البيزنطيين لحماية قوافل قريش في الشام ومصر . وعقد اخوه عبد شمس اتفاقاً تجارياً مع ملك الحبشة . كما عقدت معاهدة تجارية مع الفرس الساسانيين وبذلك زادت ثروة القرشيين وكثر اغنياؤهم والمرابون فيهم وصاروا يضاربون بالدراهم والدنانير وربما تلاعبوا باسعارها .

ولما توفي هاشم خلفه ابنه عبدالمطلب ، واقام السقاية والرفادة. وكانت له رفادة على الحبشة وعلى ملوك اليمن من حِمْيَر .

وتعتبر حكومة قُصَي اشبه بحكومة جمهورية . ويذكر المؤرخون ان بني سهم وهم اجداد عمرو بن العاص كانوا اصحاب الحكومة اي التحكيم في قريش قبل الاسلام . ويظهر ان العرب كانوا يحتكمون اليها في مشاكلهم وخصوماتهم .

وكان يتولى حكومة قريش في عهد قصي وبعده : اصحاب الرأي والحلم والدهاء .

وأخيراً يمكن ان نذكر ان قريشاً اهتمت بالتجارة والأيلاف في رحلة الشتاء الى اليمن ورحلة الصيف الى الشام ، واشتغلوا بالمراباة. ويظهر ان بعض العرب كانوا يكرهونها لانهم كانوا يدفعون لها الربا كما كانوا يكرهون اليهود في المدينة لانهم كانوا يبتزون اموالهم بالربا الفاحش . غير ان العرب جميعاً اعترفوا بسيادة قريش الدينية على البيت ، وبرجاحة عقول القرشيين وحلومهم .ولذلك اصبح لقريش حرمة كبيرة في نظر سائر العرب الذين غدوا يفدون الى مكة من كل حَدَب وصوب ليس للحج فقط بل للتجارة ايضاً .

الفصل السادس

نظـرة في معنى الجاهليـة

الجاهلية : كلمة تطلق على العصر الذي سبق الاسلام • وقد ظن كثيرون انها مشتقة من الجهل الذي هو ضد العلم والمعرفة • ولهذا عدوا العرب قبل الاسلام أمة جاهلة في كل شيء ، ولم تشتهر بالعلم الا بعد ظهور الاسلام • إن هذا الرأي ينهار ويتهافت أمام الحقيقة عندما نعلم ان الجاهلية مشتقة من الجهل بالدين الحق ، ومن الجهل الذي هو ضد الحلم والعقل احيانا ، ليس من الجهل الذي هو ضد العلم •

فقد وصف القرآن العرب المعاصرين للرسول (ص) بالعلم :

« كتاب فُصِّلَتْ آياتُه قرآناً عربياً لقوم يعلمون » • (٣ ـ فُصِّلَتْ) • ووصفهم بأنهم كانوا يعرفون القراءة : « ••• حتى تُنَزِّل علينا كتابا نقرأه » (٩٣ ـ الاسراء) •

ويمكن ان نذكر ان اللغة العربية قبل الاسلام كانت قد وصلت الى مرحلة كبيرة من الرقي ، نلحظ ذلك في الشعر الجاهلي ، والامثال ، والحِكَم التي أثرت عن بلغائهم ، وفصحائهم ، وحكمائهم • وليس أدل على رقي اللغة العربية يومئذ من فهم العرب للقرآن الكريم وهو أعلى نموذج للبلاغة العربية ، فقد كانت لغة القرآن مألوفة عند مختلف الطبقات • وكان القرشيون : « اذا تُتْلَى عليهم آياتُنا قالوا : قد سمعنا ، لو نشاء لقلنا مثل هذا » (٣١ ـ الانفال) •

« واذا رأيتَهم تُعجبك اجسامهم ، وان يقولوا تَسمع لقولهم » (٤ ـ المنافقون)

ولكنهم كانوا ضالين طريق الدين الحق :

« يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ، ويَصُدون عن سبيل الله، ويبغونها عِوَجا ، اولئك في ضلال بعيد » (٣ــ ابراهيم) .

« قد خسر الذين قتلوا اولادهم سَفَهاً بغير علم » (١٤٠ ــ الانعــام) .

وقد وصفوا بالجهل ايضا :

لمكابرتهم ، وعُتُوّهم ، وعنادهم ، ومقاومتهم الدين الجديد . يدل على ذلك قولهم للرسول (ص) « ... لن نؤمن حتى نؤتَى مثلَ ما أوتي رسُلُ الله » (١٢٤ ــ الانعام) . و « ... لن نؤمنَ لــك حتى تَفْجُرَ لنا من الارض ينبوعا . أو تكون لك جنةٌ من نخيل ، وعنبٍ فتُفَجِّرَ الانهارَ خلالها تفجيرا . أو تُسْقِطَ السماءَ كما زعمتَ علينا كِسَفاً ، أو تأتيَ بالله والملائكة قَبيلاً . أو يكونَ لك بيت من زُخرف ، أو ترقى في السماء . ولن نؤمن لرقيك حتى تُنَزِّل علينا كتابا نقرأه . قل سبحان ربي هــل كنت الا بشرا رســولا » (لاسراء ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣) .

وقد عُرفوا باللدَد عند الخصام:

« فانما يَسَّرْناه بلسانك لتُبَشِّرَ به المتقين وتنذرَ بـه قوماً لُدّاً » (٩٧ ــ مريم)

« ومن الناس من يُعجبُك قولُه في الحياة الدنيا ويُشْهِدُ اللهَ على ما في قلبه وهو ألَدُّ الخصام » (٢٠٤ ــ البقرة)

« وقالوا أآلهتُنا خيرٌ ام هو ، ما ضربوه لك إلا جدلاً ، بل هم قوم خَصِمون » (٥٨ ــ الزخرف)

وعرفوا بالعصيان وعدم الطاعة :

ذلك انهم كانوا ذوي حَمِيَّة وأنفة تأخذهم العزة بالاثم لأنفه

الأمور فيصرون على ما فعلوا قال تعالى : « افحكم الجاهلية يبتغون ومن احسن من الله حكماً لقوم يوقنون » (٥٠ ـ المائدة) .

« ولو نزّلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا : إنّ هذا لا سحرٌ مبين » (٧ ـ الانعام) .

« ... ولو اسمعهم لتولّوا وهم معرضون » (٢٣ ـ الأنفال)

« انك لا تسمعُ الموتى، ولا تُسمع الصمَّ الدعاءَ اذا ولّوا مدبرين » (٨١ ـ النمل)

« أفأنت تُسمع الصمَّ أو تهدي العميَ ومن كان في ضلال مبين » (٤٠ ـ الزخرف)

« ماكانوا يستطيعون السمْع وماكانوا يبْصرون » (٢٠ـهود)

« وقال الذين كفروا : لا تسمعوا لهذا القرآن والغَوا فيه » (٢٦ ـ فصّلت)

« ويلٌ لكل أفاكٍ أثيم يسمع آيات الله تُتلَى عليه ثم يُصِر مستكبراً كأن لم يسمَعْها فبشّره بعذاب أليم » (٧و٨ ـ الجاثية) .

وكانت الكتابة والقراءة منتشرتين قبل الاسلام بين العرب ليس في اليمن فحسب بل في الحجاز أيضا ، وليس بين الرجال فقط بل بين النساء[1] ايضا .

ومما يثبت ذلك آيات كثيرة وردت في القرآن ذكرت فيها اسماء ادوات الكتابة ، والقراءة ، ووسائلهما كالقلم ، والكتاب ، والصحف ، ويتلو ، ويقرأ ، واكتتب ، وتملى ، ويسطرون ، وعلّم .. الخ مما يدل على ان العرب كانوا يعرفون هذه الوسائل ، والمصطلحات ، ولايحتاجون الى من يشرحها لهم . ولا شك في ان العرب من أهل اليمن ، والحجاز ودولة كندة ، ودولة الانباط وأهل تدمر ، وعرب الغساسنة ، وعرب المناذرة ، احتاجوا الى القراءة ، والكتابة ، والاعمال الحسابية لتدوين

---

(١) راجع عن النساء اللاتي كن يكتبن في الجاهلية : فتوح البلدان ص٤٥٨ والطبري ج٢ وطبقات ابن سعد ص ١٩٢٠ من الطبعة الاوربية .

الحسابات التجارية في تجاراتهم المختلفة مع الساسانيين والبيزنطيين وسائر العرب ، وفي رحلاتهم التجارية بين الشام ، ومصر والعراق وفارس . وقد كانت الطبقات البارزة منهم تجاراً واغنياء .

ويظهر ان الكتابة كانت منتشرة في الحجاز حتى بين الطبقة الفقيرة في مكه ، يدل على ذلك ان الرسول (ص) طلب الى اسراه بعد موقعة « بدر » ممن لم يستطع ان يَفْدي نفسه بالمال ان يُعَلِّم كلُ واحد منهم عشرة من صبيان المدينة القراءة والكتابة .

وقد عرف العرب قبل الاسلام من وسائل الكتابة : الادم والجلود وهي جلود الغنم ، والمعزى ، والحُمُر ، وسائر الدواب الأهلية والوحشية . وكانت جلود الحُمُر الوحشية تسمى الفلجان . اما الرقوق وهي جلود الغزلان فكانت في غاية الطراوة والنعومة . وقد استعملوها لتدوين معلقاتهم ورسائلهم وبعض امورهم الحسابية .

وقد استعمل العرب العظام العريضة كالاكتاف . وكتبوا على العُسُب وهو السعف وجريد النخل ، وعلى اللِّخاف وهي الحجارة البِيْض الرقاق . كما دوَّنوا اكثر وثائقهم ونصوصهم على الاحجار المختلفة كاحجار الشواهد القبرية ، وجدران المعابد ، والسدود وتماثيل الآلهة في البلاد العربية الجنوبية .

وكانت للعرب قبل الاسلام اخلاق أقر الاسلام كثيراً منها من ذلك ما خاطبت به سفانة بنت حاتم الطائي رسول الله (ص) : « يا محمد هلك الوالد ، وغاب الوافد ، فان رأيت ان تخلي عني ، ولا تشمت بي احياء العرب فان ابي كان سيد قومه ، يفك العاني ، ويقتل الجاني ، ويحفظ الجار ، ويحمي الذِّمار ، ويفرِّج عن المكروب ، ويطعم الطعام ، ويفشي السلام ، ويحمل الكلّ ، ويعين على نوائب الدهر . وما أتاه احد في حاجة فردَّه خائباً » .

الفصل السابع

معارف العرب في الجاهلية

لقد كان العرب في الجاهلية على جانب كبير من الثقافة والمعرفة. فقد ذكرت عنهم الامم القديمة كاليونان والرومان والبابليين ، والاشوريين الشيء الكثير . ووردت اخبارهم في الكتب الدينية المقدسة . وعثر المستشرقون وعلماء الاثار والرحالون ، على نصوص ، وآثار منقوشة ، أو مكتوبة ، في اليمن ، والحجاز ، وبقية اجزاء الجزيرة العربية تدل على ما وصلت اليه حضارتهم . من ذلك النقوش والكتابات التي عثر عليها كل" من آرنو ، وهاليفي ، وگلازر وغيرهم في اليمن . ومن بينها نصوص فيها قوانين عسكرية ، ووثائق قانونية ، وانظمة تشبه الانظمة الدستورية ... الخ .

واما ما يثبت رقي الهندسة المعمارية ، واتقان نظام الري في اليمن فواضح في بناء المدن[1] في الجزيرة العربية وفي بناء القصور ، وانشاء الخزانات واقامة السدود كسد مأرب الشهير الذي بناه السبأيون .

واما مهارتهم في الصناعة فتظهر في صناعة الاسلحة ، وحياكة الانسجة والبرود اليمانية ، وفي الكتابة بالخط المُسْنَد ، والتصوير على الاقمشة والجدران، وفي نحت الآلهة والتماثيل المختلفة من الحجر، والمعدن ، والخشب . أضف الى ذلك أن بعض عرب الجاهلية كانوا يدوّنون أخبارهم في كراريس ، وصحف ، ورقوق ، ونقوش على الجدران ، والمباني ، والاضرحة بالخطين المسْنَد والحيري : الأول

---

(١) راجع كتابنا « عروبة المدن الاسلامية » .

في اليمن ، والثاني في الحجاز وما اليها .

وقد عني العرب بالاضافة الى ما تقدم بمعرفة امور كثيرة اضطرتهم اليها حياتهم ، وطراز معيشتهم كالانساب للانسان فقد عنوا بها باعتبارها من ضرورات العصبية القبيلية . كما عنوا بأنساب الحيوان والانواء الجويه ، ومهاب الرياح لمعرفه هطول الامطار . واهتموا بمعرفه الفلك والنجوم ، ومواقعها للاهتداء بها في أسفارهم ورحلاتهم « وعلامات وبالنجم هم يهتدون » (١٦ ـ النحل) . وكان للكلدان العراقيين الذين التجاوا الى الجزيرة العربية بعد غلبة الفرس عليهم اكبر الاثر في نشر علم الفلك ، فقد اقتبس سكان الجزيرة العربية منهم امورا كثيرة ، وتعلموا مواقع الابراج ، ومنازل الشمس والقمر . كما عرفوا النجوم السيارة والثابتة . وفي هذا الصدد يقول ابن قتيبة : « ان العرب اعلم الامم بالكواكب ، ومطالعها ، ومساقطها » .

وقد عرف العرب ايضا « الميثولوجيا » وهي ما بين الآلهة من حروب وزواج ، وعلاقات . كما ألّهوا كثيراً من الاجرام السماوية كالقمر ، والشمس ، والشّعْرى . وعرفوا الكِهانة . وذكر المؤرخون كثيراً من الكهان والكواهن ، واسجاعهم[٢] . وعرفوا القيافة وهي : الاستدلال بآثار الاقدام ، والحوافر ، والاخفاف على اصحابها ، أو معرفة مكامن الاعداء ، والاستدلال على القرابة والنسب بواسطة اعضاء الشخصين واشكالهما ، والوانهما . وعرفوا الريافة وهي معرفة استنباط الماء من الارض ببعض الدلائل الخاصة ، والاهتداء في البر

(٢) من ذلك سجع الكاهن الخزاعي وهو جد عمرو بن الحمق حين حكم لهاشم بن عبد مناف على ابن اخيه أمية بن عبد شمس وكان مع أمية همهمة بن عبد العزّي الفهري فقال الكاهن : والقمر الباهر والكوكب الزاهر والغمام الماطر وما بالجو من طائر وما أهتدى بعلم مسافر من منجد وغائر لقد سبق هاشم امية الى المآثر اول منه وآخر وابو همهمة بذلك خابر . ابن الاثير ٢ :١٦

والبحر بالكواكب الثابتة ومنازل القمر • وكان العرب اعلم الناس بالزَّجْر والعيافة اي الاستدلال بقوة النفس والحرص على فهم ما غاب عنهم من الحوادث بواسطة حركات الحيوانات أو باصواتها وسائر احوالها •

وللعرب في هذه الأمور كما يقول الجاحظ : « اذهان حِداد ، ونفوس مفكرة ، فحين جَلَوْا حدَّهم، ووجهوا قواهم الى قول الشعر وبلاغة المنطق ، وتثقيف اللغة ، وتصاريف الكلام ، وقيافة البشر بعد قيافة الأثر ، وحفظ النسب ، والاهتداء بالنجوم ، والاستدلال بالاثار، وتعرُّف الانواء ، والبصر بالخيل والسلاح ، وآلة الحرب ، والحفظ لكل مسموع ، والاعتبار بكل محسوس ، وإحكام شأن المناقب ، والمثالب بلغوا في ذلك الغاية ، وحازوا كل امنية • وببعض هذه العِلل صارت نفوسهم اكبر ، وهممهم ارفع ، وهم من جميع الأمم افخر ، ولأيامهم اذكر »[٣] •

يضاف الى ما تقدم ان العرب كان لهم المام بالطب والعقاقير ، واستعمالها بالتجربة والمشاهدة ، والاقتباس من البلاد المجاورة كالكلدان والفرس • وقد عرفوا فيه الحِجامة ، والفَصْد ، والكَيّ • وكانوا يعالجون بالقطع أو البتر بالاستعانة بالنار •

وفي عيون الانباء في طبقات الاطباء لابن أبي أُصَيبِعَة الخزرجي محاورة لطيفة بين طبيب العرب الحارث بين كَلَدَة الثقفي وبين كسرى تظهر ما كان للعرب من معرفة دقيقة لبعض الامور الطبية • وكان هذا الحارث قد عالج أمراض العيون ، وأصاب في فارس اموالاً كثيرة لمداواته عظماءها ، وكبراءها • وكان قد درس امراض العرب في الحجاز • وقد أثِرت عنه نصائح طبية كثيرة[٤] ••

---

(٣) رسائل الجاحظ ج١ ص ٧٠

(٤) عيون الانباء ج١ ص ١١٠ – ١١٢ وبلوغ الارب ج٣ ص ٣٣٣ •

وقد اشتهر في العرب قبل الاسلام جرائحيون معروفون كابن أبي رمثة التميمي[٥] ، وبياطرة كالعاص بن وائل • كما اشتهر اطباء المعيون وأطباء للابدان كالحارث بن كلدة الثقفي وابنه النضر بن الحارث ، وابن حِذْيَم وهو من تَيْم الرباب • وزينب طبيبة بني أود وكانت خبيرة بمداواة آلام العين ، والجراحات وكانت مشهورة بين العرب[٦] •

وأما عناية العرب بالانساب للبشر ، والخيل ، والابل ، والطيور فقد فاقوا فيها جميع الامم بل لم تسبقهم فيها أمة من الامم قديماً أو حديثاً • وقد بقيت انسابهم محفوظة في صدر الاسلام لكنها أخذت تضيع وتهمل عندما دخلت في الاسلام امم كثيرة من غير العرب[٧] •

وكانوا يعرفون اخبار الماضين ، وسِيَرهم ، وأيام العرب ، وقصصهم ، وأساطيرهم ، كما كان كثير منهم يعرف بعض اللغات الاجنبية كالعِبرية ، والأرمية ، والفارسية ، والحبشية ، والرومانية ••

ولما كان القرآن الكريم افضل مثل للغة العربية وأعلى نموذج للبلاغة العربية في عصر الرسول (ص) • فان فهم العرب له فهماً جيداً يدل على مدى معرفة العرب للغتهم قبل الاسلام ، لان لغته كانت مألوفة لدى جميع العرب • يضاف الى ذلك ان أعظم ما نبغوا فيه قبل الاسلام هو الشعر فقد استعملوه للتعبير عن عواطفهم وبطولاتهم ، وعزتهم ، وأنفتهم ، وكرمهم ، ووصف وقائعهم • وقد عدّه العرب من ابلغ كلامهم ووصفوه بأنه لغة النفس والقلب • وللوزن والقافية فيه تأثير كبير في النفس وقوة على الحفظ • والعرب مطبوعون على قول الشعر لانهم أهل حس مرهف ، وذوق سليم ، وخيال خصب •

---

(٥) كان طبيبا على عهد الرسول . وكان يزاول اعمال اليد وصناعة الجراحة ـ ابن ابي اصبعة ج١ ص ١١٦ .

(٦) ابن ابي اصيبعة ج١ ص ١٢٣

(٧) راجع كتابنا « علماء ينسبون الى مدن إعجمية وهم من ارومة عربيـة » .

وقد ترك لنا العرب شعراً كثيراً على الرغم مما ضـاع لاسباب شتى ، قال أبو عمرو بن العلاء : « ما انتهى اليكم مما قالت العرب الا اقلّه ، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير »[8] .

وجاء في المزهر[9] للسيوطي ما يفيد ان هذا الشعر انما ذهب وضاع لتشاغل العرب بالاسلام والفتوح ، فقد روي عن عمر بن الخطاب انه قال : « كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصحّ منه، فجاء الاسلام فتشاغلت عنه العرب ، وتشاغلوا بالجهـاد ، وغـزو فارس والروم . ولَهَتْ عن الشعر وروايته . فلما كثر الاسـلام وجـاءت الفتوح ، واطمأن العرب بالامصار ، راجعوا رواية الشعر ، فلم يئلوا (يرجعوا) الى ديوان مدوّن ، ولا كتاب مكتوب . وألِفوا ذلك ، وقد هلك من العرب مَنْ هلك بالموت و لقتل ، فحفظو أقلّ من ذلك ، وذهب عنهم منه كثير ... » .

وامتاز العرب بالفصاحة والخطابة . وانك لتجد في خطب العرب في الجاهلية والاسلام فناً جميلاً ينبع من الاحساس . استمع الـى الجاحظ يصف الاعراب في بواديهم بالفصاحة فيقـول : انه ليس في الأرض كلام هو أمتع ، ولا انفع ، ولا آنق ، ولا ألذ في الاسماع ، ولا أشد اتصالاً بالعقول السليمة، ولا افتق للسان ، ولا اجـود تقويماً للبيان ، من طول استماع حديث الاعراب الفصحاء العقلاء ، والعلمـاء البلغـاء[10] .

واستمع اليه يصف أصالة الخطابة[11] عند العرب حين يقارن بين العرب في الجاهلية وبين الامم التي سبقتها أو عاصرتها : « وجملة القول أنّا لا نعرف الخُطَبَ الا للعرب والفرس . فأما الهند فانمـا لهم معانٍ مُدَوّنة ، وكتب مخلّدة ، لا تضاف الى رجل معروف ، ولا الى عالم

(8) المزهر ج٢ ص ٤٧٤ .
(9) ج٢ص ٤٧٣-٤٧٤
(10) البيان والتبيين ج ١ ص ١٣٣ .
(11) راجع البيان والتبيين ج٣ ص ١٥ . وراجع عن خطباء العرب البيان والتبيين ج١ ص ٣٣٧ – ٣٣٨ و ج٢ ص ٣٢٣ – ٣٢٤ .

موصوف،وانما هي كتب متوارثة، وآداب على وجه الدهر سائرة مذكورة.

ولليونانيين فلسفة ، وصناعةُ منطق ، وكان صاحب المنطق نفسه بَكِيَّ اللسان ، غير موصوف بالبيان ، مع علمه بتمييز الكلام وتفصيله ومعانيه ، وبخصائصه . وهم يزعمون ان جالينوس كان انطق الناس ولم يذكروه بالخطابة ، ولا بهذا الجنس من البلاغة. وفي الفرس خطباء الا ان كلَّ كلام للفُرس ، وكلَّ معنى للعجم فانما هو عن طول فكرة وعن اجتهاد رأي ، وطول خلوة ، وعن مشاورة ومعاونة ، وعن طول التفكُّر ، ودراسة الكتب ، وحكاية الثاني علمَ الاول ، وزيادة الثالث في علم الثاني حتى اجتمعت ثمار تلك الفِكَر عند آخرهم .

وكل شيء للعرب فإنّما هو بديهة وارتجال ، وكأنه الهام . وليست هناك معاناة ولا مكابدة ، ولا اجالة فكرة ولا استعانة ، وانما هو ان يَصْرِف وَهْمَه الى الكلام ، والى رَجزِ يوم الخصام ، أو حين يمتح على رأس بئر ، أو يحدُو ببعير ، أو عند المقارعة أو المناقلة ، أو عند صراع أو في حرب ، فما هو إلا أن يصرف وَهْمَه الى جملة المذهب ، أو الى العمود الذي اليه يقْصِد ، فتأتيه المعاني أرسالاً ، وتنثال عليه الالفاظ انثيالاً ، ثم لا يقيِّده على نفسه ، ولا يُدَرِّسُه أحداً من ولده . وكانوا اميين لا يكتبون ، ومطبوعين لا يتكلَّفون . وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر ، وهم عليه اقدر ، وله اقهر . وكل واحد في نفسه أنطق، ومكانه من البيان ارفع، وخطباؤهم للكلام أوجد ، والكلام عليهم اسهل . وهو عليهم أيسر من ان يفتقروا الى تحفُّظ ، ويحتاجوا الى تدارُس . وليس هم كمن حفظ علم غيره ، واحتذى على كلام مَنْ كان قبله ، فلم يحفظوا الا ما علق بقلوبهم ، والتحم بصدورهم ، واتصل بعقولهم ، من غير تكلُّف ولا قصد ، ولا تحفُّظ ولا طلب . وان شيئاً هذا الذي بين ايدينا جزءٌ منه لبالمقدار الذي لا يعلمه إلا مَنْ احاط بقَطْر السحاب وعدد التراب ، وهو الله الذي يحيط بما كان ، والعالِم بما سيكون »[١٢] .

---

(١٢) البيان والتبيين ج ٣ ص ٢٧ — ٢٩ .

الفصل الثامن

اديان العرب في الجاهلية
وآلهتهم في الجزيرة العربية

١ ــ الوثنية والشرك :

يظهر أن جزيرة العرب قبل الاسلام كانت تزخر بعدد من الأديان السماوية والارضية ، كما يظهر انها كانت مَهْبِطاً لعدد من الانبياء والرسل قَصّ علينا القرآن اخبار بعضهم. وقد بشروا جميعاً بالتوحيد أي بعبادة إله واحد ، ودَعَوا الى عبادة الله تعالى .

ومن الاديان[١] التي حفلت بها الجزيرة العربية : الوثنية والشِّرْك والمجوسية ... وتختلف مبادؤها وطقوسها باختلاف الدول والاقوام والقبائل التي اعتنقتها ، كقوم عاد وثمود الذين ورد ذكرهم في القرآن بقوله تعالى : « وإلى ثَمودَ اخاهم صالحاً قال يا قوم : اعبدوا الله مالكم من إله غَيْرُه ... » (٧٣ ــ الاعراف) « واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوّأكم في الارض تتخذون من سهولها قصوراً . وتنحتون الجبال بيوتاً ، فاذكروا آلاء الله ، ولا تَعْثَوْا في الأرض مفسدين ... » (٧٤ ــ الاعراف) .

والعرب وثنيون بوجه عام ، فمنهم من كان يعبد الاصنام[٢] وهي

---

(١) راجع فجر الاسلام ص ١٠٨ وفريد وجدي المدينة الاسلام ص ١٢٨ ــ ١٣٥ والدكتور جواد علي في سومر ج١ و ٢ مجلد ٢٣ لسنة ١٩٦٧ ص ٣ ــ ٤٦ عن آلهة العرب واديان العرب في الجاهلية .

(٢) كتاب الاصنام ص ٥٣ وراجع أراء أخرى في لسان العرب ج٤ ص ٣٤٣ وج ١٥ ص ٢٤١ . ...

تماثيل فنية نحتت على صورة الانسان من الخشب او الذهب او الفضة ومنهم من كان يعبد الاوثان ، وهي الجماد والحجر ، وكانت خالية من الصنعة والفن .

وكان العرب يعبدون هذه الاوثان والاصنام إما لذاتها أو يجعلونها شفعاء لهم لتُقرِّبَهم الى الله زُلْفَى وهي التي اطلق عليها القرآن : النُّصُب أو الأنصاب. جاء في القرآن « أَلا لله الدين الخالص،والذين اتخذوا من دونه اولياء ، ما نعبدهم إلا ليقرِّبونا الى الله زُلْفَى ، ان الله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون ، ان الله لا يهدي من هو كاذب كفار » (٣ ــ الزّمر) . « ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ، ويقولون : هؤلاءِ شفعاؤنا عند الله ، قل اتُنبِؤن اللهَ بما لا يعلم في السموات ولا في الارض سبحانه وتعالى عما يشركون » (١٨ ــ يونس) « ام اتخذوا من دون الله شُفَعاءَ قل : أَوَلَوْ كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون » (٤٣ ــ الزُّمَر) . « وكان لأهل كل دار من مكة صنم في دارهم يعبد . فاذا اراد أحدهم السفر فان آخر ما يصنع في منزله ان يتمسح به . واذا قدم من سفره كان أول ما يصنع اذا دخل منزله ان يتمسح به ايضاً »[٣] .

وقد عبد العرب الكواكب ، والاجرام السماوية ومنها الشمس التي عبدوها في البتراء وتدمر وسبأ وبابل وربما عبدوها لما لها من تأثير في تحسين الانتاج الزراعي . جاء في القرآن « ... وجئتك من سَبَأَ بنبأ يقين . اني وجدت امرأة تَمْلِكُهم ، وأُوتِيَتْ من كل شيء ، ولها عرش عظيم . وجدتُها وقومَها يسجدون للشمس من دون الله ، وزَيَّنَ لهم الشيطان اعمالَهم فَصدَّهم عن السبيل فهم لا يهتدون » (٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ــ النمل) . و « لا تسجدوا للشمس ولا

---

(٣) كتاب الاصنام ص ٣٣ .

للقمر ، واسجدوا لله الذي خلقهن » (٣٧ ـ فُصِّلَتْ) • وكان للشمس بيت تعبد فيه وقد عبدها بنو تميم وكان سدنتها منهم •

اما القمر فهو عندهم ملك السماء ، والشمس ملكة السماء وكانا زوجين وقد عبدالعرب القمر لما له من تأثير في تحسين المراعي بالطَّلِّ والنَّدَى ونمو النباتات والزروع • وكان الاله « وُدّ » إله القمر الذي جاء ذكره في القرآن يعتبر أول الآلهة المعينية • وكان عند بني عُذْرَة على هيأة تمثال لرجل كأعظم ما يكون من الرجال قد زُبِرَ عليه حُلَّتان ، مُتَّزِر بحُلة ، مرتدٍ بأخرى ، عليه سيف بيده ، تَقَلَّدَه، وقد تنكَّب قوساً ، وبين يديه حربة فيها لواء ، وجَعْبَة فيها نبل • وكان موضعه في دُوْمَة الجَنْدَل • وقد هدمه خالد بن الوليد •

وقد ورد بين آلهة العرب اسماء لبعض هذه الاجرام كالشِّعْرَى وتسمى « العَبُور » وقد عبدتها قبيلة عبد قيس وخزاعة • وقد ورد ذكرها في القرآن « وإنه هو رب الشِّعْرى » (٤٩ ـ النجم) كما ان بعض القبائل عبدت « الدَّبِران » و « الثريا » فيذكرون ان طسما عبدت الدَّبِران ، وان مَذْحِجاً وطَسْماً وقريشا عبدوا الثريا •

ومن آلهتهم الأخرى « سُوَاع » في بلدة ينبُع في الحجاز وهو لهذيل ، وكانت مُضَر تعبده • وله سَدَنة من بني لِحْيان وكان على صورة امرأة •

وكان لمَذْحِج وأهل جُرَش في اليمن صَنم يقال له «يَغُوث» • وكان على صورة أسد • وممن عبده ايضاً قريش • اما «يعوق» فكانت هَمْدان في اليمن تعبده هي ومن والاها وكان على صورة فرس • واتخذت حِمْيَر « نَسْراً » وكانت حِمْيَر تعبده • كما عبده الكلدان والارميون من قبل • ويعتبر إله الحضر الأكبر • وكانت هذه الحيوانات من الحيوانات المقدسة عند العرب •

ومن العرب من اعتنق الزرادشتية دين الفرس المجوس الذين

انتشرت دياناتهم في هَجَر بالبحرين وفي عُمان .. وقد قدّس العرب الآبار في الصحراء لأهمية الماء عندهم في تلك المناطق القاحلة . من ذلك تقديسهم لزَمْزَم التي أمدت السيدة هاجر وابنها اسماعيل بالماء .
وقد عبد العرب الشجر لاعتقادهم ان الآلهة تسكن فيه ، وعبدوا الحجر للسبب نفسه . كما عبدوا الجن والزهرة وزُحل . وعبدت لخم وجذام المشتري . واما عطارد فقد عبدته قبيلة أسد واما سُهيل فقد عبدته طي[4] .

اما الشّرْك فهو ان يُشْرك مع الله آلهة أخرى تكون له نِدّاً .
وقد ورد في القرآن آيات عديدة تصف الشّرْك والمشركين وآلهتهم التي اشركوها مع الله منها :
« قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين ، وتجعلون له انداداً ، ذلك رب العالمين » (٩ ـ فُصِّلَت) .
« ومن الناس من يتخذُ من دون الله انداداً يحبونهم كحب الله » (١٦٥ ـ البقرة) .

« وجعلوا لله شركاءَ قل سَمّوهم » (٣٣ ـ الرعد) .
« وما يؤمن اكثرهم بالله إلا وهم مشركون » (١٠٦ ـ يوسف)
« .. ام جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ، قل الله خالق كلِّ شيء وهو الواحد القهّار » (١٦ ـ الرعد) .
« وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عبادٌ مُكْرَمُون . لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون » (٢٦ ـ ٢٧ ـ الانبياء) .
« وقالوا اتخذ الرحمن ولداً . لقد جئتم شيئاً إدّاً . تكاد السموات يتفَطّرْن منه وتنْشَق الارض ، وتَخِر الجبالُ هدّاً . أن دَعَوا للرحمن ولداً . وما ينبغي للرحمن ان يتخذ ولداً . » (٨٨ ـ ٩٢ مريم) .

---

(٤) راجع كتاب الاصنام وتاريخ ابن العبري .

« واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عِزّاً » (٨١ ـ مريم)
«إنما تعبدون من دون الله أوثاناً وتخلقون إفْكاً (١٧ـالعنكبوت)
« ان الذين تدعون من دون الله عبادٌ امثالُكم فادعوهم فليستجيبوا لكم ان كنتم صادقين » (١٩٤ ـ الاعراف) •
« قل افرأيتم ما تدعون من دون الله إنْ ارادني اللهُ بضُرٍّ هل هُن كاشفات ضُرِّه ، أو ارادني برحمة هل هن ممسكات رحمته ؟ قل: حسبي الله » (٣٨ ـ الزمَر) •
« ان الله لا يغفر أن يُشْرَكَ به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء• ومن يشركْ بالله فقد ضلّ ظلالاً بعيداً » (١١٦ ـ النساء) •
« أأرباب متفرقون خيرٌ ام اللهُ الواحدُ القَهارُ » (٣٩ ـ يوسف) •
« ما اتخذ اللهُ من ولد وما كان معه من إله إذن لذهبَ كلُ اله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون » (٩١ ـ المؤمنون) •
« لو كان فيهما آلهةٌ الا الله لَفَسدَتا فسبحان الله ربِّ العرش عما يصفون » (٢٢ ـ الانبياء) •
« لقد كفر الذين قالوا ان اللهَ هو المسيح ابن مريم • وقال المسيح يا بني اسرائيل عبدوا اللهَ ربي وربَّكم ، إنه من يشركْ بالله فقد حرّم اللهَ عليه الجنة ومأواهُ النارُ وما للظالمين من انصار » (٧٢ ـ المائدة) •
« لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالثُ ثلاثةٍ وما من إله الا إلهٌ واحد ••• » (٧٣ ـ المائدة) •
« ما المسيح ابن مريم الا رسول قد خَلَتْ من قبله الرسل وأمه صدِّيقة كانا يأكلان الطعام • انظر كيف نبينُ لهم الآيات ثم انظر أنَّى يؤفكون » (٧٠ ـ المائدة) •



٢ ـ آلهة العرب :

ومن اشهر المعابد العربية : الكعبة وكانت أعظم معبد تعظمه العرب ، وقد عظموها أكثر من أي معبود آخر لأنها أثر أبيهم ابراهيم الخليل (ع) • والكعبة بناء مكعب الشكل في ضلعها الشرقي « الحجر الاسود » في الجدار الذي فيه باب الكعبة ، ويعرف بـ (المُلْتَزَم)• ويحيط بالكعبة فناء واسع يطوف، به الحجاج وهو فناء مكشوف ويعرف بالحرم •

وكان العرب يتقربون الى الكعبة بالشاء والابل • وكانت الاشهر الحُرُم : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم تتخذ للامور الدينية كالطواف حول بعض الاماكن المقدسة التي غدت فيما بعد أماكن تُعقد فيها الاسواق • أما الشهر الرابع وهو رجب الفَرْد فكان يتخذ للتجارة وتقديم القرابين الى الاصنام • والكعبة حَرَم آمن لا يجوز الصيد

فيها ولا اقتتل • « واذ جعلنا البيت مثابـة للناس وأمنا » (١٢٥ ـ البقرة) و « جعل الله الكعبة البيتَ الحـرامَ قياماً للناس والشهرَ الحرامَ والهَدْيَ والقلائدَ ••• » (٩٦ ـ المائدة) •

أما آلهة العرب التي عبدوها في العصر الجاهلي فكثيرة جداً وهي تمثل لنا ناحية حضارية فنية وعمرانية • وقد ذكر القرآن ثلاثة منها في الآيات : « أفرأيتم اللاتّ والعُزّى • ومناة الثالثة الاخرى • ألكم الذّكَرُ وله الانثى ، تلك اذن قسمة ضِيْزَى • إنْ هي الا اسماءٌ سميتموها انتم وآباؤكم ••• » (١٩ ـ ٢٣ ـ النجم) •

وكانت هذه الآلهة تمثل ثلاث بنات هن بنات الله في عُرفِهم • وكان لهن معابد تسمى « اقداس » • وذكر القرآن خمسة آلهة أخرى في الآية : « وقالوا : لا تَذَرُنَّ آلهتكم ، ولا تذرن وُدّاً ولا سواعاً، ولا يغوث ويعوق ونسراً » (٢٣ ـ نوح) وقد نوهنا بها قبلاً •

وعلى الرغم من ان هذه الآلهة عبدها أهـل العراق في عهد نوح فان العرب عبدوها في جزيرتهم ايضاً في الجنوب والشمال ممـا يدل على العلاقة الوثيقة بين عرب العراق وعرب الجزيرة العربية •

وينبغي ان نذكر انه كان الآلهة العرب احياناً بيوت مزخرفة ومعابد خاصة بها تختلف باختلاف العرب الذين عبدوها فهـي احياناً معابد ضخمة تحتوي على عدد من النُّصُب كالكعبة التي اسـلفنا ذكرها واحياناً لا تحتوي الا على إله واحد • وكانت التلبية تختلف ايضـاً باختلاف الاوثان والاصنام •

واليكم على سبيل الايجاز عدداً من آلهة العرب الأخرى في مختلف انحاء الجزيرة من التي ذكرها القرآن أو المؤرخون •

١ ـ هُبَل : وكان في الكعبة وهو أشهر آلهتها • وكان علـى صورة انسان من عقيق أحمر ، وضعت امامه السّهام المقدسـة التي تستعمل في الاستقسام • ولعله جيء به مـن بلاد مؤاب أو العراق •

وكان يومئذ مكسور اليد اليمنى فجعلت له قريش يداً من ذهب •وكان منصوباً على بئر في جوف الكعبة • وكانت قريش تُقْسِم به، وتطوف حوله ، وتحلق رؤوسها وتلبي عنده • وقد حُطم عند الفتح •

٢ ـ اللاّت : وكانت في الطائف على هيأة حجر مربع ، وكان لها حِمَى وحرم قرب الطائف • وكان يحج اليها أهل مكة ، ويقدمون لها القرابين • وكان لا يجوز ان يصاد في حماها حيوان أو يسفك فيه دم•

٣ ـ العُزّى : وكانت تعبد في « نخلة » الى الشرق من مكة على يمين المُصْعِد الى العراق من مكة فوق ذات عِرْقٍ ميقاتِ أهل العراق بتسعة ميال• وكان صنمها اعظم الاصنام قداسة عند القرشيين• وكان قدسها يتكون من ثلاث شجرات • وكانت قرابينها من الضحايا البشرية • وسدنتها من بني سُلَيْم • وقد عبدها اللَّخْميون ايضاً • وكان لها مَنْحَر تذبح فيه الضحايا والهدايا • وقد هدمها خالد بن الوليد بعد فتح مكة •

٤ ـ مَناة (من المنية) : وهي إلهة القضاء والقدر• وكان قدسها يتكون من حجر اسود في « قُدَيْد » بين مكة ويثرب وكان يعبدها الأوس والخزرج ، ويذبحون عندها • وكان سدنتها من ثقيف •وكانت قريش تعظمها •

٥ ـ ذو الشَّرى : وهو كتلة من الحجر الاسود ، لها اربع زوايا غير منحوتة • ارتفاعها أربعة اقدام ، وعرضها قدمان •

٦ ـ ذو الخَلَصَة : وكان صخرة بيضاء منقوشاً عليها كهيأة التاج•وكان له معبد بين مكة والمدينة• وكانت تعظمه خَثْعَم ودَوْس وبَجِيْلَة • وكانوا يهدون اليه الشعيروالحنطة ويصبون عليهما اللبن•

٧ ـ إساف ونائلة : وكانا فيما تذكره الاساطير رجلاً وامرأة ففسقا فمسخا حَجَرين فأخرجا من الكعبة • ووضع احدهما على « الصَّفا » • ووضع الثاني على « المَرْوَة » ليعتبر بهما الناس • ثم

اصبحا مع الأيام وثنين يعبدان •• وفي عهد قصي جعل احدهما بلصق الكعبة والثاني في موضع « زمزم » • وكانوا يطرحون بينهما ما يهدى الى الكعبة • وكانوا ينحرون ويحلقون رؤوسهم عندهما • ولم تكن تدنو منهما امرأة طامث • وقد حطما عند فتح مكة ايضاً •

ان كثيراً من الاصنام الاخرى غير التي ذكرناها قد ورد ذكرها في الأخبار العربية • كما ان بعضها عثر عليه في بلاد العرب الجنوبية وهي آلهة عبدها المعينيون ، والسبايون ، والحميريون ، والقتبانيون ، وأهل حضرموت مثل : عثتر ، وعثتار ، وذات صنتم ، وذات ظهران ، وذات رحبان ، وعزيزلات ، والرحمن ، وذات حمم أو حمى اي الشمس •• و « رحمنن بعل سمين » اي رب السماء • و « رحمنن بعل سمين وارضن » اي رب السماء والارض •

٨ ــ « تالب » وكان صنماً من اعظم اصنام همدان • وكان له معبد عظيم في بلدة « ريام » وقد عرف بـ « رئام » ايضاً او « بيت رئام » أي أنه عرف باسم البيت الذي انشىء له• وكان الناس يقصدون اليه للتبرك وقضاء الحاجات • وقد نقش اسمه على هيكله •

٩ ــ «عم» وهو إله قتبان ، وهو كالإله « ودّ » عند المعينيين والإله « إلمقه » عند السبأيين والاله « سين » عند أهل حضرموت • وقد اطلق القتبانيون على انفسهم انهم « ولد عم » •

١٠ ــ « إلمقه Ilmukah » وهو معبد وثني من معابد السبأيين في مأرب وصرواح ، وقد خصص لعبادة الإله القمر الذي يقال له « ودّ » عند المعينيين • ولا تزال آثاره باقية حتى اليوم تعرف عند الناس بـ (حرم بلقيس) و (عرش بلقيس) • وكان « مكارب » اليمن وملوكها يقربون القرابين الى « المقه » ، ويقدمون له الهدايا ، ويعمرون معبده ، ويرممون سوره وأبراجه ، ويجملونه بانواع الزخارف والتزيينات تقرباً اليه • وكثيراً ما يرمز للإله « المقه » برأس

ثور ، أو نسر ، أو بصورة حيّة ، ولذلك يلاحظ ان من العرب من تسمى بـ (عبد وُدّ) و (عبد شمس) و (ثور) ... الخ .

وكان العرب يقدمون لآلهتهم انواعاً من القرابين والهدايا ، فقد تكون القرابين اسلحة واقمشة وملابس كتلك التي كانت تقدم للعُزّى . وقد تكون القرابين من الذهب فقد قدم احد الأعراب للعُزّى تمثالاً ذهباً عن ابنته المريضة . كما ان امرأة قدمت الى الإلهة « ام عثتر » اي الشمس اربعة تماثيل من ذهب لانها وهبت لها اربعة اطفال : ولداً وثلاث بنات . وقد تكون من الحنطة والشعير . وقد تكون من الضحايا البشرية . وقد تكون القرابين من الحيوانات . قال تعالى : « ما جعل الله من بَحِيرَة ولا سائبة ، ولا وَصِيلَة ، ولا حامٍ ، ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب واكثرهم لا يعقلون » (١٠٣ ـ المائدة) . ويمكن شرح هذه القرابين بما يأتي :ـ

١ ـ البَحِيرَة : وهي الناقة التي ولدت خمسة ابطن ثم تركت او اذا انجبت خمسة ابطن نحروا الخامس ان كان ذكراً واذا كانت انثى فتشق اذنها فلا تركب ، ولا يُجَزّ وبرها ، ولا يشرب لبنها الا ضيف او يُتصدق به أو تهمل للآلهة .

٢ ـ السَّائبة : وهي التي ينذر الرجل ان يسيبها اذا برىء من مرضه ، او ان اصاب أمراً يطلبه فاذا كان ذلك أساب جملاً او ناقة لبعض آلهتهم فسابت فرَعَت لا ينتفع بها، ولا يعرض لها أحد حيثما حلت .

٣ ـ الوَصيلَة : وهي التي تلد أمها اثنين في بطن اي توْأماً فيجعل صاحبها لآلهته الاناث منها ويجعل لنفسه الذكور . فاذا كان التوأم ذكراً وانثى سيبوا الذكر ايضاً وجعلوه للآلهة ، وفي هذه الحالة يقولون : قد أوصلت اخاها فيسيب أخوها معها فلا ينتفع به . أو انها الشاة اذا ولدت سبعة ابطن ذبحوا السابع اذا كان جَدْياً وان كان

انثى ابقوها ، وان كانا ذكراً وانثى استَحْيَوْهما كليهما أي ابقوهما حيَّيْن •

٤ ـ الحامي وهو الفحل اذا نتج له عشر اناث متتابعات ليس بينهن ذكر ، حُمِيَ ظهره فلم يركب ، ولم يُجَزّ وبره ، وترك في ابله يضرب فيها لا ينتفع منه بغير ذلك •

٤ ـ الاديان السماوية :

اما الاديان السماوية التي كانت معروفة في الجزيرة العربية قبل مجيء الاسلام فهي: اليهودية والمسيحية والحنيفية والصابئة والمجوسية وهذه نبذة قصيرة عنها علماً بأننا سنذكر بعض التفصيلات عنها في باب الاقتباس •

١ ـ اليهودية :

نسبة الى « يهوذا » احد اسباط اسرائيل ، او السبط الاكبر الذي كان منه معظم انبياء بني اسرائيل • والاسباط من أولاد يعقوب بمنزلة القبائل العربية من اولاد اسماعيل(٥) • وقد انتشرت اليهودية في الجزيرة العربية بعد أن تغلب الامبراطور « طيطس » الروماني على القدس وشتت يهودها فسكنوا في خَيْبَر ويثرب وفَدَك ومكة واليمن واليمامة والبحرين ونشروا فيها دياناتهم • وكان من نتائج ذلك تَهَوّد جماعة من العرب في الحجاز • وفي اليمن تهوّدت حِمْير وعلى رأسهم الملك « ذو نواس » ملك الحِمْيريين • وكان من اليهود العرب شعراء مثل : السموأل صاحب الابلق الواقع قرب (تَيْماء) • وكان معاصر الامرىء القيس ومن شعرائهم ايضاً كعب بن الاشرف الطائي(٦) وكان ممن هجا المسلمين •

---

(٥) المعارف لابن قتيبة ص ٤٥
(٦) المحبَّر : ٣٩٠

وكان أشهر قبائل اليهود عند ظهور الاسلام : بنو قَيْنُقاع ، وبنو النَّضير ، وبنو قُرَيْظَة ،[7] ويهود خَيْبَر •

٢ ـ المسيحية او النصرانية :

نسبة الى « الناصرة » احدى قرى فلسطين • وقد انتشرت في الجزيرة العربية عن طريق البر والبحر، وتنصرت بعض قبائل العرب في نجران اليمن • ومنهم ايضاً غساسنة الشام ، واليعاقبة والنساطرة في الحيرة في العراق ، والبحرين واليمامة وبكر وتغلب وطي • وبانتشار اليهودية والنصرانية انتشرت فكرة « التوحيد » في البلاد العربية ، وتأثرت الوثنية بعض الشيء بهما • ومما يدل على ذلك وجود اسماء ومصطلحات عربية مثل « الرحمن » باعتبار انه إله واحد : و « ذي سماوي » اي رب السماء « وبعل شمين » اي إله السماء • علماً ان التوحيد كان منتشراً بين العرب قبل موسى (ع) اي في عهد ابراهيم الخليل ولوط (ع) فقد اشار القرآن الكريم الى ان دعوة ابراهيم الخليل الى التوحيد من قبل ان تنزل التوراة والانجيل قال تعالى : « ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفا مسلماً » (٦٧ ــ آل عمران) • « وما انزلت التوراةُ والانجيلُ إلا من بعده » (٦٥ ــ آل عمران) •

٣ ـ الحنيفية :

وهي بقايا دين ابراهيم الخليل (ع) • وكان بعض العرب عند مجيء الاسلام يعبدون الله ويوحّدونه ويقال لهم : « الاحناف » مثل أمية بن ابي الصَّلْت ، وورقة بن نوفل الأسدي وهو ابن عم السيدة خديجة بنت خويلد وزهير بن ابي سُلْمى ، وكعب بن لؤي بن غالب ، وقسّ بن ساعدة الايادي ، وعامر بن الظَّرِب العدواني ،

---

(٧) قريظة وبنو النضير : من بني لاوي بن يعقوب . ومن بني لاوي موسى وهارون إبنا عمران . راجع المحبَّر : ٣٨٧

وعثمان بن الحويرث الاسدي ، وزيد بن عمرو بن نُفَيْل العَدَوي ... » الخ .

وكانوا ينكرون على قريش عبادتها للاصنام ، ويتناجون : أن هناك حقيقة مجهولة ، ينبغي التوصل اليها . وأنه لا يمكن التوصل الى الله بحجارة لا تضر ولا تنفع . ومما يدل على ذلك ان اربعة منهم وهم : ورقة من نوفل الاسدي ، وزيد بن عمرو العدوي ، وعثمان بن الحويرث الاسدي، وعبيدالله بن جحش الاسدي اجتمعوا مرة فقالوا: والله ما قومكم على شيء ، لقد اخطأوا دين ابيهم ابراهيم . ما حجر" نطيف به؟ لا يبصر ولا يضر ولا ينفع . ياقوم التمسوا لانفسكم فإنكم والله ما أنتم على شيء .

اما الصابئة فكان منهم حنفاء ايضا على دين ابراهيم الخليل ، كما كان منهم مشركون يعبدون الكواكب . قال تعالى : « ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر ،وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (٦٢ ـ البقرة)

« ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين اشركوا ان الله يفصل بينهم يوم القيامة » (١٧ ـ الحج) .

وأما المجوسية فلم تنتشر بين العرب غير أن بعض اتباعها اقاموا في هَجَر بالبحرين وسيأتي الكلام عليها في الباب الخامس .

الفصل التاسع

اهلية العرب للتمدن

يستدل من آثار العرب العلمية والأدبية والعمرانية التي انتجوها خلال حكمهم الطويل على ان العرب امة متمدنة وله قابليات عجيبة على الاقتباس والابداع والابتكار وقد شهد على ذلك كثير من علماء الغرب، واعلنوا بصراحة عن أهلية عرب الجزيرة قديماً وحديثاً للتمدن حتى البدو منهم ، فهم في رأي پالگريف Palgrave [1] الانكليزي من اعظم امم الارض كرماً ونبلاً . وأن الحضر منهم من انبل شعوب الارض ، واكرمهم . وهم جديرون بكل ثناء ومديح .

أما گوستاف لوبون Gustave le Bon الفرنسي فيقول : وقد قدّر لي غير مرة ان اتصل بكثير من العرب في مختلف انحاء العالم الاسلامي ، وقد كنت أقضي العجب في كل مرة من الوفاء ، والترّحاب اللذين كان يستقبلني بهما أناس لا تعلو طبقتهم الاجتماعية على طبقة فلاحي اوربة.ولا فرق في ذلك بين ان يكون رب البيت فقيراً او غنياً[2] .

ويقول ڤوگيه[3] عن افقر طبقات العرب : لا يسعني سوى الاعجاب بما يسود اجتماعات اولئك القرويين من الوقار ، والحشمة ،

---

(١) عاش Palgrave زمنا طويلا بين عرب الجزيرة وزار مدينة الرياض متنكرا. والف كتابه Voyage dans L'Aarbie Centrale الذي طبع بباريس سنة ١٨٨٦ وقد اعتمد عليه گوستاف لوبون . راجع حضارة العرب ص ٨٥ .

(٢) لوبون ٣٨٨ .

(٣) في كتابه Le Temple de Jerusalem المطبوع بباريس سنة ١٨٦٤ . راجع حضارة العرب ص ٣٨٧ .

والادب • وما اعظم الفرق بين اتزان اقوالهم، ونبل اوضاعهم ، ولغط بني قومنا ، وتهافتهم •

ويقول « لوبون » عن أهلية العرب للتمدن ما يأتي[٤] : « ونرى العرب متماثلين في امور العز والشرف لتماثل احوالهم ومشاعرهم • ويقوم فخرهم على السيف ، والقِرى ، والبلاغة • فبحد السيف يصونون حقوقهم • وبالقِرى يتجلى كرم اخلاقهم • وبالبلاغة يحسمون ما لا يقدر عليه السلاح من الخصام » •

« والعربي محب للحرية ، والحرية اقدس ما يطمع فيه ، ويحرص على التمتع به • وهو محارب ، ويحارب حاقداً على كل من يحاول استعباده • لذلك كان القسم الاعظم من بلاد العرب لم تطأه ارجل الفاتحين من بلاد العالم المتمدن » •

« وان عظماء الفاتحين من مصريين ، واغريق ، ورومان ، وفرس وغيرهم ممن انتهبوا العالم لم ينالوا شيئاً من بلاد العرب التي اوصدت دونهم ابوابها » •

« اولئك العرب الذين ظهروا على مسرح التاريخ قبل الرومان بقرون كثيرة ، وانشأوا المدن العظام[٥] • وكانت علاقاتهم بأرقى شعوب الارض وثيقة » •

« وقد دلت الآثار ، والوثائق التي بين ايدينا على ان حضارة العرب لم تكن دون حضارة الآشوريين ، وحضارة البابليين اللتين ظهر شأنهما حديثاً بفضل علم الآثار بعد ان كانتا مجهولتين » •

« ولم تدل حضارة اليمن وحدها على أهلية العرب للتمدن بل ان ما جاء في اقدم روايات التاريخ عن حضارة العرب اثبت كذلك درجة

---

(٤) راجع الصفحات : ٨١ ، ١٠٤ ، ١٠٩ ، ٩٧ – ٩٨ ، ١٠٧ ، ١٤٣ ، ٣٤ ، ٣٣ من حضارة العرب .

(٥) راجع كتابنا « عروبة المدن الاسلامية » .

استعداد اتباع الرسول للقيام برسالتهم العظمى في عالم المدنية » •

« وكانت اخلاق العرب في الادوار الاولى من الاسلام ارقى كثيراً من اخلاق امم الارض قاطبة ولا سيما الامم النصرانية ، وكان عدلهم، واعتدالهم ، ورأفتهم ، وتسامحهم ، ورفقهم بالامم المغلوبة ، ووفاؤهم بعهودهم ، ونبل طبائعهم مما يستوقف النظر ، ويناقض سلوك الامم الاخرى ، ومنها الامم الاوربية ايام الحروب الصليبية » •

وقد تقهقرت امام الاسلام في الهند ديانات قديمة • وتمكن الاسلام ان يجعل مصر الفراعنة القديمة التي لم يكن للفرس ،والاغريق، والرومان فيها سوى نفوذ قليل ، عربيةً تامة العروبة •

وقد استطاع العرب ان يُبْدِعوا حضارة جديدة كان لها من المناعة ما استطاعت به ان تهيمن على البرابرة الذين حاولوا هدمها •

وفي المدرسة العربية تخرج المغول فانتحلوا دِيْن العرب ، وحضارتهم • وأقاموا في بلاد الهند دولة قوية عربية الروح والاتجاه فأحلوا بذلك حضارة العرب محل حضارة الهند ••• وللعرب في بلاد الهند تأثير ديني قوي ، ونفوذ مدني كبير • وقد ظل تأثير الفن العربي في مباني الهند واضحاً بضعة قرون على الرغم من تقلص ظل العرب ••

ويكرر « لوبون » قوله باسلوب آخر فيقول :

وفي مصر لا شيء يستوقف النظر كحَفَدَة قدماء المصريين الذين قاوموا نفوذ الاغريق ، والرومان على الخصوص ، ثم اعتنقوا دين العرب ، ولغة العرب وحضارة العرب فصاروا عرباً خالصي العروبة • وقد توارت في مصر أمام حضارة العرب الحضارات الثلاث : الفرعونية، واليونانية ، والرومانية •

« والعرب يتصفون بروح المساواة المطلقة • ونرى مبدأ المساواة الذي اعلن في اوربة قولاً لا فعلاً راسخاً في نفوس العرب ، وطبائعهم رسوخاً تاماً •

ولا عهد لهم بتلك الطبقات الاجتماعية التي ادى وجودها الى اعنف الثورات في الغرب ، ولا يزال يؤدي . ثم ليس من الصعب ان ترى بين العرب خادماً زوجا لابنة سيده ، وان ترى اُجَراء منهم قد اصبحوا من الاعيان . ولم يعرف العرب قط النظام الاقطاعي والارستقراطي ، والوظائف الوراثية » . « وان اخلاقهم كانت افضل من اخلاق اجدادنا بمراحل »(٦) .

ويقول العالم المتدين مسيو لوپليه(٧) M. Le Play الذي درس امور الشرق : « لقد صان المسلمون انفسهم من مثل خطايا الغرب فيما يمس رفاهية طبقات العمال . ويحافظ المسلمون باخلاص على تلك النظم الباهرة التي يسود بها السلام بين الغني والفقير ، والسيد والأجير . وليس من المبالغة أن يقال : ان ذلك الشعب الذي يزعم الاوربيون انهم يرغبون في اصلاحه هو في الحقيقة خير مثال يقتدون به في ذلك » .

ويقول ابن خلدون عن العرب انهم : «اصعب الامم انقياداً بعضهم لبعض للغلظة والآنفة وبُعْد الهمة والمنافسة في الرئاسة فقلما تجتمع اهواؤهم فاذا كان الدين بالنبوة او الولاية كان الوازع لهم من انفسهم ، وذهب خُلُق الكبر والمنافسة منهم فسهل انقيادهم واجتماعهم وذلك بما يشملهم من الدين المُذْهِب للغلظة والأنفة ، الوازع عن التحاسد والتنافس ... وهم مع ذلك اسرع الناس قبولاً للحق والهُدى لسلامة طباعهم من عوج الملكات وبراءتها من ذميم الاخلاق .. »(٨)

---

(٦) ٢٢٢ ـ ٣٢٣ ، ٤١٩ ، ٦٣٩ ـ ٦٤٠ من حضارة العرب .

(٧) في كتابه عمال الشرق
(Les Ouvriers de L'orient . Tours 1867)

(٨) المقدمة ص ١٥١

الفصل العاشر

ملامح المدنية العربية في العصر الجاهلي

لقد نوهنا في الفصول السابقة من هذا الباب ببعض النواحي الحضارية عند دول العرب في الجزيرة العربية ، وشرحنا بايجاز : معنى الجاهلية ، وما كان للعرب من معارف قبل الاسلام وبخاصة الشعر والخطابة ، وتطرقنا الى اديان العرب ومعابدهم وهي كلها في الحقيقة فصول موجزة في مدنية العرب في العصر الجاهلي . ونوهنا بالعلاقات الوثيقة بين العرب والامم المجاورة لها كالفرس والروم والاحباش والمصريين،وسكان افريقية ثم الهند والصين . وبوجه خاص عن طريق التجارة والدين حيث تأثر بعض العرب بالديانات السماوية كاليهودية والمسيحية كما تأثروا بالديانات الارضية من مجوسية ووثنية وشرك . وفي الوقت نفسه يمكن القول بأن العرب أثروا في هذه الامم في الميادين اللغوية والدينية والسجايا والاخلاق بل كان لهم تأثير حتى في السياسة الساسانية والبيزنطية وظل هذا التأثير المتبادل الى ان وجه الرسول (ص) الدعوة الى ملوك العالم يدعوهم فيها الى الاسلام والتوحيد المحض الخالص من الشوائب ، ونبذ الوثنية والشِّرْك وهو تعدد الآلهة كما اسلفنا . وكانت المسيحية يومئذ متعددة الآلهة فيسوع وأمه كانا يقدسان باعتبارهما كائنَيْن إلهَيْن ، وإله اليهود كان إلهاً قومياً ولم يكن عالمياً[1] .

ونود في هذا الفصل ان نضيف اموراً اخرى تلقي بعض الاضواء

---

(1) ديتلف نيلسون ص ٢٤٣

على نواحي أخرى من حضارة العرب وازدهار مدنيتهم في دولهم الجنوبية[٢] والشمالية بعد ان عثرت البعثات الأجنبية ، والرواد العرب والاجانب الذين ذكرنا جملة منهم على انواع مختلفة من الكتابات والنقوش والنُّصب والمعابد والآلهة المنحوتة من الرخام والحجارة وبعد ان عثروا على كميات من الموازين والخواتم والاختام والمصنوعات والتحف الاثرية وكميات من نقود الذهب والفضة والنحاس ، واليك فيما يأتي بعض المعلومات المهمة عن هذه الامور الحضارية :

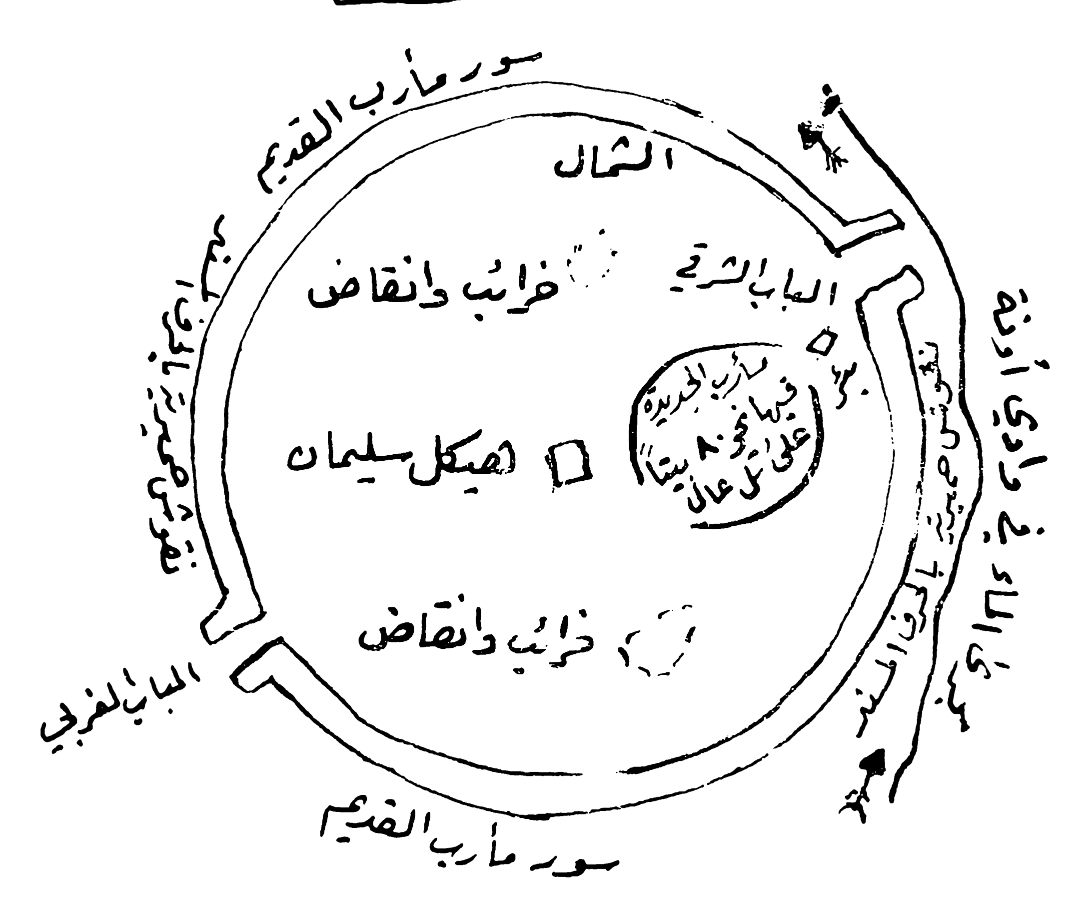
١ ــ المدن :

يمكن ان نذكر ان العرب شيدوا في العصر الجاهلي عدداً كبيراً من المدن والقلاع والحصون • وقد انحصرت مدنهم التي بنوها في الجاهلية في جزيرة العرب وبعض الاماكن التي استعمروها كبلاد الحبشة • ونستطيع ان نؤكد ان ما بنوه في الجاهلية في اليمن والحجاز ونجد وحضرموت وعُمان واليمامة والبحرين قد يبلغ المئات من المدن بين الكبيرة والصغيرة غير القلاع والحصون التي تشبه المدن • كما يمكننا ان نؤكد ان ما في الجزيرة العربية من هذه المدن انما كان من انشائهم وحدهم دون ان يشاركهم في اختطاطها أو بنائها أحد على الارجح ولا يزال بعض هذه المدن قائماً حتى اليوم كمكة والمدينة والطائف وصنعاء وعدن ••• الخ •

واذا كنا قد عُنينا بدراسة الحضارة العربية قبل الاسلام فلأننا نرى من دون ريب ان العرب مهدوا بحضارتهم تلك للحضارة العربية التي ازدهرت في الاسلام • واذا اخذنا بالرواية التي تقول : ان « معبد النَّوْبَهار » في مدينة بَلْخ قد شيد بتأثير مكة وتقليداً للكعبة في وضع الاصنام حوله وتعليق الجواهر النفيسة عليه وتعيين منطقة حرام حوله وهي « الحِمَى » ادركنا مبلغ تأثير العرب في هذا العصر الجاهلي في الشرق أيضا[٣] •

---

(٢) راجع مقدمة ابن خلدون عن مدنية العرب في العصر الجاهلي .
(٣) ياقوت ٥ : ٣٠٧ ــ ٣٠٨ ، ٤١٩ و ٣ : ٢٣٥ ، ٤٠٢ ، ٥٣٥



ولئن اشتهر العرب في بناء عدد كبير من المدن في العصر الجاهلي فان ذلك يدل على خصائص حضارتهم ومزاياها البارزة التي ساعدت كثيراً على نموها في الاسلام • غير أنه مما يؤسف له اننا لم نستطع العثور على تاريخ اختطاط هذه المدن ولا على اسماء الذين اختطوها الا في النادر اليسير ، واحياناً يُعْزَى بناء المدن العظيمة أو القلاع المنيعة او الحصون العجيبة الخارقة الى النبي سليمان(٤) الذي كان يسخّر الجن في بنائها • وهذا ما كان يلجأ اليه مدوّنو تاريخ هذه المباني عندما يجهلون مؤسسيها أو عندما تبهرهم عظمتها ، وتدهشهم منعتها • واحياناً ينسبونها الى قدماء العرب من العمالقة والتبابعة او عادٍ او ثمود او

(٤) ياقوت ٣ : ٢٣٥ ، ٤٠٢ و ١ : ٥٣٥ و ٤ : ٢١٠ و ٥ : ٤١٩

طسم وَجِديْس • وينبغي ان نذكر ان الاخباريين والبلدانين من العرب ذكروا ان العرب في العصر الجاهلي قاموا بأمور ذات قيمة لها علاقتها ببناء المدن واختطاطها منها انهم :

١ ــ كانوا يسوّرون مدنهم فذكروا ان « يثرب » كانت مسورة• وان « صنعاء » كان لها سور محكم وفي احد ابوابه اجراس تدق اذا دخله احد ويسمع صوتها من بعيد[٥] • وفي القرآن « لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قُرىً مُحَصَّنَةٍ أو من وراء جُدُر » (١٤ ــ الحشر)

٢ ــ كانوا يبنون مدنهم وقلاعهم بالصُّفاح وهي الحجارة العريضة ، وبالحجارة العادية، او المُهَنْدَمة بالوانها السود او البيض، وانهم استخدموا الاعمدة الحجرية ، والرخام الملون في واجهات البناء، كل وجه بلون خاص •

٣ ــ وانهم استعملوا التماثيل في داخل الدور والقصور والمعابد وفي افنيتها كما في قصر غمدان ، والكعبة والمعابد المختلفة • ومما يؤيد ذلك الآلهة التي وجدت في الحجاز واليمن وما كان منها بوجه خاص في معابد اليمن وحضرموت وفي الكعبة فقد روي انه كان فيها يوم الفتح (٣٦٠) صنماً وهي تماثيل للآلهة من مختلف المواد وبمختلف الهيئآت والاشكال[٧] •

٤ ــ وانهم زوّقوا الدور بالجص والآجر ، واستعملوا فيها خشب السّاج ، والمعادن الثمينة[٨] •

٥ ــ ويظهر انهم سلطوا مياه الامطار التي تجري في الشوارع الى وديان لتجري فيها هذه السيول •

واليك جدولاً بقسم من المدن العربية قبل الاسلام :

---

(٥) راجع صنعاء ويثرب في معجم البلدان .
(٦) ياقوت ٤ : ٢١٠ .
(٧) ياقوت ٤ : ٢١٠ .
(٨) ياقوت ٤ : ٢١٠ .

آ ـ مدن الحجاز

١ ـ مكة
٢ ـ يَثْرِب
٣ ـ الطائف
٤ ـ وادي القُرَى
٥ ـ ينْبُع
٦ ـ الجُحْفَة
٧ ـ جَبَلَة
٨ ـ تَيْماء
٩ ـ مدْيَن
١٠ ـ تَبُوك
١١ ـ الحِجْر
١٢ ـ جُدَّة
١٣ ـ ودّان
١٤ ـ فَيْد
١٥ ـ الأَبْواء
١٦ ـ أمج
١٧ ـ بزواء
١٩ ـ دُوْمَة الجَنْدل
١٩ ـ الديدان
٢٠ ـ السقيا
٢١ ـ صفينة
٢٢ ـ مِنَى
٢٣ ـ المَجاز
٢٤ ـ مَجَنَّة
٢٥ ـ قرح
٢٦ ـ خَيْبر
٢٧ ـ حِصْن العشيرة
٢٨ ـ العَيْص
٢٩ ـ نطاة
٣٠ ـ البحار
٣١ ـ حباشة
٣٢ ـ الحديثة
٣٣ ـ القاحلة
٣٤ ـ القرعاء
٣٥ ـ قرن
٣٦ ـ الجار

ب ـ مدن اليمن وحضرموت :

١ ـ صنعاء
٢ ـ ظِفار
٣ ـ ضروان
٤ ـ مِرْباط
٥ ـ نَجْران
٦ ـ جُرَش
٧ ـ حُدَيْلة
٨ ـ تبالة
٩ ـ بينون
١٠ ـ عدن
١١ ـ صُحار
١٢ ـ جون

١٣ ــ جيشٍ
١٤ ــ سبأ
١٥ ــ ناعِط
١٦ ــ الكَسر
١٧ ــ آب
١٨ ــ ذو اشرف
١٩ ــ برِكْ الغِماد
٢٠ ــ الحيق
٢١ ــ حضور
٢٢ ــ صِرواح
٢٣ ــ مأرب
٢٤ ــ تمنع

ج ـ مدن اليمامة

١ ــ اليمامة
٢ ــ حجـر
٣ ــ صعفوق
٤ ــ الوشم
٥ ــ القرية
٦ ــ مرآة
٧ ــ أباض
٨ ــ أحسن
٩ ــ أكمة
١٠ ــ بلاد
١١ ــ نطاع
١٢ ــ الجدار
١٣ ــ الحاتمية
١٤ ــ حائل
١٥ ــ قَرْقَرَى
١٦ ــ الباقرة
١٧ ــ الحديقة
١٨ ــ الثقب
١٩ ــ الهدّار
٢٠ ــ منفوحة

د ـ مدن البحرين

١ ــ هَجَر
٢ ــ القطيف
٣ ــ الأحســاء
٤ ــ المُشَقَّر
٥ ــ حوارين
٦ ــ الخط
٧ ــ القَرْحاء

وفي الجزيرة العربية عدد كبير من المدن الاخـرى ، والقرى ، والحصون التي تشبه المدن حفلت بها المعاجم ، وكتب البلدان ، لـم نذكرها في هذا الجدول الموجز لأن ما ذكرناه من المدن العربية قبـل

الاسلام في هذا الجدول انما كان على سبيل المثال لا الحصر •

٢ ـ المعابد :

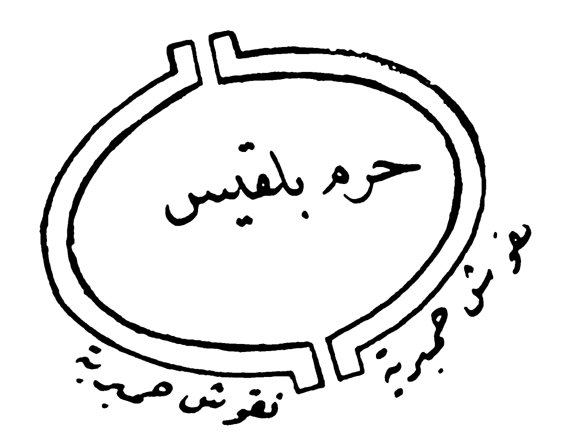
لقد وصفنا بعض معابد العرب في الفصول السابقة ونضيف الى ما ذكرناه ان معابد العرب كان لها آداب خاصة تمثل نواحي حضارية مهمة ، اذ انه كان لكل معبد « حرم آمن » له حدود معينة يطلق عليه « حِمَى » يتمتع فيه الانسان والحيوان والنبات على السواء بأمن عام ، فلا يجوز ان تقطع اشجاره ، او يصاد فيه حيوان ، او يراق فيه دم انسان •

وتدل المعابد على ناحية أخرى من تمدن العرب في العصر الجاهلي، ذلك انهم اتخذوا فيها آلهة منحوتة من الحجارة او الرخام، او مصنوعة من المعادن الثمينة يتجلى فيها الفن والصنعة • وكان بعض هذه التماثيل على صورة الانسان ، او على صورة الحيوان كما ذكرنا آنفاً •

وكان لكثير من آلهتهم بيوت مقدسة لها انظمة خاصة ، وشعائر معينة • كما كان لها طقوس معروفة من طواف ونسك وتلبية •••

فمعبد الإله « إلمُقَه » المعروف اليوم بـ « بحرم بلقيس » يتكون من بناء يبلغ طوله نحو ٦٠ر٨٦م • ويمتد من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي • وسمك الحائط ٣ر٣م • ويمتد الحائط الثاني من الشمال الشرقي الى الجنوب الغربي وطوله ٦ر٧٦ م • وهو يتكون من مربعات صغيرة منتظمة جميلة • ومن الناحية الشرقية يتكون من ٣١ صفاً ، ويبلغ ارتفاعه ٥ر٩ م • وينتهي الحائط بافريزين يتكونان من مربعات بينها فراغ • والمربعات تكوّن فتحة للهواء • وفي الحائط بابان كبيران الا ان احدهما اكبر من الآخر • وفي وسط البناء كانت تقوم أعمدة لا يزال اربعة منها في الجبهة الشمالية الشرقية منه • وفي الجهة الشمالية الشرقية من المدخل الرئيس ثمانية اعمدة منتشرة على امتداد خط من الجنوب الشرقي الى الشمال الغربي ، وهي أعمدة مثلثس

ارتفاعها ٤ر٥ م تنتهي رؤوسها بشكل مخروطي • وهناك اعداد اخرى من الاعمدة الاسطوانية او المربعة ذوات الاطوال المختلفة •



□□□□□□□

اعمدة واقفة

ومعبد صِرْواح : بناء قائم الزوايا طوله بين الجنـوب الشرقي الى الشمال الغربي • وسمك حائطه الخارجي ٢ر١ م وهو مشيد مـن مرمر ابيض منحوت نحتاً جميلاً • وفي الجانبين الطويلين للمعبد مكانان لبابين يختلفان في العرض والارتفاع • وفي المعبد مجموعة من الاعمدة المثمنة الاضلاع او ذوات ١٦ ضلعاً • وفي خـارج الحائط وفي داخله كُوىً تشبه المحاريب •

وهناك اوصاف عديدة لمبان ومعابد وابراج مربعة أو مثلثة،وربما استعملت هذه الابراج للرصد او الحراسة • وهذه المباني بمجموعها تمثل النواحي الهندسية في الفن المعماري العربي الجاهلي • ويظهر ان بعض المباني في اليمن تشبه بعض المباني العراقية والمصرية القديمة من حيث النقوش ، وشكل المداخل ، والسطوح ، وطبقات البناء • واخيراً يرى « الدكتور ديتلف نيلسـون »(٩) ان الدين العربي القديم هـو الخطوة السابقة للدين البابلي والآشوري والاديان الأخرى التي دانت

---

(٩) التاريخ العربي القديم ص ٥٣

بها الامم السامية التي خرجت من جزيرة العرب •

٣ ـ القصور :

لقد ورد ذكر عدد من قصور العرب في اليمن والحجاز والعراق والشام وبلاد الانباط وتدمر وكندة •• وقد وصفت بالفخامة والهندسة كقصور الغساسنة في بُصْرَى ، وقصور المناذرة في الحيرة وأشهرها الخورنق والسدير اللذان ذكرناهما قبلاً • اما في اليمن فمن أشهر قصورها : قصر غمدان الذي بناه « ايلي شريحا » وهو « ليشرح بن يحصب » فيما ذكر ياقوت • شيده في القرن الأول الميلادي في مدينة صنعاء • وقد وصف الهمداني هذا القصر وأخذ عنه ياقوت هذا الوصف • وكان لهذا القصر فيما روياه عشرون طبقة ، ارتفاع كل طبقة منها عشرون ذراعاً • وقد شيد هذا القصر من حجر « الگرانيت » والرخام السمّاقي والمرمر • وقد اقام الملك بلاطه في اعلى الطبقات ، وكان سقفها مغطىً بصفحة واحدة من الحجر الشفاف الذي بلغ من شفافيته ان الانسان يستطيع النظر من خلاله ، والتطلع الى السماء ، والتمييز بين الطيور المحلّقة في الجو • وكانت واجهات القصر الاربع مشيدة من حجارة مختلفة الالوان • فجهة من حجر ابيض ، وجهة من حجر اسود ، والجهة الثالثة من الحجر الاخضر ، والرابعة من الحجر الاحمر • وقد اقيم في كل ركن من اركانه الاربعة أسد من النحاس كان يزأر كلما هَبَّت الريح • وقد ظل هذا البناء قائماً حتى ظهور الاسلام•

٤ ـ الجنان والعيون :

اما الجنان المشهورة فيبدو أنها كانت منتشرة في الجزيرة العربية نذكر منها جنان الطائف في الحجاز التي المعنا قبلاً الى انها كانت مصايف لأهل مكة تشبه « الريڤيرا » في جنوب فرانسة • ومنها جنتا مأْرِب في اليمن فقد ذكرهما القرآن بالآية الكريمة « لقد كان لسبأ في

مسكنهم آية" جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له ، بلدة" طيبة" ورب غفور • فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط[10] وأثل وشيء من سدر قليل » (١٥ و ١٦ سبأ) •

وكثيراً ما يذكر القرآن الجنان والعيون في البلاد العربية مما يدل على وجودها في الجزيرة العربية ، وعلى معرفة أهلها المصانع والعيون والجنان ، وما فيها من المزروعات كما يلاحظ ذلك في الآيات الآتية : « أيود احدكم أن تكون له جنة" من نخيل وأعناب تجري من تحتها الانهار له فيها من كل الثمرات » (٢٦٦ ـ البقرة) « وقالوا : لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعاً ، أو تكون لك جنة" من نخيل وعنب » (٩٠ و ٩١ ـ الاسراء) « إنا بلوناهم كما بلونا اصحاب الجنة » (١٧ ـ القلم) « ولولا اذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله » (٣٩ ـ الكهف) « فعسى ربي ان يؤتيني خيراً من جنتك » (٤٠ ـ الكهف) « ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال : ما أظن أن تبيد هذه ابداً » (٣٥ ـ الكهف) « ••• ومن النخل من طلعها قنوان"[11] دانية" وجنات" من أعناب •• » (٩٩ ـ الانعام) « وهو الذي أنشأ جنات معروشات[12] وغير معروشات » (١٤١ ـ الانعام) « فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة ، ومنها تأكلون » (١٩ ـ المؤمنون)•

ويذكر القرآن ايضاً الجنان والعيون على لسان هود وصالح (ع) وغيرهما من الانبياء الذين ارسلهم الله الى عاد وثمود من أمم العرب

---

(١٠) الخمط : الحامض أو المر .

(١١) قنوان : جمع قنو وهي عذوق الرطب .

(١٢) جنات معروشات : البساتين التي يعرش لكرومها ، اي ترفع دواليها على الخشب وهي تشبه عندنا « القمرية » التي تنصب لاشجار العنب .

البائدة في الجزيرة فقد خاطب « هُوْد » قومه عاداً بقوله : « واتَّقوا الذي امدَّكم بما تعلمون * امدَّكم بأنعام وبنين وجناتٍ وعيون » (١٣٢ ــ ١٣٤ الشعراء) وخاطب صالح قومه ثمود « أتُتْرَكون في ما ههنا آمنين في جنات وعيون » « وزروع ونخلٍ طَلْعُها هَضيمْ »[١٣] « وتنحتون من الجبال بيوتاً فارِهين » (١٤٦ ــ ١٤٩ ــ الشعراء) ... الخ .

٥ ــ المصانع والآبار :

وهي حياض الماء التي ورد ذكرها في القرآن على لسان هود(ع) عند كلامه على عاد قال يخاطبهم : « أتبنون بكل رِيْعٍ[١٤] آيةً تعبثون » « وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون » (١٢٨ و ١٢٩ الشعراء) .

وكانت الآبار مقدسة عند العرب لأنها في الصحارى تزود الناس بالماء ، وتمنح لهم الحياة . ومن هنا كان تقديس العرب لبئر « زمزم ». وكان « بعل » عندهم يمثل روح العيون ، وينابيع المياه ، ولذلك عبدوه .

ويظهر انه كان حول كل بئر حرم آمن ايضاً فقد جاء في كتاب الخراج للامام ابي يوسف ان حريم البئر اربعون ذراعاً، وحريم الناضح وهو الذي يستقي من البئر ستون ذراعاً ، وحريم الصيد خمسمئة ذراع . وقد ذكر الاخباريون العرب ان الآبار والصهاريج وخزانات المياه قد تكون مربعة أو مستديرة كما ان بعضها كان في داخل المعابد أو على الطرق التجارية .

---

(١٣) طلعها هضيم : منضم في وعاء الطلع وهو الجُف يريد انه خاو ليس في جوفه شيء .
(١٤) الريع : المكان المرتفع او المنخفض

وعلى ذلك فان الآبار والمصانع والعيون والتنظيمات التي وضعت لها تعتبر من المظاهر الحضارية التي ترمز الى مدنية العرب في العصر الجاهلي

٦ ـ الوظائف :

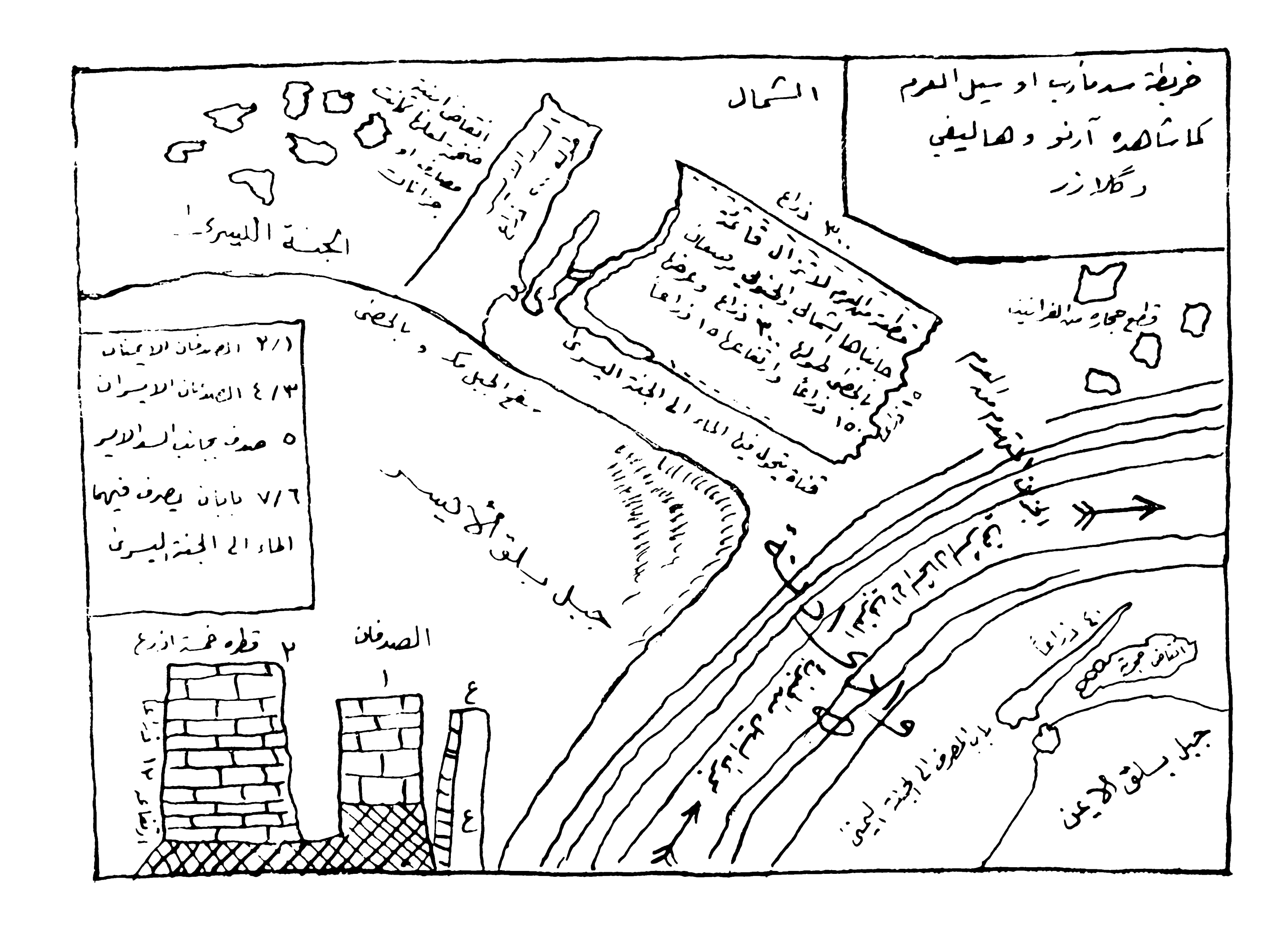
لقد كان في مكة وظائف دينية ومدنية شرحناها في فصل سابق • وهي في مجموعها تدل على حياة الاستقرار بمكة، وعلى نواحٍ حضارية تتعلق بتنظيم المجتمع ، وتقسيم الاعمال الادارية والعسكرية والدينية في حكومة قريش في عهد قُصَي وخلفائه • وقد ظلت هذه التنظيمات حتى مجيء الاسلام الذي أقر بعضها •

٧ ـ السدود والنواظم وطرق الارواء :

لقد استفاد العرب في اواسط الجزيرة العربية واطرافها الشرقية من مياه الامطار والسيول وبَنوا الصهاريج المتصلة ببعضها بواسطة الانفاق على هيأة « الكهاريز » وجعلوا لها فتحات متعددة لاستخراج الماء منها • وقد لوحظ ان سيول الامطار المنحدرة من مرتفعات جبال السَّراة الشرقية تتجه شرقاً نحو الخليج العربي بعد ان تغور في الرمال فتتفجر عيوناً فوارة ، وينابيع عذبة في الاحساء والبحرين وقاع الخليج العربي •

على ان عبقرية العرب في الدول العربية الجنوبية تتجلى في نظام الري ، واقامة السدود وهندستها ، فقد غدت اليمن بفضل السدود ، وخزانات المياه ، والصهاريج ، جنات عَدْنٍ تجري من تحتها الانهار • وأصبحت ارضاً سعيدة تفيض لبنا وعسلاً ، وتضوع طيبا وعطوراً وبخوراً •

ومن أشهر سدود اليمن : سد مأْرِب ، وسد حبيض أو حبايض، وسد رحب ••• فأما سد مأرب فيعد اعظم مشروع للري ببلاد العرب،



خريطة سد مأرب او سيل العرم
كما شاهده آرنو و هاليفي
و گلازر
الشمال
الجنة اليسرى
١/٢ الصدفان الايمنان
٣/٤ الصدفان الايسران
٥ صدف بجانب السد الايسر
٦/٧ بابان يصرف فيهما
الماء الى الجنة اليسرى
قناة يتحول فيها الماء الى الجنة اليسرى
الصدفان
جبل بلق الأيسر
جبل بلق الأيمن

كما يعد من عجائب العالم القديم . وكان على جانبيه جنتان احداهما عليا والاخرى سفلى وكانت لهما شهرة واسعة وقد مرَّ ذكرهما قبلاً .

٨ ـ الكتابات والنقوش وحل حروف « المسند » :

ان الخط المُسْنَد وهو الخط الذي اتخذته الدول العربية الجنوبية قد حلت رموزه بفضل المجموعات الكبيرة من الكتابات التي عَثَرت عليها البعوث الأثرية والروّاد الذين جابوا اماكن مختلفة من الجزيرة العربية من بينها اثنا عشر ألف نص من الكتابات الثمودية والسبأية[١٥] انتسخها « فلبي » وجماعته الذين قاموا برحلة في «الربع الخالي» قطعوا خلالها خمسة آلاف كيلومتر في سنة ١٩٥١م . ونضيف هنا ان العلماء الذين حلوا رموز « المُسْنَد » هم : وليم گسينوس (Wilhelm Gesinus) ورودیگر (E. Rodiger) وهاينرش ايوالد (Heinrich Ewald) وفريسْنَل (Fresnel) ثم القس اوسْيَنْدَر (Osiander) .

ان الكتابة العربية في جنوب الجزيرة العربية تتكون من ابجدية عدد حروفها (٢٩) حرفاً . وتقرأ من اليمين الى اليسار . وهي والابجدية العربية الشمالية ترجعان الى عصر واحد وتعتبر الابجدية الأم للابجدية الاوربية .

وكانت مادة الحجر من أهم مواد الكتابة . وقد وجدت النقوش في المباني محفورة بعناية ودقة وجمال . ويلاحظ ان حروف الكتابة في المعابد كبيرة يمكن قراءتها من مسافات بعيدة . اما الخط العربي الذي دوّن به القرآن فهو الخط الذي انتشر في الحجاز ومنه عمّ البلاد العربية والاسلامية بأسرها . ويعتبر هذا الخط العربي مقدساً لأن القرآن دوّن به ولان الله تعالى اقسم به بقوله « ن . والقلم وما يسطرون » كما اسلفنا .

---

(١٥) التاريخ العربي القديم ص ٢٦١

ويظهر ان عدداً كبيراً من النصوص والنقوش وجدت بهذا الخط، أو قريبة من الخط العربي الجنوبي ، وبلهجة عربية شمالية في بلاد العرب الشمالية في اماكن متباينة منها حيث كانت القبائل العربية تنتشر هناك ، تعتز بحريتها دون ان تخضع لحكومة مركزية واحدة .

ان النصوص المذكورة تدل بجملتها على وجود فن معماري عربي في قلب الجزيرة . كما تدل على وجود اللغة العربية ، وعلى ما في الدين من طقوس لآلهة معروفة . وكان بعض هذه القبائل متمدنة كتلك التي عاشت في اطراف الهلال الخصيب ، وكونت دولاً ذكرناها في الفصول السابقة ، أو كانت تعيش عيشة تجمع بين البداوة والحضارة أو بين الرعي والزراعة. وكانت هذه القبائل وتلك الدول العربية تنطق بالعربية وتفخر بعروبتها . كما كانت على اتصال مستمر بالدول السامية التي عاشت في الهلال الخصيب. وهي التي خرجت من جزيرة العرب في احقاب متفاوتة .

وفي الوقت نفسه تثبت المراكز التي كانت لعرب الجنوب في شمال الجزيرة العربية ان الاتصال كان موجوداً بين عرب الشمال وعرب الجنوب في التجارة والدين والآلهة . كما يبرهن على ذلك وجود النصوص والوثائق المكتوبة ، وهي الكتابات المعينية الشمالية في « العلاء » ، والنصوص اللحيانية والثمودية والصفوية التي اكتشفت في شمال بلاد العرب .

ومما ينبغي ملاحظته ان النقوش الشمالية كثيرة ايضاً ، ولكنها لم تبلغ ما بلغته النصوص الجنوبية . وعلى الرغم من ان العرب في بعض هذه الاماكن كتبوا بأقلام تختلف عن الخط « المُسْنَد » فقد وجد في مدينة « العلاء » نحو ٤٠٠ نقش من النقوش اللحيانية . وفي قلب الجزيرة العربية وشمالها لا يكاد يخلو حجر من نقش تذكاري . وقد انتسخ منها حتى الثلث الاول من هذا القرن اكثر من الفي نقش ، منها

ما يرجع الى ما قبل الميلاد ، ومنها ما يرجع الى ما قبل الاسلام •

ان لغة قسم من النصوص الصَّفَوية لغة عربية كلغتنا الحالية • ومن اهمها نص « النَّمارة » الذي عُثر عليه على جبل الصَّفا في الجنوب الشرقي من دمشق ، وتاريخه ٣٢٨ م • ونقش « زَبَد » الذي وجد في جنوب شرقي حلب وهو مدوّن بثلاث لغات : العربية واليونانية والسريانية • وتاريخه سنة ١٢ ٥م • اما نقش حرّان المدون باللغتين العربية واليونانية فقد وجد في جنوب دمشق وتاريخه ٥٦٨ م •

٩ ـ النقود :

لقد استعمل العرب في معاملاتهم التجارية ، وفي الضرائب والتعامل اليومي ، النقود الذهب والفضة والنحاس • وقد دُوّن على بعضها في الدول العربية الجنوبية اسم الملك الذي أمر بضربها ، أو الحرف الاول من اسمه • كما صور عليها بعض الصور كرأس انسان أو وجه أو طير مع بعض الرموز والكتابات بالخط « المُسْنَد » • وقد وجد على بعض النقود صورة هلال أو كوكب ، وربما كان لذلك علاقة بآلهتهم •

وكان من عادة العرب في الجاهلية التعامل في الحجاز وفي غيره بوزن الدراهم بالاواقي ان زاد عددها على وزن اوقية • وكان وزن الاوقية اربعين درهماً فما نقص عن هذا المقدار جرى التعامل عليه بالعدد ، ومما زاد عليه جرى التعامل عليه بالوزن • وتطلق لفظة « الوَرِق » على الفضة ، كما تطلق لفظة العَيْن على الذهب ، اما التبر فهو الذهب غير المسكوك • وكانت مكة تتعامل بمختلف النقود اليمانية والفارسية والرومية •

١٠ ـ نظام الحكم :

لقد عرفت اليمن نظاماً من الحكم يتكون من مجالس تمثل الشعب تمثيلاً نيابياً • فقد كان في الدولة القَتَبانية مثلاً مجلس للقبائل الى

جانب العرش . كما كانت القبائل المختلفة تمَثَّل في الهيآت التشريعية المتعددة . وكانت ادارة البلاد بيدها . وربما كان مجلس القبيلة يعقد جلساته في العاصمة مرتين في السنة . وكانت القوانين والانظمة في مجلس القبائل ، وفي مجلس الدولة تصدر باسم الملك . وكان مجلس الدولة الاستشاري يحل محل مجلس القبائل احياناً . وكانت مجالس القبائل تجتمع اذا حدثت بعض الظروف السياسية التي تستلزم انعقادها، وكذلك اذا اريد تغيير بعض النظم الاقتصادية .

وقد عرفت الدولة السبأية التمثيل النيابي ايضاً ، غير أنه طرأت تبدلات على هذا النظام في العصور السبأية المتأخرة عندما أخذ نفوذ الاشراف يزداد، ونظام الانتخابات النيابية يتضاءل. وقد حل «الأقيال» محل شيوخ القبائل ، وصار الحكم في البلاد يتجه تدريجياً نحو ما يشبه « الاقطاع » .

وظهرت طبقة الموظفين في الوقت نفسه . وكان من الوظائف الحكومية المهمة وظيفة « كبير » بمنزلة رئيس الموظفين أو رئيس رجال الدين أو شيخ القبيلة ، أو العامل على الحدود . وكان سادة قبيلة « مَرْثِد » مثلاً في اقليم « بَكِيْل » في اليمن من (الكبراء) أي من رؤساء الموظفين المعروفين باسم « الأقيال » . وكان الملك هو الذي يعين هؤلاء الموظفين المذكورين ليقوموا بادارة الاقاليم ، وجباية الضرائب .

وفي معين لم يكن الملك مطلق السلطة أو التصرف اذ كان يشاركه في ذلك مجلس يضم ممثلي الموظفين الذين كانوا من ذوي النفوذ في دوائرهم الاختصاصية .

١١ ـ المدافن :

ومن علامات تمدن العرب عنايتهم بالمقابر والاموات . وقد كانت مقابرهم متنوعة ، وعمليات الدفن مختلفة . فقد كان المتوفى في البلاد

العربية الجنوبية يُوَسَّد في تابوت من الحجر قائم الزوايا ، وعليه غطاء من الحجر كذلك • وكان يحيط به حائط مستدير مرتفع من الاحجار التي ترتكز على غطاء التابوت •

وكان من عادتهم ان يدفن الموتى في حجرات منحوتة من الصخر ، وعلى ابوابها كتابات ككتابات الشواهد القبرية • والى جانب هذه الحجرات مدافن اخرى تشبه مقابر العظماء اليوم ، منها ما هو على اشكال مربعة • وفي حيطانها الجانبية مدخل في كل منها ، وفي الحائط الخلفي فتحتان • اما السقف فهو من الحجارة ايضاً • وقد وجدت في بلاد «الحِجْر» آثار تدل على أن القوم كانوا يستعملون «التحنيط» •

وكانت النُّصُب تقام على المقابر ، وهي اعمدة مُلْس رباعية الاركان ، ينقش في اعلاها اسم المتوفى • وكان على النُّصُب احياناً زخارف بسيطة الى جانب صورة المتوفى• ويلاحظ بعض الشبه فيهذه الامور بين ما كان عند العرب الجنوبيين ، وبين ما كان عند الآشوريين والفينيقيين •

١٢ ـ التجارة والزراعة والصناعة :

لقد كانت تجارة العرب في العصر الجاهلي واسعة تحملها السفن بين الهند وجزيرة العرب ومصر والشواطىء الشامية وبوجه خاص الى غزة • وكان العرب يسيطرون علىالبحر الاحمر الذييسميه المؤرخون القدامى ومنهم بطليموس « الخليج العربي » • وقد نافست التجارةُ العربية التجارةَ الرومانية المصرية وبصورة خاصة بعد انتصار العرب على الاحباش الذين حاولوا غزو البلاد العربية •

وكانت ترد الى بلاد العرب بضائع مختلفة من الابنوس والسن والبخور ، ولذلك توسعت الدولة العربية تجاه البحر الاحمر والجنوب والشرق • وسيطرت الدول العربية على الاقاليم الواقعة في شرقي افريقية واستوطنتها وجعلتها من مجالاتها الحيوية •

وكان نشاط الدول العربية الجنوبية في التجارة وسيطرتها على طريق تجارة البخور الذي كان يخترق « ظفار » و « تمنع » و «مأرب» و « الجوف » من أهم الاسباب لتي دفعت الانبراطورية الرومانية والأحباش والساسانيين الى محاولة غزو اليمن وحضرموت والحجاز .

هذا ويمكن ان نشير الى وجود صناعات عديدة في بلاد العرب الجنوبية وخاصة الاسلحة كالسيوف والدروع ، وصناعة البُرود والاقمشة ، ونحت التماثيل والآلهة من الحجارة والرخام الذي كان متوفراً جداً في اليمن . وقد عرف العرب أيضاً صناعة الخزف « السيراميك » ، والاختام المنقوشة . كما عرفوا كثيراً من المناجم في الجزيرة العربية ، وقد استخرجوا منها المعادن الثمينة كالذهب والفضة لاتخاذها للحلية وسك النقود .

كما يمكننا ان نشير الى ازدهار الزراعة في كثير من اقطار الجزيرة العربية وخاصة زراعة النخيل والكروم والفواكه والخضروات المختلفة. ومما يؤيد ذلك البساتين والجنان والآبار والخزانات والعيون والينابيع والمصانع والسدود التي عرفتها البلاد العربية والتي أكثر القرآن الكريم من الاشارة اليها . ولذلك عبدوا منها ما له تأثير في الزراعة ورعي الماشية . وعلى العموم فان الحجاز بلاد غنية بنخيلها وتمورها التي تربو انواعها الجيدة على مئة نوع . وتشتهر بلاد حضرموت بالبخور ، واليمن بقمحها وبُنّها وصمغها العربي ، وعُمان والاحساء بالارز . كما تزرع الذرة والشعير والغضا والاثل في انحاء متعددة من الجزيرة العربية .

ونختتم هذا الفصل عن مدنية العرب بوصف المسعودي لأرض سبأ حيث يقول : « كانت من اخصب أرض اليمن وأثراها ، وأغدقها ، وأكثرها جناتاً ، وغيطاناً ، وافسحها مروحاً ، بين بنيان وجسّرٍ مقيم ، وشجرٍ موصوف ، ومساكب للماء متكاثفة ، وأنهار متفرقة . وكانت



وهم يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا جاء في الخبر ان احدهم على صورة البشر
والثاني على صورة الثيران والثالث على صورة النسر والرابع على صورة الاسد ، وهذه صورتهم ،

ولما سمع رسول الله صلى الله عليه قول امية بن ابي الصلت تعجب منه من انه جمعهم في بيته وكان يقول هذا بيتا
وبيته هذا شعر رجل وثور تحت يمنى رجله ، والنسر للاخرى وليث مرصد ، وعن ابن عباس رضي الله
عنه خلق الله تعالى حملة العرش وهم اليوم اربعة فاذا كان يوم القيامة يؤيدهم باربعة اخرى فذلك
قوله تعالى ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ، وهم في عظم لا يوصف منهم على صورة بني آدم يشفع
لبني آدم في ارزاقهم ومنهم على صورة الثيران يشفع للبهائم في ارزاقها ومنهم من هو على صورة النسر

مسيرةَ أكثر من شهر الراكب المُجِدّ على هذه الحال ، وفي العرض مثلَ ذلك . وأن الراكب والمارّ كان يسير في تلك الجنان من اولها الى ان ينتهي الى آخرها لا يرى جهة الشمس ، ولا يفارقه الظلّ لاستتار الارض بالعمارة والشجر ، واستيلائها عليها ، واحاطتها بها . فكان اهلها في أطيب عيش وأرفهه ، واهنأ حال وأرغده ، وفي نهاية الخِصْب ، وطيب الهواء ، وصفاء الفضاء ، وتَدَفّق المياه ، وقوة الشوكة ، واجتماع الكلمة ، ونهاية المملكة ، فكانت بلادهم في الارض مَثَلاً . وكانوا على طريق حسن من اتّباع شريف الاخلاق ، وطلب الفضائل على القاعد والمسافر ، بحسب الامكان وما توجِده القدرة من الحال . فَمَضَوْا على ذلك ما شاء الله من الأعصار لا يعاندهم ملكٌ الا قَصَمُوه ولا يوافيهم جبّار في جيش الا انتصروا عليه فذلت لهم البلاد ، وأذعن لطاعتهم العِبادُ فصاروا تاجَ الارض » .

واخيراً يمكننا ان نذكر ان حضارة العرب القديمة قد امتدت في كل الجزيرة العربية من اليمن الى الحجاز وحضرموت وعُمان ، وبلاد الانباط وتدمر ، والهلال الخصيب ، وأواسط الجزيرة العربية بما في ذلك « الربع الخالي » وامتدت الى مصر ونفذت الى بلاد الروم والفرس . ثم تطورت تطوراً عظيماً في الاسلام من حيث العقيدة ، والاتجاه العام نحو خير البشرية ، وتكريم الانسان بوجه خاص .

الباب الثالث

مزايا الحضارة العربية وخصائصها

الفصل الأول

مقومات الحضارة العربية وعناصرها

يمكننا ان نعرّف الحضارة العربية بانها ذلك التراث العربي الضخم الذي اشتهرت بـه الامة العربية في القرون الوسطى ، والذي أصبح عنوان مجدها ، ورمز مدنيتها ، ودليلاً صادقاً على مبادئهـا و « ايديولوجيتها » وحجة قوية على أن الأمة العربية لا تعيش في فراغ كما يقولون لان الاسلام قد أمدّها بكل مقومات الحياة الحرة الكريمة، وهداها سواء السبيل . اضافة الى تراث العرب الاصيل قبل الاسلام فيما لا يقل عن عشرين قرناً من الزمن .

ومقومات هذه الحضارة تشمل ما يأتي :

١ ـ المبتكرات العلمية التي نتجها الفكر العربي خلال العصور في العلوم والآداب والانسانيات من ايجاد نظريات جديدة في الرياضيات: كالهندسة والجبر والمثلثات والفلك ، وتصليح لأغلاط مَنْ سبقهم من الامم . كما كان لهم في الطب مبتكرات مهمـة في الادوية ، وطـرق العلاج ، وبناء المستشفيات وكليات الطب المختلفة التي انشـأوها ، والمعاجم الطبية التي دونوها . كذلك كانت حالهم بالنسبة للكيميـاء والصيدلة والبيطرة والجراحة ..

أما في الانسانيات فقد ابتكروا انواعاً من العلوم لم يقتبسوها من الغير كالفقه وأصوله ، وعلم الكلام ، وعلم الخلاف وهو الفقه المقارن الذي يعتمد على المقايسات ، والمناظرة والجدل والتفسير وعلوم القرآن

والحديث والتاريخ والجغرافية ... وقد كان الاسلام السبب الاول في خلقها وايجادها . وأما العلوم اللسانية من أدب ونحو وصرف وبلاغة ، وتاريخ الادب العربي ، وسير الشعراء والادباء والكتاب والخطباء فمما ولد بالجزيرة العربية ، ونما في الاسلام نموا عظيماً ،وهي لذلك من خصائص العربوحدهم في الجاهلية والاسلام . يضاف اليهم بعد ذلك من نبغ فيها من فحول العربية الذين دخلوا في الاسلام من الشعوب المختلفة، وتأدبوا بآداب الاسلام ، ودوّنوا بالعربية، ورفعوا لواءها بين الناس .

٢ ـ البدائع الفنية التي انتجتها اليد العربية الماهرة، من بناء المدن والقصور والجوامع والمدارس والجامعات الى الفنون والحرف والصناعات والميكانيك الذي عرف بعلم الحيل ..

٣ ـ النظم الاسلامية المختلفة التي وضعها العرب لدولتهم مدة حكمهم الطويل وتؤلف جوانب حضارية مهمة نذكر منها ما يأتي :ـ

آ ـ النظم الدينية في العبادات وتهدف الى دعم فكرة التوحيد المحض ، والعمل على رفع المستوى الخلقي بالعبادة ، والجهاد في سبيل الله ، وتأسيس المساجد والمدارس ، ونشر القرآن وعلومه ، والسنة النبوية ، والتشريعات الفقهية .. .

ب ـ النظم المالية والاقتصادية التي كانت تهدف الى ايجاد موارد ثابتة للدولة للانفاق باستمرار على المشروعات الاجتماعية والعلمية والدينية والمصالح العامة كالضمان من الفقر والمرض والجهل ، وفي سبيل الله ...

جـ ـ النظم الثقافية : وكانت ترمي الى نشر العلم ، ومقاومة الجهل، وبث الفضيلة والاخلاق، وانشاء دون العلم والمعاهد والمساجد، والعناية بأهل العلم بصرف النظر عن أديانهم ومذاهبهم ومللهم ونحلهم.

د ـ النظم العسكرية : والغرض منها اقرار السلام وتحاشي الحروب ، ودفع اذاها بايجاد قواعد للسلم والحرب ، واحترام الأحلاف والمعاهدات ، والوفاء بالعهود والمواثيق والأَيْمان ...

هـ ـ النظم الادارية : وكان الهدف منها ادارة الدولة العربية ، والبلاد الاسلامية بواسطة العمال والولاة ، والدواوين ، والمؤسسات الأدارية المختلفة كالبريد والحِسْبة والشرطة ... الخ .

و ـ النظم القضائية : ويراد بها البحث في اصول القضاء ، وفي استقلال القضاء عن السياسة ، واستحداث منصب قاضي القضاة ، وتعيين القضاة في الدولة ، ورصيد المسلمين الضخم من الاحكام والاقضية والفتاوى ...

ز ـ النظم السياسية : وهي قواعد الحكم في البلاد الاسلامية كنظام الخلافة ، وطريقة الانتخاب ، والوراثة ، والوزارة ، والحجابة ، والعلاقات الدبلوماسية بين العرب وغيرهم ...

٤ ـ النظم الاجتماعية : وتظهر في القواعد التي وضعها الاسلام لرفع مستوى المعيشة في المسكن ، والمآكل ، والمشرب ، وفي الضمان الاجتماعي ، والعناية بالمجتمع من النواحي الصحية والخلقية والثقافية.

٥ ـ مبادىء الاسلام الجليلة التي قدمها للانسانية كالدعوة الى تكريم الانسان ، وانقاذه من الرق والعبودية والضلال ، ورفعه الى الدرجة التي تليق به ان يتبوأها ، وغرس الفضيلة والكرامة والعزة في النفوس ، وبث الحرية والعدالة الاجتماعية ، والاخاء والمساواة بين الناس ، تلك المباديء التي اعلنها الاسلام قبل الثورة الفرنسية وقبل اعلان حقوق الانسان بنحو اثني عشر قرناً من الزمن قولاً وعملاً .

٦ ـ السجايا الحميدة والاخلاق الفاضلة التي جاء بها الاسلام وأضافها الى ما كان عند العرب من كريم الخصال. وتتلخص في اشاعة المحبة بين الناس ، والدعوة الى الطيبة والايثار والتضحية ، ونبذ

البغض والغل والحقد والتحاسد ، والنهي عن الترف والظلم والاعتداء قال تعالى :

« وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » (١٩٠ ــ البقرة) •

«واذا اردنا ان نُهلك قرية أمرنا مُترَفيها ففسقوا فيها ، فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » (١٦ ــ الاسراء) •

« وما ارسلنا في قرية من نذير الا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون » (سبأ ــ ٣٤)

« وقالوا : نحن أكثر اموالاً واولاداً وما نحن بمعذبين » (سبأ ــ ٣٥) •

« وكذلك ما ارسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها : إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون » (٢٣ ــ الزخرف)•

« قل : او لو جئتكم بأهدَى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا : إنا بما أُرسلتم به كافرون » (٣٤ ــ الزخرف) •

« اهم يقسمون رحمة ربك ؟ نحن قَسَمْنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجاتٍ ليتخذ بعضُهم بعضاً سُخرياً ، ورحمةُ ربك خيرٌ مما يجمعون » (٣٢ ــ الزخرف) •

« في بيوت أذن الله ان ترفع ويذكر فيها اسمه ، يسبح له فيها بالغُدُوِّ والاصال • رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، واقام الصلاة ، وايتاء الزكاة ، يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار » (٣٦ و ٣٧ ــ النور) •

« ونزعنا ما في صدورهم من غل اخواناً على سرر متقابلين » (٤٧ ــ الحجر) •

«ولا تجعل في قلوبنا غِلاً للذين آمنوا ربنا انك رؤوف رحيم» (١٠ ــ الحشر) •

٧ ــ الكمال الروحي: إن من مقومات الحضارة العربية هذه النظرة الشاملة الى الدنيا والدين فقد نظر الاسلام الى المادة والروح أو العلم والدين على انهما أمران متلازمان لا يفترقان ولذلك جمع الاسلام بين مطالب الدنيا والآخرة فلم يدعُ الى الترهُّب والحرمان ولا الى التزمت بل دعا الانسان الى ان يعمل في الحياة الدنيا ويستفيد من طيباتها وخيراتها ، وأن يتزود فيها للآخرة من التقوى والعمل الصالح . قال تعالى : « .. وتزودوا فان خير الزاد التقوى » (١٩٧ ــ البقرة) .

«هو الذي خلق لكم ما في الارض جميعاً ..» (٢٩ ــ البقرة) .

« الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره، ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون * وسخر لكم ما في السموات وما في الارض جميعاً منه ، ان في ذلك لآياتٍ لقوم يتفكرون » (١٢ و ١٣ ــ الجائيـة) .

« ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار» (٢٠٠ ــ البقرة) .

«وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا» (٧٧ ــ القصص) .

« يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد» (٣١ ــ الاعراف)

« انا جعلنا ما على الارض زينة لها لتبلوهم ايهم احسن عملاً (٧ــ الكهف) .

« قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق » (٣٢ ــ الاعراف) .

« يا ايها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم واشكروا الله إن كنتم إياه تعبدون » (١٧٢ ــ البقرة) .

« يا ايها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما احل الله لكم ولا تمتدوا ان الله لا يحب المعتدين • وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً واتقوا الله الذي انتم به مؤمنون » (٨٧ و ٨٨ ـ المائدة) •

« اعلموا انما الحياة الدنيا لعب" ولهو" وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الاموال والاولاد كمثل غيث اعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا • ثم يكون حطاماً وفي الآخرة عذاب" شديد" ومغفرة من الله، ورضوان ، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور» (٢٠ ـ الحديد)•

الفصل الثاني

الحيوية في الحضارة العربية

لقد وصف كثير من المستشرقين الحضارة العربية ومبتكراتها وابداعها الفني ، وقالوا : بانها من الحضارات الانسانية المهمة . قال لوبون يصف منجزاتها وحيويتها : «يكفي ان نذكر انه كان للعرب قبل ظهور « محمد » آداب ناضجة ، ولغة راقية ، وانهم كانوا ذوي صلات تجارية بأرقى امم العالم منذ القديم ، وانهم استطاعوا في أقل من مئة سنة ان يقيموا حضارة من انضر الحضارات التي عرفها التاريخ » .

« وان ما حققه العرب في وقت قصير من المبتكرات العظيمة لم تحققه امة . وان العرب أقاموا دينا من أقوى الاديان التي سادت العالم ، ولا يزال الناس يخضعون له . وانهم انشأوا دولة تعد من أعظم الدول التي عرفها التاريخ. ولم يقتصر فضل العرب في ميدان الحضارة على أنفسهم فقد كان لهم الاثر البالغ في الشرق والغرب . وأن المشرق والمغرب مدينان لهم في تمدنهما . ولم يتفق لامة فيهما ما للعرب من النفوذ . ورضي المصريون والهنود بمعتقدات العرب ، وعاداتهم ، وفن عمارتهم . وقد انتحل اكثر قاهري العرب دين العرب ، وفنونهم ، وعلومهم . واتخذ اكثرهم العربية لغة له . ولم يَدُرْ في خَلَد احدهم اقامة حضارة مقام حضارة العرب . وما على المرء الا ان ينظر الى آثار العرب الادبية ، والفنية ليعلم انهم زينوا الطبيعة ، وذلك لما اتصف به الفن العربي من الخيال ، والابداع ، والنضارة ، والبهاء ، وفيض الزخارف ، والذوق الرفيع . وقد جمّل العرب بخيالهم الخصب ــ وهم الذين لا نظير لهم في الفن ــ كل شيء لمسوه .

ولقد رغبت الامة العربية بعد أن اغتنت ـ والامة العربية امة شعراء ـ في تحقيق خيالاتها فابدعت تلك القصور المثالية الساحرة التي يُخَيَّل الى الناظر اليها انها مؤلفة من تخاريم رخامية، مرصعة بالذهب، والحجارة الكريمة . ولم يكن لامة مثل تلك العجائب ولن يكون ، فهي وليدة جيل فَتِيٍّ مضى ، وخيالٍ خصبٍ ذوى . ولا يطمعن احد في قيام مثلها في الزمن الحاضر الذي نشأ ابناؤه على عبادة المادة ».

ويقول ايضاً : « وقد رأينا العرب ذوي أثر بالغ في تمدين الامم التي خضعت لهم. وقد تحول بسرعة كل بلد خفقت فوقه راية الرسول، فازدهرت فيه العلوم ، والفنون ، والآداب ، والصناعة ، والزراعة ايَّما ازدهار»[1] .

واخيراً يقول عن آثار العرب الفنية العجيبة : « هي خارقة للعادة في بعض الاحيان ، فتَّانة في الغالب ، أصيلة على الدوام »[2] .

واذا كان بين الغربيين من يتهم الحضارة العربية بالجمود فان بينهم من يعجب بحيويتها وفعاليتها وبما تركته من تراث ينبض بالحياة . استمع الى المناقشة اللطيفة حول الرأيين المذكورين بين اثنين من علماء فرانسة لتتبين الحيوية في الحضارة العربية .

ان هنري مارتان *Henri Martin* الفرنسي يرى ان الفرنج لو كسروا في Paitiers أي في معركة « البلاط » أو « بلاط الشهداء» في فرانسة سنة ٧٣٢م لكانت الارض قبضة محمد، ولخسرت اوربة والدنيا مستقبلهما ذلك لان التقدم الذي هو وليد النشاط والعمل مما لا يمكن ان يصدر عن قريحة المسلمين . غير ان گوستاف لوبون الفرنسي يتصدى له ساخرا ، ويرد عليه بقوله : « ولكن لنفترض ان النصارى عجزوا عن دحر العرب ، وان العرب وجدوا جو

---

(١) حضارة العرب ص ٣٤٤ .
(٢) المصدر نفسه ص ٥٤٦ ـ ٥٤٧ .

شمالي فرانسة كجو اسبانية غير بارد ولا ماطر فاستوطنوه فماذا كان يصيب اوربة ؟ كان يصيب اوربة النصرانية المتبربرة مثل ما اصاب اسپانية من التقدم ، والارتقاء ، والحضارة الزاهرة الرفيعة تحت راية النبى العربي • وكان لا يحدث في اوربة التي يكون قد هذبها الاسلام ما حدث فيها من الكبائر كالحروب الدينية ، ومذبحة سان پارتلمي ، ومظالم محاكم التفتيش ، وكل ما لم يعرفه العرب من الوقائع التي ضرَّجت اوربة بالدماء عدة قرون • ويجب ان يكون المرء جاهلا جهلا مطبقا ليوافق على ما زعمه ذلك المؤرخ العالم من ان التقدم الذي هو وليد النشاط والعمل لم يكن يصدر عن قريحة المسلمين • ومزاعم مثل تلك ليست مما يقف امام سلطان النقد عندما يعلم ان التمدن الذي يحفز الانسان الى التقدم لم يكن قويا في أمة مثل قوته في العرب » •

لذلك كله يمكننا ان نصف هذه الحضارة بانها حضارة قوية في حيوتها ، عربية في بيئتها ، ولغتها ، ودينها ، وعقليتها ، وطراز تفكيرها وفي كثير من عناصرها ، ومبتكراتها • وان الدور الاساسي فيها كان للعرب لانهم ابدعوا في العلوم والآداب وابتكروا الوانا من المكتشفات العلمية القيمة في العلوم الرياضية والطبيعية ، وضروبا من النظم الاقتصادية والمالية والسياسية كما اسلفنا• وانحيويتها تناولت بالبحث حتى الامور النفسية والجنسية منها • وان الغرض منها : التسامي بالانسان والارتفاع به الى أعلى درجات التقدم والرقي • وان هذه الحضارة قد اثرت في المدنية العالمية ، وفي نقل تراثالامم القديمة وكان لها اثر فعّال في الشرق والغرب • كما كانتمن عوامل النهضة الاوربية الحديثة حين هب الاوربيون الى التحرر والانعتاق • ولو لم يوجد العرب على مسرح العلم والفكر لما كانت اوربة بهذه النهضة التي تكونت بنواة اصلها عربي ، وجذرها عربي كما يرى گوستاف لوبون•

ويتجلى لنا من آيات كثيرة وردت في القرآن الكريم ان الاسلام

يمتاز بالحيوية باستمرار . وأن إله المسلمين لم يكن قد اخلد الى الراحة والكسل بعد ان خلق الخلق . كما يزعم بعض علماء الغربيين من ذلك قوله تعالى :

« ألم تر ان الله يعلم ما في السموات وما في الارض ، ما يكون من نَجْوَى ثلاثة إلا وهو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا اكثر الا هو معهم اين ما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ان الله بكل شيء عليم » (٧ ـ المجادلة) .

« قل : ان تُخْفُوا ما في صدوركم او تُبدوه يعلَمْهُ الله ، ويعلم ما في السموات وما في الارض والله على كل شيءقدير » (٢٩ ـ آل عمران) .

« ولو أن ما في الارض من شجرة اقلام والبحر يَمُده من بعده سبعة أبحر ما نَفِدَتْ كلمات الله ان الله عزيز حكيم » (٢٧ ـ لقمان) .

ان الله تعالى يستنكر في القرآن الكريم خلود الانسان الى الحياة الدنيا والاطمئنان اليها فيقول : « ان الذين لا يرجون لقاءنا ورضُوا بالحياة الدنيا . واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون * أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون » (٧ و ٨ ـ يونس) .

أما عقيدة القدر التي يرى البعض انها تمثل الكسل والتواكل عند المسلمين باعتبار ان المسلم يتطلع دوماً لما يأتي به الغيب فالمراد به في القرآن : ان كل شيء يجري بحسبان وعلى سنن ونواميس كونية معلومة ، وانظمة محكمة تحت الناس على معرفتها لان الناس غير مجبرين على اتباع طريق بعينه . كما يتبين ذلك من الآيات الآتية :

« وانزلنا من السماء ماء بقَدَر فأسكنّاه في الارض وإنا على ذهاب به لقادرون » (١٨ ـ المؤمنون) .

« الله يعلم ما تحمل كل انثى وما تغيض الارحام وما تزداد، وكل

شيء عنده بمقدار » (٨ ـ الرعد) .

« الذي له ملك السموات والارض ، ولم يتخذ ولداً ، ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدّره تقديرا » (٢ ـ الفرقان).

وكانت مهمة الرسل هي ان يبينوا للناس الحق والباطل والخير والشر : والانسان نفسه هو الذي يفضل احد الطريقين ، ويختار أحد السبيلين اي ان يعمل بمشيئته واختياره وارادته . كما تدل على ذلك الآيات الآتية :

« إنا هديناه السبيل إما شاكراً واما كَفُورا » (٣ ـ الانسان)

« وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا اعتدنا للظالمين ناراً احاط بهم سُرادقُها وانْ يستغيثوا يُغاثوا بماء كالمُهْل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقاً» (٢٩ـ الكهف)

« وما اصابكم من مصيبة فبما كسبت ايديكم ويعفو عن كثير » (٣٠ ـ الشورى) .

« من عمل صالحاً فلنفسه ومن اساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد » (٤٦ ـ فُصِّلت) .

« له مُعَقِّبات" من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ، ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم واذا اراد الله بقوم سوءًا فلا مردَّ له وما لهم من دون من وال » (١١ ـ الرعد) .

« واذ قال موسى لقومه : يا قوم لِمَ تؤذونني وقد تعلمون اني رسول الله اليكم فلما زاغُوا أزاغ اللهُ قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين » (٥ ـ الصف) .

« الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم كبرَ مَقْتاً عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلبِ متكبر جبار » (٣٥ ـ غافر) .

« ان الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضةً فما فوقها فأما

الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً يُضِل به كثيراً ويهدي به كثيراً ، وما يضل به الا الفاسقين » (٢٦ ــ البقرة) .

« يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويُضِل الله الظالمين ويفعل ما يشاء » (٢٧ ــ ابراهيم) .

والقدر الاسلامي بعد ذلك كله يدل على الحيوية التي تنبض في حضارة الاسلام لانه يخلق في الانسان عدم الخوف من الموت او المرض او الفقر ، ويدفع بالانسان ليعمل بقوة وشجاعة ، ولينظر الى الحياة نظر المتفائل المطمئن كما في الآيتين الكريمتين :

« ما أصاب من مصيبة في الارض ، ولا في انفسكم الا في كتاب من قَبْلِ أن نَبْرأَها ان ذلك على الله يسير » (٢٢ ــ الحديد) .

« لكيلا تأْسَوْا على ما فاتكم ، ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور » (٢٣ ــ الحديد) .

الفصل الثالث

الشمول في الحضارة العربية

يمكننا ن نقول إن الشمول من طبيعة الحضارة العربية لأنها لم تقتصر على مدنية الاسلام وحدها بل تكونت منها ، ومن مدنية العرب في الجاهلية ، ومن مقتبسات من حضارات الأمم الاخرى في الشرق والغرب • وقد أفرغ العرب هذا المزيج في قالب خاص تمثلت فيه النزعة العلمية ، والميل لى التحري والاستقصاء • كما يتمثل فيه الابتكار والابداع والتجديد لا التقليد والجمود •

ويرى كثير من الباحثين في الحضارة العربية انها لم تكن تتعدى ما جاء به الاسلام من لامور الدينية والدنيوية، غير اننا نستطيع القول بأن الاسلام كان السبب الاول في وجود علوم القرآن ، والحديث ، والفقه وعلم الخلاف وهو الفقه المقارن • وان العرب كان لهم القدح المعلّى في خلق هذه العلوم والابداع فيها بحيث لم تسبقهم الى مثل ذلك امة من الامم قبلهم أو بعدهم • وفي الوقت نفسه نستطيع ان نؤكد بأن العرب ابتدعوا في المجالات العلمية الاخرى كالعلوم الطبيعة، والطبيعية ، والرياضية ، و الفلكية ، والكيميائية ، والفنون ، والآداب، حضارة اصيلة تزخر بالمبتكرات العلمية • وأنهم انتجوا بحوثاً في العلوم الانسانية ،واللسانية تمتاز بطابعهم الخاص، وعقليتهم الفذة، وذهنيتهم الوقادة ، وحسهم المرهف ، ووجهوا جميع ذلك لخدمة الانسان واسعاد الناس •

وقد شملت هذه الحضارة العربية العلوم ، والآداب ، والفنون ، والصناعات ، والموسيقى ، وعلم الفلك ، والتشريعات التي تناولت

جميع شؤون الحياة من نواحيها الدينية ، والسياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية، والثقافية ، والقضائية ، والمهنية ... الخ . وقد فاقت هذه الحضارة العربية جميع الحضارات التي سبقتها . وأثرت في الشرق والغرب ، ومدّنت اوربة مادة ، وعقلا ، وثقافة ، وسمت بالانسانية الى أعلى الدرجات .

وقد عُنيتْ هذه الحضارة بحياة الانسان منذ المبدأ حتى المعاد، ورعته طفلاً وشاباً ، وكهلاً وشيخاً فانيا حتى يوسَّدَ أخيراً في حفرته باحترام بعد تغسيله وتكفينه والصلاة عليه . وقد وضعت القواعد لتربيته وتنشئته وتوجيهه نحو الخير ليكون عنصراً نافعاً في الحياة . وعُنيتْ بتثقيفه وتعليمه مكارم الاخلاق في الكتّاب والمسجد والمدرسة والجامعة . وأشرفت على تأديبه وعلى تصرفاته في المجتمع حتى في آداب المخاطبة والجلوس والطعام والشراب والملبس والمسكن . وأخيراً يمكن القول بأن الفرد العربي أو المسلم ذكراً كان أو انثى لم يكن مُضَيَّعاً في بلاده بل كان عزيزاً تتكفل الدولة بحمايته ورعايته ، والمحافظة على روحه وماله وعِرضه وحريته ، سواء كان مسلماً أم ذمياً .

وبذلك يمكن أن نقرر انه لم يبق شيء في حياة الفرد أو الجماعة إلا وقد نظرت فيه الدولة الاسلامية ، وشملته برعايتها ، سواء كان من الناحية الدينية والسلوك والتعبد، أم من النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والجنائية والمدنية والعسكرية ... والعلاقات الدولية ، والانظمة المالية ، الى العناية بالروح والجسد والعقل والدفاع عن النفس والعقيدة ، الى اماطة الاذى عن الطريق ، والتوفيق بين الحياة الدنيا والآخرة ليعلم الانسان كيف يتصرف في اموره ، وليعرف مايفعل منها وما يترك ، وليعمل على اساس « وابتَغ فيما آتاكَ اللهُ الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا .. » (٧٧ ــ الشعراء) . و «اعمل لدنياك كأنك تعيش ابداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً» وعلى هذا فالحضارة الاسلامية كما يقرر الغزالي : لم تُهمل عالم المُلْك

وما فيه من رغبات وأهواء ، ولم تنس عالم الملكوت ، لان العالـمَيْن مترابطان كترابط الجسم والنفس بما بينهما من علاقة روحية •

كما ان فلاسفة المسلمين ومتكلميهم لم ينسَوْا ان يوفقوا بـين الدين والاخلاق من جهة ، وبين العلم من جهة أخـرى • وقد اعتبروا الدين والدولة في حضارتنا أمرين متلازمين لا ينفصلان عن بعضهما ، لان هذه الحضارة قد بلغت المرتبة التي استطاعت فيها تحقيق التوحيد بين الدين والدولة • وتلك هي الرسالة التي استطاع العرب تحقيقهـا والوصول اليها • وأول من فعل ذلك هو رسول الله صـلى الله عليه وسلم بينما لم ينجح الفرس ولا الروم في تحقيقها •

والى جانب ما ذكرناه فأن الحضارة العربية نظرت الى الانسـان على انه سيد العالم وأنه اشرف المخلوقات وأفضلها ولذلك عُنِيت به وبالانسانية جمعاء •

كما عُنِيت بعقله ومعرفته وتهذيبه لان العقل الانساني في نظرها اساس التفكير ، وعماد الحياة ، ومركز الكون • ولذلك فأن الفكـر العربي يمثل جميع من كَتَبَ ، ودوّن بالعربية ، وتكلـم بهـا • والحضارة العربية تعتبر شاملة لهؤلاء جميعا دون النظر الـى أعراقهم واصولهم • لان العربية كما يقول الرسول (ص) ليست بأب ولا أم • انما العربية اللسان •

والاسلام يتناول بتشريعاته وقوانينه كل شـيء في الحياة ، وفي جميع الاوقات ، ولذلك شَغَلَ الاسلام حياةَ الانسان وملأ كل فراغ فيها ما دام حياً • فقد ملأ الحياة بالفروض الدينية • من صلاة خمسة اوقات في اليوم ، الى الصيام شهراً واحداً في السنة ، الى الحج الـى الزكاة والانفاق ، والجهاد في سبيل الله ، والعمل باستمرار في ضروب الاعمال النافعة لخدمة الانسانية كطلب العلم ، والصناعة والزراعة وما الى ذلك بدون كلل ولا ملل حتى يلاقي ربه •

الفصل الرابع

الولاء للاسلام في الحضارة العربية

في الحضارة العربية يتوفر عنصر الولاء للاسلام وللمؤمنين به ، وليس الى قبيلة أو دين آخر أو الى امة اخرى أو حضارة اخرى ، وفي هذا الولاء تتمثل كرامة الانسان المسلم وعزته وحرمته لأنه لا يخضع لغير المسلم ولا يتولاه ولا يطمئن اليه بل يقاومه ويخرج عليه . وفي ذلك يقول السيد جمال الدين الافغاني في العروة الوثقى : من أعظم ما في الدين الاسلامي « طرح ولاية الاجنبي وكشفها عن ديارهم بل منازعة كل ذي شوكة في شوكته » .

وليس ادل على ذلك من الآيات القرآنية الكثيرة التي وردت في القرآن الكريم مثل قوله تعالى :

« وان الظالمين بعضهم اولياء بعض ، والله ولي المتقين » (١٩ ـ الجاثية) .

« بعضهم اولياء بعض ومن يتولهم منكم فانه منهم » (٥١ ـ المائدة) .

« لا يتخذ المؤمنون الكافرين اولياء من دون المؤمنين » (٤٨ ـ آل عمران) .

« فلا تتخذوا منهم اولياء حتى يهاجروا في سبيل الله » (٨٩ ـ النساء) .

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين اولياء من دون المؤمنين » (١٤٤ ـ النساء) .

« يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى اولياء بعضهم اولياء بعض، ومن يتولهم منكم فانه منهم » (٥٩ ـ المائدة). وذلك لأن اليهود تمردوا على انبيائهم ، وقتلوا بعضهم من جهة ، وحاولوا

ان يتمردوا على الرسول (ص) بل آذوه وخرجوا عليه وحاربوه من جهة أخرى • ولذلك فان موالاتهم تعد خيانة للدين وخروجاً على الحق الذي جاء به •

« ترى كثيراً منهم يتولّون الذين كفروا » (٨٠ ــ المائدة) •

« ومن يتولّهم منكم فاولئك هم الظالمون » (٢٣ ــ التوبة) •

« ومن يتولّهم فاولئك هم الظالمون » (٩ ــ الممتحنة) •

« والله ولي المؤمنين » (٦٨ ــ آل عمران) •

« الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور » (٢٥٧ ــ البقرة) •

« ومن يتولّ الله ورسوله والذين آمنوا فان حزب الله هم الغالبون » (٥٦ ــ المائدة) •

« انما وليّكم الله ورسوله والذين آمنوا » (٥ ــ المائدة) •

« لهم دار السلام عند ربهم وهو وليّهم بما كانوا يعملون » (١٢٧ ــ الانعام) •

ويتبين من هذه النصوص القرآنية ان الاسلام لا يعترف بالولاء الا للمسلمين ، ولذلك لم يهادن الرسول (ص) اقرباءه من قريش وانما حاربهم بدون هوادة لأنهم اعتدوا عليه وعلى اصحابه، ولانهم اخرجوهم من ديارهم ولانهم كانوا وثنيين ومشركين • ويقف الاسلام موقفاً صريحاً من كل من خرج عليه فلا يتولى أبا ولا ابنا حتى لو كان ابن نبي من الانبياء كما يتضح ذلك من الآيات الآتية •

« لا تجدُ قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يُوادّون من حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم او ابناءهم او اخوانهم أو عشيرتهم اولئك كتب في قلوبهم الايمان وايدهم بروح منه ويدخلهم جناتٍ تجري من تحتها الانهار خالدين فيها • رضي الله عنهم ورضوا عنه اولئك حزب الله ألا ان حزب الله هم المفلحون » (٢٢ ــ المجادلة)•

« قال يا نوح انه ليس من اهلك انه عمل غير صالح فلا تسألني ما ليس لك به علم اني اعظك ان تكون من الجاهلين » (٤٦ — هود)

« ما كان للنبي والذين آمنوا ان يستغفروا للمشركين ولو كانوا اولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم اصحاب الجحيم » (١١٣ — التوبة)

« وإذ ابتلى ابراهيمَ ربُّه بكلمات فأتمهن ، قال : انـــي جاعلك للناس إماما ، قال : ومن ذريتي ، قال : لا ينال عهدي الظالمين » (١٢٤ — البقـــرة) •

ويكفي ان نذكر من امثلة الولاء للمسلمين ان « بلالاً الحبشي » مؤذن الرسول (ص) كان وما زال يذكر اســـمه عند الأذان في جميـــع مآذن البلاد الاسلامية مقروناً باسم « محمد العربي القرشي » قبل كل صلاة خمس مرات في اليوم •

وكان عمه أبو لهب — والعم عند العرب بمنزلة الأب — احسن مثل لعدم الولاء لغير المسلم ، مع ان أبا لهب في الذؤابة مـــن قريش ، وأقرب القرابة الى رسول الله (ص) ومن اعلاهم نسباً • غير ان القرآن اعلن الناس كافة في سورة « اللهب » لعن ابي لهب ، وأنه سيصلى ناراً ذات لهب • ويقرأ هذه السورةَ ملايينُ المسلمين في صلواتهم فيســـبه المسلم العربي ، والمسلم الهندي ، والفارسي ، والزنجي ، والاســـود والابيض ، والرجال والنساء لانه خرج على رسول الله ، وعلى العقيدة الاسلامية وتولى المشركين ، ولـــم يترك الشرك ولم يتولَّ المؤمنين • فاذا كانت هذه الحال مع ابي لهب وهو عم رســـول الله (ص) فكيف بمن يتولى من هو أقل بكثير من ابي لهب ممن لا قرابة له من الرسول، أو احد اصحابه ، أو آل بيته ، ولم يكن من المسلمين •

هذا وينبغي ان نشير الى جانب ما ذكرناه في هذا الفصل ان غير المسلمين من أهل الكتاب والذميين كانوا يعيشون باحترام مع المسلمين في جميع البلاد الاسلامية لان الرســـول (ص) قد أوصى بهم خيراً •

وكانوا يمارسون شعائرهم الدينية بحرية تامة . كما كان المسلمون يولون عليهم رؤساء منهم يحكمون بينهم بموجب شرائعهم كما ترى ذلك في تعيين رأس المثيبة أو رأس الجالوت على اليهود ، والجاثليق على النصارى ببغداد في خلافة العباسيين .

وقد كفل لهم الاسلام حرية لا مثيل لها في العالم . ولم يسلبهم الاسلام حقاً من حقوقهم الدينية او الاجتماعية لان من شرائط الاسلام: الايمان بجميع انبيائهم ورسلهم . ولا يفرق المسلمون بين احد من الرسل او الانبياء ، وذلك ما نصت عليه الآيتان الكريمتان :

١ ـ « قولوا آمَنّا بالله ، وما أُنزل الينا ، وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط ، وما أوتي موسى وعيسى ، وما أوتي النبيون من ربهم ، لا نُفَرِّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » (١٣٦ ـ البقرة) .

٢ ـ « آمن الرسول بما أُنزِل اليه من ربه ، والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورُسُله لا نُفَرِّق بين أحد من رُسُله .. » (٢٨٥ ـ البقرة) .

ومع ما تقدم لا بد من ملاحظة أمرين آخرين اولهما : ان الاسلام اباح للمسلم ان يتزوج من الكتابية ذلك لان المسلم يعترف بدينها ونبيها فيحترمها ويسمح لها بكل ما يبيحه لها دينها . غير ان لا يجوز للكتابي ان يتزوج مسلمة لانه لا يعترف بنبيها محمد (ص) ولا بدينها ولذلك فهو لا يحترمها ، ولا يسمح لها بما يبيحه لها دينها . ثانيهما : ان المسلم لا يسعه ان يطعن بموسى وهارون عليهما السلام ولا بأحد من انبياء بني اسرائيل ولا بعيسى (ع) ولا بأحد من الحواريين ، ومن يفعل ذلك من المسلمين عد كافراً بينما لا نجد اليهودي أو المسيحي يعترف بمحمد (ص) واصحابه بل لا يزال الكثير منهم يطعنون بنبي الاسلام ، ويشنون غارة شعواء على دينه ، ويقاومونه في أقطار كثيرة من أفريقية وآسية وحتى في لبنان وهي بلاد عربية .

الفصل الخامس

النزعة الانسانية في الحضارة العربية

إن من أهم ما يميز الحضارة العربية ان رسالة الاسلام تهدف الى احترام الانسان في العالم ، لأن رسالة الاسلام التي بشّر بها الرسول (ص)، وحملها العربُ الى العالم كافة تتمثل فيها «النزعة الانسانية» التي اثبتتها بوضوح تام نصوص الكتاب ، والسنة ، واعمال الصحابة ، والتابعين ، والخلفاء ، واولي الامر من المسلمين ، والشعوب الاسلامية جمعاء .

ولم تكن هذه النزعة الانسانية عند العرب وليدة فلسفات قديمة اقتبسوها من الشرق أو الغرب ، وانما كانت نزعة اصيلة في العرب ، ورسالة خاصة بالاسلام أوحاها اليهم القرآن الكريم ، وسنة الرسول (ص) ، واخلاقهم الموروثة عن حضاراتهم العريقة . وقد بشروا بها في كل مكان ، وتأثرت بها الامم ، ونهلت من مواردها الثرّة . وليس ادل على هذا من اكثار القرآن من ترديد كلمة الانسان ، وبني آدم ، والناس ، والعالمين والأنس والعباد ... وغيرها من الالفاظ التي لا تخص العرب والمسلمين وحدهم من ذلك ذِكْرُ الله تعالى الانسان ومشتقاته في ٧٣ آية من آيات القرآن ، قال تعالى :

« لقد خلقنا الانسان في احسن تقويم » (٩٥ ــ التين) .

« أيحسب الانسان ان يُترك سدى » (٣٦ ــ القيامة) .

« او لم ير الانسان انا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين » (١٦ ــ النحل) .

كما كرر القرآن كلمة بني آدم في ٢٥ آية منها :

« ولقد كرَّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضَّلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » (١٧ ــ الاسراء)٠

« يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا » (٧ ــ الاعراف) ٠

« يا بني آدم قد انزلنا عليكم لباساً يواري سَوْآتكم » (٧ ــ الاعـــراف) ٠

وجاء ذكر الإنس في القرآن في ١٨ آية ٠ وذكر العالمين في ٧٣ آية والعباد في اكثر من ١٠٠ آية والانس في ١٨ آية وكرر كلمة الناس ٢٤١ مرة ٠ مما يفصح عن نظرة الاسلام للانسان أنى كان دون النظر الـى دينه ، أو لونه ، أو ثروته ، أو جنسه ٠ وتتجلى النزعة الانســانية في حضارة الاسلام ، وتزداد وضوحاً في تحديد الاســلام عقوبة الاعدام للانسان بجريمة واحدة هـــي جريمة « القتل العَمْد » ومع ذلك فقد جعل القرآن لولي المقتول سلطاناً فلا يسرف في القتل بينمـــا كانـــت عقوبة الاعدام في اوربة عندما كان الاسلام في أيام نضرته وشبابه تنزل لجملة اسباب منها : الزنا والسرقة والكذب ٠٠

كما حرم الاسلام التمثيل بالانسان عند قتله ٠ ومن اقوال رسول الله عليه الصلاة والسلام في هذا الصدد : « لا تجوز المُثْلَة ولو في الكلب العقور » واكثر من ذلك ان الاسلام نظر الى الجنين اذا وُلِد وفارق الدنيا بعد ساعات فإن لم يغَسَّل ويكفن ويصلَّى عليه اثمـت المنطقة التي مات فيها كلها ٠ واذا سقط الجنين نتيجة اعتداء ففيه غُرَّة اي فيه دية ٠ وتكون عبداً أو أمَةً أو فرساً أو بغلاً ٠ وان سقط حياً ثم مات ففيه دية كاملة أي مئة من الابل[1] ٠

ويظهر سمو الاسلام وعنايته بالانسانية في تلك التشريعات الرائعة التي تلزم المسلمين بالصلاة على الطفل ، والسقط لأربعة أشهر وعلى

(١) الرسالة للامام الشافعي ص ٤٢٨ ٠

اللقيط ، وعلى الصبي من السبي ليس بين ابوين ، وفي زيارة المسلم قبر حميه المشرك .[٢]

كما تظهر في الصلاة على كل مسلم برّ أو فاجر ، مقتول في حد أو في حرابة أو في بغي . وفي الصلاة على المبتدع ما لم يبلغ الكفر ، وعلى من قتل نفسه ، وعلى من قتل غيره ، وحتى على ولد الزنا ، وعلى أمه بل على كل من قال : لا إله الا الله[٣] .

ويقول الامام الغزالي[٤] : « ليس للجلاد ان يقتل أباه في الزنا حداً ، ولا ان يباشر اقامة الحد عليه ، بل لا يباشر قتل ابيه الكافر ، بل لو قطع يده لم يلزمه قصاص . ولم يكن له ان يؤذيه في مقابلته » .

ومن احاديث الرسول (ص) التي تفيض حنانا ورحمة وحبا للانسان كل الانسان وتندفع وراء مصالحه ، وتتجلى فيها النزعة الانسانية التي دعا اليها الاسلام بأجلى وضوح قوله :

« الخلق كلهم عيال الله فأحبهم اليه انفعهم لعياله » .

ويروى عن مُعاذ بن جبل انه قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : « او صيك بتقوى الله ، وصدق الحديث ، ووفاء العهد ، واداء الامانة ، وترك الخيانة ، وحفظ الجار ، ورحمة اليتيم ، ولين الكلام ، وبذل السلام ، وخفض الجناح »[٥] .

ومن اقواله(ص)[٦] « لا يستكمل العبد الايمان حتى يكون فيه ثلاث خصال: الانفاق من الاقتار، والانصاف من نفسه، وبذل السلام» . و « افضل الصدَقة اصلاح ذات البَيْن »

---

(٢) ابن حزم ج ٥ ص ١٥٩ ـ ١٦٠
(٣) ابن حزم ج ٥ ص ١٦٩ ـ ١٧١
(٤) الغزالي ـ احياء ج٢ ص ٣١٨
(٥) الغزالي ـ احياء ج ٢ ص ١٩٧
(٦) راجع الغزالي ـ احياء ج ٢ ص ١٩٨،١٩٩،١٩٦ و ٢١٦و٢١٧

و « رأس العقل بعد الدين : التودد الى الناس ، واصطناع المعروف الى كل بَرٍّ وفاجر » .

و « افضل الفضائل ان تصل من قطعك ، وتعطي من حرمك ، وتصفح عمن ظلمك » .

و « بِر الوالدين افضل من الصلاة والصدقة والصوم والحج والعُمرة والجهاد في سبيل الله » .

و « بِرَّ امك وأباك واختك واخاك ثم أدناك فأدناك » .

وقال رجل للرسول (ص) : من أحق بحسن الصُحبة ؟ قال : « امك ثم امك ثم امك ، ثم ابوك » .

وقال رجل من بني سلمة : يا رسول الله هل بقي عليّ من برَّ أبوي شيء أبرهما بعد وفاتهما؟ قال: « نعم.الصلاة عليهما والاستغفار لهما ، وانفاذ عهدهما ، واكرام صديقهما ، وصلة الرَّحم التي لاتوصل إلا بهما » .

وأخيراً يمكن القول بأن الاسلام سعى الى رفع شأن الانسانية بمختلف الطرق فدعا الى تهذيب النفس الانسانية بالأمور الآتية :ـ

١ ـ بالايمان والصلاة :

« أقم الصلاة لدلوك الشمس الى غَسَق الليل ، وقرآن الفجر ، إنَّ قرآن الفجر كان مشهودا » (٧٨ ـ الاسراء) .

« ومن الليل فتَهَجد به نافلةً لك عسى ان يبعثك ربك مقاماً محموداً » (٧٩ ـ الاسراء) .

« وقل ربِّ أدْخِلْني مُدْخَل صدقٍ وأخرِجْني مُخْرَج صِدْقٍ واجعل لي من لَدُنْك سلطاناً نصيراً (٨٠ ـ الاسراء) .

٢ ـ بتزكية النفس :

« قد أفلح من تزكّى » (١٤ ـ الاعلى) .

« قد افلح من زكّاها * وقد خاب من دسّاها » (٩ و ١٠ ــ الشمس) .

« ولا تزر وازرة وزر أخرى ، وان تَدْعُ مُثْقَلَةٌ الى حِمْلها لا يُحمل منه شيء ، ولو كان ذا قربى ، انما تُنذر الذين يخشَوْن ربهم بالغَيْب، وأقاموا الصلاة، ومن تَزَكَّى فإنما يتزكى لنفسه والى الله المصير » (١٨ ــ فاطر) .

٣ ــ بالاستقامة :

« ان الذين قالوا : ربّنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (١٣ ــ الاحقاف) .

« ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة الا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون » (٣٠ ــ فُصِّلَتْ) .

« نحن اولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، ولكم فيها ماتشتهي انفسكم ولكم فيها ما تدَّعُون » (٣١ ــ فصلت) .

ومما يشير الى هذه النزعة الانسانية ان الله تعالى خاطب رسوله (ص) بقوله :ــ

« وما ارسلناك الا رحمة للعالمين » (١٠٧ ــ الانبياء) .

« وما ارسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (٢٨ ــ سبأ) .

« قل يا ايها الناس اني رسول الله اليكم جميعاً الذي له ملك السموات والارض لا إله الا هو » (٥٨ ــ الاعراف) .

ووصف الله تعالى العرب المسلمين بقوله :

« كنتم خير امة اخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف ، وتَنْهَوْن عن المنكر ، وتؤمنون بالله .. » (١١٠ ــ آل عمران) .

و « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله اتقاكم » (١٣ ــ الحجرات) .
« وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس » (١٤٣ ــ البقرة) .
« ولتكن منكم امةٌ يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهَوْن عن المنكر واولئك هم المفلحون » (١٠٤ ــ آل عمران) .

وقال تعالى في رسالة الاسلام للانسانية كافة :
« وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيدا » (٧٩ ــ النساء).
« وما ارسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا » (٢٨ ــ سبأ) .
«إنْ هو الا ذكر للعالمين» (٢٧ ــ التكوير و ٨٧ ــ سورة ص).
« وما هو الا ذكر للعالمين » (٥٢ ــ القلم) .
« وما تسألهم عليه من أجرٍ انْ هو الا ذكر للعالمين (١٠٤ ــ يوسف) .
« هو الذي ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله » (٩ ــ الصف) .

وتفسر لنا هذه الامور الاسباب التي جعلت العرب المسلمين لا يسيرون في ركاب الامم الاجنبية بل ان الامم الاجنبية هي التي سارت في ركابهم قروناً طويلة ، ورضيت بحكمهم . واندمجت فيهم اندماجاً تاماً ، على الرغم من محاولات الشعوبيين قديماً وحديثاً الوقوف في وجه الامة العربية والحيلولة دون توثبها وتقدمها ، والعمل على الحط من كرامتها ، والانتقاص من حضارتها ، ونسبة ما ابتدعته أو ابتكرته الى غيرها من الامم ، وتجريدهم من كل فضل على البشرية لان الشعوبي كما يقول ابن قتيبة : ان عرف خيراً ستره ، وان ظهر حقره ، وان احتمل التأويلات صرفه الى اقبحها ، وان سمع سوءً نشره .

ولذلك حاول الشعوبيون بث المباديء الغريبة ، والافكار التي

تهدم أسس هذه الحضارة العربية . وتعمل على التفريق بين العرب وغيرهم من المسلمين كما تعمل على افساد التعاليم الاسلامية، وتجريدها من قيمها الروحية ، والاخلاقية ليتسنى لها قلبها واحلال غيرها محلها . غير ان الدين الاسلامي مـا زال ينتشر في العالم اجمـع بدون مبشر ويقف القرآن حائلاً بينهم وبين ما يشتهون .

ولم تزل الامة العربية امة قائمة حتى اليوم يحسب لها حساب في العالم ، ولها كيانها الاقتصادي ، ونفوذهـا الادبي واللغوي والديني والتاريخي والسياسي ، وليست هي على كل حال ذكريات ، ولا اطلالاً دارسة ، ولا آثاراً ينقّب فيها ويبحث عنهـا كامم الفراعنة والفرس والبابليين والآشوريين والكلدان والاغريق والرومان .. الخ .

الفصل السادس

عـزة العـرب بالاسـلام

لقد اعتز العرب بعد اسلامهم بالاسلام الذي اصبح المبدأ الشامل للعرب ، والرسالة العظمى التي نشروها في العالم بلسان عربي مبين . وقد مكّن الاسلامُ العربَ من فرض احترامهم على العالم اجمع . وغدا الاسلام هو الحرية ، والاخاء ، والمساواة ، والمثل السامية التي بشّر بها العرب المسلمون لانقاذ البشرية من الضلال ، والعبودية ، وتطهير الانسان من ادران عبادة الاشخاص والحيوانات ، والاحجار ، والاجرام السماوية ، ومظاهر الطبيعة . ورفعه الى الدرجة التي تليق بالانسان ان يتبوأها .

ومن هنا ندرك السر في اطلاق بعض المستشرقين كلمة « العرب » على الاسلام وكلمة (العربية) على كل ما هو اسلامي ، وعدم التفريق بين العروبة والاسلام ، وبين العرب والمسلمين ، لأن الدور الاساسي في الحضارة العربية كان للعرب كما اسلفنا . أما الشعوب الاسلامية التي دخلت في الاسلام فلم يكن لأكثرها حضارة . وان الحضارات التي كانت لبعض هذه الشعوب قبل الاسلام قد انهارت امام حضارة العرب كالحضارة الفرعونية والحضارات العراقية ، والفارسية ، والاغريقية ، والرومانية ولذلك تَبَنَّى أكثر الشعوب التي اعتنقت الاسلام حضارة العرب حتى اليوم . وغدت حضاراتها القديمة اطلالاً دارسة لا يُعْنَى بها الا المنقبون ، وعلماء الآثار ، وأصبحت اديانها ولغاتها وفنونها ذكرياتٍ تاريخية . كما زالت الامم التي انتجتها وتوارت تحت أعفار

الدهر . أما الامة العربية فلا تزال امة حية تأبى الظلم والضيم . ولها مكانتها في العالم على الرغم من تفرقها في اقطار عربية متعددة . ولا تزال حضارتها قائمة لاعتمادها على الاسلام الذي لم يزل معتنقوه ينظرون الى العرب نظرة تقديس واحترام ، ولاستنادها الى اللغة العربية لغة القرآن الكريم الذي يرجع اليه الفضل الاكبر في وحدة اللغة العربية في الاقطار العربية كافة ، وفي وحدة العرب انفسهم ، ووحدة ثقافتهم، وعلى العنصر العربي الذي أخذ يسعى اليوم لاسترداد امجاده الاسلامية القديمة ، ومكانته بين الامم . اضف الى ذلك ان الدنيا والدين في نظر المسلمين شيء واحد ولذلك صبغوا كل شيء بصبغة دينية وكسَوْا كل تشريعاتهم الدنيوية ثوباً دينياً . ونظروا الى المال والاقتصاد والشؤون الثقافية والعسكرية والفنية والمهنية والاجتماعية والتربوية من زاوية الدين ايضاً .

واذا كان الفرد العربي قد عاش في الجاهلية في عزة ومنعة بين قبيلته وفي مجتمعه مع انه لم يكن ينتمي الى دولة تحمي حماه ، وتدافع عنه حين ضعفت دول الجزيرة العربية ، وخضعت للفرس والروم ، فانه لما جاء الاسلام اعزه الله به أكثر من عزته في الجاهلية . وجعل للمسلم حرمة وكرامة لم تكن لعرب الجاهلية بالصورة التي بلغها في الاسلام فقد غير الله ما شاء من احوالهم ، ورفع منْ شاء منهم بعد الذلة التي اصابتهم على ايدي الساسانيين والبيزنطيين في فترات من الزمن في كثير من اطراف الجزيرة العربية .

وقد بلغ من عزة العربي وأنفته انه كان لا يطيع غيره ولا يخضع لغير أهله لذلك كان الرسول (ص) لا يولي بوجه عام ـ اماما على قبيلة عربية الا منها لنفور طباع العرب من ان يتقدم على القبيلة احد من غير أهلها .

وقد بذل الخلفاء وولاتهم وعمالهم جهوداً كبيرة في سبيل المحافظة على كرامة الفرد المسلم وحرمته ، لأن الفرد اذا كان عزيزاً في امته كانت

الامة كلها عزيزة مرهوبة الجانب . واذا كان الفرد في الامة لا عزة له ولا كرامة هان امر امته على العدو ، وامتهنت حرمتها وقدسيتها . ولذلك يمكننا ان نقرر ان الثقة بالنفس والاعتداد بالعزة القومية ، وعدم الاستكانة من اظهر الدلائل على العزة الاسلامية ، وان الحضارة العربية في الاسلام تمثل عزة السلطان ، وعزة العقيدة ، وعزة الامة العربية . واليكم بعض الامثلة التي تشير الى حرص الخلفاء وولاتهم على عزة الفرد المسلم :

كتب أبو بكر الى امراء الاجناد الذين ارسلهم لمحاربة المرتدين يأمرهم بالجد في أمر الله، ومجاهدة من تولى عنه أو رجع عن الاسلام. وأن يقتصدوا بالمسلمين، ويرفقوا بهم في السَّيْر والمنزل، ويتفقدوهم، ويستوصوا بهم في حسن الصحبة ولين القول .

وكتب أيضا الى « المهاجر » عامله على كِنْدة وإلى « المغيرة بن شعبة » : ان ظفرتم بالقوم فاقتلوا المقاتلة . وان جرى بينكم صلح قبل ذلك فعلى ان تخرجوهم من ديارهم ، فاني اكره اقواماً فعلوا فِعْلتهم في منازلهم ليعلموا أنْ قد اساءوا وليذوقوا وَبال بعض الذي أتَوْا .

ولما ولي عمر بن الخطاب أَمْر المسلمين صار يعلّم الناس العزة، ويربيهم عليها . وكان يبذل جهده لتكون لهم حرمة وكرامة ، فكان يخاطب الناس بقوله : أيها الناس اني لم ابعث عمالي عليكم ليُصيبوا من أبشاركم[1] ، ولا من أموالكم وانما بعثتهم ليحجزوا بينكم ، وليقسموا فَيْئَكم ، فمن فُعل به غيرُ ذلك فليقم . ثم يعود فيؤدب الرجال لئلا يداخلهم غرور فيذلوا الامة .

وعندما كان يَخْرُج عماله الى الاماكن التي عُينوا فيها كان يخرج معهم يشيّعهم ويقول لهم : اني لم استعملكم على امة محمد على أشعارهم[2] ولا على ابشارهم ، وانما استعملتكم عليهم لتقيموا بهم

(١) الابشار : البشرة وهي ظاهر جلد الانسان .
(٢) الاشعار : ما تحت الدثار من اللباس وهو يلي شعر الجسد .

الصلاة ، وتقضُوا بينهم بالحق ، وتقسموا بينهم بالعدل • لا تجلدوا العرب فتذلوهم ، ولا تُجَمِّرُوها (اي لا تؤخروها في دار الحرب) فتفتنوهـا •

وكتب الى سعد بن أبي وقّاص الذي اجمع الصحابة على تعيينه لحرب الانبراطورية الساسانية وفتح العراق يقول له : « يا سعد ، سعد بني وهب، لا يغرّنَّك من الله ان قيل خال رسول الله،وصاحب رسول الله ، فان الله عز وجل لا يمحو السيء بالسيء ، ولكنه يمحو السيء بالحسن ، وليس بين الله وبين أحد نسب الا طاعته ، فالناس شريفهم ووضيعهم في ذات الله سواء، الله ربهم وهم عباده ،يتفاضلون بالعافية ، ويدركون ما عنده بالطاعة ، فانظر الامر الذي رأيتَ النبي منذ بعث الى ان فارقنا يلزمه فالزمه فانه الأمر • هذه عظتي اليك ان تركتها ورغبت عنها ، حبط عملك ، وكنت من الخاسرين » •

وكتب اليه أيضا يأمره بالتخلق باخلاق الاسلام وعدم الغدر والظلم :

« اني قد اُلقِي في رُوعي انكم اذا لقيتم العدو وهزمتموه فاطّرحوا الشك وآثروا التقية عليه (اي لاتظلموه ولا تغدروا به) فانْ لاعَبَ احد منكم احداً من العجم بأمان او قرَفَه باشارة او بلسان كان لا يدري الأعجمي ما كلمه به ، وكان عندهم أمانا فأجرُوا ذلك مجرى الأمان ، واياكم والضحك • والوفاءَ الوفاءَ ، فانالخطأ بالوفاء بقية ، وان الخطأ بالغدر الهلكة ، وفيها وهنُكم ، وقوةُ عدوكم ، وذهاب ريحكم ، واقبال ريحهم • واعلموا اني احذركم ان تكونوا شَيْناً على المسلمين وسببا لتوهينهم » •

وقد بلغ من العناية بالفرد العربي والاعتزاز بالاسلام ان الولاة والعمال كان لهم رأي حسن في اصحابهم من المسلمين لا يفرّطون في أحد منهم • استمع الى شهادة سعد بن ابي وقاص في اصحابه الذين

قُتلوا في القادسية بالعراق على ايدي الفرس وذلك في الكتاب الذي ارسله الى عمر بن الخطاب حيث يقول : واُصيب من المسلمين سعيد بن عبيد القاريء ، وفلان ، وفلان . ورجال من المسلمين لا نعلَمُهم، الله بهم عالم . كانوا يدَوون بالقرآن اذا جَنَّ عليهم الليل دُوِيّ النحل . وهم آساد الناس لا يشبههم الاسُود . ولم يَفْضُل من مضى منهم من بَقِي الا بفضل الشهادة اذ لم يكتب لهم .

وكتب عمر الى ابي موسى الاشعري يقول له : عُدْ مرضى المسلمين ، واشهد جنائزَهم ، وافتح لهم بابك ، وباشر امورهم بنفسك فانما انت رجل منهم غير ان الله جعلك اثقلهم حملاً .

وكتب الى النعمان بن مُقَرِّن المُزَنِي قائده في موقعةِ نهاوند ببلاد فارس :

« اما بعد فانه قد بلغني ان جموعاً من الاعاجم كثيرة قد جمعوا لكم بمدينة نهاوند فاذا اتاك كتابي هذا فسر بأمر الله وبعون الله ، وبنصر الله بمن معك من المسلمين ، ولا تَوطِئْهم وَعْراً فتؤذيهم ولا تمنَعْهم حقاً فتكفِّرَهم ، ولا تدخِلَنَّهم غَيْضةً فان رجلاً من المسلمين احب اليّ من مئة الف دينار » .

الفصل السابع

النزعة السلمية في حضارة الاسـلام

يختتم المسلم صلاته كل يوم بقوله « السلام عليكم ورحمة الله » السلام عليكم ورحمة الله ويكررهما بعد الصلوات الواجبة والمستحبة ثلاث عشرة مرة في اليوم • ويدعو المسلم خمس مرات في اليوم اثر كل صلاة بعبارات اخرى يقطر منها السلام فيقول : « اللهم انت السلام » ومنك السلام واليك يرجع السلام حيِّنا بالسلام ، تباركت وتعاليت يا ذا الجلال والاكرام » • ويحَيي المسلم اخاه المسلم كلما التقي به بكلمة « السلام عليكم » ويرد التحية للمسلم بكلمة « وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته » •

وفي القرآن الكريم « واذا حُييتم بتحية فحيوا بأحسن منها اوردوها » •

وفي الحديث الشريف[1] : « اذا دخلتم بيوتكم فسلموا على اهلها فان الشيطان اذا سلَّم احدكم لم يدخل بيته »[2] •

« يُسَلِّم الراكب على الماشي ، والماشي على القاعد ، والقليل على الكثير ، والصغير على الكبير » •

« اذا لقي احدكم اخاه فليقل السلام عليكم ورحمة الله » •

ومن أعظم ما يدل على النزعة الانسانية في حضارة الاسلام ان الاسلام جعل للجار حقوقاً حتى لو كان الجار مشركاً او يهوديا من ذلك قوله[2] عليه الصلاة والسلام :

---

(١) الغزالي ــ احياء ج ٢ ص ٢٠٠ و ٢٠٣ و ٢٠٥

(٢) الغزالي ــ الاحياء ج ٢ ص ٢١٢ و ٢١٣

« الجيران ثلاثة : جار له حق واحد ، وجار له حقان وجار له ثلاثة حقوق • فالجار الذي له ثلاثة حقوق : الجار المسلم ذو الرحم، له حق الجوار وحق الاسلام ، وحق الرحم • واما الذي له حقان فالجار المسلم ، له حق الجوار وحق الاسلام ، وأما الذي له حق واحد فالجار المشرك »

قال مجاهد[3] : كنت عند عبدالله بن عمر ، وغلام له يسلخ شاة فقال : ياغلام اذا سلخت فابدأ بجارنا اليهودي حتى قال ذلك مراراً فقال له : كم تقول هذا : فقال : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يزل يوصينا بالجار حتى خشينا انه سيورثه •

وقال (ص) :[4]

« ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه »

وقال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره » •

وقال أيضاً : « اذا انت رميت كلب جارك فقد آذيته » •

وقيل للرسول (ص) : ان فلانة تصوم النهار ، وتقوم الليل ، وتؤذي جيرانها فقال : « هي في النار » •

والجار كما عرّفه الرسول (ص) يعرف مما يأتي :

ان رجلاً اتي النبي (ص) فجعل يشكو جاره فأمر النبي ان ينادى على باب المسجد : « ألا ان اربعين داراً جار" » •

قال الزهري : اربعون هكذا ، واربعون هكذا ، واربعون هكذا واربعون هكذا ، وأومأ الى اربع جهات •

ومن حق الجار ان يبدأه بالسلام ، ويعوده في المرض ويعزيه في المصيبة ، ويقوم معه في العزاء ، ويهنئه في الفرح • ويظهر الشركة في السرور معه ، ويصفح عن زلاته ، ويستر ما ينكشف له من عوراته ،

---

(٣) الغزالي ـ احياء ج ٢ ص ٢١٤
(٤) الغزالي ـ احياء ص ٢١٢

ولا يغفل عن ملاحظة داره عند غيبته ، ولا يسمع عليه كلاماً ، ويرشده الى ما يجهله من أمر دينه ودنياه .

ولذلك يمكننا ان نصف حضارة الاسلام بأنها حضارة تدعو الى الامن والطمأنينة والسلام وترغب في السَّلم ، ولا تركن الى الحروب الا عند الدفاع عن النفس او عند الضرورة القصوى . وهذا يفسر لنا السبب في ندرة الآيات التي تحث على الحرب ، كما يفسر لنا كثرة الآيات التي تحث على السلم . ومما يذكر في هذا الصدد ان عدد الآيات التي وردت في الحرب لم تزد على ست آيات من ضمنها آيتان فقط تحثان على الحرب الدفاعية وهما :

«فإن لم تفعلوا فأْذنوا بحرب من الله ورسوله» (٢٧٩ ــ البقرة).
«حتى إذا اثخنتموهم فشُدوا الوثاق فإما منّا بعدُ واما فِداءً حتى تضعَ الحرب اوزارَها » (٤ ــ محمد) .

واما الآيات التي تحث على الدفاع عن النفس وعلى قتال المعتدين والبادئين بالعدوان والناقضين العهود والناكثين لأَيْمانهم والتي شرط الله فيها عدم الاعتداء ، فمنها الآيات الآتية:(٥) .

« يا ايها النبي حرِّض المؤمنين على القتال إنْ يكُنْ منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين ، وان يكنْ منكم مئة يغلبوا الفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون » (٦٥ ــ الانفال) .

« فاذا انسلخ الاشهر الحُرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم واحصروهم ، واقعدوا لهم كل مرصد فان تابوا واقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلّوا سبيلَهم ان الله غفور رحيم » (٥ ــ التوبة) .
« فان قاتلوكم فاقتلوهم ، كذلك جزاء الكافرين » (١٩١ ــ البقرة) .
« وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة » (٣٦ ــ التوبة).

---

(٥) راجع الدعوة الى الجهاد في هذا الكتاب .

« انفروا خفافا وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وانفسكم » (٤١ ـ التوبة) .

« يا أيها الذين آمنوا خذوا حِذْركم فانفروا ثُباتٍ » (٧١ ـ النسـاء) .

« وان نكثوا أيْمانهم فقاتلوا ائمة الكفر » (١٢ ـ التوبة) .

« وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة » (١٩٣ ـ البقرة) .

« وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا » (١٩٠ ـ البقـرة) .

« وأخرجوهم من حيث اخرجوكم ، والفتنة اشـد من القتل » (١٩١ ـ البقرة) .

« لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ، ولم يُخرجوكم من دياركم ان تَبَرّوهم وتُقْسِطوا اليهم، ان الله يحب المُقْسِطين» (٨ الممتحنة) .

« انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين واخرجوكم مـن دياركم وظاهروا على اخراجكم ان تَوَلّوْهُم ، ومن يتولّهم فأولئك هم الظالمون » (٩ ـ الممتحنة) .

وأما الآيات التي ذكر فيها السلم ومشتقاته فقد بلغت ١٣٨ آيـة منهـا :

« يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السِّلْم كافة » (٢٠٨ـالبقرة).

« وإنْ جنحوا للسَّلْم فاجنح لها وتوكل على الله .. » (٦١ ـ الانفال) .

« فان اعتزلوكم فلم يقاتلوكم والقَوا اليكم السَّلَم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا » (٩٠ ـ النساء) .

« ولا تقولوا لمن القى اليكم السَّلام لَسْتَ مؤمنا » (٩٤ ـ النسـاء)

« سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين » (٥٥ ـ القصص) .

«فاصفح عنهم وقل: سلام فسوف يعلمون» (٨٩ ـ الزخرف) .

قال لوثروب ستودارد الامريكي[٥] : « ما كان العرب قط امة تحب اراقة الدماء ، وترغب في الاستلاب والتدمير ، بل كانوا على الضد من ذلك أمة موهوبة ، جليلة الاخلاق والسجايا » .

هذا وقد جعل الاسلام قواعد خاصة للحرب والقتال ، وقواعد وشروطاً للسلم وعدم الاعتداء . وأمر بحفظ المواثيق والعهود ، وعدم نكث الأيمان ، ورعاية احكام المصالحات والمهادنات ، واحترام المعاهدات ... الخ .. وقد أقرت الشريعة الاسلامية العدالة في السلم والحرب فلا يحل تعذيب الاسرى ، ولا قتل الرهائن ، ولا قطع الشجر المثمر . ولم يشرّع الاسلام الحرب للأذى وانما شرعها لدفع الأذى .

---

(٥) حاضر العالم الاسلامي

الفصل الثامن

النزعة العلمية في الحضارة العربية

لقد أحب العرب العلم ، وكرموا أهله رجالا ونساء ، ورحلوا من أجله الرحلات الطويلة ، وبذلوا في سبيله أموالهم وراحتهم حتى بلغوا به أعلى المراتب • ومما يشير الى أهمية العلم عند المسلمين ان الله تعالى اقسم بالقلم وما يسطرون لأن الانسان بالقلم تعلم ما لم يعلم • كما قرن عزّ وجل أهل العلم به وبملائكته وذلك حين يقول : « شَهِدَ الله أنه لا إله الا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقِسْط » (١٨ ــ آل عمران) • والمسلمون يَرَوْن أن الناس مَوْتَى ، وأهل العلم احياء لانهم دوماً في تطلع الى اسرار الخلق ، وطبائع الاشياء ، والامور الكونية ، ومعرفة الفضاء والكواكب والنجوم • ومما يدل على قيمة العلم عندهم :ــ

١ ــ ان القرآن الكريم ذكر العلم ومشتقاته في مئات من الآيات بلغ عددها (٧٨٠) آية اعظمها قوله تعالى : « وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نَفَرَ من كل فرقة منهم طائفة ليتَفَقَّهوا في الدين، ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلَّهم يحذرون » (١٢٢ ــ التوبة) • ومنها :

« قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون انما يتذكر اولو الالباب » (٩ ــ الزمَر) •

« يرفع اللهُ الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلمَ درجاتٍ » (١١ ــ المجادلة) •

« وقل رب زدني علماً » (١٤ ــ طه) •

« ها انتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فَلِمَ تُحاجّون فيما

ليس لكم به علم" والله يعلم وأنتم لا تعلمون » (٦٦ ـ آل عمران).

« خلق الانسانَ علمه البيانَ » (٤ ـ الرحمن) .

« يتلو عليكم آياتِنا ويزكّيكم ويعلّمُكم الكتابَ والحكمة » (١٥١ ـ البقرة) .

« وتلك الامثالُ نضربها للناس وما يعقلها الا العالِمُون » (٤٣ ـ العنكبوت) .

« الم تر أن الله انزل من السماء ماءً فأخرجنا به ثمرات مختلفاً الوانُها ومن الجبال جُدُدٌ بيضٌ وحمرٌ مختلف الوانها ، وغرابيب سود . ومن الناس والدواب والانعام مختلف الوانه كذلك إنما يخشى اللهَ من عباده العلماء ان الله عزيز غفور » (٢٧ ـ ٢٨ ـ فاطر).

« فاسألوا أهلَ الذكر إن كنتم لا تعلمون » (٧ ـ الانبياء) .

« لتَبْتَغُوا فضلا من ربكم ولتعلَمُوا عدد السنين والحساب» (١٢ ـ الاسراء) ... الخ .

« وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما في البر والبحر، وما تسقط من ورقة الا يعلمها ، ولا حبّةٍ في ظلمات الارض ، ولا رَطْب ولا يابس الا في كتاب مبين » (٥٩ ـ الانعام) .

« ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف السنتكم وألوانكم ان في ذلك لآيات للعالمين » (٢٢ ـ الروم) .

٢ ـ ان السنة النبوية احتوت على احاديثَ كثيرة تقيّم العلماء وتثمن مواقفهم المشرّفة . وتحث على طلب العلم منها :

« العلماء ورثة الانبياء » . رواه أحمد وأبو داود والترمذي عن أبي الدرداء .

« أقرب الناس من درجة النبوة أهلُ العلم والجهاد » .

« يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدم الشهداء » . رواه ابن عبدالبر عن الشيرازي عن ابي الدرداء . وفي السهمي[1] : « يوزن يوم

---

(١) ص ٥٢

القيامة مداد العلماء بدم الشهداء فيرجح مداد العلماء على دم الشهداء»

« لا خير فيمن كان من امتي ليس بعالم ولا متعلم » .

« اطلبوا العلم ولو في الصين فان طلب العلم فريضة على كل مسلم » رواه العقيلي وابن عدي والبيهقي وابن عبدالبر عن أنس بن مالك .

« اول من يشفع يوم القيامة الانبياء ثم العلماء ثم الشهداء»[2]

« من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سهّل الله له طريقا الى الجنة، ومن يُبْطِيء عملُه لا يسرع به نسبُه »[3] .

وفي البخاري ان الرسول (ص) قال : « من اشراط الساعة ان يظهر الجهل ويقل العلم » .

٣ ـ أما الاقوال التي ردّدها اعلام الحكماء والعلماء فلا يمكن احصاؤها ولا إدراكها .

وتظهر الدقة والامانة العلمية عند علماء العرب في كثير من المؤلفات العربية . وتدل العناية بالاسانيد والروايات عن كل رجل ، وعن كل حديث[4] على عمق النزعة العلمية عند مفكري العرب .

وينبغي ان يلاحظ ان الحياة الفكرية التي ازدهرت عند العرب أكثر من عشرة قرون كان المؤلف العربي خلالها يفكر في دراسات خاصة ، وايجاد حلول لعويص المسائل والمشاكل ، وذلك بالتجربة والمشاهدة وبالبحث والتحري والاعتماد على الحقائق العلمية الثابتة ، واجتناب الظنون والشبهات . وإن ما نسميه تخريجاً لكثير من الامور الفقهية في مختلف الشؤون الدينية والدنيوية من فتاوى واحكام وأقضية قضى بها اعلام الفقهاء والمجتهدين يشير بوضوح الى الجهود

---

(٢) الخطيب . تاريخ بغداد ج ١١ ص ١٧٨

(٣) الخطيب تاريخ بغداد ج ١٢ ص ١١٤

(٤) راجع بحثنا « اساليب الكتاب العرب في البحث العلمي » في العدد الاول من السنة الاولى لمجلة الكتاب العراقية نيسان سنة ١٩٦٢

المضنية التي بذلها العلماء المسلمون • كما يشير الى أنهم كانوا يدركون كثيراً من الظواهر العلمية والادبية ويُعْنَوْن بالدراسات الطبية والفلكية ، والدينية والعلوم الاجتماعية كالتاريخ والجغرافية اللذَيْن لهما المقام الاول في أدبهم •

ولما كان العرب اصحاب ملاحظة دقيقة وذوي فكر مبدع فقد أتوا بأعمال رائعة في حقلي الرياضيات والفلك واللغة والطب والصيدلة والكيمياء• اما في التشريع فكان الفقهاء يحتاطون في آرائهم واجتهاداتهم الى حد التحرج فكان ابو حنيفة مثلاً يقول : « قولنا هذا : رأي وهو احسن ماقدرنا عليه فمن جاءنا بأحسن من قولنا فهو أولى بالصواب منا» •

وكان المؤلفون العرب يذكرون في كثير من الأحيان الكتب التي لخَّصوها • وكانوا يعتمدون على الوثائق المدوَّنة ، ويرجعون الى المراجع التي ألفها اسلافهم • كما كانوا يذكرون العلماء الذين اقتبسوا منهم• وقد احتوت بعض مؤلفاتهم على نقد علمي صريح لبعض الكتب• وقد اتبعوا في الدراسة والتعليم والسَّماع والتأليف طريقة تدوين الملاحظات والتعليقات وكتابة المسوَّدات والمقتبسات • وكثيراً ما كانوا يدونون المراجع التي رجعوا اليها • وقد أصبح ذكر المراجع في مصنفاتهم العلمية من الأصول المألوفة • كما اعتمدوا على المخطوطات الموثوق بها وخاصة المخطوطات التي بخط المؤلف أو التي تحمل توقيعه • وعندما زادت المخطوطات وانتشرت صاروا يعتمدون على الرواية المكتوبة دون الرواية الشفهية(٥) •

ويمكن القول بأن البحوث الاسلامية التي قام بها العرب والمسلمون في حقل العلوم الدينية والدنيوية كانت تستند الى البراهين القاطعة • وان المسلمين كانوا لا يقبلون امراً إلا اذا قام عليه الدليل ، والى ذلك أشار القرآن بالآية :

---

(٥) روزنتال ــ مناهج العلماء ص ١٥ و ٢٧

« قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » (١١١ ــ البقرة و٦٤ ــ النمــل)

وقد حذر الاسلام من الظنون والاوهام والاستناد الى دليل بغير الحق • فقد جاء في القرآن :

« وان تطع أكثرَ من في الارض يُضلوك عن سـبيل الله إنْ يتَّبِعُون إلا الظنَ وإنْ هـُم الا يَخرُصُون » (١١٦ ــ الانعام)•

« وما يَتَّبِعُ اكثرُهم إلا ظَناً ، إن الظن لا يُغني مــن الحق شيئاً » (٣٦ ــ يونس) •

« بل اتَّبَعَ الذين ظَلَموا أهواءهم بغير علم » (٢٩ ــ الروم)•

« ولا تَقْفُ ما ليس لك به عِلْم" ، إن السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسؤولاً » (٢٦ ــ الاسراء) •

وللعلماء الاوربيين آراء وأقوال في أساليب البحث العلمي عنــد العرب،وما قاموا بهمن تجارب واختراعات نشير الى بعضها فيمايأتي[٦]:

١ ــ يقول سَيْدِيّو Se'dillot : ان من أهم ما اتصفت به جامعة بغداد منذ البداءة هو روحها العلمية الصحيحة التيكانت سائدة بها ، واستخراج المجهول من المعلوم ، والعلل من المعلولات ، وفي عدم التسليم بما لا يقوم على التجربة والتَّرصُّد • وقد كانالعرب في القرن التاسع الميلادي (الثالث الهجري) حائزين لهذا المنهج المجدي الذي اقتبسه منهم علماء اوربة بعد زمن طويل ، فكان عاملاً في اكتشافاتهم المفيدة • وان منهاج العرب قائم على التجربة والترصُّد • واما درس الكتب ، والاقتصار على تكرار رأي المعلم فمما سارت عليه اوربة في القرون الوسطى • والفرق بين النهجين واضح • ولا يمكن تقدير قيمة العرب العلمية الا باظهار هذا الفرق •

٢ ــ يقول لوبون : « والانســان يقضــي العجب من الهمــة التي اقدم بها العرب على البحث والتحقيق • واذا كانت هناك أمم قد

---

(٦) حضارة العرب ص ٤٦٠ ــ ٤٦٢

تساوت هي والعرب في ذلك فانه لم تفق امة" العربَ على ما يحتمل •
وقد كانت المدن الكبرى كبغداد والقاهرة وطليطلة وقرطبة تشتمل ـ بالاضافة الى مدارس التعليم ـ على جامعات كبيرة محتوية على مختبرات ، ومراصد ، ومكتبات عظيمة ، وعلى كل ما يساعد البحث العلمي » •

ويتحدث لوبون عن تجارب لعرب العلمية واختراعاتهم وابتكاراتهم فيقول :

حقا لقد اختبر العرب مسائل العلم ، وجربوها • وقد كانوا أول من أدرك هذا المنهج في العالم • وقد ظلوا عاملين به وحدهم زمناً طويلاً ••• وقد انجز العرب في ثلاثة قرون أو اربعة قرون من الاكتشافات ما يزيد على ما حققه الاغريق في زمن أطول من ذلك كثيراً•
واذا قيل : إن بيكن Bacon : أول من قال بالتجربة والترَصُّد اللذين هما ركن المباحث العلمية الحديثة ، فالانصاف يقضي بأن نعترف بأن الفضل في ذلك للعرب وحدهم •

الفصل التاسع

النزعة العقلية في الحضارة العربية

لقد اطلق الاسلام سراحَ العقل من أسره ، وفسح لـه المجـال ليتصرف ويتبصر بأموره بعيداً عن العاطفة وعن التقليد وعن الاقتداء على آثار الآباء اذا كانوا ضالين .

وقد قدر المسلمون قيمة العقل حـق قدرها ، وعرفوا له مكانته العظيمة في جميع امورهم الدينية والدنيوية . ولذلك شرع العقل يعمل عندهم بجد وفي حرية تامة منذ مجيء الاسلام حتى كان من نتاجه ذلك الرصيد الضخم من نتاج المفكرين والعلماء . وليس أدل على ذلك من ورود عدد كبير من الآيات التي تدعو ذوي الالباب والابصـار الـى التأمل والتفكر والتدبر وشحذ أذهانهم لمعرفة الحقائق .. وذم اولئك الذين لا يفكرون ولا يعقلون « ان شر الدواب عندالله الصُمُّ البُكمُ الذين لا يعقلون » (٢٢ ــ الانفال) . ويمكننا ان نحصي الآيات التي تدعو الى التفكير بـ ١٨ آية والآيات التي ورد فيها ذكر الآلبـاب ١٦ آية ، اما الآيات التي ورد فيها ذكر الابصـار فقـد بلغت ٣٨ آية . وفي القرآن سبع آيات تحث على التدبر .

وجـاء ذكـر العقل ومشتقاته في القرآن في آيات كثـيرة يبلغ عددها نحو خمسين آية ورد قسم منها لاثبـات وجود الله عن طريق العقل والتفكير والمشاهدة والدرس والتبصر بأمر الكون كما في قوله تعالى : « إن في خلق السَّموات والأرض ، واختلاف الليل والنهـار والفُلك التي تجري في البحر بما ينفع الناسَ ، وما انزلَ اللهُ مـن السماء من ماء فأحْيَى به الارضَ بعد مَوْتِها ، وَبثَّ فيها من كل دابَّة ، وتصريف الرياح والسَّحاب المُسَخَّر بين السماء والأرض

لآياتٍ لقوم يعقلون » (١٦٤ ــ البقرة) • •

« كذلك نفصِّل الآيات لقوم يعقلون » (٢٨ ــ الروم) •• الخ

« ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الالباب » (١٩٠ ــ آل عمران) •

« وهو الذي مَدَّ الارض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ، ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يُغْشِي الليل النهــار ، ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » (٣ ــ الرعد) •

« وفي الأرض قِطَعٌ متجاورات وجنات من أعنــاب ، وزرعٌ ونخيل صِنوانٌ وغيرُ صِنوانٍ يُسْقَى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأُكُل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون» (٤ ــ الرعد)•

« وهو الذي انزل من السماء ماءً فأخرجنا به نبات كل شــيء فأخرجنا منه خَضِراً نُخْرِج حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانيةٌ وجنات من اعناب ، والزيتون والرمانَ مشتبها وغير متشابه ، انظروا الى ثمره اذا اثمر ويَنْعِهِ ان في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون » (٩٩ ــ الانعام) •

« اعلموا ان الله يحيي الارض بعد موتها ، قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون » (١٧ ــ الحديد) •

فلينظر الانسان مم خلق ، خلق من ماء دافق ، يخرج من بــين الصُلْب والترائب » (٥ ــ ٧ ــ الطارق) •

«وأنه خلق الزوجين الذكرَ والأنثى ،من نطفة إذا تُمْنَى» (٤٥ و ٤٦ ــ النجم) •

« والله خلق كل دابَّة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ، ومنهم من يمشي على رجليه ومنهم من يمشي على اربع ، يخلق الله ما يشــاء ان الله على كل شيء قدير » (٤٥ ــ النور) •

« ألم يروا الى الطير مسخَّراتٍ في جو السماء ما يُمْسكهن الا

الله ، ان في ذلك لآيات لقوم يؤمنون » (٧٩ ـ النحل) .

« هو الذي انزل من السماء ماء لكم منه شراب" ومنه شجر" فيه تُسِيمون .. يُنْبِتُ لكم به الزرع والزيتون والنخيل والاعناب ومن كل الثمرات ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون .. وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر ، والنجومُ مسخرات" بأمره ان في ذلك لآياتٍ لقوم يعقلون .. وما ذرأ لكم في الارض مختلفا الوانه ان في ذلك لآية لقوم يذّكرون .. وهو الذي سَخَّر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حِليةً تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون .. وألقى في الارض رواسي ان تَمِيْدَ بكم وانهاراً وسُبُلاً لعلكم تهتدون .. وعلامات وبالنجم هم يهتدون » (١٠ ـ ١٦ ـ النحل)

« وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالِمُون » . (٤٣ ـ العنكبوت) .

« قل إنما أَعِظُكُم بواحدة : ان تقوموا لله مثنى وفُرادَى ثم تتفكروا ما بصاحِبِكم من جِنّة ان هو الا نذير" لكم بين يدي عذاب شديد » . (٤٦ ـ سبأ) .

وسخّر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » (١٣ ـ الجاثية) .

« لا تدركه الأبصار وهو يدرك الابصار وهو اللطيف الخبير » (١٠٣ ـ الانعام)

« ... كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون » (٢٨ ـ الروم) .

وقد ألغى الاسلام سيطرة الآباء والاحبار والرهبان التي كانت مستحوذة على عقول الناس ، قال تعالى :

« فَذَكّر انما انت مُذكّر لَسْتَ عليهم بمُسَيْطِرٍ » (٢٢ ـ الغاشية) .

« لا اكراهَ في الدين قد تبيَّن الرُّشْدُ من الغَيّ » (٢٥٦ ـ

البقرة) .

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم واخوانكم أولياءَ ان استحبُّوا الكفرَ على الايمان ، ومن يَتَولَّهم منكم فأولئك هم الظالمون » (٢٣ ـ التوبة) .

« وإن جاهداك لتُشْرِك بي ما ليس لك به علم" فلا تُطِعْهما » (٨ ـ العنكبوت) .

« وإن جاهداك على أن تُشْرِك بي ما ليس لك به علم" فلا تطعهما » (١٥ ـ لقمان) .

واما اولئك الذين كانوا يقولون :

« ... حَسْبُنا ما وجدنا عليه آباءَنا أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون » (١٠٤ ـ المائدة) .

« ... أجئتنا لتَلْفِتَنا عما وجدنا عليه آباءنا » (٢٨ ـ الاعراف) .

« ... وجدنا آباءنا لها عابدين » (٥٣ ـ الانبياء) .

« اجئتنا لنعبدَ اللهَ وحدَه ونَذَرَ ما كان يعبد آباؤنا » (٧٠ ـ الاعراف) .

« أتنهانا أن نعبدَ ما يعبدُ آباؤنا » (٦٢ ـ هود) .

فقد خاطبهم الرسول (ص) بالآيات الآتية :

« اتجادلونني في اسماءٍ سميتُموها أنتم وآباؤكم » (٧١ ـ الاعراف).

« ما تعبدون من دونه إلا أسماءً سميتُمُوها انتم وآباؤكم » (٤٠ ـ يوسف) .

ورغَّب الله تعالى في التسامي بالاخلاق ، وحل المشاكل بالحُسْنَى فقال :

« ولا تَسُبُّوا الذين يَدْعُوْن من دون الله فيسبوا الله عَدْواً بغير علم » (١٠٨ ـ الانعام) .

« إدفع بالتي هي أحسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم » (٣٤ ــ فصلت) •

ولئن مَجّد العرب العقل فلأن العقل الانساني هو أساس التفكير وأساس الحياة •

قال الطبيب البغدادي أبو بكر محمد بن زكريا الرازي المتوفى في سنة ٣٢٠ هـ أو ٣٢٤ هـ في كتابه « لطب الروحاني » ان الباري عز اسمه ــ انما أعطانا العقل وحبانا به لننالَ ونبلغَ به من المنافع العاجلة والآجلة غاية ما في جوهر مثلنا نيله وبلوغه ، وأنه أعظمُ نعم الله عندنا وأنفع الاشياء لنا وأجداها علينا ••• وبالعقل ادركنا جميع ما ينفعنا ويحسن ويطيب به عيشُنا ونصلُ الى بغيتنا ومرادنا ••• واذا كان هذا مقداره ومحله وخطره وجلالته فحقيق علينا ان لا نحطه عن رتبته ، ولا ننزله عن درجته ، ولا نجعله ــ وهو الحاكم ــ محكوما عليه • ولا ــ وهو الزّمام ــ مزموماً ــ ولا وهو المتبوعُ ــ تابعاً ، بل نرجع في الأمور اليه ، ونعتبرها به ، ونَعْتَمِد فيها عليه، فنمضيها على امضائه ، ونوقفها على ايقافه » •

وقد حاول العرب ان يجعلوا السيطرة للعقل في كل امورهم وحتى العلوم الدينية فقد جعلوا لها اقيسة منطقية ، وقواعد خاصة تستند الى العقل والدراية ، أكثر من استنادها الى النقل والرواية ، بل كثيراً ما اطّرحوا الروايات جانباً ولم يأخذوا بها • وحاولوا التوفيق بين العقل والدين ، فما وافق العقل أخذوه ، وما خالف العقل نبذوه• واتخذوا من القرآن اساسا يستندون اليه في ذلك فما وافق القرآن عملوا به ، وما خالف القرآن أو عارضه تركوه وأعرضوا عنه •

وأخيراً يمكن القول بأن الاسلام حكّم العقل في كل الشؤون ، وامتدح التفكير في الأمور • وأكثر الله تعالى من قوله : أفلا تتفكرون، ولعلهم يتفكرون • وشدد الأسلام النكير على اولئك الذين يهملون استخدام العقل • جاء في القرآن :

« ومَثَلُ الذين كفروا كمثل الذي يَنْعِقُ بما لا يَسمع

إلادعاء ونداءً، صُمٌ بُكْمٌ عُمْيٌ فهم لا يعقلون» (١٧١ـ البقرة).

« ام تحسب أن أكثرهم يسمعون او يعقلون ، إنْ هُـم إلا كالانعام بل هم أضَلُّ سبيلا » (٢٤ ـ الفرقان) .

ومن بين الفرق الاسلامية التي أعتمدت على العقل في كل شيء، وجعلته اساساً لبحوثها : فرقة المعتزلة فقد كان هدفهم التوصل الى الحقيقة وليس لقائلها . وقد اجتنبوا التقليد من غير بحثٍ وتحرٍ للادلة . وحكّموا العقل في ثبات العقائد ، واتخذوا القرآن إمامهم في هذا الشأن .

وكانت ثقة المعتزلة بالعقل لا يحدها الا احترامهم لأوامر الشرع. فكل مسألة من مسائلهم يعرضونها على العقل فما قبله أقروه ، وما لم يقبله رفضوه .

وكان من آثار اعتمادهم على العقل انهم كانوا يحكمون بحسن الاشياء . ويقولون : المعارف كلها معقولة بالعقل ، واجبة بنظر العقل. ولذلك كان عملهم : الفكر ، وقَرْع الحجة بالحجة ، والدليل بالدليل، ووزن الأمور بمقاييسها الصحيحة .

وقد استند المعتزلة الى العلوم والفلسفة وعلم الكلام والجدل في مقارعة الخصوم . وكان من أهم وسائلهم التي استخدموها للدفاع عن العقل : الفصاحة والبيان في لغتهم العربية ، والقدرة على الاقناع والارتجال . ولذلك وُصف ابو عثمان الجاحظ وهو من شيوخ المعتزلة بأنه : « خطيب المسلمين ، وشيخ المتكلمين ، ومِدْرَه المتقدمين والمتأخرين » .

وقد بلغ اعتماد المعتزلة على فلسفة اللغة العربية وفقهها واشتقاقاتها الى ابعد الحدود لتعيين مذاهبهم العقلية وتحديدها . واجمعوا على ان الناس محجوجون بعقولهم[1] . وقالوا ليس يجب في العقول الا التفريق بين المحسن والمسيء ، والولي والعدو[2] .

---

(١) الاشعري : مقالات الاسلاميين ص ٢٢٦ .
(٢) الاشعري : مقالات الاسلاميين ص ٢٧٥

الفصل العاشر

الشورى و ((الديمقراطية)) في الحضارة العربية

يوصف العرب في الجاهلية والاسلام برجاحة العقل والتسامح ، وعدم الاستبداد بالرأي لأنهم كانوا يميلون الى التشاور في امورهم، ويعمدون الى المفاوضات والتحكيم في مشاكلهم ، والى الحِجاج والمناظرات في خلافاتهم •

ففي الجاهلية كثيراً ما تغلبت الحكمة على المتحاربين والمتخاصمين فسعوا الى تحاشي الحروب وتلافي اخطارها وآثارها ، وفض الخصومات التي تقع بين القبائل بسبب التنافس على السيادة ، او على التسابق على موارد الماء ، ومنابت الكلأ ، أو في سباق الخيل ، أو على اتخاذ حِمىً من الأرض يكون كحرم المعابد لا يجرؤ أحد ان يطأه ، أو يوقع الاذى في شيء منه كالحمى الذي اتخذهُ كُلَيْب وائل الذي تجاوز فيه من تقدمه من اصحاب الحمى لأنه بلغ من اعتداده بنفسه انه كان يحمي مواقع السحاب فلا يُرعى حماه ، وجعل حمايته تشمل انواع الوحش خارج حماه وكان يقول : « وحش ارض كذا في جواري فلا يصاد » وكان لا يُورِد أحد" مع إبله ولا يوقِد ناراً مع ناره ، ولا يمر أحد بين بيوته ، ولا يحتبي في مجلسه •

وكانوا يسعون الى الصلح ، وفض المنازعات عند حدوث المنافسات في سوق « عكاظ » ، وعند المغالاة في العزة والأنفة ، وعند التسابق على حماية « اللطائم » وهي القوافل التجارية بين العراق والحجاز • فيجتمع الناس من مختلف القبائل فيتحاورون ويصطلحون، او يتواعدون على الالتقاء في مكان وزمان معينين ، او يتفقون على هدر

دماء الطرفين ، أو تقع الحرب ثم يتفاوضون ويعقدون الصلح • أو يجمعون الجموع ، ويفرقون السلاح من سيوف ودروع في المحاربين• ويحرّض بعضهم على بعض لأخذ الثأر فيكون لكل بطن رئيس • ويترأس المحاربين رجال عرفوا بالبأس والصبر ، وربما عمد بعضهم الى ان يعقلوا انفسهم ويقيدوها كما فعل العنابس من الأمويين في حرب الفِجار ليصمدوا في الحرب ولئلا تحدثهم انفسهم بالفرار •

وبعد أن تضع الحرب أوزارها ، ويؤخذ بالثأر يتداعى الناس الى الصلح ، ويحصى القتلى فأي الفريقين فضل له قتلى اخذت ديتهم ، وعادوا الى الوفاق والسلام كما كانوا •

ومن ابرز الحروب التى وقعت بين القبائل العربية في العصر الجاهلي ما يعرف بالأيام كالأيام بين العدنانية واليمانية ، وبين تميم وفارس وبين ربيعة ومضر [1] ••• الخ ومن اشهر الوقائع :

١ ــ حرب البسوس :

بين قبيلتي بكر وتغلب ابني وائل • وقد جرت بين كُلَيْب وجَسَّاس • ودامت اربعين سنة ، وكانت بسبب ناقة يقال لها « سراب » كانت لشخص نزل ضيفاً على « البسوس بنت منقذ » خالة جساس وأختـه جليلة زوجة كليب فرماها كليب بسهم في ضرعها لأنها كانت ترعى مع إبلـه • فلما رأت « البسوس » ما حل بناقة جارها وان جوارها قد أهين ، وضعت يدها على رأسها وصاحت « واذلاه » • وتمكن جساس من قتل كليب • وكان لكليب أخ اسمه مهلهل عندما سمع بمقتل أخيـه جَزّ شعره ، وقصّر ثوبه ، وهجر النساء ، وترك الغَزَل ، وحرّم القمار والشراب ، وجمع قومه طلباً

---

(١) براجع هذه الايام في الكامل لابن الاثير ج ١ ص ٥٠٢ ــ ٦٨٧ والعقد الفريد ج٣ ص ٣١٠ ــ ٣٨٣ وفيه اخبار عن ٨٦ يوما من ايام العرب أي حروبهم •

لثأر أخيه كليب • وتأهب مُرَّة ابو جَسّاس للحرب أيضاً ودعا قومه الى نصرته فأجْلَوا الاسنة ، وشحذوا السيوف ، وقوّموا الرماح ، واستعدوا للحرب • غير أنه قبل ان تبدأ الحرب أرسل مهلهل يفاوض مُرَّة والد جساس ، وكان في نادي قومه • وتباحثوا في عدد من الاقتراحات لتلافي الحرب كان آخرها ان يُفتَدى دم كليب بألف ناقة سود الحَدَق ، حُمْر الوبر • غير أن بني تغلب لم يرضوا بذلك فنشبت الحرب بينهم وظلت قائمة أربعين سنة ، عادوا بعدها الى الصلح ، ذلك ان مهلهلاً قال لقومه : قد رأيت ان تُبقُوا على قومكم فانهم يحبون صلاحكم ، وقد اتت على حربكم اربعون سنة ، وما لُمْتُكم على ما كان من طلبكم بوِتْرِكم • فلو مرت هذه السنون في رفاهية عيش لكانت تُمَلُّ من طولها ، فكيف وقد فني الحيّان ، وثكلت الامهات ، ويُتِّم الاولاد ، ونائحة لا تزال تصرخ في النواحي ، ودموع لا ترقأ ، وأجساد لا تدفن ، وسيوف مشهورة ، ورماح مشرعة • وان القوم سيرجعون اليكم غداً بمودتهم ومواصلتهم وتتعطف الارحام •

٢ – داحس والغبراء :

بين عَبْس وذُبيان ابني بَغيض وكانت بسبب سباق بين داحس والغبراء وهما فرَسان لقيس بن زهير بن جَذِيمة سيد بني عَبْس وبين فرسين لحذيفة رئيس بني بدر وهما : الخَطّار والحَنْفاء • وكان هذا السباق هو السبب المباشر لها • اما السبب الحقيقي لهذه الحرب الضروس فلم يكن الا التنافس على زعامة القبيلة •

وقد جرت فيها مفاوضات عديدة ، وقيلت قصائد مشهورة منها معلقتا زهير بن ابي سُلمى وعنترة العَبْسي الذي أظهر شجاعة فائقة في هذه الحرب• وكان كل من المتنازعين قد جمع قومه واستعدوا للقتال• وظلت الحرب قائمة بينهما أربعين سنة أيضاً ، قتل خلالها عدد كبير من الحيين، وكثر الاسر فيهما، وقلت الرجال والاموال، وهلكت المواشي•

وبعد أن ملت القبيلتان الحرب عادتا الى المصالحة ، وحقن الدماء ، ومراجعة السلم ، فمشى السفراء بينهما لهدر الدماء ، ودفع الديات ، وفك الرهائن ، واطلاق الاسرى ، كما يشير الى ذلك ابن الأثير في كامله[٢] .

٣ ـ حرب الفجار :

بين قريش وكنانة وقيس عَيْلان : وقد وقعت في الاشهر الحرم وهي أربعةُ أفجرةٍ دامت أربع سنين أو أكثر . ولم يكن في أيام العرب اشهرُ منها ولا اعظم[٣] وانما سُمي الفِجار لما استُحِلَّ فيه من المحارم . وكان سببها التنافس على حماية القوافل التجارية المعروفة باللَّطِيمة التي كان النعمان بن المنذر ملك الحيرة يرسلها الى سوق عُكاظ في كل عام في جوار رجل شريف من أشراف العرب يجيرها له حتى تباع هناك ويشترى له بثمنها من أَدَم الطائف ما يحتاج اليه[٤] .

لقد جمعت قريش جموعها ومعهم كنانة بأسرها والاحابيش . وجمعت قيس جموعها ومعها ثقيف . وفرَّقوا السلاح في الناس وتواعدوا في عُكاظ بعد انقضاء عامهم . وخرجت قريش[٥] للموعد وعلى كل بطن من بطونها رئيس فكان على بني هاشم : الزبير بن عبد المطلب ومعه رسول الله (ص) وهو ابن أربع عشرة سنة . وكان يَنْبُل على عمومته أي يناولهم النبل . وكان مع الزبير اخوته : أبو طالب وحمزة والعباس . وكان على بني امية واحلافها حرب بن أمية ومعه اخوته . وكان على جماعة الناس قائد عام هو حرب بن أمية لمكانه من عبد مناف سناً ومنزلة . فعقل حرب نفسه ، وقيّد سفيان وأبو العاص نفسيهما ، وقالوا : لن يبرح رجل منا مكانه حتى نموت أو نظفر ،

---

(٢) راجع تفاصيل المعركة في ج١ ص ٥٦٦ ـ ٥٨٣ منه .
(٣) ابن الاثير ج ١ ص ٥٨٩ ـ ٥٩٠
(٤) العقد الفريد ج ٣ ص ٣٧٧ ـ ٣٧٨
(٥) ابن الاثير ج١ ص ٥٩٣ ورسائل الجاحظ ص ٧٤

فيومئذ سموا : « العنابس » أي الأسود[٦] • ثم تداعى الناس الى الصلح والسلم فاصطلحوا على ان يحصوا القتلى فأي الفريقين فضل له قتلى اخذ ديتهم من الفريق الاخر • وكانت نتيجة الاحصاء ان قريشاً وبني كنانة قد افضلوا على قيس عشرين رجلاً فرهن حرب يومئذ ابنه ابا سفيان في دية القوم حتى يؤديها • ورهن غيره من الرؤساء • وانصرف الناس بعضهم عن بعض ، ووضعوا الحرب وتعاهدوا على ان لا يؤدي بعضهم بعضاً •

ومن اشهر احلاف العرب التي عقدوها في العصر الجاهلي •:

١ ـ حلف الفضول

وهو اشرف حلف كان في العرب كلها واكرم عقد عقدته قريش في قديمها وحديثها قبل الاسلام • عقده نفر من أهل مكة ، تحالفوا فيما بينهم على مساعدة المظلوم ، وان لا يقروا ببطن مكة ظالماً • وقالوا لا ينبغي إلا ذلك لما عظم الله من حقها • وفي ذلك قال عمرو بن عوف الجرهمي :

إن الفضولَ تحالفوا وتعاقدوا ألاّ يَقِرَّ ببطن مكة ظالم
أمرٌ عليه تعاهدوا وتواثقوا فالجارُ والمعتر فيهم سالم

وتداعت قبائل من قريش الى ذلك الحلف وكان الزبير بن عبدالمطلب هو الداعي له والناهض فيه فتحالفوا في دار عبدالله ابن جُدعان لشرفه وسنه ، وكانوا : بني هاشم، وبني المطلب، وبني أسد بن عبد العُزّى، وزُهرة بن كلاب ، وتَيْم بن مُرّة • فتحالفوا وتعاقدوا أن لا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها أو من غيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه ، وكانوا على من ظَلَمَه حتى ترد عليه مظلمته ويؤدى اليه حقه واقسموا على التآسي في المعاش والتساهم بالمال • فسمَّتْ قريش ذلك الحلف حلف الفضول لفضله وفضيلة اهله وسميت القبائل التي اشتركت فيه « الفضول » وقد تعاقدوا في شهرٍ « حرام » قياماً يتصافحون• وشهده

---

(٦) ابن الاثير ج ١ ص ٥٩٤ ـ ٥٩٥

رسول الله (ص) فقال : حين ارسله الله تعالى : « لقد شهدتُ مع عمومتي حلفاً في دار عبدالله بن جُدعان ما أُحِب انّ لي به حُمْر النَّعَم ، ولو دُعيت به في الاسلام لأجبت[٧] . وقد انتزعت ظلامات كثيرة ممن كان يظلم الناس بمكة او يعتدي عليهم من الأقوياء .

٢ ـ حلف المطيبين :

عقد حلف المطيَّبين على أثر نزاع بين القرشيين على بعض الوظائف الكبرى التي أوجدها قُصَي وتوارثها ابناؤه ذلك ان هاشم بن عبدمناف واخوته ارادوا ان يأخذوا الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء من بني عبد الدار باعتبار انهم أحق بذلك منهم لشرفهم عليهم ولفضلهم في قومهم فانقسمت قريش واجتمعت بطونها ، وعقدت كل طائفة بينهم حلفاً مؤكداً على ان لا يتخاذلوا ، ولا يُسْلِم بعضهم بعضاً ما بلَّ بحرٌ صوفةً . فأخرجت بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيباً قيلَ : ان بعض نساء بني عبد مناف وهي عاتكة بنت عبدالمطلب اخرجتها لهم فوضعوها في المسجد وغمسوا أيديهم فيها ، وتعاهدوا وتعاقدوا على التناصر واحتلفوا ومسحوا الكعبة بأيديهم توكيداً على أنفسهم فسموا « المطيَّبين » من أجل ذلك .

٣ ـ حلف لعقة الدم :

وتعاقد بنو عبد الدار ومن معهم من القبائل عند الكعبة ونحروا جزوراً وغمسوا أيديهم في دمه ، ولعق رجل من بني عَدِيّ من ذلك الدم لعقة فلعقوا واحتلفوا على ان لا يتخاذلوا أمام بني هاشم ولا يُسلِم بعضهم بعضاً فسموا بـ « الأحلاف » ثم تصافّوا للقتال ،

---

(٧) الكامل لابن الاثير ج٢ ص ٤١ والمعتر هو المحتاج الذي يعطى من المعروف من غير ان يسأل . المحبّر ص ١٦٧ ورسائل الجاحظ ص ٧١ ـ ٧٤

وأجمعوا على الحرب غير انهم أخيراً تداعَوْا للصلح ومشت السفراء بينهم على ان يعطوا بني عبد مناف : السقاية والرفادة • وأن تكون الحجابة واللواء والندوة لبني عبدالدار فاصطلحوا بذلك وتحاجزوا من الحرب وثبت كل قوم مع من حالفوا حتى جاء الاسلام وهم على ذلك[8] •

٤ ـ ايلاف قريش :

وكانت قريش صاحبة الايلاف وهي العهود والاتفاقات التجارية التي رفع الله بها قريشاً، ونعش فقراءها فكان متجر هاشم الى الشام فهلك بمدينة غزة • وهو أول من رحل الرحلتين رحلة الشتاء ورحلة الصيف • وكان متجر عبد شمس الى الحبشة فمات بمكة • وكان متجر نوفل الى العراق فمات بموضع يقال له سلمان • وكان كل هؤلاء رئيسَ مَنْ يخرج معه ممن يتجر في وجهه • وكان هاشم قد أخذ الايلاف لهم من الملوك ، ومن اشراف القبائل ، أي انه شَرِكَ في تجارته رؤساء القبائل من العرب ، وملوك اليمن والحبشة وملوك الروم بالشام فجعل لهم معه ربحاً فيما يربح وساق لهم ابلاً مع ابله فكفاهم مؤنة الاسفار على ان يكفوه مؤنة الاعداء في طريقه ومنصرفه• فكان فيذلك صلاح عام الفريقين وكان المقيم رابحاً والمسافر محفوظا فأخصبت قريش بذلك وحملت معه اموالها وأتاها الخير من البلاد السافلة والعالية وحسنت حالها وطاب عيشها[9] •

وتظهر النزعة الشورية أو الديمقراطية[10] في الاجتماعات التيكان يعقدها « الملأ » من قريش في « دار الندوة » منذ تأسيسها في زمن « قصي » حتى المؤامرة التي دُبرت[11] فيها لقتل الرسول (ص) • وما

---

(٨) ابن الاثير ج١ ص : ٤٥٤ والمحبَّر ص ١٦٦ و ص ١٦٧

(٩) المحبّر : ص ١٦٢ ـ ١٦٣ ورسائل الجاحظ ص ٧٠ ـ ٧١

(١٠) راجع فجر الاسلام ص ٣٣ والثقافة الاسلامية المعاصرة لمحمد خلف الله ص ١٢٤ .

(١١) السيرة ج ١ ص ٩١

الوظائف التي جعلها « قصي » في قبائل قريش من المشورة والسفارة والحكومة التي اسلفنا ذكرها الا شواهد على بداية النظم الشورية والنزعة الديمقراطية عند العرب قبل الاسلام •

ان العربي ديمقراطي بطبعه لانه يقدس الحرية ولانه متواضع جداً غير أنه عزيز النفس ، حَمِي الأنف لا يصبر على ضيم أو ظلم • وتظهر ديمقراطية العرب قبل الاسلام بوجه عام في مناداتهم ملوكهم وامراءهم باسمائهم الا ما كان من ملوك المناذرة فان الواحد منهم كان يخاطب بـ (أبَيْتَ اللعن) ويظهر ان ذلك كان بتأثير البلاط الساساني • وعلى العموم فان خطاب العرب ان ينادى الواحد منهم بكنيته ، حتى الرسول (ص) كان ينادى باسمه مجرداً من كل نعت أو صفة • وأعظم صفة لقب بها خلفاؤه من بعده هي : « أمير المؤمنين » •

والاسلام في حد ذاته دين حضارة ومدنية يزخر بعدد كبير من الانظمة والاوامر والنواهي والاعمال والامثلة التي تؤيد النزعة الشورية وتحبذ الديمقراطية • جاء في القرآن الكريم :

« فاعفُ عنهم واستغفر لهم ، وشاوِرْهم في الأمر» (١٥٩ ــ آل عمران)

« وأمْرُهُم شُورى بينهم ، ومما رزقناهم ينفقون » (٣٨ ــ الشورى) •

«فان ارادا فصالاً عن تراضٍ منهما وتشاورٍ فلا جُناح عليهما» (٢٣٣ ــ البقرة) •

وتجد في القرآن كثيراً من آيات الحِجاج والمجادلة بين الرسول (ص) والعرب في الامور الدينية والدنيوية تدل كلها على ذهنية العرب الخصبه في المناقشة والمناظرة ، في الله وفي الآلهة وفي الروح والحق والباطل •• وفي الامور العامة •

وتتبين قوة الشورى وحرية الرأي في أمرين حصلا في وقعة بدر

الكبرى في السنة الثانية من الهجرة (٦٢٤ م) :

اولهما : عندما نزل المسلمون على أول ماء من بدر استعداداً لحرب قريش فان الحُباب بن المنذر بن الجموح جاء الى رسول الله وقال له : يا رسول الله : أرأيت هذا المنزل أمنزلاً انزلكه الله ، ليس لنا ان نتقدّمه ولا تتأخر عنه ؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ قال : «بل هو الرأي والحرب والمكيدة» . قال : يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى تأتي ادنى ماء من القوم فتنزله ثم نُعَوِّر ما وراءه من القُلُب ثم نبني عليه حوضاً ، فنملؤه ماءً ، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون ، فقال له : « لقد اشرت بالرأي » . فنهض الرسول (ص) ومن معه حتى اذا اتى أدنى ماء من القوم نزل عليه ثم أمر بالقُلُب فعُوِّرت وبنى حوضاً على القليب الذي نزل عليه فملىء ماءً ثم قذفوا فيه الآنية[١٢] .

وثانيهما : في المحاورة التي جرت بين الرسول (ص) وبين سعد بن مُعاذ : ذلك ان سعداً قال للرسول (ص) قُبيل بدء معركة بدر : يا نبي الله ألا نبني لك عريشاً تكون فيه ، وتُعد عندك ركائبك ؟ ثم نَلْقَى عدونا ، فإنْ اعزنا الله ، واظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا ، وان كانت الأخرى جَلَسْتَ على ركائبك فلحقتَ بمَن وراءَنا من قومنا فقد تخلّف عنك أقوام يا نبي الله ما نحن بأشد لك حباً منهم ، ولو ظنوا انك تَلْقَى حربا ما تخلفوا عنك ، يَمنعك الله بهم : يناصحونك ، ويجاهدون معك . فأثنى عليه الرسول (ص) ودعا له بخير ، ثم بني للرسول (ص) عريش فكان فيه[١٣]

وليس أدل على حرية الرأي، وعلى النزعة الديمقراطية في الاسلام من أن النبي نفسه كان لا يجعل اقواله وأوامره واجبة الاتّباع والتسليم

---

(١٢) السيرة ج ٢ ص ٢٦٠

(١٣) السيرة ج ٢ ص ٢٦٠

بها الا في الأحوال التي تكون فيها هذه الاوامر صادرة عن وحي إلهي صريح . وكان الصحابة بدورهم على علم كامل بهذا المعنى ، ولذلك كانوا ينبهون الرسول نفسه اليه في بعض الاحيان . فيروى مثلاً انه في اثناء غزوة الخندق عندما اشتد البلاء على المسلمين في أول الامر ، رأي النبي ان يستميل قبيلة غَطَفان التي تحالفت مع قريش في تلك الغزوة هي وقبيلة بني قريظة اليهودية ، فجرى بينه وبينهم صلح كتبوه في كتاب مؤداه ان يدفع لهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا عنه وعن اصحابه . ولم يقطع النبي في هذا الأمر بل بعث الى سعد بن مُعاذ وسعد بن عُبادة قائدي الاوس والخزرج،فذكر لهما ذلك واستشارهما فيه ، فقالا له : « يا رسول الله أمراً تحبه فَتَصْنَعُه ، أم شيئاً أمركَ الله به لابد لنا من العمل به ، أم شيئاً تصنعه لنا ؟ قال « بل شيء اصنعه لكم والله ما اصنع ذلك الا لأنني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب فأردت ان أكسر عنكم من شوكتهم الى أمر ما » فقال له سعد بن معاذ ... يا رسول الله ، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشِّرْك بالله وعبادة الاوثان لا نعبد اللهَ ولا نعرفه وهم لا يطمعون ان يأكلوا منها ثمرةً الا قِرى أو بيعاً . أفحين أكرمنا اللهُ بالأسلام ، وهدانا له ، وأعزنا بك وبه ، نعطيهم اموالنا ؟ ، والله ما لنا بهذا من حاجة ، والله لا نعطيهم الا السيفَ حتى يحكمَ الله بيننا وبينهم . قال رسول الله (ص) : فأنتَ وذاك . فتناول سعد بن مُعاذ الصحيفة فمحا ما فيها من الكتاب ، ثم قال : لِيَجْهَدُوا علينا . »(١٤)

وتظهر حرية الرأي أيضاً في المفاوضات التي اجريت من أجل الصلح بين قريش والرسول (ص) في صلح الحديبية بين الرسول وبين سهل بن عمرو العامري حيث اصطلحا على وضع الحرب بين الناس عشر

---

(١٤) السيرة ج٣ ص ٢٣٩ ـ ٢٤٠

سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض . وان من أحب ان يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه . وان من أحب ان يدخل في عقد قريش وعهدها دخل فيه . وغير ذلك من شروط[١٥] .

اما الشورى في احداث الاسلام الكبرى بعد وفاة الرسول (ص) فتظهر في أمور كثيرة منها : بيعة ابي بكر الصديق خليفة للرسول في السقيفة . ثم في اجتماع كبار الصحابة للبحث في أمر الردة وقتال المرتدين . كما ظهرت في تأميم الارض المفتوحة كأرض السواد عندما جعلها عمر بن الخطاب ملكاً للأمةوليس ملكا للافراد وكانت مثلاً رائعا للمشاورة في أمور الامة . وظهرت في رجال الشورى الستة الذين عينهم عمر لينتخبوا الخليفة من بينهم وهم : عثمان بن عفان وعلي بن ابي طالب وعبدالرحمن بن عوف وسعد بن ابي وقاص وطلحة بن عبيدالله والزبير بن العوام[١٦] .

وتتمثل الديمقراطية احسن تمثيل في قول عمر بن الخطاب حين يقول : « اني حريص على ان لا ادع حاجة الا سددتها ما اتسع بعضنا لبعض فاذا عجز ذلك عنا تآسينا في عيشنا حتى نستوي في الكفاف . ولوددت انكم علمتم من نفسي مثل الذين وقع فيها لكم ، ولست معلمكم الا بالعمل ، اني والله ما أنا بملك فاستعبدكم ، وإنما أنا عبدالله عرضت علي الامانة فان أبيتها ورددتها عليكم واتبعتكم حتى تشبعوا في بيوتكم وترووا سعدت ، وان انا حملتها واستتبعتكم الى بيتي شقيت ففرحت قليلاً وحزنت طويلا ، وبقيت لا أقال ولا أرد فأستعتب »[١٧] .

ومما يؤثر عن عبدالملك بن مروان في الشورى انه كان يقول

---

(١٥) السيرة ج٣ ص ٢٦٦

(١٦) راجع عن ديمقراطية الرسول (ص) وابي بكر وعمر وعبدالملك بن مروان كتاب الاحياء للغزالي ج ٢ ص ٣٤٤ ـ ٣٤٦ وما بعدها .

(١٧) الاسلام والحضارة العربية ج١ ص ١٤١

« ان المشاورة تفتح مغاليق الامور »[18] .

ولما ولي عمر بن الخطاب ، كتب اليه الصحابيان ابو عبيدة ومعاذ بن جَبَل :

« من ابى عبيدة عامر بن الجراح ، ومعاذ بن جبل الى امير المؤمنين عمر بن الخطاب :

بسم الله الرحمن الرحيم سلام عليك ، فانا نحمد اليك الله الذي لا إله الا هو .

اما بعد ، فانا عهدناك وامر نفسك لك مهم ، فاصبحت وقد وليت أمر هذه الامة احمرها واسودها ، يجلس بين يديك الصديق والعدو والشريف والوضيع ، ولكل حصة من العدل . فانظر كيف انت يا عمر عندذلك،وانا نحذرك يوماً تعنو فيه الوجوه،وتجب له القلوب، وتنقطع فيه الحجج بحجة ملك قهرهم بجبروته ، والخلق داخرون له ، يرجون رحمته ويخافون عقابه .

وانا كنا نتحدث ان أمر هذه الامة يرجع في اخر زمانها ان يكون اخوان العلانية اعداء السريرة ، وانا نعوذ بالله ان تنزل كتابنا سوى المنزل الذي نزل من قلوبنا ، فانا انما كتبنا اليك نصيحة لك .. والسلام » .

فكتب اليهما :

« بسم الله الرحمن الرحيم من عمر بن الخطاب الى ابي عبيدة عامر ابن الجراح ومعاذ بن جبل .

سلام عليكما : احمد اليكما الله الذي لا إله الا هو .

اما بعد ، فقد جاء في كتابكما تزعمان انه بلغكما اني وليت امر هذه الامة احمرها واسودها، يجلس بين يدي الصديق والعدو والشريف والوضيع .. وكتبتما ان انظر كيف انت يا عمر عند ذلك ! وانه لا حول ولا قوة لعمر عند ذلك الا بالله .

---

(18) الفخري ص 113 وتاريخ السيوطي ص 226 .

وكتبتما تحذراني ما حذرت به الامم قبلنا ، وقديما كـان اختلاف الليل والنهار بآجال الناس يقربان كل بعيد ، ويبليان كل جديد، ويأتيان بكل موعود حتى يصير لناس الى منازلهم من الجنة والنار ، ثم تُوَفَّى كل نفس بما كسبت ان الله سريع الحساب . وكتبتما تزعمان ان أمر هذه الامة يرجع في آخر زمانها ان يكون اخوان العلانية اعداء السريرة، ولستم بذاك ، وليس هذا ذلك الزمان ، ولكن زمان ذلك حين تظهـر الرغبة والرهبة .

وكتبتما تعوذان بالله ان انزل كتابكما مني سوى المنزل الذي نزل من قلوبكما وانما كتبتما نصيحة لـي ، وقد صدقتما فتعهداني منكما بكتاب ، ولا غنى بي عنكما .. والسلام عليكما » .

وتبدو الشورى واضحة في عقد التحكيم السياسي الذي جرى في صِفِّين بين الامام علي بن ابي طالب وبين معاوية بن ابي سفيان في ١٥ صفر سنة ٣٧هـ (٦٥٧م) فقد ارسل الامـام علي الاشعثَ بن قيس الى معاوية يسأله عما يريده فقال له : « نرجع نحن وانتم الى ما أمـر الله في كتابه ، تبعثون منكم رجلاً ترضونه ، ونبعث منا رجلاً ثم نأخذ عليهما ان يعملا بما في كتاب الله لا يعدوانه ثم نتبع ما اتفقا عليه » . فقال له الاشعث : هذا الحق . ثم رجع الى علي فأخبره فقال الناس : رضينا وقبلنا . وكتب الفريقان بينهم عقد التحكيم الذي جاء في أوله:

هذا ما تقاضى عليه علي بن ابي طالب ومعاوية بن ابي سفيان ، قاضَى علي على أهل الكوفة ومن معهم . وقاضَى معاوية على أهـل الشام ومن معهم : اننا ننزل عند حكم الله وكتابه ، وان لا يجمع بيننا غيرُه ، وان كتاب الله بيننا من فاتحته ، الى خاتمته نحيي ما احيـا ، ونميت ما امات . فما وجد الحكمان في كتاب الله وهما : ابو موسى عبدالله بن قيس وعمرو بن العاص عَمِلا به ، وما لم يجداه في كتاب الله فالسنة العادلة الجامعة غـير المفرقة . وأخـذ الحكمان من علي ومعاوية ومن الجندين من العهود والمواثيق انهما آمنان على انفسهما

وأهليهما ، والامة لهما انصار على الذي يتقاضيان عليه. وعلى عبدالله ابن قيس وعمرو بن العاص عهدالله وميثاقه ان يحكما بين هذه الامة لا يردّاها في حرب ولا فرقة حتى يُعصيا . وأجل القضاء الى رمضان وان احبا ان يؤخرا ذلك أخّراه . ون مكان قضيتهما مكان" عَدْل" بين أهل الكوفة وأهل الشام(١٩) . وكان مع كل حَكَمٍ منهما اربعمئة رجل غير مَن حضر للمراقبة .

ويظهر أثـر الديمقراطية وحرية الرأي في المناظرات السياسـية والعقائدية كمناظرة عبدالله بن الزبير للخوارج عندما ارادوا ان يعرفوا ما عند ابن الزبير أيوافقهم على مبادئهم أم يخالفهم، لينصروه أو يخذلوه وذلك عندما جاءت جنود الشام تحاربه في خلافة يزيد بن معاوية فقد تناظروا معه وقالوا له : ما تقول في الشيخين ؟ قال : خيراً . قالوا : فما تقول في عثمان الذي احمى الحمى ، وآوى الطريد ، وأظهر لأهل مصر شيئاً وكتب بخلافه ، وأوطأ آل ابي مُعَيْط رقـاب الناس ، وآثرهم بفيء المسلمين ، وفي الذي بعده الذي حكّم في دين الله الرجـال ، وأقام على ذلك غير نائب، ولا نادم، وفي ابيك وصاحبه، وقد بايعا علياً وهو امام عادل مرضي لم يظهر منه كفر نادم ثم نكثا بعرض من اعراض الدنيا ، وأخرجا عائشة تقاتل وقد أمرها الله وصواحبها ان يَقَرْن في بيوتهن . وكان في ذلك ما يدعوك الى التوبة فان أنت قلت كما نقول فلك الزلفى عند الله والنصر على ايدينا ونسأل الله لك التوفيق ، وان أنت أبيت الا نصر رأيك الاول ، وتصويب أبيك وصاحبه ، والتحقيق بعثمان ، والتَّوَلّي في السنين الست التي أحلت دمه ، ونقضت بيعته، وأفسدت امامته ، خذلك الله ، وانتصر منك بايدينا . فقال ابن الزبير: ان الله أمر وله العزة والقدرة في مخاطبة أكفر الكافرين ، وأعتى العتاة بأرأف من هذا . فقال لموسى ولأخيه صلى الله عليهما في فرعـون :

---

(١٩) ابن الاثير ج ٣ ص ٣٢٠

« فقولا له قولاً ليّناً لعلّه يتذكر أو يخشى » • وقال رسول الله صلى الله عليهم وسلم : لا تؤذوا الاحياء بسب الاموات فنهى عن سب أبي جهل من أجل عِكْرِمَة ابنه، وأبو جهل عدو الله، وعدوالرسول، والمقيم على الشرك ، والجاد في المحاربة ، والمتبغض الى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة ، والمحارب له بعدها ، وكفى بالشرك ذنباً • وقد كان يغنيكم عن هذا القول الذي سميتم فيه طلحة والزبير أن تقولوا : أتبرأ من الظالمين فأن كانا منهم دخلا في غمار الناس ، وان لم يكونا منهم لم تحفظوني بسب أبي ، وأنتم تعلمون ان الله جل وعز قال للمؤمن في ابويه : « وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما • وصاحبهما في الدنيا معروفا » • وقال جل ثناؤه : «وقولوا للناس حسنا» وهذا الذي دعوتم اليه أمر له ما بعده ،وليس يقنعكم الا التصريح والتوقيف• ولعمري ان ذلك لأحرى بقطع الحجج، وأوضح لمنهاج الحق ، واولى بأن يعرف كُلٌّ صاحبه من عدوه[٢٠] •

وللخوارج مناظرة أخرى جرت بينهم وبين عمر بن عبدالعزيز الخليفة الاموي فقد كتب عمر الى رئيس الخارجة «بِسطام اليشكري» يسأله عن سبب خروجه ويقول له :

« بلغني انك خرجت غضباً لله ولنبيه ولست باولى بذلك مني فهلمَّ أناظرك فأن كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس ، وان كان في يدك نظرنا في أمرنا »

فكتب بِسطام الى عمر : قد أنصفت • وقد بعثتُ اليك رجلين يدارسانك ويناظرانك • ولما وصل هذان الرجلان الى عمر ناظراه فقال لهما عمر : ما اخرجكما هذا المخرج وما الذي نقمتم ؟ • فقال المتكلم ما نَقَمْنا سيرتك انك لتتحرى العدل والاحسان • فأخبرنا عن قيامك بهذا الأمر أعن رضاً من الناس ومشورةٍ أم ابتززتم أمرهم ؟

(٢٠) راجع ابن الاثير ج ٤ ص ١٦٦ — ١٦٧ وفي النص بعض الاختلاف

فقال عمر : ما سألتهم الولاية عليهم ، ولا غَلَبْتُهم عليها . وعهد اليَّ رجل كان قبلي فقمت ولم ينكره عليّ احد ، ولم يكرهه غيركم . وانتم ترون الرضا بكل مَنْ عدل وأنصف من كان من الناس فاتركوني ذلك الرجل . وان خالفتُ الحق ورغبتُ عنه فلا طاعةَ لي عليكم .

قالا : بيننا وبينك آمر واحد ، رأيناك خالفتَ اعمال أهل بيتك وسميتها مظالم فأن كنت على هُدىً وهم على ضلالة فالعنهم وابرأ منهم . فقال عمر : قد علمت انكم لم تخرجوا طلباً للدنيا ، ولكنكم اردتم الاخرة فاخطاتم طريقها . ان الله عز وجل لم يبعث رسوله صلى الله عليه وسلم لعاناً . وقال ابراهيم : « فمن اتبعني فانه مني ، ومن عصاني فانك غفور رحيم » . وقال الله عز وجل : « أولئك الذين هداهم الله فبهداهم اقتَدِه » . وقد سميتُ اعمالَهم ظلماً وكفى بذلك ذما ونقصاً . وليس لعن أهل الذنوب فريضة لابد منها فأن قلتم : إنها فريضة فأخبرني متى لعنت فرعون ؟ قال : ما أذكر متى لعنتُه . قال افيسعك ان لا تلعن فرعون ، وهو أخبث الخلق وشرهم ولا يسعني الا أن ألعن أهل بيتي وهم مصلون صائمون ! قال : اما هم كفار بظلمهم؟ قال : لا . لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا الناس الى الايمان مَن أقَرّ به وبشرائعه قُبل منه ، فان أحدث حدثاً اُقيم عليه الحد .

فقال الخارجي : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا الناس الى توحيد الله والاقرار بما نزل من عنده . قال عمر : فليس احد منهم يقول : لا أعمل بسنة رسول الله ، ولكن القوم اسرفوا على أنفسهم على علم منهم أنه محرم عليهم ولكن غلب عليهم الشقاء . قال الخارجي فابرأ مما خالف عملك ، وردّ احكامهم . قال عمر : اخبرني عن ابي بكر وعمر أليسا على حق ؟ قال : بلى . قال أتعلم ان ابا بكر حين قاتل أهل الردة سفك دماءهم ، وسبى الذراري ، وأخذ الاموال ؟ . قال: بلى . قال أتعلم أن عمر رد السبايا بعده الى عشائرهم بفدية ؟ قال : نعم . قال فهل برىء عمر من ابي بكر ؟ قال : لا . قال افتبرؤن انتم من

واحد منهما ؟ قال : لا • قال فأخبرني عن أهل النهروان وهم اسلافكم هل تعلم ان أهل الكوفة خرجوا فلم يسفكوا دما ، ولم يأخذوا مالاً وان من خرج اليهم من أهل البصرة قتلوا عبدالله بن خبّاب وجاريته وهي حامل ؟ قال : نعم — قال فهل بريء من لم يَقتُل ممن قتل واستعرض ؟ قال : لا • قال : افتبرؤن انتم من احدى الطائفتين ؟ قال: لا • قال : افيسعكم ان تتولوا أبا بكر وعمر ، وأهل البصرة ، وأهل الكوفة ، وقد علمتم اختلاف اعمالهم ، ولا يسعني الا البراءة من أهل بيتي والدين واحد فاتقوا الله فانكم جُهال تقبلون من الناس ما رد عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم • وتردون عليهم ما قبل• ويأمن عندكم من خاف عنده • ويخاف عندكم من آمن عنده • فأنكم يخاف عندكم من يشهد أن لا إله الا الله وأن محمداً عبده ورسوله • وكان من فعل ذلك عند رسول الله آمناً ، وحقن دمه وماله ، وأنتم تقتلونه• ويأمن عندكم سائر أهل الاديان فتحرمون دماءهم وأموالهم •

قال الخارجي: ارأيت رجلاً ولي قوماً وأموالهم فعدل فيها ثم صيرها بعده الى رجل غير مأمون أتراه أدى الحق الذي يلزمه الله عز وجل ؟ أو تراه قد سلم؟ قال عمر: لا • قال افتسلم هذا الامر الى يزيد (بن عبدالملك) من بعدك وأنت تعرف أنه لا يقوم فيه بالحق ؟ قال : انما ولاه غيري والمسلمون أولى بما يكون منهم فيه بعدي • قال أفترى ذلك من صنع من ولاه حقاً ؟ ••• فقال عمر : انظراني ثلاثاً ••[٢١]

وتتجلى النزعة «الديمقراطية» الصريحة في كثير من أقوال الخلفاء والملوك والأمراء فقد روي ان ابا بكر الصديق قال في أول خطبة له بعد توليه الخلافة : « قد وُلّيتُ عليكم ،ولست بخيركم فاذا استقمت فأعينوني ، وإذا زغت فقوّموني » • وقال في خطبة أخرى : ولكن الابرام بعد التشاور ، والصفقة بعد التناظر •

---

(٢١) الكامل لابن الاثير ج ٥ ص ٤٥ — ٤٨ ،وراجع ايضا سيرة عمر ابن عبدالعزيز ص ٧٧ — ٧٨ •

وروي ان عمر بن الخطاب خطب مرة فقال : « من رأى منكم فيّ اعوجاجاً فليقومه » فقام اليه اعرابي وقال له : « لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا » ويروى عنه ايضا انه قال : لسنا في كسروية كسرى، ولا قيصرية قيصر .. بل نحن في نور نُبُوَّة ، وضياء رسالة ، وثمرة حكمة ، وأَثَرَة رحمة ، وعنوان نعمة ، وظل عصمة ... »

وذكر ابن الجوزي انه « كان بين عمر بن الخطاب وبين رجل كلام في شيء فقال له الرجل : اتق الله يا أمير المؤمنين . فقال له رجل من القوم : اتقول لامير المؤمنين : اتق الله! فقال له عمر دعه فليقلها لي. نِعْمَ ما قال . ثم قال عمر : لا خير فيكم اذا لم تقولوها لنا ، ولا خير فينا اذا لم نقبلها منكم »[22] .

وفي كتب التاريخ والادب العربي شواهد كثيرة على «الديمقراطية» وحرية الرأي والتشاور في مختلف الامور . ولعل أبرز مظهر لذلك ما نجده عند القضاة الجريئين والعلماء الاحرار الذين كانوا لا يخشون في الحق لومة لائم ، ولا يَغْشَوْن الاكابر ولا يخالطونهم . وكانوا يواجهون الكبراء بما لا يحبون[23] .

---

(٢٢) سيرة عمر بن الخطاب ص ١٥٦

(٢٣) راجع كتابنا « تاريخ علماء المستنصرية » المجلد الثاني ص ١٣٧ ــ ١٣٨ . وراجع ايضا « احمد بن حنبل » لابي زهرة ص ٧٨

الباب الرابع

اتجاهات الحضارة العربية في الاسلام

الفصل الأوّل

بداية الحضارة العربية في الاسـلا م

لقد كان الحجاز قبل الاسلام تتردد فيه اصداء قوية احياناً، خافتة أحياناً أخرى وكانت كلها تعكس صوراً دينية وعقلية وسياسية وقومية تدعو الى التأمل والتفكير ، وتهيئة النفوس والاذهان الى ظهور مصلح من العرب ينقذ العالم مما يشكو منه • وكانت هذه الاصوات تنبعث من رجال يتطلعون الى الاصلاح ، ويرغبون في انتشال كرامة الانسان من المهانة التي وصلت اليها ، والوقوف بوجه الظالمين لدفع الظلم عن الناس كما في « حلف الفضول » وتفيض على ألسنة الحكماء والخطباء والشعراء من العرب ، وتطغى على لسـان الحنيفية فينادون بتحـريم الخمور ، ووأد البنات ، ويرون ان هناك حقيقة غابت عنهم ، ويقولون: ما معنى التوصّل الى الله بحجارة لا ضر فيها ولا نفع ؟ وما حجر نطيف به لا يبصر ولا يضر ولا ينفع ، يا قوم التمسوا لأنفسـكم فانكم والله ما أنتم على شيء •

وكانت هذه الصور تظهر ايضاً في تبشير التوراة والانجيل برسول يأتي من بعد عيسى (ع) اسمه احمد «الذين يتبعون الرسول النبي الامي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيـل » (١٥٧ ــ الاعراف) • وفي أصوات المرورين والمستضعفين والمدينين الذين أثقل الفقر والربا كواهلهم • واولئك الذين سئموا الحروب الطويلة التـي اهلكت القبائل وافنت الاموال بسبب العصبية والثأر لأتفه الذرائع •

كما كانت في الجزيرة العربية وثبات وانتفاضات تدعو الى التخلص من نيـْر الفرس والروم والاحباش الذين تحكموا في العرب على غفلة من

الزمن . وتتجلى في الصبر وقوة الايمان اللذين امتاز بهما العرب في حروبهم مع الاحباش والروم في اليمن ، وفي حربهم مع الفرس في العراق في وقعة « ذي قار » . وفي قول الرسول عليه الصلاة والسلام « هذا يوم انتصفت فيه العرب من العجم وبي نُصروا » .

لقد قضى الاسلام على الوثنية والشرك في جزيرة العرب ، وانكر على اليهود والمسيحيين الشوائب التي خلطوا بها دينهم ، وادعاء اليهود بان عُزيراً ابن الله وقول المسيحيين ان المسيح ابن الله . وجمع العرب على دين التوحيد المحض الخالص الذي لا تشوبه شائبة . ونزه اللهَ تعالى عن الوالد والولد والصاحبة[1] . قال تعالى :ـ

« ما اتخذ الله مِنْ وَلَدٍ ، وما كان معه من إله ، اذن لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يصفون » (٩١ ـ المؤمنون) .

« ولا يأمركم ان تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أيامركم بالكفر بعدَ اذ انتم مسلمون » (٨٠ ـ آل عمران) .

« قل اغير الله اتخذ ولياً فاطر السموات والارض وهو يُطْعِم ولا يُطْعَم . قل : إني أُمِرْتُ ان اكون أوَّل من اسلم ولا تكونن من المشركين » (١٤ ـ الانعام) .

هذا الى ان الاسلام طوَّر نفسية العرب تطويراً بالغاً ، وغير نظرتهم للحياة ، ووجههم وجهات جديدة وطبعهم بوجه خاص بصفات انسانية عالية وروحانية صافية لا ترين عليها المادة ولا يطغى عليها عَرَضَ الحياة الدنيا .

وقد نزه خلفاء الرسول من الراشدين نفوسهم عن مال الامة وماتوا جميعاً دون ان يخلفوا تركةً ، بل ماتوا مدينين لا يملكون شيئا بعد ان كانوا من الاغنياء في الجاهلية ، وبعد ان انثالت عليهم الاموال

---

(١) مقالات الاسلاميين ص ١٥٦

اثيالاً من مغانم الفتوح في الاسلام •

ولم يطمع الخلفاء الراشدون في ملك ، ولا عهدوا بالخلافة الى أحد من ابنائهم مع كفاءتهم للخلافة ، بل عهدوا بها الى اكفأ اصحاب رسول الله من قريش • وكان يسود بينهم الوئام ، كما كانت تسود المحبة بين ابنائهم واحفادهم •

وكما اعتصموا بحبل الاسلام فقد ربطت بينهم أواصر القربى والمصاهرة والعلاقات الحسنة حتى أصبحوا وكأنهم اسرة واحدة • وكانوا يتفانون في خدمة الدين الاسلامي والامة العربية ويسارعون في الخيرات ولا يفرقون بين أحد منهم •

فأبو بكر الصديق صاحب رسول الله وصهره لم يشأ ان يعهد بالخلافة الى احد من اولاده من بعده • وقد انفق كل ثروته على الدعوة الاسلامية • وعندما حضرته الوفاة قال لابنته عائشة زوجة الرسول (ص) : « انظري يا بنية فما زاد في مال ابي بكر منذ ولينا هذا الأمر فردّيه على المسلمين ، فوالله ما نابنا من اموالهم الا ما اكلنا في بطوننا من جريش طعامهم ، ولبسنا على ظهورنا من خشن ثيابهم » فنظرت فاذا بَكْر" وجَرْد قطيفة لا تساوي خمسة دراهم ، وحَشِيَّة •

فلما جيء بذلك الى عمر قال عبدالرحمن بن عوف لعمر : يا أمير المؤمنين : اَتَسْلُب هذا ولد ابي بكر ؟ قال : كلا ورب الكعبة • لا يتأثم بها ابو بكر في حياته ، واتحملها من بعد موته • رحم الله ابا بكر فقد كلف مَنْ بعده تعباً • ومات عبدالله بن ابي بكر في حياة ابيه وترك سبعة دنانير فاستكثرها ابو بكر [٢] •

ويروي ابن الجوزي [٣] هذه الحادثة بشكل آخر فيذكر ان أبا بكر قال لعائشة حين احتُضِر : « يا بنية إنا ولينا أمر المسلمين فلم

---

(٢) المعارف لابن قتيبة ص ١٧١
(٣) سيرة عمر بن الخطاب ص ٥٢

نأخذ لهم ديناراً ولا درهماً ، ولكنا أكلنا من جريش طعامهم في بطوننا، ولبسنا من خشن ثيابهم على ظهورنا ، وانه لم يبق عندنا من فيء المسلمين قليل ولا كثير ، الا هذا العبد الحبشي ، وهذا البعير الناضح ، وجَرْد هذه القطيفة ، فاذا مِتُّ فابعثي بهن الى عمر . فجاءه الرسول وعنده عبدالرحمن بن عوف فبكى عمر حتى سالت دموعه على الأرض وقال : رحم الله أبا بكر لقد أتعب مَنْ بعده . ارفعهن يا غلام فقال عبدالرحمن : سبحان الله يا أمير المؤمنين تسلب عيال ابي بكر عبداً حبشياً وبعيراً ناضحاً ، وجَرْد قطيفة ثمنها خمسة دراهم فقال : ما تأمر ؟ قال : آمر بردهن على عياله قال : خرج ابو بكر عنهن عند الموت وأردهن أنا الى عياله ، لا يكون ذلك والله ابداً، الموت اسرع من ذلك » .

أما عمر بن الخطاب الذي اسلم عندما كان المسلمون (٣٩) رجلاً وامرأة بمكة فكملهم عمر أربعين ، والذي فتح الله على يديه بلاد العراق وفارس والشام ومصر وجعل منها بلاداً اسلامية فلم يعهد الى أحد من أولاده بالخِلافة بل جعلها في رجال الشورى الستة . وقد تزوج الرسول (ص) من ابنته حفصة وهي التي احتفظت بالمصحف الذي جمعه زيد بن ثابت بأمر ابى بكر واشارة عمر . وعلى هذه النسخة انتسخ عثمان المصحف الذي بين أيدينا وعممه على الامصار لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . ومات عمر مديناً ولذلك طلب الى اولاده ان يسددوا عنه ديونه بعد ان يواروه في حفرته . ومن بين زوجاته ام كلثوم الكبرى بنت الامام علي بن ابي طالب وأمها فاطمة الزهراء بنت محمد (ص) ، وقد ولدت له اولاداً منهم : زيد وفاطمة ورُقَيَّة .

وعثمان وهو ابن بنت عمة الرسول البيضاء بنت عبد المطلب(٤).

---

(٤) المعارف لابن قتيبة ص ١٩١

وقد زوجه الرسول (ص) ابنته « رُقَيَّة » وقد رزق منها بابنه عبدالله الاصغر • ثم زوجه بابنته « ام كُلثوم » • وبايع له الرسول (ص) بيعة « الرِّضوان » بشماله •• وتزوج حفيده عبد الله بن عمرو الاكبر بفاطمة بنت الحسين بن علي بن ابي طالب • وتزوج حفيده زيد بن عمرو من سكينة بنت الحسين • ولم يعهد الى أحد من أولاده من بعده بالخلافة • وتوفي مقتولاً لا يملك الا راحلتين بعد أن كان أغنى قريش في الجاهلية والاسلام •

وعلي بن ابي طالب ابن عم رسول الله وزوج ابنته فاطمة الزهراء كان له تسعة وثلاثون ولداً سمَّى بعضهم باسم ابي بكر عتيق ، وعمر الاكبر وعمر الأصغر وعثمان [٥] • وقد تزوج احد احفاده « محمد الباقر » ام فروة بنت القاسم بن محمد بن ابي بكر الصديق فأولدها الامام « جعفر الصادق » • ومات دون ان يعهد الى أحد من اولاده من بعده بالخلافة • فقد جاء اليه الناس بعدما طُعن بالكوفة يسألونه: انبايع ابنك الحسن ؟ فقال : لا آمركم ولا انهاكم وأنتم أبصر • ومات رضى الله عنه وأرضاه ودرعه مرهونة •

والحسن عندما توفي صلى عليه « سعيد بن العاص » والي المدينة • ومن اولاده عمر وأمه ثقفية ، وكان يحمل الحديث عن ابيه ، ويروي عن عمر بن الخطاب[٦] • وحفيده عبدالله المحض الذي رؤي يوماً يمسح على خفيه ، فقيل له : تمسح ! فقال نعم قد مسح عمر ابن الخطاب، ومن جعل عمربن الخطاب بينه وبين الله فقد استوثق[٧] •

ثم جاء الأمويون من بعد الراشدين ونشروا لواء الاسلام في شمال افريقية وفي اوربة وفي الاصقاع النائية من آسية كالسند وتركستان وجرجان وطبرستان • وبلغت الانبراطورية العربية أعظم

---

(٥) الوافى ج ١٢ الورقة ١١٠
(٦) المعارف لابن قتيبة ص ٢١٧
(٧) المعارف لابن قتيبة ص ٢١٢

اتساعها في خلافة الوليد بن عبد الملك وأخيه هشام بن عبد الملك .

ثم خلفهم العباسيون ونشروا حضارة العرب في كل مكان ثم أخذت دولتهم تنتقص من أطرافها وغلب عليها الموالي من الاتراك والبويهيين والسلاجقة حتى آل أمرها الى الزوال على يد المغول ، الذين خلفهم التركمان ثم الفرس الصفويون فالاتراك العثمانيون .

كما نشأت خلافة اسلامية ثانية على عهد الأمويين بالاندلس فرضت احترام الاسلام في اوربة رَدَحاً من الزمن وقامت خلافة ثالثة في مصر وهي خلافة الفاطميين ثم خلافة العثمانيين . ونشأت الى جانب ذلك دول اسلامية عديدة في آسية وأفريقية وأوربة خدمت الاسلام والعربية خدمات جُلّى .

لقد كانت العلاقات بين آل الرسول واصحاب الرسول كافة علاقات حسنة يسودها الود والاخاء، وتقويها المصاهرة وأواصر القربى والرَّحِم . وقد اصبحوا بنعمة الاسلام جميعا اخوانا متحابين في الله. وكانوا أمثلة رائعة في السمو والاخلاق والتضحية والفداء ونكران الذات ، والعفة والزهد . وقد حفلت بذلك كتب التاريخ والسِّيَر والتراجم[٨] وكان لهم فضل كبير في خلق حضارة عظيمة في البلاد التي حلوا فيها تتميز بالابداع والابتكار وخدمة الانسانية .

ولئن أبدع العرب حضارة أفضل من الحضارات التي سبقتها فقد ساعدهم على ذلك وحدتهم الاسلامية ، وذكاؤهم المتوقد المثقف ، وحريتهم وحبهم للناس ، وبيئتهم الجديدة التي وجدوا فيها بعد فتوحهم الاولى .

يقول لوبون : « ونحن وان كنا نجهل حضارتهم قبل ظهور محمد بزمن طويل حين كانوا ذوي صلات تجارية ببقية العالم فانا نعلم انهم

(٨) المعارف لابن قتيبة ص ٢٠٦ و ٢٠٧

كانوا ايام ذلك النبي ذوي ثقافة ادبية رفيعة • والعرب قد اظهروا من الاستعداد الذهني ما درسوا به امور العالم ••• بمثل ذلك الاستعداد الذي فتحوه به ••• وقد كانت الحرية عندهم من اسباب تقدمهم السريع ••• ولم يلبث ان تجلى استقلال العرب الفكري ، وخيالهم، وقوة ابداعهم فيما ابتكروه ••• ولم يمض سوى وقت قصير حتى طبعوا على فن العمارة ، وسائر الفنون ، وعلى مباحثهم العلمية طابعهم الخاص الذي يبدو اول وهلة في آثارهم • وكان همهم مصروفا بوجه خاص الى الفنون ، والعلوم ، والآداب • ولذلك ابتكروا كثيرا من هذه المعارف المختلفة [٩] » •

وكان للعرب اثر كبير في نقل حضارات الامم الغابرة الى الغرب ولولاهم لضاع تراث العالم القديم • كما كان لهم فضل عظيم في الابداع والابتكار ونصيب مهم في تصليح اغاليط الامم التي سبقتهم في مضمار الحضارة • كما ان النفوذ الذي تمتعوا به لم يتفق لأمة ما اتفق للعرب مثله •

وتعتبر الحضارة العربية من الحضارات التي كمل دورها • وقد أوضح لوبون ذلك في كتابه « الانسان والمجتمعات » وقال : انها من الحضارات التي نرى الاطلاع على تاريخها مفيدا الى الغاية وقد جهله الناس •

وذكر ايضاً « ان الحضارة العربية تسيطر بالحقيقة منذ اثني عشر قرنا[١٠] على الاقطار الممتدة من البحر المحيط الاطلسي الى المحيط الهندي ، ومن شواطيء البحر الابيض المتوسط الى رمال افريقية الداخلية • وقد كان سكان هذه البلاد المترامية الاطراف تابعين لدولة واحدة ، وهم يدينون الآن بديانة واحدة ، ولهم لغة واحدة ، ونظم

---

(٩) حضارة العرب ص ٢٠٦

(١٠) ص ٣٢ من « حضارة العرب » الذي طبع بالفرنسية سنة ١٨٨٦ م •

واحدة وفنون واحدة» .

ويقول ايضاً : انه كان للعرب « خصال عظيمة ... وقابليات ذهنية عالية ... وهم أفضل من الرومان بسعة معارفهم العلمية ، والفنية ، ويمكن القول : ان للعرب مقاما رفيعا في التاريخ ... فقد ظهر من العرب رجال عظماء كما تشهد بذلك اكتشافاتهم ... واذا قابلنا بين العرب والأمم الاوربية ... امكننا ان نقول : انهم أرقى من جميع أمم الغرب التي عاشت قبل عصر النهضة اخلاقاً وثقافة . وان جامعات القرون الوسطى لم تعرف في قرون كثيرة مصدراً غير مؤلفاتهم، ومناهجهم . وان اخلاقهم كانت افضل من اخلاق اجدادنا بمراحل ... كما يمكننا القول بأن : اعاظم العرب في القرون الوسطى الماضية مساوية لطبقاتنا الوسطى المتمدنة الحاضرة ان لم تكن أرقى منها في الغالب» [١١] .

وقال : « كلما أمعنا في درس حضارة العرب ، وكتبهم العلمية، واختراعاتهم ظهرت لنا حقائق جديدة ، وآفاق واسعة . ولسرعان ما رأينا ان العرب اصحاب الفضل في معرفة القرون الوسطى لعلوم الاقدمين . وان جامعات الغرب لم تعرف لها مدة خمسة قرون موردا علميا سوى مؤلفاتهم . وانهم هم الذين مدنوا اوربة مادة ، وعقلا ، واخلاقا . والغرب وليد الشرق . ولا يزال مفتاح ماضي الحوادث في الشرق . فعلى العلماء ان يبحثوا عن هذا المفتاح فيه ... »

« وفي تاريخ العرب مسائل كثيرة تتطلب حلا . وفيه دروس وعبر جديرة بالحفظ . والعرب هم عنوان امم الشرق التي تختلف عن امم الغرب ولا تزال جاهلة لشأنهم [١٢] ... وان الآثار الباقية من حضارة العرب كثيرة ، وهي تكفي لايضاح اقسامها الجوهرية بسهولة . وقد

---

(١١) حضارة العرب ص ٦٣٩ ـ ٤٠

(١٢) حضارة العرب ص ٣٢ ـ ٣٣

استعنا في ذلك بأكثرها أي بما خلفه العرب من العلوم ، والآداب ، والفنون ، والصناعات ، والنظم ، والمعتقدات [١٣] ... وقد أنشأ خلفاء محمد تلك المدن الزاهرة التي ظلت ثمانية قرون مراكز للعلوم ، والآداب والفنون في آسية ، وافريقية واورپة [١٤] ... وابدع العرب في العصر العباسي حضارة اينعت فيها الآداب ، والعلوم ، والفنون ، وبلغت الذروة ... واصبحت اسپانية في عهد الامويين ... انضر مقر للحضارة العربية ... وكان يقصد جامعات العرب في طُلَيطُلَة ، وغرناطة ، وقرطبة طالبو العلم من جميع امم الارض على اختلاف مللهم ، ونحلهم [١٥] ... وقد كانت بغداد في الشرق ، وقرطبة في اسپانية — وهما القاعدتان اللتان كان السلطان فيهما للاسلام — من مراكز الحضارة التي اضاءت العالم بنورها الوهاج ايام كانت اورپة غارقة في دياجير الهمجية » [١٦] ...

« واذا كان علماء الوقت الحاضر ينكرون تأثير العرب ، واذا كانت اورپة تشعر بمذلة الخضوع لأفضلية حضارتهم ، ونفوذهم ... واذا أضفنا الى أوهامنا الفاسدة الموروثة في المسلمين الزعم الباطل الآتي الذي زاد مع القرون بفعل ثقافتنا المدرسية التقليدية البغيضة ، وهو ان اليونان ، واللاتين هم وحدهم منبع العلوم والآداب في الزمن الماضي ادركنا السر في جحودنا العام لفضل العرب العظيم في تمدين اورپة . »

« ويتراءى لبعض الفضلاء ان من العار ان تكون اورپة مدينة

(١٣) حضارة العرب ص ٤٣
(١٤) حضارة العرب ص ٩٨ وراجع كتابنا «عروبة المدن الاسلامية»
(١٥) حضارة العرب ص ١٥٩ — ١٦٠
(١٦) راجع كتبنا الآتية : تاريخ علماء المستنصرية بمجلديه . والمدارس الشرابية ، والمراصد الفلكية ببغداد ، وعالمات بغداديات في العصر العباسي ، والتوقيعات التدريسية .

في خروجها من دَوْر التوحش للعرب الكافرين . ولكن من الصعب ان يحجب مثلُ هذا العار الوهمي وجهَ الحقائق » .

وينهي گوستاف لوبون رأيه في هذه الحضارة الاسلامية بقوله : « والخلاصة انه كان للحضارة الاسلامية تأثير عظيم في العالم ،وان هذه الحضارة مدينة للعرب وحدهم في هذا التأثير . وان الشعوب التي اعتنقت دين الاسلام لا تشاركهم فيه . وان العرب مدّنوا البرابرة الذين قضوا على دولة الرومان . وفتحوا لأوربة باب المعارف العلمية، والادبية والفلسفية التي كانت تجهلها ، ومدّنونا وظلوا اساتذة لنا ستة قرون »[17] .

---

(١٧) حضارة العرب ص ٥٩٩ ـ ٦٠٠

الفصل الثاني

الفتوح الاسلامية ومعاملة العرب للامم المغلوبة

لما خرج العرب من مجاهل جزيرتهم بعد اسلامهم « صرعوا الفرس، والاغريق ، والرومان . واقاموا دولة عظيمة امتد سلطانها من قلب بلاد الهند الى شواطيء المحيط الاطلسي . وابدعوا تلك الآثار التي هي آية في الاعجاز ، والتي تورث العجب العجاب »[1] .

« وكانت شريعة الرسول وفنون العرب ، ولغتهم ، وآدابهم الاصيلة ، اينما حلت بعد الفتوح العربية ثبتت اصولها .

وللفتوح العربية طابع خاص لا تجد مثله في فتوح الامم الاخرى ذلك ان العرب انشأوا بسرعة فائقة حضارة جديدة كثيرة الاختلاف عن الحضارات التي ظهرت قبلها . وتمكنوا بحسن سياستهم من اقناع امم كثيرة على اعتناق دينهم ولغتهم وثقافتهم . ولم يشذ عن ذلك اقدم الشعوب كالمصريين والهنود والفرس الذين رضوا ايضا بمعتقدات العرب ، وعاداتهم وفن عمارتهم[2] » .

« وكان العدل بين الرعية دستور العرب السياسي . وقد ترك العربُ الناسَ احراراً في أمور دينهم . وأظل العرب اساقفةَ الروم ، ومطارنة اللاتين بحمايتهم فنال هؤلاء ما لم يعرفوه سابقا من الدعة والطمأنينة[3] . من ذلك ان عمر بن الخطاب لما دخل القدس أبدى من التسامح نحو أهلها ما آمنوا به على دينهم وأموالهم وعرفهم

---

(١) لوبون ـ حضارة العرب ص ٣٣ ـ ٣٤

(٢) لوبون ـ حضارة العرب ص ١٥٣

(٣) لوبون ـ حضارة العرب ص ١٦٩

وعاداتهم . ولم يفرض عليهم سوى جزية زهيدة في مقابل حمايتهم[٤] » .
ومثل ذلك يقال عن بقية الفاتحين من العرب المسلمين في آسية وافريقية وأوربة .

قال لوبون [٥] في صدد الفتوح العربية :

« وكان يمكن ان تعمي فتوح العرب الأولى أبصارهم فيقترفوا من المظالم ما يقترفه الفاتحون عادة ، ويسيئوا معاملة المغلوبين ، ويكرهوهم على اعتناق دينهم الذي كانوا يرغبون في نشره في انحاء العالم . ولو فعلوا ذلك لتألبت عليهم جميع الامم التي كانت بعد غير خاضعة لهم ، ولأصابهم مثل ما اصاب الصليبيين عندما دخلوا بلاد الشام . ولكن الخلفاء الاولين الذين كان عندهم من العبقرية ما ندر وجوده في دعاة الديانات الجديدة ، أدركوا أن النظم والاديان ليست مما يفرض قسراً فعاملوا أهل الشام ، ومصر ، واسپانية ، وكل قطر استولوا عليه بلطف عظيم ، تاركين لهم قوانينهم ونظمهم ومعتقداتهم ، غير فارضين عليهم سوى جزية زهيدة في مقابل حمايتهم لهم ، وحفظ الامن بينهم .

والحق ان الامم لم تعرف فاتحين راحمين متسامحين مثل العرب . ورحمة العرب ، وتسامحهم كانا من اتساع فتوحهم ، واعتناق كثير من الامم لدينهم ونظمهم ولغتهم التي رسخت ، وقاومت جميع الغارات عليها وبقيت قائمة حتى بعد ان توارى سلطان العرب السياسي على مسرح العالم وان انكر ذلك المؤرخون »[٦] .

ولم يصبح عدم التسامح سائدا في العالم الاسلامي الا بعد ان اضمحل سلطان العرب ، وصارت السلطة « قبضة شعوب ثقيلة ، شرسة غير مهذبة » كما اشار الى ذلك مسيو رينان . وترى اذن ان

---

(٤) لوبون ــ حضارة العرب ص ١٦٨

(٥) لوبون ــ حضارة العرب ص ٦٢٨

(٦) لوبون ــ حضارة العرب ص ٢٢٥ ــ ٢٣٥ و ٥٩٢

اللوم يقع من اجل عدم التسامح على تلك الشعوب غير العربية لا على الدين الاسلامي الذي لم يمنع العرب الألِبّاء المهذبين من السير على سياسة التسامح منذ بدء فتوحهم » .

« وتسامح العرب مما لم تصل اليه اوربة بعدُ مع ما قامت به في اكثر من الف سنة من الحروب الطاحنة ، وما عانتــه من الاحقــاد المتأصلة ، وما مُنِيَت به من المذابح الدامية» .

« ولا تزال مصر ملأى بانقاض ما هدمه تيودور في سنة ٣٨٩ م ذلك القيصر النصراني المخرب ، المتعصب . وتعد تلك الاعمال التي قام بها من افظع ما عرفه التاريخ من اعمال الهــــدم الوحشي التي لا يمليها سوى تعصب الأجلاف ...

« ولقد اُكْرِهَتْ مصر على اعتناق النصرانية ، ولكنها هبطت بذلك الى حضيض الانحطاط الذي لم ينتشلها منه سوى الفتح العربي»

وكان العرب يحترمون أهل البلاد المفتوحة ، ويتركون لهم حريتهم الدينية . فقد عامل عمرو بن العاص الفلاحين المصريين « بما لم يعرفوه من العدل ، والانصاف . وقد انشأ للمسلمين محاكم دائمةعلى درجتين تاركا للمحاكم القبطية أمر الفصل بين الاقباط. وقد احترم نظم المصريين وعاداتهم ومعتقداتهم ، فهو قد شمل الديانة النصرانية بعطفه وحمايته. وسمح للاقباط ان يستمروا على اختيار بطرك لهم . ولم يمنع النصارى من انشاء الكنائس في المدينة الاسلامية التي أسسها المسلمون » .

ولم تكن التعاليم الاسلامية لتفرض على اتباع الديانات الاخرى بالقوة وبحد السيف لقوله تعالى « لا اكراه في الدين قد تبين الرشْدُ من الغَيّ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعــروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم » (٢٥٦ ـ البقرة) ، ولذلك يمكننا ان نقول ان الانسجام بين العرب وبين الامم التي انضوت تحت حكمهم كان قوياً جداً . وكان حب هذه الامم للعرب جماً واكيداً بل وصل الى حد التقديس. وهذا يفسر لنا اسباب انتشار الاسلام، ولغة العرب

وآدابهم وتقاليدهم بسرعة منقطعة النظير بين هذه الامم • ويفسر لنا ايضاً خلود هذه الامم الى الهدوء والسكينة ، تحت لواء العرب وعنايتها بالاسلام ، وعلومه المختلفة ، والرضا عن العرب ، والاطمئنان اليهم ، والى عدالة حكمهم •

يقول گوستاف لوبون : « وللاسلام وحده كل الفخار بأنه أول دين قال بالتوحيد المحض الخالص • وبأنه أول دين نشر اتباعه ذلك التوحيد في انحاء العالم » •

ويقول : « وقد أخذ علماء الغرب ينصفون محمداً مع ان التعصب الديني اعمى بصائر مؤرخيهم عن الاعتراف بفضله • وقد كان دينه الذي دعا الناس الى اعتقاده جزيل النعم على جميع الشعوب التي اعتنقته • وكانت جميع البلدان التي خفقت راية النبي فوقها تتمتع بنعم حضارة العرب الزاهرة • فاذا حدث أن انتحل بعض الشعوب النصرانية الاسلام ، واتخذ العربية لغة له فذلك لما كان يتصف به العرب الغالبون من ضروب العدل الذي لم يكن للناس عهد بمثله ، ولما كان عليه الاسلام من السهولة التي لم تعرفها الاديان الاخرى »[٧] •

هذا الى انه كان للفتوح الاسلامية نتائج باهرة منها : اعتناق أمم كثيرة للدين الاسلامي الحنيف ، وانقاذها من عبودية الاوثان والاشخاص والمال • ومنها استعراب البلاد المفتوحة وبخاصة المواطن العربية التي تكوّن جزءً مهماً من بلاد العرب اليوم في افريقية وآسية • كما ان العرب والمسلمين كافة لم ينسوا قط صلاتهم وعلاقاتهم بالجزيرة العربية • وظلت ذكرياتهم تتجدد عبر الزمن وبخاصة في مواسم العمرة والحج عندما يفدون الى الكعبة والمدينة •

---

(٧) راجع الصفحات الآتية من حضارة العرب : ١٤٣ ، ١٢٨ ، ١٤٥ ، ١٩٥ .

الفصل الثالث

القرآن اساس الحضارة العربية

١ ـ العربية :

اذا كانت اللغات من أهم الامور التي تميز الحضارات فمما لا ريب فيه ان اللغة لعربية من أقوى وسائل الترابط بين العرب أنفسهم، وبينهم وبين المسلمين الذين يتكلمونها في البلاد الاسلامية . وهي في الحق أقوى من رابطة لنسب والدم ، لأن الدم لا يمكن استصفاؤه بسبب التصاهر والتزاوج والاختلاط ، والاستباحة في الحروب . والعربية اساس العلاقات لحضارية والثقافية والاجتماعية بين العرب، ولذلك استطاعت ان تجمع تحت رايتها أمماً وأنساباً واعراقا ودماء شتى ، وألواناً مختلفة ممن يدين بالاسلام ، أو ينتسب الى العرب .

وقد ذكر مؤرخو العرب ان أول من انطق الله لسانه بلغة العرب، يَعْرُب بن قحطان ، وهو ابو اليمن كلهم ، وهم العرب العاربة .ونشأ اسماعيل بن ابراهيم الخليل(ع) معهم فتكلم بلسانهم الذي كان موجوداً قبل ابراهيم الخليل وعد العرب اسماعيل «ابا الفصاحة» . وعندهم أن كل من سكن بلاد العرب وجزيرتها ، ونطق بلسان أهلها ، فهم عرب يَمَنُهم ومَعَدهم(١) .

ويذكر ابن تيمية ان العرب خَصّهم الله سبحانه وتعالى وخص لسانهم باحكام تميزوا بها ، فجنسهم افضل الاجناس ، وليس فضل العرب بمجرد كون النبي (ص) منهم ، وان كان هذا من الفضل ، بل هم في انفسهم افضل ، وبذلك ثبت لرسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) لسان العرب في مادة (عرب) .

انه افضل نفساً وشرفاً . ومن لم يعتقد ان جنس العرب افضل من سائر الاجناس فهو شعوبي. والشعوبية أراذل الناس، قد ابتدعوا في الدين، وخرجوا على جماعة المسلمين . وتفضيل العرب يوجب محبتهم ،فحبهم ايمان ، وبغضهم نفاق ، ومعاداتهم كفر ، أو سبب للكفر .

ويرى ابن تيمية : ان معرفة الاسلام متوقفة على معرفة لسان العرب فلا سبيل الى ضبط الاسلام الا بضبط العربية ، وإن العربية من الدين ، ومعرفتها فرض على كل مسلم، فاعتياد الخطاب بغير العربية التي هي لغة القرآن ، وشعار الاسلام وأهله ، مجانب للدين . ولهذا فالنطق بها ضرورة حتى يصير ذلك عادة للمصر وأهله ، ولأهل الدار ، وللرجل مع صاحبه ، ولأهل السوق والامراء ، ولأهل الديوان، ولأهل اللغة .

ويقول الثعالبي[2] : الاسلام خير الملل ، والعرب خير الامم ، والعربية خير اللغات والالسنة ، والاقبال على تفهمها من الديانة إذ هي اداة العلم ومفتاح التفقه في الدين . ويقول الاصمعي[3] : إن من الدناءة التكلم في مصر عربي بالفارسية. وعن الامام الصادق: «تعلّموا العربية فانها كلام الله الذي يكلم به خلقه » و « اعربوا كلامنا فانا قوم فصحاء » (×) .

وتمتاز اللغة العربية بحيويتها وبامكانها التعبير عن التطورات الاجتماعية والسياسية ، ونواحي الحياة كافة ، لما فيها من مرونة في الاشتقاق ، وثروة في المفردات . وهي قادرة على حمل الامانة في العالم الحديث كما حملتها قروناً عديدة عندما نشرت الفكر العربي ، والتراث الاسلامي في العالم ، ولهذا عضد العرب والمسلمون هذه اللغة العربية، واعتزوا بها خلال تلك القرون . ولذلك يحاول المستعمرون ، وتحاول الارساليات الاجنبية في البلاد العربية والاسلامية الوقوف بوجه اللغة العربية الفصحى ، وتحبيذ العامية في حقول الصحافة والاذاعة والتلفزيون والسينما والمسرح والتأليف ، وتشجيع ابنائها على التكلم

---

(٢) فقه اللغة ص ١

(٣) عيون الاخبار ج٢ ص ٢٩٦ (×) سفينة البحار ج٢ ص ١٧٢ .

والدراسة باللغات الاجنبية بحجة ان العربية غير قادرة على استيعاب مصطلحات العلوم والفنون ، بينما اثبت الواقع قديماً وحديثا تهافت هذه الآراء وعدم صمودها أمام النقد العلمي البناء .

ومما يؤسف له أشد الاسف انهم نجحوا الى حد كبير في جعل كثير من المسلمين ينصرفون عن اللغة العربية الى لغات أجنبية ، ليكون لكل بلد اسلامي لغة اقليمية ينسون معها اللغة العربية وتاريخ الاسلام.

لقد كان العرب يسمون لغتهم : « لساناً عربياً . قال الامام الشافعي : « واولى الناس بالفضل في اللسان مَن لسانُه لسان النبي، ولا يجوز ـ والله أعلم ـ ان يكون أهلُ لسانه « أي العرب » أتْباعاً لأهل لسان غيرِ لسانه في حرف واحد ، بل كل لسان تبعٌ للسانه ، وكل أهلِ دِين قَبْلَه فعليهم اتّباعُ دينه »[٤] .

وعندما ظهر الرسول (ص) بمكة بشيراً ونذيراً للناس كافة كان في العالم يومئذ قوتان كبيرتان تقتسمان العالم بينهما وهما : دولة الفرس الساسانيين وعاصمتها المدائن في العراق، ودولة الروم البيزنطيين وعاصمتها القسطنطينية . وكانت الانسانية تنوء بظلمهما وتشكو الرّق والعبودية ، وفداحة الضرائب . وكانت الامة العربية يومئذ قد بلغت كما وصفنا مبلغا من الحضارة والمدنية في عدد من اقطار الجزيرة العربية . وغلبت البداوة والنزاع والحروب ، ورعاية الجوار وحب الاخذ بالثار في اقطار أخرى منها . كما ظل بعض البلاد العربية مستقلاً . وتنازع الساسانيون والبيزنطيون والاحباش السيطرة على بعضها الآخر .

ومما لاشك فيه ان الرسول (ص) هو العقل المبدع للحضارة الاسلامية والفكر الملهم الذي خلق العرب خلقاً جديداً ، وكوّن منهم أمة واحدة متراصة ، ودعا الناس كافة الى اعتناق الاسلام ، والى تعلم

---

(٤) الرسالة ص ٤٦

القرآن، ودعا المسلمين الى تعلم لغته التي نزل بها والعمل على نَشْرِها بين الامم ليكون المسلمون امة واحدة ، ربها واحد ، ونبيها واحد ، ودينها واحد ، وقبلتها واحدة ، ولغتها واحدة ، ومقومات شخصيتها واحدة[٥] •

٢ ـ القرآن كتاب عربي :

واذا كان للغة العربية هذه الاهمية البالغة في تمييز الحضارة العربية وابراز شخصيتها فان القرآن الكريم وهو النموذج الاعلى لبلاغتها ، يزيد في قيمة هذه الحضارة العربية ويبرهن على اصالتها ، ويشيد بالامة التي نزل عليها بلسانها •

والقرآن الكريم بعد ذلك أصل الشريعة الاسلامية وعمودها ، ومصدر المصادر كلها للاسلام ، مَن جَمَعَه في قلبه فقد جمع النبوة بين جنبيه كما يقول عبدالله بن عمر بن الخطاب • « والقرآن هوسياج اللغة العربية وحاميها الذي حفظ هذه اللغة العربية ، وشغل المفكرين من العرب والمسلمين ببلاغته ، وبيانه ، ذلك انه نزل بلغة قريش • وكان طبيعياً ان يكون القرآن بلغة قريش أفصح لغاتِ العرب لان رسول الله (ص) قرشي • وليكون هذا الكلام زعيمَ اللغات كلها ، كما استمازت قريش من العرب بجوار البيت ، وسقاية الحاج ، وعمارة المسجد الحرام • وقد ألِف العرب أمرهم ذلك ، واحتملوهم عليه ، وافردوهم به ، فلأن يألفوا مثله في كلام الله اولى »[٦] •

يقول الامام الشافعي[٧] عن القرآن : ان الله « أقام حجته بأن كتابه عربي في كل آية • ثم أكد ذلك بأن نفى عنه ـ جل ثناؤه ـ كلَّ

---

(٥) راجع رسائل الجاحظ ج ١ ص ١١ عن انصهار العرب في امة واحدة • وراجع رسائل بديع الزمان الهمداني ص٢٧٨ عن فضل العرب .
(٦) الرافعي ـ اعجاز القرآن ص ٦٣
(٧) الرسالة ص ٤٧

لسان غيرِ لسان العرب في آيتين من كتابه فقال تبارك وتعالى : « ولقد نَعْلَمُ أنهم يقولون إنما يُعَلِّمُه بشرٌ لسانُ الذي يُلْحِدون اليه أعجمي ، وهذا لسانٌ عربيٌ مبين » (١٠٣ ـ النمل) وقال : « ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا : لولا فُصِّلت آياتُه أأعجميٌ وعربي » (٤٤ ـ فُصِّلَتْ) .

حقاً لقد نزل القرآن الكريم بأفصح لغةمن لغات العرب، وخاطبَ العربَ بتلك اللغة التي فُطِرُوا عليها ، ومع انهم كانوا أهل بيان وفصاحة فقد اجتذبهم القرآنُ اليه ، واستمعوا له ، وأصغَوا اليه بأفئدتهم ، لكنهم قالوا عنه : إنه سحر يفرِّق بين الناس ، فحذروامنه، وحاولوا تقليده ، والاتيان بمثله فأعجزهم مع ان القرآن كان كمايقول أبو جعفر الطبري في تفسيره[8] بياناً مثلَ بيانهم، وكلاماً نزل بلسانهم.. فلم يكلفهم جلّ ثناؤه ان يأتوا بسورة من غير اللسان الذي هو نظير اللسان الذي نزل به القرآن .

ويقول جار الله محمود بن عمر الزّمَخْشَرِي في تفسيره[9] : « ان الله تعالى انشأه « قرآنا عربيا غير ذي عِوَج » .. « أفحم به من طولب بمعارضته من العرب العرباء ، وأبكم من تحدّى به من مصاقع الخطباء ، فلم يتصدّ للاتيان بما يوازيه أو يدانيه واحد من فصحائهم ، ولم ينهض لمقدار اقصر سورة منه ناهض من بلغائهم ،على انهم كانوا أكثر من حصى البطحاء ، واوفر عدداً من رمال الدهناء . ولم ينبض منهم عِرق العصبية مع اشتهارهم بالافراط في المضادة والمضارة ... إن أتاهم أحد بمفخرة أتوه بمفاخر ، وان رماهم بمأثرة رموه بمآثر .. »

أجل لقد يئسوا من معارضته ، ولم يكن لهم قِبَل برده أو خلافه

(٨) ج ١ ص ٣٧٥
(٩) ج ١ ص ٧ و ٨

أو نقضه أو انكار فصاحته واسلوبه المعجز ، بل كان في بلاغته واسراره البيانية ما يحفز على الاجتماع على لغة العرب بحيث لو لم يكن القرآن لما اتفق للعربية الفصحى هذه الوحدة التي نجدها في البلاد العربية والاسلامية ، ولولاه لتعددت لغات العرب تعدد لهجاتهم العامية اليوم. وقد حال القرآن دون تفكك اللغة العربية ، ووقف حائلاً دون تغلب اللهجات العامية في البلاد العربية . وفي الوقت ذاته حافظ على اللغة العربية من الدثور والضياع ، وذلك ما ادى ويؤدي الى تماسك العرب في وحدة قومية وثقافية ودينية .

ولعل من أحسن الاوصاف التي وصف بها اعجاز القرآن قول الجاحظ : « بعث الله محمداً ــ صلى الله عليه وسلم ــ أكثر ما كانت العربُ شاعراً وخطيباً ، واحكم ما كانت لغة ، وأشد ما كانت عُدَّة فدعا أقصاها وأدناها الى توحيد الله وتصديق رسالته، فدعاهم بالحجة، فلما قطع العذرَ وازال الشبهة ، وصار الذي يمنعهم من الاقرار الهوى والحميّة دون الجهل والحيرة ، حملهم على حظهم بالسيف ، فنصب لهم الحرب ونصبوا ، وقتل من عِلْيتهم ، واعلامهم ، واعمامهم وبني أعمامهم ، وهو في ذلك يحتج عليهم بالقرآن ، ويدعوهم صباحاً ومساءً إلى ان يعارضوه ان كان كاذباً بسورة واحدة ، أو بآيات يسيرة ، فكلما ازداد تحدياً لهم بها ، وتقريعا لعجزهم عنها ، تكشف من نقصهم ما كان مستوراً ، وظهر منهم ما كان خفياً ، فحين لم يجدوا حيلة ولا حجة، قالوا له: أنت تعرف من اخبار الامم ما لا نعرف ، فلذلك يمكنك ما لا يمكننا . قال : فهاتوا مُفْتَرَيات . فلم يَرُمْ ذلك خطيب ولا طمع فيه شاعر ، ولو طمع فيه لتكلفه ، ولو تكلفه لظهر ذلك ، ولو ظهر لوجد من يستجيده ويحامي عليه ، ويكابر فيه ويزعم أنه قد عارض وقابل وناقض ، فدل ذلك العاقلَ على عجز القوم ، مع كثرة كلامهم ، واستجابة لغتهم ، وسهولة ذلك عليهم ، وكثرة شعرائهم ، وكثرة من هجاه منهم ، وعارض شعراء اصحابه وخطباء امته ، لان سورة واحدة

وآياتٍ يسيرة كانت انقض لقوله ، وأفسد لامره ، وابلغ في تكذيبه ، وأسرع في تفريق اتباعه من بذل النفوس والخروج من الاوطان ، وانفاق الاموال ، وهذا من جليل التدبير الذي لا يخفى على من هو دون قريش والعرب في الرأي والعقل بطبقات ، ولهم القصيدُ العجيبُ ، والرجز الفاخر ، والخطبُ الطوال لبليغة ، والقِصار الموجَزة ، ولهم الاسجاعُ والمزدوجُ واللفظ المنشور . ثم تحدى به أقصاهم بعد ان أظهر عجزَ أدناهم . فمحال" - أكرمك الله - ان يجتمع هؤلاء كلهم على الغلط في الامر الظاهر ، والخطأ المكشوف البَيِّن مع التقريع بالنقص ، والتوقيف على العجز ، وهم أشد الخلق أنفةً ، واكثرهم مفاخرةً ، والكلام سيدُ عملهم ، وقد احتاجوا اليه ، والحاجةُ تبعث على الحيلة في الأمر الغامض ، فكيف بالظاهر الجليل المنفعة ، وكما انه محال ان يُطْبَقوا ثلاثاً وعشرين سنة على الغلط في الامر الجليل المنفعة ، فكذلك محال ان يتركوه وهم يعرفون ، ويجدون السبيل اليه ، وهم يبذلون أكثر منه » .

ولئن عُني العرب والمسلمون كافة باسرار البلاغة العربية في القرآن فليتمكنوا من فهم القرآن ، وليستطيعوا تفسير آياته وتأويلها واستنباط الاحكام منها ولأنه كلام الله . وقد قال السلف : لم يزل الله متكلماً اذا شاء بالعربية كما تكلم بالقرآن العربي[10] . وظل القرآن يمثل بلاغة العرب البلغاء ، منه يقتبس العرب والمسلمون عصراً بعد عصر وجيلاً بعد جيل الى ان يرث الله الارض ومن عليها .

وقال الامام احمد بن حنبل : « ان الله جل ثناؤه ، وتقدست اسماؤه بعث محمداً بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، وانزل عليه كتابه الهدى والنور لمن اتبعه ، وجعل رسولَ الله الدال على ما أراده من ظاهره وباطنه ، وخاصّه وعامّه ،

---

(١٠) مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية ج٣ ص ٤٥ .

وناسخه ومنسوخه ، وما قصد له الكتاب • فكان رسول الله هو المعبر عن كتاب الله ، الدال على معانيه ، شاهده في ذلك أصحابه الذين ارتضاهم الله لنبيه واصطفاهم له ، ونقلوا ذلك عنه ، فكانوا اعلم الناس برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبما اراد الله من كتابه بمشاهدتهم ، وما قصد له الكتاب ، فكانوا هم المعبرين عن ذلك بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم » •

ويقول ابو جعفر الطبري في تفسيره[11] : ان الله جل ثناؤه انزل جميع القرآن بلسان العرب دون غيرها من السن سائر اجناس الامم • ثم يسائل الطبري بأي ألسن العرب انزل ؟ أبألْسُن جميعها أم بألسن بعضها ؟ اذ كانت العرب ــ وإن جَمَعَ جميعَها اسمُ انهم عرب ــ فهم مختلفو الالسن بالبيان ، متباينو المنطق والكلام • واذ كان ذلك كذلك ــ وكان الله جل ذكرُه قد اخبر عباده انه جعل القرآن عربياً وانه انزل بلسان عربي مبين ، ثم كان ظاهره محتملاً خصوصاً وعموماً، لم يكن لنا السبيل الى العلم بما عنى الله تعالى ذكره من خصوصه وعمومه ببيان مَنْ جُعل اليه بيان القرآن وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم •••

ويقول ابن تيمية : والعرب أفهم من غيرهم وأحفظ وأقدر على البيان والعبارة ، ولسانهم أتم الالسنة بياناً وتمييزاً للمعاني جمعاً وفرقا • واما العمل فمبناه على الاخلاق وهي الغرائز المخلوقة في النفس• وغرائز العرب اطوع بالخير من غيرهم فهم أقرب للسخاء والحلم والشجاعة والوفاء وغيرها من الاخلاق المحمودة •

ويرد الشافعي على من زعم ان القرآن ليس عربياً خالصاً بقوله : « قد تكلم في العلم مَنْ لو أمسك عن بعض ما تكلم فيه منه لكان الامساك اولى به ، وأقرب من السلامة له ان شاء الله ، فقال منهم

---

(11) ج ١ ص ٢١

قائل : « ان في القرآن عربياً وأعجمياً ، والقرآن يدل على ان ليس من كتاب الله شيء الا بلسان العرب[١٢] ••• ولعل من قال : إن « في القرآن غيرَ لسان العرب ــ وقُبِلَ ذلك منه ــ ذهب الى ان في القرآن خاصاً يجهل بعضَه بعضُ العرب » • ثم يقول الشافعي عن اللسان العربي انه « أوسع الألسنة مذهباً ، وأكثرها الفاظاً ، ولا يحيط بجميع علمه انسان غير نبي ، واذا كان علم اللسان العربي متعذراً على الآحاد فعلمه ثابت للمجموع ، أي ان العرب جميعا يعرفون اللسان العربي كله وذلك كالعلم بالسنة لا يحيط بها واحد علما ، ولكن مجموع الاصحاب ومن بعدهم مجموع التابعين ، ثم الخلائف من بعدهم قد أحاطوا بكلها علما ، فاذا جُمِع علمُ أهل العلم بها أتي على السنن كلها ، واذا فُرِّق علم كل واحد منهم ذهب عليه شيء منها ، ثم كان ما ذهب عليه منها موجوداً عند غيره ، وكذلك اللسان العربي ، المجموع يعرفه ، وكل واحد يعرف بعضه ، والعلم طبقات ، منهم الجامع لأكثره ، وان ذهب عليه بعضُه ، ومنهم الجامع لاقل مما جمع غيره »[١٣] •

ويقول الشافعي أيضا : « وانما بدأتُ بما وصفت من أن القرآن نزل بلسان العرب دون غيره لأنه لا يَعْلَم من ايضاح جُمَلِ عِلْمِ الكتاب احدٌ جَهِلَ سَعَةَ لسان العرب ، وكثرةَ وجوهه ، وجماعَ معانيه وتفرقَها • ومن عَلِمَه انتفت عنه الشبه التي دخلت على منْ جهل لسانها • فكان تنبيهُ العامة على أن القرآن نزل بلسان العرب خاصة نصيحة للمسلمين • والنصيحةُ لهم فرضٌ لا ينبغي تركه ، وادراك نافلةِ خيرٍ ، لا يدعها الا من سَفِهَ نَفْسَه ، وترك موضعَ حظه ، وكان يجمع مع النصيحة لهم قياماً بايضاح حقٍ • وكان القيامُ بالحق ونصيحة المسلمين من طاعة الله • وطاعةُ الله جامعةٌ للخير »[١٤] •

---

(١٢) الرسالة ص ٤١ ــ ٤٢
(١٣) الرسالة ص ٤٢ ــ ٤٣
(١٤) الرسالة ص ٥٠

ويقول الراوية ابو عبيدة مَعْمَر بن المثنى التَّيْمِي ولاء المتوفى سنة ٢٠٨ هـ « من زعم ان في القرآن لساناً ســوى العربية فقد أعظم على الله القول » وقد احتج ابو عبيدة بقوله تعالى « انا جعلناه قرآناً عربيا » (٣ ـ الزخرف) ثم قال : قال ابو عُبَيْد القاسم بن سَلاّم (الأزدي المتوفى سنة ٢٢٤ هـ) : « وروى عن ابن عباس ومجـاهد وعِـكرمة وغيرهم في أحرف كثيرة انه من غير لسان العرب مثل: «سِجّيل» و «المشْكاة» و «اليَم » و «الطّور» و (أبارق) و (اسْتبْرَق) وغير ذلك فهؤلاء أعلم بالتأويل من ابي عبيدة ، ولكنهم ذهبوا الـى مذهب وذهب هذا الى غيره وكلاهما مصيب ان شاء الله تعالى وذلك ان هذه الحروف بغير لسان العرب في الأصل، فقال اولئك على الاصل، ثم لفظت به العرب بألسنتها ، فعرّبته ، فصار عربياً بتعريبها اياه فهي عربية في هذه الحال ، أعجمية الاصل فهذا القــول يُصَدّق الفريقين جميعـا[15] .

ويقرر أبو حامد الغزالي ان القرآن عربي أيضاً . وأما بالنسبة لبعض الالفاظ التي تشترك مع اللغات الاعجمية ففيها عنده رأيان الاول : رأي الباقلاني الذي يقول : ان كل كلمة مستعملة في القرآن هــي عربيــة والاعاجم هم الذين أخذوها من العرب وحرفوها. والثاني : ان اشتمال القرآن على بعض الفاظ أعجمية قليلة لا ينافي عربيته . ويقول الغزالي في ذلك : « قال القاضي (أي ابو بكر الباقلاني) : كل كلمة في القرآن استعملها أهل لغة اخرى فيكون أصلها عربياً ، وانما غيّرها غيرهم تغييراً ما ، كما غير العبرانيون فقالوا : للاله : لاهوت ، وللناس : ناســوت . وأنكر ان يكون في القرآن لفظ أعجمي مستدلاً بقوله تعالى: « لسان الذي يلحدون اليه أعجمي ، وهذا لسان عربي مبين » . وقال « أقوى الأدلة قوله تعالى : «ولو جعلناه قرآناً أعجميا لقالوا ، لولا فصّلت

---

(١٥) المعرّب للجواليقي ص ٤ ـ ٥

آياتـه أأعجمي وعربي » ولو كان فيه لغة العجم لما كان عربياً محضاً ، بل عربيا وأعجميا ولا تخذ العرب ذلك حجة وقالوا : نحن لا نعجز عن العربية ، اما العجمية فنعجز عنها . وهذا غير مرضي عندنا ، اذ اشتمال جميع القرآن على كلمتين أو ثلاث أصلها أعجمي ، وقد استعملتها العرب ، ووقعت في ألسنتهم لا يُخْرِج القرآن عن كونه عربياً ، وعن اطلاق هذا الاسم عليه ، ولا يتمهد للعرب حجة فان الشعر الفارسي ، وان كانت فيه آحاد كلمات عربية اذا كانت تلك الكلمات متداولة في لسان الفرس فلا حاجة الى هذا التكلف » . ومما يجدر ذكره في هذا الصدد ان الالفاظ القرآنية التي يظن البعض انها ليست عربية ربما كانت من اصول عربية ضاعت .

ويقول ابن حزم : « ولما تبين بالبراهين والمعجزات ان القرآن هو عهد الله الينا الذي ألزمنا الاقرار به ، والعمل بما فيه ، وصح بنقل الكافة الذي لا مجال للشك فيه ان هذا القرآن هو المكتوب في المصاحف ، المشهور في الآفاق كلها وجب الانقياد لما فيه ، فكان هو الاصل المرجوع اليه ... » .

ويقول الغزالي[١٦] : إن القرآن معجزة الرسول الكبرى الباقية بين الخَلق ، وليس لِنَبيٍّ معجزة باقية سواه صلى الله عليه وسلم إذ تحدّى بها رسولُ الله (ص) بلغاءَ الخلق ، وفصحاءَ العرب . وجزيرةُ العرب حينئذ مملوءة بآلاف منهم ، والفصاحةُ صنعتُهم ، وبها منافستُهم ومباهاتُهم . وكان ينادي بين أظهرهم أن يأتوا بمثله ، او بعشرِ سورٍ مثله ... وقال لهم : « لئن اجتمعت الانسُ والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، لا يأتون بمثله ولو كان بعضُهم لبعض ظهيرا » (٨٨ ــ الاسراء) . قال ذلك تعجيزاً لهم ، فعجزوا عن ذلك ، وصرفوا عنه حتى عرضوا انفسهم للقتل ، ونساءهم وذراريهم للسبي ،

(١٦) احياء علوم الدين ج٢ ص ٣٨٧ .

وما استطاعوا أن يعارضوا ، ولا أن يقدحوا في جزالته وحسنه . ثم انتشر ذلك بعده في اقطار العالم شرقا وغربا ، قرنا بعد قرن ، وعصراً بعد عصر . وقد انقرض اليوم قريب" من خمسمئة سنة[17] فلم يقدر أحد على معارضته .

٣ ـ انذار الناس باللسان العربي :

وقد أجمع كبار علماء المسلمين ، ورؤساء المذاهب الفقهية على ان تفسير القرآن لا يمكن ان يكون الا بحذق العربية حذقاً تاما . كما أجمعوا على عدم جواز ترجمته ، وعلى ان الصلاة لا تصح الا بتلاوة الأصل العربي له .

فقد كان الامام مالك بن أنس الانصاري لا يستسيغ لأحد ان يحاول تفسير القرآن اذا كان غير عالم بلسان العرب ، وكان يقول : « لا أوتى برجل يفسر كتاب الله غيرِ عالم بلغات العرب الا جعلته نكالاً »[18] .

وكان الصحابة وآل البيت جميعاً حججا بالعربية لان القرآن عربي ، ولسان السنة كان عربيا ، ولذلك أوجب الغزالي على المجتهد في أحكام الاسلام أن يعرف العربية كما عرفها العرب الاولون من أصحاب الرسول (ص) .

وكان الامام مالك لا يعتبر ترجمة القرآن قرآناً يتلى بل عدّ الترجمة تفسيراً له أو وجها من أوجه التفسير .

وكان الامام الشافعي يرى ان القراءة في الصلاة بغير العربية لا تجزىء ولو كان المصلي عاجزاً عن قراءة القرآن بالعربية . وفي هذه الحالة يدعو الله ويسبحه بما يعرف، . وذهب الشافعي الى أبعد من ذلك حين قرر أن عقد الزواج لا يجوز بغير العربية للقادر عليها .

وكان الامام ابو حنيفة يرى ان قراءة القرآن في الصلاة بالفارسية

(١٧) توفي الغزالي سنة ٥٠٥ هـ .
(١٨) ابو زهرة ـ مالك ص ٢٦٠ .

تجزي ، وكان يعد الشخص قد أدى ركن القراءة سواء كان عاجزاً عن القراءة أم غير عاجز . ولكن ذلك يكره عند عدم العجز .

وقال الامامان ابو يوسف الانصاري ومحمد الشيباني : لا تقبل القراءة بغير العربية الا في حالة العجز عن العربية .

وروى فخر الاسلام البَزْدَوِي ان أبا حنيفة رجع عن قوله الذي ذكرناه الى قول صاحبيه ابي يوسف ومحمد . وتكون القراءة بالفارسية من قبيل الدعاء لا على أنها قرآن[19] .

ويرى ابن تيمية انه لا تجوز قراءة القرآن بغير العربية سواء قدر عليه أم لم يقدر . ويمتنع ان تترجم في الصلاة سورة منه ،وما يقوم به الاعجاز ولو آية .

واختار جماعة من المشايخ ان جواز القراءة بغير العربية رخصة خاصة بالصلاة فقط لا تعدوها عند ابي حنيفة لان أبا حنيفة لاحظ في أواخر العصر الاموي الذي عاش فيه ان الفرس كانوا يدخلون في دين الله أفواجاً .

ويقرر العلماء أن من قرأ بالفارسية أو غيرها وهو يجيد العربية فلا يجوز ذلك منه بالاجماع كما انهم لم يجوزوا بالاتفاق قراءة تفسير القرآن في الصلاة[20] .

وذكر الشيخ الطوسي [21] : ان من يحسن العربية لا يجوز له ان يكبر تكبيرة الاحرام ، ولا يسبح ولا يقرأ القرآن ، ولا غير ذلك من الاذكار الا بها فان لم يحسن ذلك جاز له ان يقول كما يحسنه إلا انه يجب ان يتعلم حتى يؤدي صلاته به فان امكنه ان يتعلم ولم يتعلم لم تصح صلاته ، وكان عليه قضاؤها بعد التعلم وان لم يتأتّ له ذلك كانت صلاته ماضية . هذا اذا كان الوقت ضيقاً يخاف فيه فوت الصلاة بالاشتغال بالتعلم فاذا لم يكن الوقت ضيقاً وجب الاشتغال بتعلم ذلك المقدار . وجاء في « الروضة البهية »[22] ان تكبيرة الاحرام ...

---

(١٩) شرح المنار لابن عبدالملك ص ١٠ .

(٢٠) كشف الاسرار للشيخ عبدالعزيز البخاري ج١ ص ٢٤–٢٥ .

(٢١) المبسوط ص ٣٠ (٢٢) ج١ ص ٧٥

يجب التلفظ بها ... بالعربية .. وكذا تعتبر العربية في سائر الاذكار الواجبة .

ومهما يكن من أمر فإن القرآن الكريم نـزل للناس كافة . قال تعالى : «وما هو الا ذِكرٌ للعالمين» (٥٢ ـ القلم) وقال «وما تسألـُهم عليه من اجرٍ إنْ هو الا ذِكرٌ للعالمين» (١٠٤ ـ يوسف) و « هذا بيانٌ للناس وهدى وموعظـَةٌ للمتقين » (١٣٨ ـ آل عمران) وهذا يدل على وجوب تبليغ العرب للقرآن الذي نزل فيهم ، وآمنـوا به لسائر الأمم ، واشاعته فيها . ومن هنا يرى الكثيرون ضرورة ترجمة القرآن الى جميع اللغات الاجنبية ليمكن ابلاغه للناس من غير العرب ، وليمكن هداية سائر بني الانسان به . وحيث ان تبليغ القرآن للأعاجم بلغة العرب امرٌ غير سهل ، ولا ميسـور دائمـاً ، وحيث أن القرآن الكريم نزل للعرب ، ولسائر الامم ، ولجميع الحقب فقد وجبت ترجمته الى سائر اللغات الحية ليفهمه سائرُ الناس . ولا يمكن ان يفهمه سائر الناس الا اذا تعلموا العربية أو اذا نُقل من العربية الى لغاتهم ، أي انه لا يتمكن العرب ان يُنْذِروا به غيرهم من الأمم الا اذا توفر احـد الشرطين المشار اليهما آنفاً قـال تعالى : « تبارك الذي نزّل الفُرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً » (١ ـ الفرقان) أي ليمـكن تبليغ الرسالة ، وافهام الناس ، واسماعهم ، ولا يمكن افهامهم ولا اسماعهم الا بلغتهم اذا كانوا من غير العرب . والله تعالى يقول : « هذا بيـان للناس ، وهدى وموعظة للمتقين » (١٣٨ آل عمران) و « إنْ هـو الا ذكرٌ للعالمين » (٨٧ ـ ص) « وما ارسـلناك إلا كافةً للناس » (٢٨ ـ سبأ) و « يا ايها الناس قد جاءكم برهانٌ من ربكم ، وانزلنا اليكم نوراً مُبِيناً (١٧٤ ـ النساء) و « هذا بلاغ للناس ولينذَروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذّكّر اولو الالباب» (٥٢ـ ابراهيم) .

ومما لا شك فيه ان تبليغ هذه الرسـالة الخطيرة للأمم الأعجمية غير ميسور بلغة العرب ، ولذلك ينبغي على الامة العربية التي جعلهـا الله شهيدةً على جميع الامم بقوله : « وكذلك جعلناكم امة وسـطاً

لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » (١٤٣ — البقرة) ان تعمل على :

١ — بث لغتها العربية في العالم ليفهم الناس القرآن الذي هو كتاب عربي بنص القرآن ، وليتحقق الهدف الذي نادى به الاسلام في القرآن الكريم .

٢ — ترجمة القرآن الى كل اللغات العالمية الحية ليكون العرب قد أدوا الرسالة التي اراد الله لها ان تُخْرِجَ الناسَ من الظلمات الى النور .

٣ — ان تظل النصوص القرآنية هي التي تقرأ في الصلاة في البلاد الاسلامية كافة وفي البلاد الاجنبية التي فيها من يدين بالاسلام . ولا يجوز لمسلم ان يقرأها إلا بالعربية ، وبدونها تبطل الصلاة .

٤ — ان الاسلام بالاضافة الى ما ذكرناه ، دعا كل مسلم الى تعلم اللغة العربية بقدر الامكان باعتبارها لغة القرآن لتقرأ في الصلاة، والى ذلك يشير أمر الله تعالى بالآية : « ... فأقرأوا ما تيسر من القرآن ... فاقرأوا ما تيسر منه .. » (٢٠ — المُزَمِّل) .

٥ — وفي الوقت ذاته ينبغي على العرب تعلم لغات الاقوام المسلمة وغير المسلمة ليتمكنوا من تفسير القرآن لهم بلغاتهم القومية ليكونوا قادرين على فهمه لا على اساس اننا نشجع اللغات الاعجمية التي لم ينزل بها القرآن فنصبح دعاة الى تلك اللغات الاجنبية لانه ينبغي على المسلم ان يعتقد دين العرب ، وينشر لسانهم بين الامم الاخرى ليكون المسلمون امة واحدة في كل شيء ، لان القرآن اذا صار في كل امة بلغتها دون العربية انحلت الوحدة الاسلامية وأصبح للعربي اسلام يختلف عن الاسلام الانكليزي الذي يقرأ فيه القرآن باللغة الانكليزية في البلاد الاسلامية ، وعن الاسلام الفرنسي او التركي او الفارسي حين نجد قرآنا فرنسيا أو تركيا او فارسيا ..[٢٣]

---

(٢٣) راجع التعليق في ص ٤٩ من الرسالة .

الفصل الرابع

الدعوة الى الحرية والمساواة والاخاء

الحرية :

لما كان هدف الاسلام ، اسعادَ الانسان ، كما اشرنا الى ذلك في فصل سابق عن : « النزعة الانسانية في الحضارة العربية » فقد نظر الاسلام الى الانسان على انه سيد العالم ، وأشرف المخلوقات ، وانه لا يقدر بثمن ، ولذلك جعله الله خليفةً له في ارضه، تسجد له الملائكة، وتخضع له الاحياء • وسخَّر له كل شيء في الارض والسماء « ألم تروا أن اللهَ سخَّر لكم ما في السموات وما في الارض ، وأسبغَ عليكم نِعَمَهُ ظاهرةً وباطنة » (٢٠ ــ لقمان) •

وقد عدَّ الاسلام كرامة الانسان الاساس لفكرة الحرية والاخاء والمساواة التي حَسِب الفرنسيون أنهم أول من أعلنوها في ثورتهم سنة ١٧٨٩م • ولذلك ظل الاسلام يسعى جاهداً الى حماية النوع الانساني ، ويعمل دائباً على حفظ حقوقه ومصالحه ، وتحقيق أكبر نصيب من السعادة والخير له • فقد عدَّ الاسلام قَتْلَ النفس بغير حق جريمة تهدد الانسانية جمعاء • قال تعالى : « إنه مَن قتل نفساً بغير نفس ، أو فسادٍ في الارض فكأنما قَتَلَ الناس جميعاً ، ومَن احياها فكأنما أحيا الناس جميعاً » (٣٢ ــ المائدة) • ولذلك عَمِل الاسلام على انقاذ الانسان من ربقة الوثنية التي افقدته حريته وحرمته ، وقرر له حقوقاً واسعة تعد أول حقوق كاملة نالها الانسان في العالم •

ولقد منحت التشريعات الاسلامية الفرد حريته ما لم تكن خطراً على مجموع الافراد الذين يكونون الامة أو المجتمع • أي ان كل مواطن

يستطيع ان يتصرف في اموره التصرف الذي لا يسيء فيه الى نفسه ولا الى غيره ، ولا يضر بحريه الاخرين ولا يؤثر على مصالحهم . ولهذا يقف الاسلام من الناس بحسب الايه الكريمه : « يامرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم ، والاغلال التي كانت عليهم . » (١٥٧ — الاعراف) .

وبرز الحرية الفردية بوضوح عند المسلمين في كلمة «التوحيد» لان الموحد لا سلطان لاحد عليه انما السلطان عليه لله تعالى وحده، ولذلك ارتفعت نفس المؤمن الى اعلى مواطن الحرية ، والعزة ، والأنفة، والاباء والشجاعة .

وحرية الفرد الخاصة في الاسلام تنتهي عند الحد الذي تبدأ منه الحرية العامة . ولذلك مثل الرسول (ص) الحرية الفردية بقوله : « إن قوماً ركبوا في سفينة فاقتسموا ، فصار لكل رجل منهم موضع"، فنقر رجل" منهم موضعه بفأس ، فقالوا له : ما تصنع ؟ قال : هو مكاني اصنع فيه ما اشاء ، فإن اخذوا على يده نجا ونجوا ، وان تركوه هلك وهلكوا » .

وقد الزم الاسلام في الوقت ذاته كل فرد تبعات معينة، وحدد مسؤوليته فيها ليتحقق الأمن في المجتمع، وتسود الطمأنينة فيه قال الرسول (ص): « كلكم راعٍ ، وكلكم مسؤول عن رعيته ، فالامام راعٍ ، وهو مسؤول عن رعيته ، والرجل راعٍ في أهله وهو مسؤول عن رعيته ، والمرأة في بيت زوجها راعية" وهي مسؤولة عن رعيتها ، والخادم في مال سيده راعٍ ، وهو مسؤول عن رعيته » ومعنى ذلك ان كل مسلم مسؤول عن اعماله وتصرفاته من الامام والخليفة ورئيس الجمهورية الى المرأة والراعي اي ان الفرد والجماعة سواء في المسؤولية امام الله تعالى .

وأكد الاسلام الحرية الاجتماعية التي تقضي بعدم التمييز بين الافراد والجماعات فيما سوى التقوى • قال تعالى : « يا ايها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا انّ اكرمكم عند الله اتقاكم ان الله عليم خبير » (١٣ ـ الحجرات) وقال الرسول (ص) : « لا فضل لعربي على اعجمي الا بالحق » اي انه أصبح في نظر الحضارة الاسلامية لا فرق بين انسان وانسان ، ولا يَفْضُل انسان انساناً ، رجلاً كان أو امرأة الا بالايمان بالله وحده ، وبالخدمات التي يقدمها لله تعالى وللامة •

واذا كانت هناك أمم قد قامت على اساس اللون أو التمييز العنصري أو الثروة فان الاسلام قد حظر هذا التمييز العنصري ، ولم يعترف باللون • والرسول (ص) يقول : « ليس لابن البيضاء على ابن السوداء سلطان الا بالحق » • وقد ذهب الخوارج الى ابعد من ذلك حين جوّزوا في انظمتهم السياسية ان يتولى أمر المسلمين اي مسلم كائناً مَنْ كان ولو كان عبداً اسود لونه كلَون الزبيبة •

وساوى الاسلام بين الجميع في طلب العلم ، وتولي المناصب ، بل انك لتجد بين أهل الذمة من تولى الوزارة وغيرها من المناصب في عهد العباسيين • هذا الى ان الاسلام يوصي بأهل الذمة خيراً • فقد دفع عمر بن الخطاب الى يهودي مُسِنٍّ من بيته ، وأجرى عليه من اموال الصدقات اي من بيت مال المسلمين ، وأسقط الجزية عنه وعن ضربائه •

ولم يعترف الاسلام بالنظام القبيلي الذي يقول : انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً ، بل وجّه الرسول (ص) قومه الى نصرة الظالم وذلك بمنعه عن ظلمه وشرح لهم معنى نصرة الظالم بقوله : « تحجزه عن ظلمه فذاك نَصْرُهُ » (البخاري) •

كما انه لم يجعل للثروة ايّ تمييز بين الناس بل جعلها وبالاً على صاحبها اذا اكتنزها ولم ينفقها في سبيل الله ، وفي سبيل المصلحة

العامة • « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله، فبشرهم بعذاب أليم، يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » (٣٤ ــ ٣٥ ــ التوبة) •

« لا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا يوم القيامة » (١٨٠ ــ آل عمران) •

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط ، شهداء لله ، ولو على أنفسكم او الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله اولى بهما » (١٣٥ ــ النساء) • وقال الرسول (ص) : « ابغوني في ضعفائكم ، إنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم » أي بجمهور الامة (ابو داود) •

ولم يجعل الاسلام للنسب كبير أهمية ، بل أنكر على الجاهلية تعظمها بالاباء ، والقعود عن العمل بسبب ذلك • قال عليه الصلاة والسلام : « ان الله قد ذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء والاجداد ، الناس لآدم ، وآدم من تراب » • وقال عمر بن الخطاب : « والله لئن جاءت الاعاجم بعمل ، وجئنا بغير عمل لهم أولى بمحمد منا يوم القيامة ، فان من قصر به عمله لم يسرع به نسبه » •

كما انه لم يجعل القرابة عاملاً في تقريب ذوي القربى، وتفضيلهم على ذوي الكفايات النادرة ، والقابليات الممتازة بدون حق ، بل أعطى كل ذي حق حقه • وفي القرآن الكريم : « ما كان للنبي والذين آمنوا ان يستغفروا للمشركين ولو كانوا اولي قربى » (١١٣ ــ التوبة) •

وفي الحديث : يا عباس عم رسول الله ، ويا فاطمة بنت رسول الله، ويا صفية عمة رسول الله : « اعملوا فاني لا أغني عنكم من الله شيئاً » •

وقال عمر بن الخطاب : لو كان سالم مولى ابي حذيفة حيا لوليته عليكم • أو قال : « ما جعلتها شورى » •

وفي الموطأ إن الصحابي ابا الدرداء الخزرجي كتب الى سلمان الفارسي : ان هلمّ الى الارض المقدسة فكتب اليه سلمان : ان الارض لا تقدّس احداً ، وانما يقدس الانسانَ عمله » . وبذلك لم يكن في الاسلام تقديس بنسب ولا قبيلة ولا ارض .

ومن الحرية ترحيب الاسلام بالمعارضة ، وحرية ابداء الرأي في كل معضلة من المعضلات ، لا يضيق بذلك ذَرْعاً ليتمكن المسلمون من الوصول الى الحق والصواب . وما علْمُ الكلام وعلم الخِلاف وما نشأ عند المسلمين من مناظرات ومجادلات الا دليل على ما نقول .

واذا كان من حق المسلم ان ينتقد ويبدي آراءه بصراحة في الامور دون أن تأخذه في الحق لومة لائم فلأن المسلم لا يرضى بتأليه الاشخاص، ولا يرتضي لنفسه حياة الذل والعبودية والتحكم به ولذلك يقول الله تعالى : « يا عبادي الذين آمنوا إن ارضي واسعة" فاياي فاعبدون » (٥٦ ــ العنكبوت) . ونقرأ في القرآن الكريم: «.. الم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها .. » (٩٧ ــ النساء) .

ومثل ذلك أيضاً ما دونوه في كتبهم من الآراء المخالفة لمبادئهم ككتب الملل والنّحَل والفِرق والمقالات وما سجلوه بانصاف منقطع النظير عن اليهود والنصارى والصابئة وبوجه خاص عن الاطباء منهم.

وكان المسلم اذا اساء استعمال حريته الشخصية فان الاسلام يتدخل في أمره لايقافه عند حده. ولذلك وضَعَت الشريعة «الحِجْر» على مال السفيه ، والمعتوه الذي يبدد امواله ولا يحسن ادارتها . قال تعالى : « ولا تُؤتُوا السفهاء اموالكم التي جعل الله لكم قياماً وارزقوهم فيها ، واكسوهم ، وقولوا لهم قولاً معروفا » (٥ ــ النساء) . وأمر الاسلام ان تستثمر لهم اموالهم وتستغل لتكون معيشتهم وكسوتهم من ربحها لا من أصلها . وانما حجر الاسلام على مال السفيه باعتباره مال الأمة تجب المحافظة عليه من التبديد لان في

تبديده على القمار والقيان تبديداً لمال الامة وتسرباً له الى ايدي الاجانب •

ولما كان الاسلام لا يعترف بالفواصل بين السياسة والدين ولا بين الاقتصاد والعبادة ، ولم يهدف الى خلق طبقات اجتماعية متمايزة فقد ادى ذلك كلّه الى رفع شأن الفرد ، وتمتعه بحريته ، وشعوره بقيمة نفسه ، وتحرره من العبودية المادية والعقلية • ومما لا شك فيه انه ليس ثمة أمر يمنح الاحساس بالحرية اعظم من شعور المرء بالمسؤوليات والتبعات الملقاة على عاتقه •

وأما الحرية الدينية في اوسع ابوابها فلم تزدهر في امة ازدهارها في الاسلام ذلك ان الاسلام ينشد الحرية للناس كافة ولذلك ترك للانسان حرية العقيدة ولم يُرغمه على اعتناق مذهب معين بل كان يبصرّه بأحسنها ويُرَغبُه فيها ولا يُكْرِهُهُ عليها • وقد حفظ الاسلام حرية اهل الذمة واباح لهم ان يشربوا الخمر ويأكلوا الخنزير، والزم أبو حنيفة من يتلف متاعاً لذمي ان يدفع له قيمته • وجوّز الاسلام أكل طعامهم ، ونكاح نسائهم « اليوم احل لكم الطيبات ، وطعام الذين اوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم ••• » (٥ ــ الانعام) •

قال تعالى : « ولا تجادلوا اهل الكتاب الا بالتي هي أحسن الا الذين ظلموا منهم ، وقولوا آمنا بالذي انزل الينا وانزل اليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون » (٤٦ ــ العنكبوت) •

« لا إكراهَ في الدين قد تبين الرُشْدُ من الغَيّ » (٢٥٦ ــ البقرة) •

«وقل الحقُ من ربكم فمن شاء فَلْيُؤْمِنْ ومَن شاء فليكفرْ» (٢٩ ــ الكهف) •

« نحن اعلمُ بما يقولون ، وما أنت عليهم بجبّار فذكّر بالقرآن من يخاف وعيد » (٤٥ ــ ق) •

« فلذلك فادْعُ واستقمْ كما أُمِرْتَ ، ولا تتبع اهواءهم ، وقل آمنتُ بما انزل الله من كتاب ، وأُمرتُ لأعدل بينكم • الله رَبُّنا ورَبُّكُم • لنا اعمالُنا ولكم اعمالُكُم ، لا حُجَّةَ بيننا وبينكم ، الله يجمع بيننا واليه المصير » (١٥ ــ الشورى) •

« لي عملي ولكم عملُكُم ، أتتم بريئون مما اعمل وانا بريء مما تعملون » (٢٢ ــ يونس) •

« لكم دينُكم ولي دين » (٦ ــ الكافرون) •

« لا ينهاكم اللهُ عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تَبَرُّوهم وتُقْسِطوا اليهم ان الله يحب المقسطين ، انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين ، واخرجوكم من دياركم ، وظاهروا على اخراجكم ان تَوَلَّوْهم ، ومَنْ يَتَوَلَّهم فأولئك هم الظالمون » (٨ ــ ٩ ــ الممتحنة) •

وقد ترك الاسلام لليهود والنصارى حريتهم مثل سائر البشر ولم يُجْبِرهم على اعتناق الاسلام ، ولم يسىء الى أحد منهم • قال تعالى يخاطبهم بقوله :

« اتحاجُّونا في الله وهو ربُّنا وربُّكم ، ولنا اعمالنا ولكم اعمالكم ، ونحن له مخلصون » (١٣٩ ــ البقرة) •

« وقل للذين أوتُوا الكتاب والأميين أأسلمتم ، فان اسلموا فقد اهتَدَوْا وان تَوَلَّوْا فانما عليك البلاغ ••• » (٢٠ ــ آل عمران) •

« وأطيعوا اللهَ ، واطيعوا الرسول واحذروا فان توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغُ المبين » (٩٣ ــ المائدة) •

« فإن تَوَلَّوْا فقل : حَسْبِيَ اللهُ لا إله الا هو عليه توكلتُ وهو ربُّ العرش العظيم » (٢٩ ــ التوبة) •

ومن هنا يدرك الباحث في حضارة الاسلام أهمية التشريعات التي قررت الحرية والحرمة لجميع المعابد اليهودية والاسلامية والمسيحية

على السواء . قال تعالى : « ولو لا دفع الله الناسَ بعضَهم ببعض لهُدِّمَتْ صوامع وبِيَعٌ وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً » (٤٠ـ الحج) .

واما بالنسبة للفرد المسلم فقد نهى الرسول (ص) عن ترويعه فقال : « لا يحل لمسلم ان يروِّع مسلماً » (ابو داود) وجعل له حرمةً اعظم من حرمة الكعبة ، يظهر ذلك جلياً عندما وقف عليه الصلاة والسلام أمام الكعبة يخاطبها بقوله : « ما أطيبَكِ ، وأطيبَ ريحَكِ ، وما اعظمَكِ ، ، وأعظم حرمتَك . والذي نفسُ محمد بيده لحرمةُ المؤمنِ عند الله اعظمُ من حرمتِكِ : مالُه ودمُه » (ابن ماجة)

ولم يجعل الاسلام للون واختلاف اللغات ذريعةً للتفرقة بين بني الانسان بل جعل اللهذلك منآياته فقال : «ومن آياته خَلْقُ السموات والأرض واختلافُ ألسنتِكموألوانِكم إنَّ فيذلك لآياتٍ للعالِمين» (٢٢ ـ الروم) .

وعلى هذا يمكن القول بأن الحرية في الحضارة الاسلامية تمثل الطمأنينة التي تسعى المجتمعات للحصول عليها ، وتحقيق الاماني المرجوة عمليا لا نظرياً فحسب . وقد امتازت تلك الحرية عند العرب قبل الاسلام وفي الاسلام بالتسامح في حل الخصومات بين الافراد والمجتمعات والأمم . وتاريخ العرب قبل الاسلام وبعده حافل بالشواهد الكثيرة التي تثبت ذلك على مستوى الافراد والجماعات والدول ، لكل الملل والنحل والعناصر والالوان . اضف الى ذلك ان العربي بطبعه مجبول على التحرر من كل قيد وهذا لعمري من صفات الانسان المتمدن .

المساواة :

تتوخى المساواة في الاسلام تحقيق العدالة في الحقوق والواجبات وفي تبني الدولة لمصالح المجتمع بأسره . ولما كان الاسلام يمثل قانوناً

واحداً ، وحكما واحداً ، فقد أصبح الناس سواءً أمام هذا القانون • ولذلك تَبَنَّى الاسلام مصالح المجتمع الاسلامي وظل يسعى دوما الى تطبيق هذه المساواة في كل شيء • قال الرسول (ص) : « الناس سَواسِية كأسنان المُشْط » •

وقد أكد الاسلام مبدأ المساواة بين الناس جميعاً ، لئلا يستعلي بعضُهم على بعض • ومحا الاسلام الفوارق بين الناس ليس في العبادات حسب بل في كل المعاملات ايضاً • ففي العبادات يقف المسلم مع المسلم في الصلاة بملء حريته ، كتفاً الى كتف ، وجنباً الى جنب ، وكذلك في السجود ، وفي الركوع ••• وقد يتقدم الفقير على الغني ، والعامَّةُ والسُّوقَةُ على الوجهاء والاعيان ، والبوابُ على الملك والامير ، والفراشُ على رئيس الجمهورية ، والعمال والفلاحون على العلماء والمثقفين • واذا كانت هذه الشعبيــة او « الديمقراطيــة » التي ليس لها مثيــل في التشريعات العالمية تحصل عندنا كل يوم خمس مرات حيث شرّع (ص) الجماعة للصلوات الخمس لأهل الحي الواحد بقوله : « لا صلاة لجار المسجد الا في المسجد » ، وفي ايام الجمع مرة في الاسبوع لأهل المصر الواحد او المدينة الواحدة فان الناس الذين يأتون الى الحج من كل فج عميق للاجتماع السنوي الاكبر يقفون على صعيد واحد في عَرَفَة، ومزدلفة ، ومِنَى وعند رمي الجمرات لابسين ثياب الاحــرام غير المخيطة ، وقد تعرّت اكتافهم اليمنى كأنهم في يوم الحشر ، يمارسون جميعا طقوسهم الدينية ، ويخضعون لنظام واحد أجملته الآية الكريمة: « فلا رَفَثَ ولا فسُوق ولا جدالَ في الحج» •

أما في المعاملات فهم متساوون امام القوانين في جميع الفرَص ، والمطالب المشروعة • على ان نظرة العرب والمسلمين الى مبدأ المساواة تورث العجب اذا قيسوا حتى بأرقى الامم المتمدنة في العصر الحاضر ، اذ لم يعرف الاسلام نظام الطبقات ، ولم يميز احداً على أحد • ولم

يزعم المسلمون مثل زعم اليهود انهم وحدهم ابناء الله واحباؤه ففرقوا بين اليهودي وبين غير اليهودي . ولا يزال السود في جنوبي افريقية والزنوج في امريكة مجردين من كل الحقوق التي للاوربيين . واخيرا استمع الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخاطب الناس في حجة الوداع :

« ايها الناس : إن ربَّكم واحد ، وان أباكم واحد . كُلُّكُم لآدم ، وآدمُ من تراب. ان اكرمكم عند الله اتقاكم. ليس لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا لأحمر على ابيض ، ولا لأبيض على احمر فضل الا بالتقوى ، ألا هل بَلَّغْتُ ؟ اللهم فاشهد ، ألا فَلْيُبَلِّغ الشاهدُ منكم الغائب[1].

ولقد سعى العرب المسلمون الى هدم عبادة الاصنام البشرية التي طالما أذلت الانسانية ، وافقدتها كرامتها ، وخلقت منها طبقات يستعلي بعضها على بعض ، ويتخذ بعضهم بعضا أربابا . قارن بين قول الرسول (ص) للناس : « انما أنا بَشَرٌ مثلُكُم يُوحي الي أنمَّا الهُكم إلـه واحـد » (١١٠ ـ الكهف و ٦ ـ فُصِّلَتْ) بقول فرعون لأهل مصر : « أنا ربُكم الاعلى » (٢٤ ـ النازعات) . وبقوله لهم أيضاً : « ما علمت لكم من إله غيري » (٢٨ ـ القصص) ، وبقَول ملك فرانسة : « انا الدولة » وبالحق الالهي المطلق الذي كان يقول به ملوك الغرب ...

وقد جعل الاسلام الناس لا يخضعون الا لله خالقهم : قال تعالى: « إنْ كلُّ من في السموات والارض إلا آتي الرحمنِ عبداً ، لقد احصاهم وعدَّهم عدّا ، وكلهم آتيهِ يوم القيامة فرداً» (٩٣ـ٩٥ مريم) ولذلك نجد ان المؤمن والكافر سواء امام القوانين الاسلامية التي تقضي بالعدل بين جميع الطوائف . قال جابر : « مرت بنا جنازة

---

(١) السيرة لابن هشام .

فقام لها النبي صلى الله عليه وسلم وقمنا فقلنا يا رسول الله : انها جنازة يهودي[٢] . قال : « اذا رأيتم الجنازة فقوموا فمن تبعهـا فلا يقعد حتى توضع » . وفي رواية أخرى « اليست نفساً » . وكانت أم الحارث بن أبي ربيعة نصرانية فلما ماتت شيعها أصحاب النبي (ص). واذا كان للنصراني ابن" مسلم ثم مات الاب فينبغي على الابن ان يمشي مع أبيه ويدفنه[٣] ولا بأس ان يزور المسلم قبر حميه المشرك ، الرجال والنساء سواء[٤] . وجاء في البخاري ان الرسول (ص) قال : « من قتل معاهداً لم يَرَحْ رائحة الجنة ».

ومن المساواة امام القوانين : ان امرأة مخزومية سرقت فَحَكَم عليها الرسول (ص) بقطع يدها فلما عَلِمَ ان رجالاً من قريش حاولوا التماسه بعدم انزال العقوبة فيها قام فيهم فخطبهم بقوله : « إنما اهلك الذين من قبلكم انهم كانوا اذا سرق الشريف تركوه ، واذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد ، وأيْمُ الله لو ان فاطمة بنت محمد سرقت لَقَطعتُ يدها » . (البخاري) .

وخاطب الصحابي أبو ذرّ الغِفاري أحدَ السود غاضباً بقوله : « يا ابن السوداء » فلما سمع الرسول (ص) ذلك قال : أعيرته بأمه ، انك امرؤ فيك جاهلية . ثم قال له: «طَفّ الصّاع ،طف الصاع،ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل الا بالتقوى أو بعمل صالح » .

ومن الامثلة العملية التي تظهر فيها اصالة المساواة وعمقها ما يأتي:

١ ـ كان أبو بكر الصديق يقسم المال بين الناس بصورة متساوية، ولا يفضل احداً على احد في العطاء السنوي فقيل له : يا خليفة رسول الله انك قسمت هذا المال فَسَوّيْتَ بين الناس ، فمن الناس اناس

(٢) البخاري في باب الجنائز والمحلى ج٥ ص ١٥٣ .
(٣) راجع المحلى لابن حزم ج٥ ص ١١٧ .
(٤) المحلى ج٥ ص ١٦٠ .

لهم فضل وسوابق وقِدَم فلو فضلت أهل السوابق والقِدَم والفضل بِفضلِهم فقال : « اما ما ذكرتم من السوابق والقِدم والفضل فما اعرفني بذلك ، وانما ذلك شيء ثوابه على الله ، وهذا معاش فالأسوةُ فيه خير من الأثرة ، والذين عَمِلوا اله فأجورهم على الله . وانما هذا المالُ عَرَضٌ حاضرٌ يأكله البَرُّ والفاجر وليس ثمناً لأعمالهم »[٥] .

٢ ـ قول عمر بن الخطاب لعمرو بن العاص فاتح مصر وعامله عليها : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احرارا » قال له ذلك عندما ضرب ابن له رجلاً قبطياً ، فلما هدده وتوعده بالشكوى الى امير المؤمنين لم يكترث به وقال له : اذهب فأنا ابن الاكرمين. فلما جاء القبطي كان عمر بن الخطاب في مجلسه ومعه عمرو بن العاص وابنه ووفود الحجاج . ولما علم انه ضربه ظلما ناوله سوطه وقال له : اضرب ابن الاكرمين كما ضربك، اضرب ابن الاكرمين، اضرب ابن الاكرمين. قال فضربه حتى اثخنه ثم قال : أجلْها على صلعة عمرو فوالله ما ضربك الا بفضل سلطانه ثم التفت الى المصري فقال : انصرف راشداً ، فان رابك ريب فاكتب الي»[٦] .

٣ ـ حُكْم عمر بن الخطاب على جَبَلَة بن الأيْهَم ملك غسان بالقصاص عندما لطم اعرابيا وطىء ازاره في اثناء الطواف وقوله له : ساو خصمك . فقال جبلة كيف اساوي خصمي وهو سُوقة وأنا ملك؟ فقال له عمر : ان الاسلام سوّى بينكما .

٤ ـ كتب عمر الى عامله ابي موسى الاشعري يقول « قد بلغ امير المؤمنين أنه فشا لك ولأهل بيتك هيأةٌ في لباسك ومطعمك ومركبك ليس للمسلمين مثلُها ... » .

---

(٥) راجع بحثنا : « اول تأميم في العراق » في الجزء الرابع من السنة الاولى من مجلة الاقلام .

(٦) سيرة عمر بن لخطاب ص ١٠٠

٥ ــ وكتب الى عمرو بن العاص : «بلغني انك تتكىء في مجلسك فاذا جلستَ فكن كسائر الناس » •

٦ ــ وتجمع الآراء على ان عمر بن الخطاب خصص عطاءً يجرى سنوياً للمهاجرين والانصار الذين اشتركوا في موقعة بدر الكبرى ، والمواقع التي حدثت بعدها للصَّرَحاء منهم أي العرب الخُلَّص ولحلفائهم ولمواليهم على السواء • وفرض للموالي الذين اسلموا من الفرس والروم رواتب سنوية وألحقهم بأخوانهم من العرب كما فرض للأطفال واللقطاء •

ويروى عنه انه كتب الى أمراء الاجناد يقول لهم : ومن اعتقتم من الحمراء أي العجم والروم فأسْلَمُوا فألْحِقُوهم بمواليهم ، لهم ما لهم ، وعليهم ما عليهم • وإن احبوا ان يكونوا قبيلة وحدهم ، فاجعلوهم أُسوتكم في العطاء والمعروف •

كما يروى ان عاملاً من عماله أعطى العرب وترك الموالي فكتب اليه يقول : أما بعد فبحسب المرء من الشر ان يحقِر أخاه المسلم والسلام[٧] •

الاخاء والايثار :

يعتبر الاسلام « الدين لله وحده » و « العبودية لله وحده » والناس أمام الله سواسية يُجْزَوْن بأعمالهم ونياتهم ، « انما الاعمال بالنيات وانما لكل امرىء ما نوى » •

وقد وضع للاخاء قاعدة في الآية الكريمة : « انما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين اخويكم ••• » (١٠ ــ الحجرات) • وقال تعالى : « ولا تَجَسَّسُوا ولا يَغْتَبْ بعضكم بعضاً ، أيُحِبُّ احدُكم ان يأكل لحم اخيه مَيْتاً فكرهتموه» (١٢ــ الحجرات) • كما وضع اساساً

(٧) راجع ابن سلام ص ٢٣٥ و ٢٣٦ والبلاذري ٤٤٣ •

للتعارف والتمازج، والائتلاف والتآخي بين شعوب الأرض قاطبة ، وذلك بايمانهم بجميع الانبياء والمرسلين . قال تعالى : « والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين احد منهم اولئك سوف يؤتيهم أجورهم .. » (١٥٢ ـ النساء) . و « يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله اتقاكم » (١٣ ـ الحجرات) . وقال تعالى أيضا : « آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه ، والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته ، وكتبه ورسله ، لا نفرق بين احد من رسله » (٢٨٥ ـ البقرة) .

وقد وردت في القرآن الكريم آيات كثيرة تشير الى الاخاء نذكر منها قوله تعالى :

« فألَّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخواناً » (١٠٣ ـ آل عمران) .
« ونزعنا ما في قلوبهم من غِلٍّ اخواناً على سُرُرٍ متقابلين »
(٤٧ ـ الحجر) .
« وان تخالطوهم فاخوانكم ، واللهُ يعلم المُفْسِد »
(٢٢٠ ـ البقرة) .
« فان لم تعلموا آباءهم فاخوانكم في الدين ومواليكم »
(٥ ـ الاحزاب) .
« فان تابُوا وأقامُوا الصلاة وآتَوُا الزكاة فإخوانكم »
(١١ ـ التوبة) .
« ربنا اغفر لنا ، ولأخواننا الذين سبقونا بالايمان ... »
(١٠ ـ الحشر) .

وقال الرسول (ص) : المسلم اخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يَحْقِره بحسب امرىء من الشر ان يَحْقِر أخاه المسلم » . وفي الحديث : « لو كنت متخذاً خليلا غير ربي لاتخذت ابا بكر خليلا ولكن اخوة الاسلام افضل » .

وفي دستور المدينة أو المعاهدة التي عقدها الرسول (ص) في المدينة بين المهاجرين والانصار ، وبين المشركين واليهود تقررت حرية العقيدة ، وحريه الراي وحرية الحياة لكل من الفرقاء المتعاقدين ، كما تقرر ان المسلمين دمهم واحدة يجير عليهم ادناهم ، وان المؤمنين بعضهم اولياء بعض دون الناس . وان الجار كالنفس غير مضار ولا آثم .

وكان من اعمال الرسول العظيمة في المدينة « المؤاخاة » بين المهاجرين في نظام ابتكره لم يكن معروفاً من قبل ، ذلك انه دعاهم الى أن يتآخوا في الله اخوين اخوين فكان هو وعلي بن أبي طالب اخوين . وكان عمه حمزة ومولاه زيد اخوين . وكان ابو بكر وخارجة ابن زيد اخوين . وكان عمر بن الخطاب وعتبان بن مالك الخزرجي اخوين . وتآخى كل واحد من المهاجرين الذين كثر عددهم بيثرب بعد ان تلاحق اليها سائر من كان منهم في اعقاب هجرة الرسول ، مع واحد من الانصار إخاء جعل له الرسول (ص) حكم الاخاء في الدم والنسب سواء . وقد تقبل الانصار من أهل المدينة ذلك فرحين مغتبطين واظهروا لاخوانهم المهاجرين كرماً منقطع النظير .

وقد مدح القرآن الايثار بالآية الكريمة : « والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » (٩ — الحشر) . وقد جاء في تفسيرها ان رجلاً اتى الى الرسول (ص) فقال له : اصابني الجهد . فأرسل الرسول الى نسائه فلم يجد عندهن شيئاً فقال : ألا رجل يضيف هذا الرجل الليلة رحمه الله فقال أبو طلحة : أنا يا رسول الله ، فذهب الى أهله ، فقال لامرأته : أكرمي ضيف رسول الله ، قالت : ما عندي الا قوت الصبية ، قال : اذا اراد الصبية العشاء فنوميهم وتعالى فأطفئي السراج ونطوي الليلة لضيف رسول الله ففعلت . ثم غدا الرجل على رسول الله فقال (ص) لقد

عجب الله الليلة من فلان وفلانة وانزل فيهما : « ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة » .

ومثل ذلك ما فعله علي بن ابي طالب وزوجته فاطمة الزهراء وأهل بيتهما عندما تصدقوا بطعامهم الى مسكين ويتيم وآسير ولم يكن عندهم غيره ، والى ذلك اشارت الاية الكريمة « يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا ، ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما واسيرا ، انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكورا إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا » (٧ — ٩ الدهر) .

ومن الأمثلة الرائعة التي تحقق فيها الاخاء والايثار :

١ — ان رسول الله (ص) كان يقول : « لا يؤمن احدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » وكان عليه الصلاة والسلام يعود المرضى، ويبدأ اصحابه بالمصافحة . وكان اذا بلغ في مسيره اصحابه جلس منهم حيث انتهى به المجلس .

وكان يأكل مع الخادم،ويقضي حاجة الضعيف والبائس والمسكين. وكان اذا رأى احدا في حاجة آثره على نفسه وأهله ولو كان بهم خصاصة .

وكان يمازح أصحابه ويخالطهم ويحادثهم ، ويداعب صبيانهم ، ويجلسهم في حجره . وكان يجيب دعوة الحر والعبد والأمَة والمسكين. وكان ينهى عن القيام له . ويروى انه خرج مرة على جماعة من اصحابه متوكئا على عصا فقاموا له ، فقال : لا تقوموا كما تقوم الاعاجم يَعظِّمُ بعضُهم بعضا .

٢ — ولما فتح عُتْبَة بن فَرْقَد السُّلَمي بلاد اذربيجان ارسل الى عمر بن الخطاب سفطين من خبيص[٨] وألبسهما الجلود واللبود فلما

---

(٨) الخبيص : الحلوى المعمولة من التمر والسمن .

ذاقه عمر استطابه ثم سأل الرسول : أكل المهاجرين أكل منه ما شبعه؟ قال : انما هو شيء خصّك به فكتب اليه :

من عبدالله عمر امير المؤمنين الى عُتْبَة بن فرقد :

أما بعد : فليس من كدك ، ولا كد امك ، ولا كد ابيك، لا نأكل الا ما يشبع منه المسلمون في رحالهم[٩] .

٣ ـ وحمل بعض الفرس الى أبي عبيد بن مسعود الثقفي آنية فيها انواع من الاطعمة والألوان والاخبصة فقالوا: هذه كرامة اكرمناك بها، وقرى لك ، قال : أأكرمتم الجند وقريتموهم مثله ؟ قالوا : لم يتيسر، ونحن فاعلون ، فرده وقال : « لا حاجة لنا فيه ، بئس المرء أبو عبيد ان صحب قوما من بلادهم هرقوا دماءهم دونه ، أو لم يهريقوا فاستأثر عليهم بشيء يصيبه ، لا والله ، لا نأكل مما افاء الله عليهم الا مثل ما يأكل اوساطهم » .

ونختتم هذا الفصل بقول العالم الهولندي دوزي : Dozy « ان العرب لم يحكموا بتعاليم فلسفية فقط بل بالفطرة والغريزة ،حتى حققوا بادىء بدء مبادىء الثورة الفرنسية الشريفة وهي : الحرية والمساواة والاخاء ... لقد كان البدوي يستمتع بحرية ليس أوسع منها على الأرض . ويقول : لا اعرف مولى غير مولى العالم ... إن هذه المبادىء عند العرب هي أفضل مما عند الاوربيين ... وربما كانت اخلاق العرب اسمى من اخلاقنا ، ونفوسهم أكبر من نفوسنا ، وهم أكثر ميلاً الى العظمة الانسانية ... »[١٠] .

---

(٩) البلاذري ص ٣٢٣ ـ ٣٢٤ .

(١٠) الاسلام والحضارة العربية : كرد علي ج١ ص ١٤٦ـ١٤٧ .

الفصل الخامس

الدعوة الى تحرير الرقيق ، وعتق العبيد ، في الاسلام

لقد ظهر الاسلام ، والرِّق مستفحل في العالم ، ولعله كان في جزيرة العرب أخفّ وطأة من أيّ مكان آخر ، لما عُرِف عن العرب قبل الاسلام من حفظ الذِّمام ، ومراعاة الجِوار . وكان العبيد في الشرق والغرب يشكون طغيان الروم والفرس واستعبادهم للناس . أما الاغريق فلم يكن الرِّق محرَّماً عندهم ، ولم يكن مستنكراً . وكان فيلسوفهم ارسطو يقول : خُلِق العبد للخضوع والطاعة ، وعلى الاحرار ان يستكثروا منهم . وكان يرى ان الرقيق هو الآلة الحية التي عليها توفير القوت ، والقيام بأشق الاعمال ، ومباشرة الاشغال اليدوية التي لا ينبغي للمواطن الحر أن يتناولها . والرقيق في رأيه من وسائل الانتاج الضرورية التي لا غنى للمدينة عنها[1] . اما افلاطون فكان رأيه ان يكون الرقيق من غير اليونانيين .

ولم تنكر اليهودية ولا المسيحية ذلك الاسترقاق ولا تلك العبودية بل كانت اليهودية تشجع المتاجرة بالرقيق ولا سيما اولئك الذين كانت تعمل على اخصائهم من الاوربيين ، وتصديرهم الى بلاد المشرق ليباعوا في اسواق النخاسين .

وكان القدماء يميزون بين عبيدِهم وأرقائهم بثقب آذانهم أو صَلْمِها أو جَدْع انوفهم ، أو سَمْل عيونهم ، أو جزّ نواصيهم . وكان النخاسون من اليهود في اوربة يسرقون النساء والاطفال لبيعهم في الاسواق ، وربما كان المشتري يطلب الاطلاع على العبد عارياً تماماً .

(١) الرق ص ٢١١ .

وقد ازدهرت تجارة الاوربيين بالرقيق الأبيض والاسود على أيدي المسيحيين عدة قرون ولاسيما في عهود الفتوحات والاستكشافات في افريقيه واسيه وامريكه من القرن السادس عشر حتى القرن التاسع عشر .

ومن العجيب ان مونتسكيو الفرنسي المتوفى سنة ١٧٥٥ م كان يرى ان من المستحيل تقريباً ان يرتي الانسان للافريقيين ذوي البشرة السوداء من اخمص القدم الى قمه الراس ، والانوف الفطس فطساً شنيعاً . ويقول : لا يمكن للمرء ان يتصور ان الله سبحانه وتعالى — وهو ذو الحكمة السامية — قد وضع روحاً — وعلى الاخص — روحا طيبة في داخل جسم حالك السواد[٢] !! .

وقد سخر الغربيون الرقيق في مختلف اعمالهم ، وأذلوهم بشتى الطرق . وكانوا يقتنصون الناس لتشغيلهم في مستعمراتهم، ويسنون القوانين التي تعين موقفهم من اسيادهم ، وتحرم عليهم الوظائف ، والتزاوج ، والتعلم . ولذلك فالاوربيون دون غيرهم هم المسؤولون عن مأساة الرقيق في تلك القرون . ولم يكافح الغربيون الرق جدياً الا في القرن التاسع عشر والقرن العشرين . ولم يبلغ نهائياً الا في منتصف هذا القرن الذي نعيش فيه، ومع ذلك فلا تزال آثاره موجودة في معاملة زنوج امريكة والتمييز العنصري في افريقية .

أما الاسلام فقد عمل كثيراً للقضاء عليه منذ أربعة عشر قرناً ووضع الاسس العامة لتحرير[٣] الرقيق ، وعتق العبيد ، وفك رقابهم من رِبْقَة العبودية والرق بشتى الطرق . وعدّ استرقاق الانسان خصومة موجهة لله تعالى مباشرة . ففي حديث قُدْسي يقول الله عز وجل : « ثلاثة أنا خَصْمُهُم يوم القيامة ، ومن كنتُ خصمَه

---

(٢) الاستعمار والمذاهب الاستعمارية ص ٣٧ .

(٣) حرر : اعتق . ويقال له : عِدْل مُحَرَّر أي اجر معتَق .

خصمتُه : رجل أعطى بي ثم غدر ، رجل باع حراً فأكل ثمنه • رجل استاجر اجيرا فاستوفى منه العمل ولم يعطه اجره » (البخاري) •

ومما يجدر ذكره في هذا لصدد انه ليس في التشريعات الاسلامية ولا في السنة النبويه، ولا في تشريعات الفقهاء نص واحد يأمر باسترقاق الناس او اتخاذهم عبيدا ، او الاتجار بهم في اسواق النخاسين ، بل لم يكن في انظمة الامم السياسية من غير الاسلام ما يدل على انها حاربت الرق وقاومته كما قاومه الاسلام • غير أن عامل الحروب الذي ظل قائماً حتى اليوم بين الأمم كان يتسبب عنه أسرى يلبثون في الاسر مُدَداً مختلفة ، وقد يُستَرقّون الى الابد ، أو يبقون في العذاب آجالاً طويلة لا يعلمها الا الله •

ولعل الاسلام اول دين فكر جدياً في القضاء على الرقيق• وكانت طريقته في ذلك ان يقضي عليه بالتدريج ، وبعد تربية النفوس على احترام الانسان ، وتعيين ما لَهُ من حقوق ، وما عليه من واجبات ، ذلك لان أسرى الحروب لا بد من امساكهم مدة من الزمن قبل اطلاق سراحهم • ولم يكن ذلك يضيرهم لأن على المسلمين ـ كما علمتَ ـ ان يمسكوهم بمعروف ،ويعاملوهم بالحسنى• ولذلك وضع الاسلام قواعد واسساً للقضاء على الرقيق واقتلاع جذوره من أصولها ، فدعا الى حرية الفرد والجماعة ، واعلان حقوق الانسان كما اسلفنا في بحث الحرية والاخاء والمساواة • وحرّم الربا وأبطله • والربا من العوامل الاقتصادية المهمة في الاسترقاق والعبودية ، وقتل المشاعر الانسانية • قال تعالى يحذّر من عواقبه الوخيمة : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذَرُوا مابَقِي من الرّبا إن كنتم مؤمنين ❋ فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله، وإن تبتم فلكم رؤوسُ اموالكم لا تَظْلِمون ولا تُظْلَمون ❋ وان كان ذو عُسْرة فنظرةٌ الى مَيْسَرة ، وأن تَصَدّقوا خير لكم ان كنتم تعلمون » (٢٧٨ ـ ٢٨٠ ـ البقرة) •

وقد لعن رسول الله آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه وقال : هم سواء • (مسـلم)

ومما قاله الرسول (ص) في خطبة حجة الوداع : ان ربا الجاهلية موضوع ، وان أول ربا ابدأ به ربا عمي العباس • كما حرم الاسلام عاملاً آخر من عوامل الاسترقاق هو القمار فقد حرمه بجميع أنواعه قال تعالى : « انما الخمر والمَيْسِر والأنصاب والازلام رِجْس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تُفلحون » (٩٠ ــ المائدة) •

وقد عمل الاسلام على تقوية عزة النفس ، والايمان بالله وحده ، وعدم الخضوع الا لله تعالى ، ولذلك ارتفعت نفس المؤمن والفقير والمسكين والمستضعف الى مستوى عالٍ من العزة والانفة والشعور بالسيادة بعد المذلة والمهانة • وزاد في قيمة العبد انه كان له الحق ان يؤم بالمسلمين • كما كان على المسلمين ان يسمعوا ويطيعوا اذ ملك امورَهم عبد" اكفأ من غيره ، ولذلك ايضا كان العبد اذا اسلم أصبح له ما للمسلمين وعليه ما على المسلمين •

وكان الاسلام يُطلق سراح اعدائه اذا اسلموا حالاً ، أما اذا تأخر اسلامهم فكان يتأنى في تسريحهم مخافة الخديعة والمكر وعودتهم الى قومهم يحملون معهم السلاح على المسلمين • اما الصادقون منهم فلم يكتف الاسلام بتسريحهم بل كان يأمر بمساعدتهم مادياً لتحسين احوالهم • قال تعالى : « والذين يبتغون الكتابَ مما ملكَتْ أيْمانُكم فكاتبوهم إنْ علمتم فيهم خيراً • وآتوهم من مال الله الذي آتاكم ••• » (٣٣ ــ النور) •

وقد عامل المسلمون أسرى اعدائهم معاملة حسنة ، وأوصى الاسلام بهم خيراً • ولا تنس ان الاسر في الحروب من أقوى اسباب الرق ومصادره المهمة • ومن مصادره أيضا • الخَطْف والدَّين • والاسلام لا يعترف بكل ذلك بل يقاوم هذه المنكرات مقاومة عنيفة لا هوادة فيها ، وبذلك اقتلع الاسلام جذوراً عميقة من جذور

العبودية • قال تعالى ينصح الأسرى : « يا أيها النبي قل لمن في ايديكم من الاسرى إنْ يَعْلَم الله في قلوبكم خيراً ، يُؤتِكم خيرا مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم ، وإنْ يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم والله عليم حكيم » (٧٠ ـ ٧١ ـ الانفال) وقال أيضاً: « حتى إذا اثخنتموهم فَشُدوا الوثاق فإما مَنّا بعدُ وإما فِداء حتى تضع الحرب اوزارها » (٤ ـ محمد) • وقال تعالى يوصي بحسن معاملتهم ويمتدح المسلمين الذين يعاملونهم بالحسنى : « ويُطعمون الطعام على حُبّه مسكيناً ويتيماً وأسيراً انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شُكوراً » (٨ ـ ٩ ـ الانسان) •

وفِكاك العاني وهو الاسير، واطلاق سراحه،من مكارم الاخلاق الاسلامية التي كان يأمر بها الرسول (ص) • من ذلك قوله : « عودوا المريض ، وأطعموا الجائع ، وفُكّوا العاني » (البخاري)

وكان عمر بن الخطاب « اذا بلغه ان عامله لا يعود المريض ولا يدخل عليه الضعيف نزعه »(٥) •

ومن الاسس المتينة التي سار عليها الاسلام في محاربة الرق والقضاء عليه: مقاومة الاستعباد والظلم• وقد شرحنا قبلا مبدأ الحرية والاخاء والمساواة وأثر ذلك في مقاومة العبودية ، أما الآيات التي وردت في القرآن لمقاومة الظالمين وتحاشي الظلم فهي كثيرة جداً تبلغ هي ومشتقاتها نحو (٢٨٧) آية وهي كلها مضافاً اليها الحُكْم بالعدل والقِسْط من أهم الاسس لمنع الرق وتحريمه في الاسلام • ولعل من أبرز الامور التي عالج بها الاسلام تحرير الرق ما يأتي :

١ ـ جعل الاسلام ثُمُن واردات الزكاة التي تجبى من المسلمين

---

(٥) عيون الاخبار ج١ ص ١٤

لتحرير العبيد ، وفك رقابهم • أي ان الدولة كانت تساعد على ذلك من بيت المـــال •

٢ ــ جعل الاسلام عتق العبيد كفّارة عن عدد من الذنوب والآثام• فهو كفارة عن عقوبات القتل الخطأ • « ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ،فإن كان من عدو لكم وهو مؤمن" فتحريرُ رَقَبَة مؤمنة» (٩٢ ــ النساء) وان كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق" فَدِيَــة" مُسَلَّمة" الى أهله ، وتحريرُ رَقَبَة مؤمنة » (٩١ ــ النساء) •

٣ ــ وهو كفارة عن الايْمان « لا يؤاخــذكم الله باللغــو في ايْمانكم ولكنْ يؤاخذكم بما عقدتم الايمان فكفارتُه إطعامُ عشـرة مساكين من اوسط ما تُطْعِمون أهليكم ، او كسوتُهم ، أو تحريرُ رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ، ذلك كفارة أيمانكم اذا حلفتم ، واحفظوا أيْمانكم » (٨٩ ــ المائدة) •

٤ ــ والعتق كفّارة عن الظِّهار « والذين يُظاهِرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحريرُ رقبة » (٣ ــ المجادلة) •

٥ ــ وهو كفارة عن الافطار في رمضان : فقد جاء في البخاري ان رجلاً اتى النبي فقال له : هلكتُ يا رسول الله قال له : ولم ؟ قال : وقعت على أهلي في رمضان • قال : فاعتق رقبة ••• »

٦ ــ ومن أروع التشريعات الاسلامية لتحرير الرقيق شراء جميع العبيد الذين بيد غير المسلمين من أموال الزكاة وعتقهم في سبيل الله •

واذا كان العربي قبل الاسلام يعتق عبده كرما وشهامة أو يستلحق ابن الأَمَة لنباهته ، أو مكافأة على عمل مهم فان في تحرير الرقبة في الاسلام معنى التكفير عن الخطيئة ، وطلب المغفرة من الله ، ودليــلاً على الطاعة لله تعالى •

لقد ذكرنا آيات كثيرة في القرآن الكريم تحث على فك الرقاب

---

(٦) ج٢ ص ٢٧٩ •

وتأمر بتحرير الرقيق يوم كان للرقيق أهمية كبيرة في العالم • وقد عدّ الاسلام هذا العمل من العقبات التي تواجه المصلحين ، وأوصى الانسان بتذليلها « فلا اقتحم العقبةَ ، وما ادراك ما العقبةُ ، فكّ رقبة ، أو اطعامٌ في يوم ذي مَسْغَبَة يتيماً ذا مقربة ••• » (١١ ــ ١٢ ــ البلد) •

وقد حرم الاسلام من أمور الرقيق ما يأتي :

١ ــ استرقاق المسلم رجلاً كان أو امرأة •

٢ ــ استرقاق العربي ولو كان غير مسلم• وكان عمر بن الخطاب يقول : « لا ملك على عربي » •

٣ ــ استرقاق المعاهَدين وغير المحاربين •

٤ ــ استرقاق الرجل لاولاده اذا كانت امهم أمَة •

٥ ــ يقرر الاسلام تكافؤ الحر والعبد• وفي الحديث : «المسلمون تتكافأ دماؤهم ومن قتل عبداً قتلناه » •

٦ ــ تشويه الجسد • وكان التشويه مدعاة الى التحرير بل كانت اللطمة ، وهي اخف من التشويه بكثير ، كفارتها العتق لما أثر عن الرسول (ص) قوله : « من لطم مملوكاً له أو ضربه فكفارته عِتْقه » (ابو داود ومسلم) •

وقوله : « من ضرب مملوكا ظلما قِيدْ منه يوم القيامة » (الطبراني) •

وقد روي ان ابا هريرة طلب من بلال أن يضع قدمه على خده لان ابا هريرة عَيَّرَه بالسواد •

٦ ــ ومنع الاسلام التفريق بين العبد وعائلته •

٧ ــ والزم السيد اكساء عبده بأحسن ما يلبس ويطعمه من احسن ما يأكل •

٨ ــ ومنع عمر بيع امهات الاولاد لانجابهن الاولاد ومحافظة

على الولد وتسهيلا لانهاء الاسترقاق ولانه اذا ورثها ولدها عتقت عليه[7]

٩ ــ ونهى الرسول (ص) عن مخاطبة العبد بكلمة عبد أو أمة بل بفتى وفتاة وغلام .

١٠ ــ كما نهى الرسول (ص) أيضاً العبيد ان يخاطبوا اسيادهم بياربي لأن الله ربهم .

وعلى الرغم من ان اعداء المسلمين كانوا يسترقون اسرى المسلمين ولا يعاملونهم معاملة حسنة ، ويحتجزونهم ، ولا يطلقون سراحهم فان الاسلام كان يأمر كما اسلفنا بحسن معاملتهم الا في الحالات التي اوجبت معاملة العدو بمثل معاملته للمسلمين عندما يشتطون في الاساءة الى المسلمين ، أو ينزلون فيهم العقوبات المنكرة.

ومن حسن معاملة الرسول (ص) لاعدائه الامثلة الآتية :

١ ــ انه قبل الفداء من اسراه في بدر الكبرى . ومن لم يستطع منهم ان يفدي نفسه بالمال فقد طلب اليه الرسول ان يعلم عشرة من صبيان المدينة القراءة والكتابة .

وفي فتح مكة اطلق سراح الاسرى المكيين وقال لهم : « ماذا تظنون اني فاعل بكم ؟ قالوا خيراً : أخ كريم ، وابن اخ كريم . قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء » وكانوا قد آذوه ، وآذوا اصحابه ، واخرجوهم من ديارهم واموالهم عندما هاجروا الى المدينة .

٣ ــ وتزوج اسيرة من بني المُصْطَلِق بعد الانتصار عليهم . وكان ذلك عاملاً في اطلاق الاسرى وعدم استرقاق احد منهم .

وللرسول (ص) اقوال مأثورة في تحرير الرقيق منها :

١ ــ من اعتق رقبةً مسلمة اعتق الله بكل عضو منه عضواً منه من النار حتى فرجه بفرجه » (البخاري) .

٢ ــ ايما رجل مسلم اعتق رجلاً مسلماً فان الله عز وجل جاعلٌ

---

(٧) راجع ابن حنبل لابي زهرة ص ٢٩٩ .

وقاء كل عظم من عظامه عظماً من عظام محرره • وأيما امرأة مسلمة اعتقت امرأة مسلمة فان الله عز وجل جاعل" وقاء كل عظم من عظامها عظماً من عظام محررتها من النار » (ابو داود) •

٣ ــ وكان الرسول (ص) يقول : استوصوا بالاسرى خيراً » •

٤ ــ ويروى انه قال قبل وفاته بخمس ليال : « اللهَ الله فيما ملكت ايمانكم » •

وقد ارصد المسلمون كثيراً من اموالهم لفداء الاسرى • وقدجرت مفاداة الاسرى في خلافة الواثق ٢٣١ هـ على نهر اللامس في الاناضول بعد ان قدم وفد بيزنطي في آخر سنة ٢٣٠ هـ • ومن الغريب انه كان لا يفادَى يومئذ الا الذي يقول بخلق القرآن •

ويذكر الطبري ان عدد الاسرى من المسلمين بلغ (٣٠٠٠) رجل و (٦٠٠) امرأة بينما يذكر ابن الاثير وابن العبري ان الرجال كانوا (٤٤٦٠) والنساء والصبيان (٨٠٠) ، وأهل الذمة (١٠٠) •• وقد حدث فداء في خلافة المتوكل بن المعتصم سنة ٢٤١ هـ على نهر اللامس ايضا بعد ان قتل البيزنطيون (١٢) الفاً من المسلمين لعدم قبولهم التنصر • وكان عدد اسرى المسلمين في هذا الفداء (٧٨٥) رجلا و (١٢٥) امرأة(٨) •

ولا شك في ان الاسلام أول دين فكر منذ نحو أربعة عشر قرناً في تخصيص جزء من واردات الدولة في ميزانيته لمكافحة الرق وهو ثُمن واردات الزكاة كما اسلفنا بحسب الآية : « انما الصدقاتَ للفقراء والمساكين والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبُهم ، وفي الرّقاب والغارمين ، وفي سبيل الله ، وابن السبيل فريضةً من الله ، والله عليم حكيم » (٦٠ ــ التوبة) • اما فداء الاسرى فمن الاعمال الجليلة التي

---

(٨) الطبري وابن الاثير في حوادث سنة ٢٣١ و ٢٤١ وابن العبري ص ٢٤٨ •

قامت بها الدولة الاسلامية • ويظهر ذلك في خلافة الواثق منذ أكثر من أحد عشر قرناً •

وقد وقف المسلمون كثيراً من اموالهم وممتلكاتهم على الامور الخيرية واعمال البر ومنها اعانة الفقراء ، والمساكين والايتام ، واعانة الخدم ، واطلاق سراح الاسرى ، وعتق العبيد • ويظهر ذلك جلياً في الوقوف التي وقفت على الربُط والزوايا والتكايا في جميع البلاد الاسلامية ، وفي العصور الاسلامية كافة • وللنساء الصالحات ايادٍ بيض على مثل هذه الامور(٩) • وفي الوقت الذي فكر فيه رجال المسلمين ونساؤهم والدولة الاسلامية في تحرير الرقيق وتحسين احوال العبيد لم يفكر الغربيون في ذلك الا في القرن السابع عشر(١٠) اي ان المسلمين سبقوهم بنحو ألف سنة • ويذكر ويسترمارك(١١) (Westermarck) :

ان المؤرخين في الغرب بالغوا في زعمهم ان الكنيسة عاملت الرقيق برفق، فقد جاء القرن الثالث عشر وللسيد على عبده الحق المطلق في احيائه وإهلاكه• وكان يباع في جميع بلاد النصارى كما تباع السلع •• وكانوا يمنعونه من تعلم القراءة والكتابة ، ويعاقب من يخالف ذلك عقاباً شديدا لان الناس يستفيدون من جهله لانه لا يعمل ما يراد به اذا تعلم •

---

(٩) كتابنا : « خراتين بغداد » وهو تحت الطبع .

(١٠) الرق في التاريخ ص ١٧٢ .

(١١) L'origines et le Dévelppement des Idèes morales.

لاحظ : محمد كرد علي : الاسلام والحضارة العربية جـ١ ص ٩٤.

الفصل السادس

قواعد الحكم ومكارم الاخلاق في الاسلام

في الاسلام مجموعة نادرة من قواعد الحكم ومكارم الاخلاق[1] التي تزدان بها الحضارة العربية ، وتتجلى بها النظم والقوانين التي ساس بها العربُ العالمَ وجعلوها اساس حضارتهم ، وعملوا بها خلال حكمهم الطويل وأصبحوا بها أمة سياسية لها سلطان ونفوذ فعمروا بها الدنيا واحسنوا الى أهلها وسنشرح بعضها بايجاز في هذا الفصل ، وسنشير فيه الى قواعد الحكم من الدعوة الى الحق والعدل والرحمة و لتسامح،مع الاشارة الى المبادىء السامية والاخلاق الحميدة التي يستند اليها الاسلام في الحكم • فقد روى الامام مالك في « الموطأ » ان الرسول (ص) قال : انما بُعِثتُ لأتمم مكارم الاخلاق ، وفي رواية « حسن الاخلاق » وفي اخرى «صالح الاخلاق» وروي ان النبي(ص) قال لمعاذ بن جبل : « اتق الله حيثما كنت ، وأتْبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن» واهم هذه القواعد :

١ ـ الحق

ان الاسلام يكشف دوماً عن طبيعة الحق ، ويبرهن على الحقيقة الثابتة التي لا تتغير ولا تتبدل ، وهي وجود الله تعالى ووحدانيته • وقد جاء الاسلام ليعلن هذا التوحيد المحض الخالص للبشر ، وليحرر الانسان من كل عقيدة سواها ، ويجعله يستعين بالله ، ولا يستعين

---

(١) راجع اصول النظام الاجتماعي لمحمد الطاهر بن عاشور ص ١٢٣ و ١٧٨ و ٢٢٦

بمخلوقاته ، ولا يتوسل الى الاشخاص ولا الى الاصنام أو الأوثان ، وحتى الانبياء والشهداء والقديسيين والاولياء ، لما في ذلك من الشرك والوثنية والاهانةللانسانية وليتعلم المسلم أنفيترديده كلمة «الله أكبر» عدة مرات في الركعة الواحدة تذكير دائم له في عدم الخضوع لاي كبير على وجه الارض ، لان الله اكبر من كل كبير واعظم من كل عظيم . ومن أجل ذلك دعا الاسلام الناس الى معــرفة الحق ، ونبذ الباطل في آيات كثيرة بلغت هي ومشتقاتها نحو ٢٨٤ آية نذكر منها :

« وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شـــاء فليكفر » (٢٩ ـ الكهف) .

« حقيق على ان لا اقول الا الحق » (١٠٥ ـ الاعراف).

« ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وانــت خــير الفاتحــين » (٨٩ ـ الاعراف) .

« ليُحِق الحقَ ويُبْطِل الباطلَ ولــو كــرة المجرمـــون » (٨ ـ الانفال) .

«فماذا بعد الحق إلا الضلالُ فأنّى تُصْرَفُون» (٣٢ـيونس).

« وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا » (٨١ ـ الاسراء) .

« افمن يعلم انمــا انزل اليك من ربك الحقُ كمن هو أعمــى » (١٩ ـ الرعد) .

« بل نَقْذِف بالحق على الباطل فَيَدْمَغُه فاذا هو زاهق » (١٨ ـ الانبيــاء) .

« قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد » (٤٩ ـ سبأ) .

« وان الظن لا يغني من الحق شيئاً » (٢٨ ـ النجم) .

٢ ـ العــدل :

يقول ابن القيّم : « ان الشريعة مبناها واساسها على الحكم ،

ومصالح العباد في المعاش والمعاد . وهي عدل كلها ، ورحمة كلها ، ومصالح كلها ، وحكمة كلها ، فكل مسالة خرجت عن العدل الى الجور ، وعن الرحمة الى ضدها ، وعن المصلحة الى المفسدة ، وعن الحكمة الى العبث فليست من الشريعة وان دخلت فيها بالتأويل . فالشريعة عدل الله بين عباده ورحمته بين خلقه » . وعلى هذا فالعدل ليس قاعدة من قواعد الحكم الاسلامية فقط وانما هو من اهداف الاسلام الكبرى التي حض على تحقيقها وحرص على اشاعتها بين الناس في ثماني وعشرين آية عدا الآيات التي ورد فيها ذكر « القِسْط » الذي يرادف العدل في خمس وعشرين آية . ولئن أكثر القرآن من ذكر العدل والقسط وحث على اتباعهما فلئلا يقع البريء تحت طائلة العقاب ، ولئلا يفلت المجرم منـــه .

وفي القرآن الكريم :

« ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القُربى » (٩٠ ـ النحل) .

« وأُمرتُ لأعْدِلَ بينكم » (١٥ ـ الشورى) .

« فلا تتبعوا الهوى أنْ تعدلوا » (١٣٥ ـ النساء) .

« ولا يَجْرِمَنَّكم شنآنُ قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقربُ للتقوى واتقوا الله » (٨ ـ المائدة) .

« واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى » (١٥٢ ـ الانعام) .

« ان الله يأمركم ان تؤدوا الامانات الى أهلها واذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل » (٥٨ ـ النساء) .

« هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم » (٧٦ ـ النحل) .

« وتمّت كلمة ربك صِدقاً وعدلا لا مُبَدِّل لكلماته (١١٥ ـ الانعام) .

ومن الآيات التي ذكر فيها القِسْط :

« قل أمَرَ ربي بالقِسْط » (٢٩ ــ الاعراف) •

« لقد ارسلنا رُسُلنا بالبينات ، وأنزلنا معهم الكتابَ والميزانَ ليقوم الناسُ بالقِسْط ، وأنزلنا الحديدَ فيه بأس" شديد ، ومنافع للناس ، وليعلم اللهُ مَنْ ينصُرُهُ ورُسُلَه بالغيب إن الله قوي عزيز » (٢٥ ــ الحديد) •

«وإنْ حكمتَ فاحكم بينهم بالقِسْط إن الله يحب المُقسِطين» (٤٢ ــ المائدة)

« شَهِد اللهُ أنه لا إله الا هو ، والملائكةُ وأولو العلم قائماً بالقسط » (١٨ ــ آل عمران) •

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله » (٨ ــ المائدة) •

ومن العدل في الاسلام ، الاستفادة من ذوي الكفايات الممتازة والمواهب النادرة ، وتولية الوظائف من دون محاباة ولا بسبب القرابة أو الجاه أو الثروة و النسب • قال الرسول (ص) مَنْ وَلِيَ من امر المسلمين شيئاً فأمّر عليهم احداً محاباة فعليه لعنةُ الله لا يقبل الله منه صَرفاً ولا عَدْلا حتى يُدْخِلَه جهنم » •

وقال أيضاً : « اذا وُسِّد الأمرُ لغير اهله فانتظروا الساعة » •

وقال عمر بن الخطاب : « ايّما عامل لي ظلم أحداً وبلغتني مظلمتُه فلم أغيرْها فأنا ظلمتُه » •

وكان يقول : اني لأتحرج ان استعمل الرجل وأنا اجد اقوى منه فلما عزل شرحبيل بن حَسَنَة قال : « اني لم اعزله عن سخط ولا خيانة ولكن اريد رجلاً اقوى من رجل » (٢) •

وقال عمر أيضاً : « انا في مال المسلمين كولي اليتيم ان استغنيت استعففت وان افتقرت أكلت بالمعروف » •

---

(٢) ابن سعد ج٣ ص ٣٠٥

ومن امثلة العدل الرائعة ما ذكره ابن الجوزي في سيرة عمر بن الخطاب [٣] قال :

« جاء رجل الى عمر فقال له يا امير المؤمنين انطلق معى فأعدني على فلان فانه ظلمني قال فرفع الدرة فخفق بها رأسه . وقال : تدعوني عمر وهو معترض لكم حتى اذا شغل بأمر من امور المسلمين اتيتموه اعدني ، اعدني فانصرف الرجل وهو يتذمر فقال عمر : عليّ بالرجل فألقى اليه المخفقة فقال : امتثل قال : لا ولكن ادعها لله ولك قال : ليس كذلك اما تدعها لله وارادة ما عنده ، او تدعها لي فأعلم ذلك قال ادَعَها لله .. قال : انصرف ثم جاء يمشي حتى دخل منزله ونحن معه فافتتح الصلاة فصلى ركعتين ثم جلس فقال : يا ابن الخطاب : كنت وضيعاً فرفعك الله ، وكنت ضالا فهداك الله ، وكنت ذليلاً فأعزك الله ، ثم حملك على رقاب بالمسلمين فجاءك رجل يستعديك فضربته ما تقول لربك غداً إذا اتيته ؟ فجعل يعاتب نفسه معاتبة ظننتُ انه من خير أهل الارض » .

وقال ابن عباس : « اكثروا واذكروا عمر فانكم اذا ذكرتموه ذكرتم العدل ، واذا ذكرتم العدل ، ذكرتم الله تبارك وتعالى »[٤] .

٣ ـ الرحمة :

أما الرحمة فان المسلم يفتتح قراءة كل سورة من سور القرآن وكل آية من آياته في الصلاة او عند التلاوة في أية مناسبة من المناسبات بالبسملة التي تفيض رحمة وهي بسم الله الرحمن الرحيم . وقد تبادر الى اذهان الغربيين ان صفات القهر والجبروت عند إله المسلمين اقوى من صفات الحب والرحمة . وهذا يدعونا الى ان نوازن بين صفات الله التي تمثل القوة ، والكبرياء والعظمة والجلال والقهر والجبروت وبين

---

(٣) سيرة عمر بن الخطاب ص ١١٤ وراجع أسد الغابة ج٤ ص ٦١
(٤) الطبري ١ : ٢٥٢٣ وأسد الغابة ج٤ ص ٦٥

صفاته الاخرى المليئة بالحب والرحمة والمودة والرأفة والمغفرة وهي في جملتها تزيد على تلك الصفات •

ان من صفات الله التي تدل على القوة والعدل دون القسوة والظلم الصفات الآتية : الجبّار ، المُهَيْمِن ، العزيز ، المتعال ، القهار، العظيم ، المنتقم ، مالك المُلْك ••• الخ •

واما صفات الله التي تفيض بالرحمة والحب والرأفة والحنان فهي اكثر من صفات القوة ومنها : الرحمن ، الرحيم ، السلام ، الغفّار ، الغفور ، الرزاق ، اللطيف ، الشكور ، الكريم ، المجيب ، التواب ، الودود ••• الخ ••

وقد نفى الاسلام صفات الظلم عن الله تعالى فأعلن القرآن الكريم :

« ان الله لا يظلم مثقال ذرة » (٤٠ ــ النساء) •

« وما الله يريد ظلماً للعالمين » (١٠٨ ــ آل عمران) •

« ولا يظلم ربك احداً » (٤٩ ــ الكهف) •

وفي القرآن الكريم تتكرر الرحمة هي ومشتقاتها من الرحمن والرحيم •• نحو ٣٢٦ مرة من ذلك قوله تعالى :

« ربكم ذو رحمة واسعة » (١٤٧ ــ الانعام) •

و « ان رحمة الله قريب من المحسنين » (٥٦ ــ الاعراف) •

« وربك الغني ذو الرحمة » (١٣٣ ــ الانعام) •

« وما ارسلناك الا رحمة للعالمين » (١٠٧ ــ الانبياء) •

و « ان هذا القرآن يقص على بني اسرائيل اكثر الذي فيه يختلفون ، وانه لهدى ورحمة للمؤمنين » (٧٦ ــ ٧٧ ــ النمل) •

« ومن آياته ان خلق لكم من انفسكم ازواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة » (٢١ ــ الروم) •

« قل يا عبادِيَ الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعاً انه هو الغفور الرحيم» (٥٣ــ الزُّمَر)•

«ولولا فضل الله عليك ورحمتُه لَهَمَّتْ طائفة منهم ان يُضِلّوك» (١١٣ ـ النساء) •

« ومن رحمته جَعَل لكم الليلَ والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » (٧٣ ـ القصص) •

« ولا تقتلوا انفسكم ان الله كان بكم رحيما » (٢٩ ـ النساء)•

« ومن يعمل سوءاً أو يظلِمْ نفسه ثم يستغفرِ الله يجد الله غفوراً رحيما » (١١٠ ـ النساء) •

« محمد رسول الله والذين معه اشدّاء على الكفار رُحَماءُ بينهم» (٢٩ ـ الفتح) •

والى جانب آيات الرحمة وردت الرأفة في القرآن في ثلاث عشرة آية كما وردت المودة والود في عشر آيات غير مشتقاتها •

وهكذا نجد ان الله تعالى يذكّر الناس دوماً برحمته واحسانه ومودته لهم • وما الصلاة عند المسلمين وقراءة « الرحمن الرحيم » في سورة الفاتحة في كل ركعة من ركعاتها الا تعليم للانسان ليرحم غيره من الناس وليعاملهم بالحسنى ، وتفهيم لهم بأن الله رحيم بالعباد ، بل ارحم الراحمين •

وفي الحديث : « ارحموا من في الارض يرحمكم من في السماء»•

٤ ـ التسامح

والتسامح في حضارة الاسلام مبدأ أخلاقي سام يتمثل فيالآيات القرآنية الكثيرة التي تحث على العفو والصفح • وتبلغ في مجموعها اربعين آية نذكر منها :

« وجزاءُ سيئةٍ سيئة" مثلُها فمن عفا وأصلَح فأجرُهُ علىالله » (٤٠ ـ الشوري) •

« وان تعفوا أقرب للتقوى ولا تَنْسَوا الفضل بينكم » (٢٣٧ ـ البقرة) •

«وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم» (١٤ـ التغابن)
«ولْيَعفوا ولْيَصفحوا الا تحبون ان يغفر الله لكم» (٢٢ـ النور)

« فاعف عنهم واصفح ان الله يحب المحسنين (١٣ ـ المائدة) .

ويظهر تسامح الاسلام في مواقفه المشرفة من مخالفيه ، وفي تساهله معهم ، فقد ابقى عليهم تحت حكمه ، واحترمهم ، وقربهم في المناصب وعاملهم بالحسنى في جميع البلاد التي خفقت فوقها راية الرسول (ص) . كما يظهر هذا التسامح بجلاء ووضوح حين لم يُكْرِه الاسلام قطّ اي فرد او جماعة من اليهود أو النصارى أو الصابئة أو المجوس أو الوثنين على اعتناق الدين الاسلامي في جميع العصور الاسلامية ، وفي مختلف الدول التي نشأت في آسية وافريقية واوربة، وحتى المشرك فقد انتصر له الاسلام ، وتكفل بحمايته اذا استجار بالمسلم : « وان احد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ، ثم ابلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون » (٦ ـ التوبة) .

ولا تجد في التاريخ من أُكره أو اُجبر على اعتناق الاسلام من اليهود أو النصارى أو الصابئة أو أهل الذمة الآخرين من المجوس والنِّحل المختلفة ، بل لك ان تتحدى من يخالف هذا الرأي ان يذكر ولو مثلاً واحداً يثبت ذلك،على ان العكس هو الصحيح لأن المسلمين اُكرِهوا على التنصر افراداً وجماعات في بلاد الروم ، واسبانية والبرتغال ، وفي صقلية وجزر البحر المتوسط وذلك حين عمدت الحكومات المسيحية في أوربة الى ابادة المسلمين بالاعدام أو الاجلاء أو الاحراق وتخريب مساجدهم واحالتها الى كنائس . ولم يقتصر تعسف الكنيسة يومئذ على المسلمين فقط بل تعداهم بضراوة ووحشية الى المتنصرين منهم الذين اطلق عليهم في الاندلس اسم «الموريسك»(٥)

(٥) راجع بحثنا : « بلاد اوربية حضرها العرب » في مجلة الاقلام في الجزء الثاني من السنة الاولى من ص ١٠ الى ص ٢٤ .

وبذلك قضوا على جذوة الحرية التي اوقدها الاسلام وحكموا على العقل والتسامح بالاعتقال والسجن قروناً عديدة ، ولم يعرفوا للصفح أوالعفو معنى،بينما لا يأخذ الاسلام البرىء بالمذنب ولا المطيع بالعاصي. « ولا تزر وازرة وزر اخرى » (١٦٤ ـ الانعام) . والمسلم كلما ازداد فهماً لدينه واطلاعاً على تاريخ العرب وحضارتهم ازداد اعتزازاً بالاسلام وتمسكاً به ، وتسامحا مع الغير .

ولنا ان نسائل انفسنا بعد ذلك فنقول : اذا كانت الارض قد دانت للعرب المسلمين ، وخضع لهم العالم ، ولم يبق في الدنيا سلطان يقاوم سلطانهم فلماذا لم يقض العرب على مخالفيهم ، ولم يبيدوهم بجرة قلم مثلما فعل الاسبان مع مسلمي الاندلس ، أو لماذا لم يُكْرهوا تلك الاقليات الصغيرة على اعتناق الاسلام على أقل تقدير ؟

ان طبيعة الاسلام وحبه للناس كافة واحترامه للانسانية التي جاء لاخراجها من الظلمات الى النور ، كل اولئك جعل الاسلام يتنزه عن مثل هذه الخطايا ، ويترفّع عن آثام كهذه ارتكبها أصحاب الديانات الاخرى ، ولهذا ابقى العرب المسلمون لأهل الذمة محاكمهم الدينية والمذهبية لتفصل في أحوالهم الشخصية من زواج وطلاق، ووقف ،وإرث، وتركات .

وقد كتب گوتييه Gautier الفرنسي فصلاً في عشر صفحات[٦] من كتابه « أعراف المسلمين وعاداتهم »[٧] عن تسامح العرب مع الاقوام التي انضوت تحت لواء الاسلام وما نالوه من الحرية في ممارسة شعائرهم الدينية ننقل اليك قوله : « لقد ثبت ان الفاتحين من العرب قد بلغوا درجة عظيمة من التسامح لم تكن متوقعة من ناس كانوا يحملون عقيدة جديدة » . وقوله : « ان العربي لم يفكر قط وهو في اوج تحمسه لدينه الجديد ان يطفىء بالدم ديناً منافساً لدينه .

---

(٦) من ص ٢٠٧ الى ٢١٧ .

(٧) ص ٢٠٧ . Moeurs et Coutumes des Musulmans

ويجمع المسلمون وكثير من غير المسلمين على ان الاسلام ثورة على الرذائل ، ودعوة الى نبذ الباطل ، والتمسك بمكارم الاخلاق ، والتعاون على البرّ والتقوى . ولذلك نجد أن آيات القرآن تقطر اخلاقاً ونبلاً وسموا . وان الرسول (ص) انما بعث ليتمم مكارم الاخلاق . ولما كانت الاخلاق الفاضلة التي دعا اليها الاسلام كثيرة ومتعددة الجوانب والنواحي فسنحاول ان نذكر قواعد اسلامية تفرّد بها الاسلام ودعا اليها الناس ، وكانت من الركائز المهمة للحضارات البشرية عدا تلك التي ذكرناها في مستهل هذا الفصل منها :

٥ ـ التقوى :

لقد دعا الاسلام الناس كافة الى اصلاح الاعمال النفسية والبدنية ، وجعل الامتثال لما أمر الله ، والاجتناب لما نهى عنه في الباطن والظاهر من « التقوى » أي من الفضائل التي تتحلى بها النفس الانسانية . فالمتقون هم الذين يدفعون عن انفسهم سُخْط الله وعذابه ولذلك يخاطب الله تعالى الناس جميعاً بقوله «يابني آدم إمّا يأتِيَنَّكم رُسُل" منكم يَقُصُّون عليكم آياتي فمن اتقَى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون» (٣٥ ـ الاعراف) والرسول (ص) يقول : « انما الاعمال بالنيّات وإنما لكل امرىء مانوى » .

والاسلام يهدف من وراء ذلك شدّ الناس ببعضهم ، واحكام ما بينهم وبين الله ليتقوا الله، وليدفعوا عن انفسهم كل مكروه، ولذلك قرَن بالتقوى كثيراً من الامور كالاستقامة ، والصدق ، والعدل ، والعفو ، والبرّ ، والوفاء . ولذلك كرر القرآن لفظة التقوى ومشتقاتها (٢٤٢) مرة منها قوله تعالى :

« وتناجَوْا بالبرِّ والتقوى واتَّقُوا الله الذي اليه تُحشَرُون» (٩ ـ المجادلة) .

« وأَن تعفوا أقربُ للتقوى » (٢٣٧ ـ البقرة) .

« اعدلُوا هو اقربُ للتقوى واتقوا الله » (٨ ــ المائدة) .

« ورحمتي وسعت كلَ شيء فسأكتبُها للذين يتقون ويؤتُون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون » (١٥٦ ــ الاعراف) .

« ومن يتقِّ الله يجعلْ لــه مَخْرَجاً ويرزقْهُ مــن حيث لايَحْتَسبُ (٢و٣ ــ الطلاق) .

« والذي جـــاء بالصِّدق وصدَّق بــه اولئــك المتقــون » (٣٣ ــ الزمَر) .

« بلى مَنْ أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين » (٧٦ ــ آل عمــران) .

٦ ــ البــر :

كرر القرآن لفظة البرّ في (١٢) آية ، وحث الاسلامُ على اعمال البرّ ودعا الى التعاون عليها للقضاء على الفوارق الطبقية في المجتمع. ومن البِرّ الذي أمر به الاسلام : نشر التعليم للقضاء على الجــهل ، وانفاق الاموال لمساعدة المحتاجين، ومعالجة المرضى ، والجهاد في سبيل الله . وعدَّ من اعمال البِرّ كل المساعدات التي يقوم بها الانسان تجاه أخيه الانسان ، ولم يَعُدَّ الاسلام البِرَ بِرّاً الا اذا كان الانفاق فيه من اعز الاموال التي يمتلكها الانسان « لن تنالوا البِرّ حتى تُنْفِقوا مماتُحبون،وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم» (٩٢ ــ آل عمران).

« ليس البِرَّ أن تولوا وجوهَكم قِبَل المشرق والمغرب ولكن البِرَّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب ...» (١٧٧ ــ البقـــــرة) .

« ... وليس البِرُّ بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البِرَّ من اتقى ... » (١٨٩ ــ البقرة) .

«وتعاونوا على البِرِّ والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان» (٢ ــ المائدة) .

٧ ـ العفـو :

ان مقابلة الاساءة بالعفو والاحسان من اسمى ما امرت به الشريعة الاسلامية لان مقابلة الاساءة بالعفو والمغفرة تنزع ما في النفوس من غل وحقد لا سيما اذا وقع العفو عند المقدرة . وقد كرر القرآن كلمة العفو ومشتقاتها في خمس وثلاثين آية نذكر منها :

« وان تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم » (١٤ ـ التغابن) .

« وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا واصلح فأجرُه على الله انه لا يحب الظالمين » (٤٠ ـ الشورى) .

« ولَمَنِ انتصر بعد ظُلْمه فأولئك ما عليهم من سبيل ، انما السبيل على الذين يَظْلِمُون الناس ، ويبْغون في الارض بغير الحق اولئك لهم عذاب اليم . ولَمَن صبر وغفر انذلك لِمَنْ عَزْم الامور» (٤٠ الى ٤٣ ـ الشورى) .

٨ ـ الاحسان :

وهو من ارفع الصفات التي امر الله بها ورغّب فيها ، ولذلك فهو واجب انساني تظهر قيمته في السمو الخلقي الذي دعا اليهالاسلام وفي توثيق عرى المودة بين الناس . وقد عدّه الاسلام دَينا لله يرده لهم اضعافاً مضاعفة قال تعالى: «من ذا الذي يُقرِض الله قرضاً حسنا فيضاعفَه له اضعافا كثيرة ، والله يَقْبِض ويبسُط واليه ترجعون » (٢٤٥ ـ البقرة) .

« ان تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ويغفر لكم (١٧ ـ التغابن) .

ومن اسمى انواع الاحسان في الاسلام :

١ ـ الاحسان الىالوالدين: وقد قرن الله تعالىعبادته بالاحسان الى الوالدين بقوله :

« وقضى ربُّك الا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احساناً إما يبلغَنّ عندكَ الكِبَرَ احدُهما او كلاهما فلا تقل لهما أفٍّ ولا تنهرهما ،وقل لهما قولاً كريماً » (٢٣ ـ الاسراء) .

« واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً » (٢٤ ـ الاسراء) .

« ووصينا الانسان بوالديه حُسْناً » (٨ ـ العنكبوت) .

« ... وبالوالدين احسانا ... » (٣٦ ـ النساء) .

٢ ـ الاحسان الى ذوي القربى واليتامى والمساكين والجار :

« واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين احسانا وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القُربى والجار الجُنُب ، والصاحب بالجَنْب ، وابن السبيل وما ملكت أيمانُكم ، ان الله لا يحب من كان مختالا فخورا » (٣٦ ـ النساء) .

٣ ـ الاحسان الى ما في ملك الانسان أي بالدعوة الى تحريرهم وعتقهم :

« ... وبالوالدين ... احسانا ... وما ملكت ايمانكم » (٣٦ ـ النساء) .

وقد بين القرآن ان الاحسان يفيد المحسن ويضمن لهجزاء حسناً في آيات كثيرة بلغ عددها هي ومشتقاتها ١٨٩ آية منها قوله تعالى :

« ومن احسنُ دينا ممن اسلم وجهَهُ لله وهو مُحْسِن » (١٢٥ ـ النساء) .

« من جاء بالحسنة فله عشرُ امثالها » (١٦٠ ـ الانعام) .

« من جاء بالحسنة فله خيرٌ منها وهم من فَزَعٍ يومئذ آمنون» (٨٩ ـ النمل) .

« ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبَغْي » (٩٠ ـ النحل) .

« وأحْسِن كما احسن الله اليك » (٧٧ ـ القصص)

« ان احسنتم لأنفسكم وإن اسأتم فلها » (٧ ـ الاسراء)
« ومن يُسْلِم وجهه الى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى » (٢٢ ـ لقمان) •
« واصبر فأن الله لا يضيع أجر المحسنين » (١١٥ ـ هود)
« ان المتقين في جنات وعيون آخذين ما آتاهم ربهم انهم كانوا قبل ذلك محسنين ، كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون ، وبالاسحار هم يستغفرون ، وفي اموالهم حق للسائل والمحروم » (١٥ـ١٩ الذاريات)
« والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سُبلَنا وان الله لَمَع المحسنين » (٦٩ ـ العنكبوت) •
« والذي جاء بالصدق وصدّق به اولئك هم المتقون لهم ما يشاؤون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين » (٣٣ ـ ٣٤ ـ الزمَر) •

٩ ـ الاستقامة :

روى البخاري ومسلم أن ابا سفيان بن عبدالله الثقفي قال : « قلت يا رسول الله، قل لي في الاسلام قولاً لا أسأل عنه احداً غيرك• قال : قل : آمنتُ بالله ثم استقم » • ذلك لان الاستقامة في الحياة ، واصلاح النفس ، والسمو بها على الرذائل من أهم اسباب رقي الامم واستقرارها وصلاح أحوالها • وقد ذكرها القرآن في عشر آيات منها قوله تعالى :
« ان الذين قالوا : ربنا الله ثم استقاموا تَتَنَزّلُ عليهم الملائكة ان لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون ، نحن اولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، ولكم فيها ما تشتهي انفسكم ولكم فيها ما تَدّعون ، نُزُلاً من غفور رحيم (٣٠ـ٣١ ـ فُصّلَت)
« فما استقاموا لكم فأستقيموا لهم ان الله يحب المتقين » (٧ ـ التوبة) •
« فاستقم كما أمِرْتَ ومن تاب معك ولا تَطْغَوا » (١١٢ ـ

هــود) .

« فلذلك فادع واستقم كما أمِرْت » (١٥ ــ الشورى)

١٠ ــ الصدق :

لقد دعا الاسلام الى الصدق في القول والعمل وتجنب الكذب لأن الصدق من اسمى الصفات التي ينبغي على الانسان ان يتصف بها. وقد كرر القرآن الصدق ومشتقاته ١٢٨ مرة من ذلك الآيات الاتية :

« ليَجْزي الله الصادقين بصدقهم » (٢٤ ــ الاحزاب)

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين » (١١٩ ــ التوبــة)

« اولئك الذين صَدَقوا واولئك هم المتقون » (١٧٧ ــ البقرة)

« فمن اظلمُ ممن كذب على الله وكذَّب بالصــدق اذ جاءه » (٣٢ ــ الزمــر)

«... ان الله لا يهدي من هو مُسْرِف كذاب» (٢٨ ــ المؤمن)

وفي الحديث : « عليكم بالصدق فان الصدق يهدي الــى البِرِّ، وان البِرَّ يهدي الى الجنة ، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صِدِّيقا . وإياكم والكذبَ فان الكذب يهدي الى الفجور ، وان الفجور يهدي الى النار ، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذّاباً » .

١١ ــ الصبر :

الصبر من أهم الفضائل التي تشد من عزم الانسان للوقوف امام الشدائد والمصائب وقد تكررت كلمة الصبر ومشتقاتها في القرآن أكثر من مئة مرة وهي في جملتها تدعو الناس الى تحمل الاذى والثبات أمام النكبات المفوز في هذه الحياة . من ذلك قوله تعالى :

« ولَنَجْزِيَنَّ الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » (٩٦ ــ النحل) .

« ثم جاهدوا وصبروا ان ربك من بعدها لغفور رحيم » (١١٠ ــ النحل) .

« اني جزيتهم اليوم بما صبروا انهم هم الفائزون » (١١١ ــ المؤمنون) .

« وان تَصْبروا وتتقوا لا يضركم كيدُهم شيئاً » (١٢٠ ــ آل عمران) .

« ... إنه من يَتّقِ ويصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين » (٩٠ ــ يوسف) .

« واصبر على ما اصابك ان ذلك من عَزْم الامور » (١٧ــ لقمان).

« يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله » (٢٠٠ ــ آل عمران) .

«ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحُكم واصبروا» (٤٦ــ الانفال)

« والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس » (١٧٧ــ البقرة).

« وما ضَعُفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين » (١٤٦ ــ آل عمران) .

الفصل السابع

الدعوة الى العمل والتأمين الاجتماعي من الفقر

١ ـ العمل في الاسلام :

يقرر الاسلام أن الله تعالى خلق للانسان جميع ما في الارض من هواء وماء وغذاء : « هـو الذي خلق لكم ما في الارض جميعاً » (٢٩ ــ البقرة) •

وفي الحديث: «المسلمون شركاء في ثلاث: في الماء والكلأ والنار»• وقد اطلق الاسلام يد الانسان وعقله للتصرف في ينابيع الرزق الضرورية التي يَسَّرها للناس وأمره بالتزود منها ليتمكن من العيش والبقاء • والاسلام يعد ممارسة العمل سِمَةَ المسلم وحقا من الحقوق الطبيعية لكل انسان وهذا مانصت عليه التشريعات الحديثة• وقد ضمن الاسلام لكل انسان حق الحياة في الدنيا ليس للمسلمين فحسب وانما لكل الملل والنحل والطوائف كما اسلفنا ذكر ذلك في الحرية والمساواة والاخاء والعتق • ولذلك كان من مبادىء الاسلام : العمل والسعي والكفاية في الانتاج والعدالة في التوزيع • قال تعالى :

« ولقد مكنّاكم في الارض وجعلنا لكم فيها مَعايش » (١٠ ــ الاعراف) •

« هو الذي جعل لكم الارض ذَلُولا فامشُوا في مناكبها ، وكُلُوا من رزقه » (١٥ ــ الملك) •

«الذي جعل لكم الارض فراشاً ، والسماء بناءً» (٢٢ ــ البقرة)•

« الذي جعل الأرض مَهْداً ، وسلك لكم فيها سُبُلاً ، وأنزل من السماء ماءً فأخرجنا به أزواجاً من نبات شَتّى ، كُلُوا وارعَوْا

أنعامكم ، ان في ذلك لآيات لأولي النهى » (٥٣ و ٥٤ ــ طه) •

« يأيها الناس كلوا مما في الارض حلالاً طيباً ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين » (١٦٨ ــ البقرة) •

والانسان في الاسلام ذكراً كان أو انثى غير اولى الضرر من العجزة والمرضى مكلف ان يعمل في الارض التي هي مهد الانسان طوال حياته ، وان يكدح في عمله بدأب واستمرار الى ان يلاقي ربه •

« يا أيها الانسان إنك كادح الى ربك كدحاً فملاقيه » (٦ ــ الانشقاق) •

« والله جعل لكم مما خلق ظلالاً ، وجعل لكم من الجبال اكنانا وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر ، وسرابيل تقيكم بأسكم ، كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون » (٨١ ــ النحل) •

وقد فتح الاسلام ابواب العمل امام الانسان ، وطلب اليه ان يعمل لدنياه ولآخرته لان الاسلام يملك الدنيا والآخرة • وعدَّ العبادة من العمل ايضا • وعد العمل للدنيا بالوسائل الشريفة من الدين ، ولم يفرق بين العبادة وبين العمل الصالح الذي يقوم به بل قرنه بالايمان الصحيح ، كما قرن الباطل بالعمل السيء ولذلك نجد القرآن يكثر من ذكر العمل والامر به فقد جاء فيه ذكر العمل مع مشتقاته (٣٦٠) مرة قال تعالى :

« فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ، ولا يشرك بعبادة ربه أحداً » (١١٠ ــ الكهف) •

« اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه » (١٠ ــ فاطر) •

« من عمل صالحاً من ذكر أو انثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم اجرهم بأحسن ما كانوا يعملون» (٩٧ــالنحل)

« ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » (٢٠١ ــ البقرة) •

«... ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما احسن الله اليك» (٧٧ ـ القصص) .

« وقيل للذين اتَّقَوْا ماذا انزل ربكم ؟ قالوا : خيراً للذين احسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الاخرة خير" ولنعم دار المتقين » (٣٠ ـ النحل) .

وجعل الاسلام للانسان ارادة يختار بها ما يقدر عليه من الاعمال وما يناسبه منها . ونهى عن التكلف فيها قال تعالى :

« لا يُكَلِّف الله نفساً الا وُسْعَها ، لها ما كسبَتْ وعليها ما اكتسبتْ » (٢٨٦ ـ البقرة) .

« قل ما اسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين » (٨٦ـص)

وفي الحديث « ان لبدنك عليك حقاً » .

والفرد في الاسلام وحده يتحمل نتائج عمله ، ولذلك كان طبيعياً ان يجازَى من جنس عمله ، ويكافأ بحسب الجُهْد الذي يبذله من غير ان يُفْتات على حقه . قال تعالى :

« وأن ليس للانسان الا ما سعى ، وأن سعيه سوف يُرَى ثم يُجْزاهُ الجزاء الاوفى » (٣٩ ـ ٤١ ـ النجم) .

« لا تبخسوا الناس اشياءهم ولا تفسدوا في الارض بعد اصلاحها » (٨٥ ـ الاعراف) .

والاصل في سعي الانسان وفي اعماله « الاباحة الاصلية » التي سماها بذلك علماء الاصول ، كالذي اباحه الاسلام للناس من الطيبات:

« قل مَنْ حَرَّم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ » (٣٢ ـ الاعراف) .

« انا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم أيُّهم احسنُ عملا » (٧ ـ الكهف) .

« يا أيها الذين آمنوا لا تحرِّموا طيبات ما احلَّ الله لكم » (٨٧ ـ المائدة) .

« يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد » (٣١ ــ الاعراف).
« قل : لا أجدُ فيما أوحي اليّ مُحَرَّماً على طاعــم يطعمه »
(١٤٥ ــ ألانعام) .
« ويُحِلُ لهم الطيِّباتِ ويحــرم عليهم الخبائث » (١٥٧ ــ الاعراف) .
« وحرَّموا ما رزقهم الله افتراءً على الله » (١٤٠ ــ الانعام).
« قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامـــة »
(٣٢ ــ الاعراف) .

وقد حث الاسلام على العمل الصالح المفيد ، والكســب الحلال ومدح العاملين قال تعالى :

« وقل اعملوا فسيرى اللهُ عملَكم ورســولُه والمؤمنــون »
(١٠٥ ــ التوبة) .
« وسيرى الله عملَكم ورسولُه » (٩٤ ــ التوبة) .
« فمن يعملْ من الصالحات وهو مؤمن فلا كُفْران لســعيه »
(٩٤ ــ لانبياء) .
«يا ايها الذين آمنوا اطيعوا اللهَ واطيعوا الرسول، ولاتُبْطِلوا اعمالكم » (٣٣ ــ محمد) .
« فانتشروا في الارض وابتغوا من فضل الله » (١٠ ــ الجمعة).

ولم يساوِ الاسلام بين العاملين والقاعدين بل فضَّلَ العاملين من النساء والرجال ووعد من يعمل منهم بأعلى الدرجــات ، وأحســن الجزاء في الدنيا والآخرة . قال تعالى :

« إني لا أضيع عملَ عامل منكم من ذكر أو أنثى » (١٩٥ ــ آل عمــران) .
« ووجدوا ما عمِلوا حاضراً ، ولا يظلمُ ربُك أحداً » (٤٩ ــ الكهــف) .
« واللهُ معكم ولن يَتِرَكُم اعمالكم » (٢٥ ــ محمد) .

« وإن تطيعوا اللهَ ورسولَه لا يَلِتْكُم من اعمالكم شيئاً » (١٤ ــ الحجرات) .

« ... الا مَنْ آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاء الضِّعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون » (٧٥ ــ طه) .

« لمثلِ هذا فليعمل العاملون » (٦١ ــ الصّافّات) .

« ومن يأته مؤمنا قد عَمِل الصالحاتِ فأولئك لهم الدرجاتُ العُلَى » (٧٥ ــ طه) .

« فمن يعملْ مثقال ذرَّة خيراً يَرَه » (٧ ــ الزلزلة) .

« مَنْ كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوفِّ اليهم اعمالَهم فيها وهم فيها لا يُبْخَسُون » (١٥ ــ هود) .

«وإن كُلاًّ لما ليُوفِّيَنَّهم ربك اعمالَهم انه بما يعملون خبير» (١١١ ــ هود) .

« ولكلٍ درجاتٌ مما عملوا وليُوَفِّيَهم أعمالَهم وهم لا يظلمون » (١٩ ــ الاحقاف) .

«وقالوا الحمدلله الذي صَدَقَنا وعده واورثَنا الأرض نَتَبَوَّأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجرُ العاملين » (٧٤ ــ الزُّمَر) .

« وتُوَفَّى كُلّ نفس ما عَمِلَتْ وهم لا يُظْلَمون (١١ ــ النحل) .

« يوم تجد كُلّ نفس ما عمِلتْ من خير مُحْضراً ، وما عَمِلَت من سوء تَوَدّ لو ان بينها وبينه أمداً بعيداً » (٣٠ ــ آل عمران) .

« ووُفِّيَتْ كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون » (٧٠ ــ الزُمَر) .

كما ان الاسلام أنذر الذين يسيئون في اعمالهم أو الذين يقولون ما لا يفعلون وتوعَّدهم بأشد العقوبات قال تعالى :

« ... ومن يعملْ مثقال ذرة شراً يَرَه » (٨ ــ الزلزلة) .

« فأصابهم سيئاتُ ما عَمِلوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن» (٣٤ ــ النحل) .

« ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلّهم يرجعون » (٤١ـ الروم) .

« سيُجزَون بما كانوا يعملون » (١٨٠ ـ الاعراف) .

« جزاءً بما كانوا يعملون » (١٤ ـ الاحقاف) .

« من يعملْ سوءاً يُجزَ به » (١٢٣ ـ النساء) .

« يا أيها الذين آمنوا لمَ تقولون ما لا تفعلون كَبُرَ مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » (٣٥ ـ المؤمن) .

وللرسول (ص) احاديث كثيرة تحث على العمل ، وتضع له القواعد وتدعو الى عدم الزهد في الدنيا أو التفريط فيها ، بل تأمر بالعمل ، وكسب المال الصالح ، والتسابق الى ذلك فيما يشبه الجهاد ، وتنهى عن الخمول والتواكل والقعود عن العمل « لأن الله يعطي العبد على قدر همته ونهمته » وبذلك يعلو شأن الانسان وترتفع منزلته في الدارين . من ذلك قوله (ص) :

« ان القوة على العمل ان لا تؤخروا عمل اليوم لغد » .

« اعمل لدنياك كأنك تعيش ابداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » .

« أصلِحوا دنياكم واعملوا لآخرتكم كأنكم تموتون غداً » .

« اعملوا فكُل ميَسَّر لما خُلِق له » .

« عليكم من الاعمال ما تُطيقون فان الله لا يمل حتى تملوا » .

« ان الله يحب من الاعمال ما كان دِيمة وان قلّ » .

« ليس خيركم مَنْ ترك دنياه لآخرته ، ولا آخرته لدنياه ، بل خيرُكم من أخذ من هذه وهذه » .

« اشد الناس عذاباً يوم القيامة المكفي الفارغ » .

« اخشى ما خَشِيت على أمتي كبر البطن ، ومداومة النوم والكسل » .

« طلب الحلال فريضة على كل مسلم » .

« طلب الحلال جهاد » .

« لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره فيبيعه خير له من ان يسأل الناس أعطوه أو منعوه » .

« نِعْمَ المطية الدنيا فارتحلوها تُبلِغْكم الآخرة » .

« نِعْمَ المال الصالح للرجل الصالح » .

« تعلموا من العلم ما شئتم فوالله لا تؤجروا بجمع العلم حتى تعملوا » .

« ما أكل أحد طعاماً خيراً من أن يأكل من عمل يده ، وان نبي الله داود كان يأكل من عمل يده » .

« افضل الاعمال : الكسب الحلال » .

« ايما رجل كسب مالاً من حلال فأطعم نفسه أو كساها فمَن دونه من خلق الله فان له به زكاة » .

« من سعى على عياله من حِلّه فهو كالمجاهد في سبيل الله ، ومن طلب الدنيا حلالاً في عفاف كان في درجة الشهداء » .

« من طلب الدنيا حلالا مكاثراً مفاخراً لقي الله وهو عليه غضبان. ومن طلبها استعفافاً عن المسألة وصيانة لنفسه جاء يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلةَ البدر » .

« التاجر الجسور مرزوق والتاجر الجبان محروم » .

«من جَدّ وجد ، ولكل مجتهد نصيب ، والصبحة تمنع الرزق».

« سافروا تَصِحّوا وتَغْنَموا » .

ومما يحسن ذكره في هذا الصدد : ان رجلاً مرّ على النبي (ص) وكان شاباً ذا جَلَد وقوة ، وقد بكّر يسعى فقال اصحاب الرسول (ص) : ويح هذا لو كان شبابه وجَلَدُه في سبيل الله ! فقال الرسول (ص) لا تقولوا هذا فانه ان كان يسعى على نفسه ليَكُفَّها عن المسألة ويغنيها عن الناس فهو في سبيل الله ، وان كان يسعى على ابوين ضعيفين أو ذرية ضعاف فيغنيهم ويكفيهم فهو في سبيل الله ، وان كان

يسعى تكاثراً وتفاخراً فهو في سبيل الشيطان » •

ولعمر بن الخطاب قول في العمل مشهور وهو : «لا يقعد احدكم عن طلب الرزق ويقول : اللهم ارزقني فقد علمتم ان السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة » •

« ونظام الاسلام في أجور العمل ان تدفع للعامل اجوره التي يستحقها ، لا يظلم ولا يستغل ، ولذلك كان الرسول (ص) يقول : « اعطوا الاجير اجره قبل ان يجف عرقه » • كما عد الرسول من بين الرجال الذين يخاصمهم بنفسه يوم القيامة : رجلاً استأجر عاملاً فاستوفى منه العمل ولم يوفه الأجر ، لان مثل هذا الرجل محتاج الى الطعام والانفاق ولا يستغني عنهما احد من الناس • « وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام ، وما كانوا خالدين » (٨ ـ الانبياء) •

ونهى الرسول (ص) عن الارهاق في العمل وفي كل شيء فقال : روحوا القلوب ساعة بعد ساعة فأن القلوب اذا كلّت عميت » •

وعن علي بن ابي طالب، قال : «روحوا القلوب ساعة فانها إذا اكرهت عميت » •

٢ ـ التأمين الاجتماعي في الاسلام :

يمكننا ان نطلق على الضمان الاجتماعي في الاسلام « الكفالة الاجتماعية » وهي من مبتكرات الاسلام التي وضع لها قواعد ثابتة منذ اربعة عشر قرناً • وتعتبر من أهم المبادىء الانسانية التي نادى بها الاسلام ، ووضع لها اسساً قويمة بشتى الوسائل الشريفة للقضاء على الفقر والمرض والجهل وسنشير بايجاز الى التشريعات الاسلامية التي وضعت لهذه الاغراض ، وما قام به المسلمون من أعمال لتحقيقها •

ان الضمان الاجتماعي في الاسلام قد سبق ميثاق حقوق الانسان الذي اعلنته الجمعية العامة للأمم المتحدة في العاشر من كانون الاول سنة ١٩٤٨ م • وهو في الوقت ذاته يختلف عن ميثاق الاطلسي الذي

أقر سنة ١٩٤١ م لان الاسلام لم يضمن حياة العمال والفلاحين فحسب بل عُني بالامة جمعاء من الاغنياء والوجوه والاعيان الى الفقراء والمساكين والمعوزين ، القادرين منهم والعاجزين، ذكورا واناثا ،وسواء كانوا من المسلمين ام من أهل الكتاب ام من المستأمَنين والمعاهَدين .
وقد ضمن للجميع حياة حرة كريمة . ودعا الى حماية المجتمع معاشيا وصحيا وثقافيا. وعُنِي بالعجزة وأولي الضرر والزَّمْنَى والضَّعْفَى واليتامى وغيرهم وذلك بالسعي المتواصل لتوفير القوت والعلاج والوقاية من الامراض والجهل ليزداد نشاط الناس في العمل ولئلا تتعطل مصالحهم ومصالح المجتمع .

ومن أهم الامور التي عالجها الاسلام :

١ ـ اعالة الأسر التي فقدت معيليها بسبب الحرب أو المرض أو العجز أو اليُتْم أو الترَمُّل .

٢ ـ اعالة الوالدَيْن والقاصِرين من الاولاد ، واعالة النساء .

٣ ـ العوز والشيخوخة والعجز عن الكسب .

٤ ـ تزويج من لا يجدون صداقاً .

٥ ـ عتق العبيد ، وتحرير الارقاء باموال الناس الخاصة وبأموال الزكاة من خزينة الدولة .

٦ ـ ايفاء ديون الغارمين الذين اصبحوا مدينين في غير سَرَف ولا سَفَه .

٧ ـ ايفاء الديون التي على الموتى .

٨ ـ تجهيز المتطوعة للحرب في سبيل الله وتأليف قلوب الذين يُخاف منهم على الاسلام ، أو ترتجي مساعدتهم له ، واستخدامهم للدفاع عنه . وفي الوقت الحاضر يمكن استخدام المتطوعة من الأمم الصديقة لدفع أذى العدو من بيت المال ايضاً .

٩ ـ اعالة الفقراء والمحتاجين وابناء السبيل وطلبة العلم من بيت

المال أي من خزينة الدولة .

١٠ ـ إسلاف أهل الذمة الذين ضعفوا عن استثمار ارضهم .

وكانت أهم الوسائل التي اتبعها المسلمون في معالجة المشاكل المذكورة آنفاً تنحصر في تضامن افراد الاسرة ، والزام القادرين على العمل ، وتعاون الامة جمعاء على ما يأتي :

١ ـ مكافحة الفقر بتوزيع العطاء والغنائم والزكاة والاخماس والفيء من جزية وخراج .

٢ ـ مكافحة المرض ببناء المستشفيات في المدن الكبرى ،وارسال المستوصفات السيارة الى القرى والارياف ، ومعالجة الممرورين والمجذومين والزمنى والاعلاء واهل السجون . وسنشرح ذلك في بحث التأمين من المرض والجهل .

٣ ـ معالجة الاحوال الاجتماعية باتخاذ الربط والعناية بالأضراء والمقعدين وايقاف الوقوف على اعمال البر والاحسان ، ومعاهد العلم والطلبة والعلماء . كما سنشير الى ذلك في حينه .

٤ ـ مكافحة الجهل : بتعليم جميع طبقات الامة في أماكن التعليم المختلفة كالكتاتيب وحلقات المساجد ، ودور العلم ، ودور القرآن ، ودور الحديث ، ومدارس الفقه ، والمارستانات ومدارس الطب ، والجامعات الكبرى مما سنذكره في بحوث قادمة .

وقد اتبع الاسلام في القضاء على الفقر ، وتحقيق هذا الهدف الانساني النبيل طريقتين فعالتين هما :

اولا ـ الترغيب في الانفاق المستمر على المعوزين والمحتاجين وأهل الفاقة ، وتزيينه للناس ، وتحبيبه لهم ، والوعد بالاجر ، وحسن الجزاء للذين ينفقون مما يحبون ، بل وعدهم بمضاعفة الثواب لهم. وقد عدّ الاسلام هذا الثواب من قبيل التجارة التي لن تبور أبداً . ولئن أكثر الاسلام من الحث على الانفاق فانما فعل ذلك تقرباً الى الله

تعالى ونيل مرضاته ، واغناء للفقراء عن المسألة ولتبقى دماؤهم في وجوههم .

ثانيا ــ الامر والترهيب والوعيد بالعذاب عند عدم الانفاق .

وانما فعل الاسلام ذلك حتى لا يكون المال دُولَةً بين الاغنياء أي لئلا ينحصر في أيدي فئة قليلة تتداولها فيما بينها وتبقى الاكثرية محرومة منه ، ولئلا تتكوّن الفوارق الطبقية التي حاربها الاسلام ، ولتتمكن الدولة من تكوين مجتمع تنعدم فيه فوارق الثراء والجاه واللون والتمييز العنصري .

وقد شاركت الدولة الاسلامية وشعوبها في القضاء على الفقر والفاقة . وكانت الدولة مسؤولة عن مكافحة الامراض ، وكان يشاركها المحسنون في بناء المستشفيات ووَقْف الوقوف عليها . ولئن فعلت الدولة الشيء الكثير في تثقيف الناس وتعليمهم فقد كان نصيب الامة كبيرا في بناء المدارس والجامعات لنشر العلم ، وايقاف الوقوف عليها وعلى العلماء والطلبة . ولم تكن أعمال الدولة أقل من ذلك في تقديم الخدمات العامة للامة من بناء المساجد ، والربُط ودور العلم ، والسقايات وشق الترع والانهار . وكانت الدولة ملزمة حتى في قضاء الديون التي على الافراد كما نصت على ذلك آية الصدقات لان المال في الاسلام هو مال الامة ، يؤخذ من الافراد وينفق عليهم ، وفي ذلك يقول عمر بن الخطاب : « ما أحد من المسلمين الا وله حق في هذا المال أُعْطِيَه أو مُنِعه » . وقال أيضا : « من اراد ان يسأل عن المال فليأتني فان الله تبارك وتعالى جعلني له خازناً وقاسماً »[1] .

وكانت مساهمة الموسرين والاغنياء مشكورة في هذه السبيل ، وذلك عدا ما كان يدفعه المسلمون من الزكاة والصدقات والكفارات والخراج وما يدفعه أهل الذمة من الفيء وهي كلها موارد مالية ضخمة

---

(١) الاموال لابن سلام ص ٢١٣ و ٢٢٣ .

لبيت المال لو أحسن المسلمون استعمالها واستغلالها •

ومن هنا كانت الدولة في الاسلام ملزمة بجباية مواردها المالية لتطعم كل جائع ، وتعالج كل مريض ، وتعين كل عاجز • وكان لزاما عليها انتحارب كل من يمتنع عن دفع ما عليه كما فعل أبو بكر حين قال: « والله لو منعوني عقال بعير كانوا يدفعونه الى رسول الله لحاربتهم عليه حتى يدفعوه »

هذا وسنلقي نظرة عجلى على ما شرعه الاسلام في أمر الخدمات الاجتماعية والتكافل الاجتماعي أو التأمين الاجتماعي فيما يأتي :

١ ــ لقد كانت عناية العرب بالفقراء بوجه عام ترجع الى عصور الجاهلية حيث اشتهروا بالقِرَى واكرام الضيف • وقد افاضت الاخبار في اقامة المآدب من الجَفَلى والنَقَرَى ، وفي تسابق العرب فيما كانوا يهيئونه من طعام لضيوفهم ، وفي ذكر الجفان أو الجفنات التي وردت كثيراً في شعرهم وفخرهم ، ولذلك عُدّ القِرَى والكرم واطعام الطعام ايام الجدب والرخاء من مناقب العرب وجميل فَعالهم ، وطابعا لنفوسهم السخية • أما تنظيماتهم في مكة للرفادة وهي تهيئة الطعام للحجاج ، والسقاية وهي تهيئة ما يحتاجون اليه من ماء لهم ولرواحلهم فمن الامور التي دلت على التنظيمات الحضارية في حكومة قريش قبل الاسلام •

وقد جاءت الشريعة الاسلامية حربا على الذين يحبون المال حباً جماً ، ويأكلون التراث أكلاً لَمّا ، ولا يتحاضون على طعام المسكين• كما جاءت انذاراً للمرابين الذين يأكلون الرّبا اضعافا مضاعفة ،ويبتزون الاموال بطرق غير مشروعة• وصارت الشريعة تدعو الى اطعام المساكين والفقراء بالليل والنهار وسراً وعلانية ، وخفية وجهراً وفي السراء والضراء •

٢ ــ ان التشريعات الاسلامية للتكافل الاجتماعي تبدو بوضوح

تام في الآيات التي ذكرت الانفاق سراً وعلانية ثلاثاً وسبعين مرة ، وفي آيات الصدقات التي جاء ذكرها في تسع آيات ، وفي آيات الزكاة التي وردت اثنتين وثلاثين مرة ، وفي الكفارات التي جاءت في اربع آيات . وتبدو ايضاً في الاقراض الذي يُقْرَض الله تعالى في اثنتي عشرة آية. كما تبدو في الآيات التي ذَكَرتْ مَنْ تُصْرَف لهم هذه الاموال وهي ثلاث وعشرون آية جاء فيها ذكر المسكين، وست عشرة آية لذوي القربى ، وثماني لتحرير مَنْ في الرقاب ، وفي آيتين ذكر فيهما المحروم كما اشير الى المسغبة في آية واحدة . من ذلك قوله تعالى :

« قل لعباديَ الذين آمنوا يُقيموا الصلاةَ ، ويُنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية من قبل ان يأتي يوم لا بيع فيه ولا خِلال » (٣١ ـ ابراهيم) .

« الذين ينفقون اموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (٢٧٤ ـ البقرة) .

« أفمن يعلم أنما اُنزِلَ اليك من ربك الحق كمن هو أعمى، انما يتذكر اولو الالباب الذين يوفون بعهد الله ، ولا ينقضون الميثاق . والذين يَصِلُون ما أمر الله به أن يوصل ، ويَخشون ربهم، ويخافون سوء الحساب . والذين صبروا ابتغاءَ وجه ربهم ، وأقاموا الصلاة ، وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ، ويدرأون بالحسنة السيئة ، اولئك لهم عقبى الدار جنات عدنٍ يدخلونها ، ومن صَلَح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ، والملائكة يدخلون عليهم من كل باب ، سلامٌ عليكم بما صبرتم فنعم عُقْبَى الدار » (١٩ ـ ٢٢ ـ الرعد) .

« ومن رزقناه منا رزقاً حسنا فهو يُنفق منه سراً وجهراً » (٧٥ ـ النحل) .

« وما انفقتم من نفقة أو نذرتم من نَذْرٍ فان الله يَعْلَمُهُ » (٢٧٠ ـ البقرة) .

« وانفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجـون تجارة لن تبور » (٢٩ ــ فاطر) .

« وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والارض اعدت للمتقين الذين يُنفقون في السرّاء والضراء ، والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين» (١٣٣ــ١٣٤ ــ آل عمران).

« فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير (٧ ــ الحديد) .

« ... وما تُنْفِقُوا من خير يُوَفَّ اليكم وأنتم لا تظلمون » (٢٧٢ ــ البقرة) .

« ... وما تنفقوا من خير فلأنفسكم ... » (٢٧٢ ــ البقرة).

« لِيُنْفِقْ ذو سَعَة من سَعَته ومَنْ قُدِرَ عليه رزقُه فليُنفق مما آتاه الله لا يكلف اللهُ نفسا الا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسراً » (٧ ــ الطلاق) .

« الذين ينفقون في السراء والضراء » (١٣٤ ــ آل عمران) .

« .. فإلهكم اله واحد فله اسلِموا وبَشِّر المُخْبِتِيْنَ . الذين اذا ذُكر اللهُ وَجِلَتْ قلوبُهم ، والصابرين على ما أصابهم ، والمقيمين الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون » (٢٤ و ٢٥ ــ الحج) .

« آمِنوا بالله ورسوله وأنْفِقُوا مما جعلكم مُسْتَخْلَفِين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير » (٧ ــ الحديد) .

« ليس البِرَّ انْ تُولُّوا وجوهَكم قِبَل المشرق والمغرب،ولكن البرَّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين . وآتى المال على حُبِّه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابنَ السبيل ، والسائلين ، وفي الرِّقاب ، واقام الصلاة ، وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس ، اولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » (١٧٧ ــ البقرة) .

٣ ــ لقد عَدَّ الاسلام كل انسان مسؤولا عن ذويه ، وأقاربه

الذين لا يستطيعون اعالة انفسهم ، وذلك بالانفاق عليهم ولذلك كان لزاماً على المعيل شرعاً ان ينفق على زوجته التي في عصـمته ، وعلى المطلقة ان كانت حاملاً حتى تضع حملها ، كما ان عليه ان ينفق على ابويه وعلى اولاده ، وعلى اليتامى والمساكين وعلى السائل والمحروم وقد جعل الله لهؤلاء جميعاً حقاً معلوماً في اموال الاغنياء اوجب دفعه لهم حتى لو كانت بينهم خلافات وحزازات فقال :

« وفي اموالهم حق للسائل والمحروم » (١٩ ــ الذاريات) .

« وآتِ ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا » (٢٦ ــ الاسراء) .

«فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ..» (٢٨ــالروم)

« والذين في اموالهم حـق معلوم للسائل والمحروم » (٢٥ ــ المعـارج) .

« ولا يأتَلِ اولو الفضل منكم والسعة أنْ يُؤْتُوا اولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله ، وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون ان يغفر الله لكم والله غفور رحيم » (٢٢ ــ النور) .

كما قرر الاسلام انفاق المال الى الجار والناس عامة بصرف النظر عن الدين والمعتقد ، وحتى الحيوان الاعجم . واذا كان المُعيل عاجزاً عن اعالة اسرته وذوي قرباه فان بيت المـال مكلف شرعاً باعالتهم . واليك الآيات والاحاديث التي تدل على ما ذهبنا اليه :

« يسألونك ماذا يُنفقون ؟ قل : ما أنفقتم من خير فللوالدين والاقربين ، واليتامى ، والمساكين وابن السبيل ، وما تفعلوا من خـير فإن الله به عليم » (٢١٥ ــ البقرة) .

« اسكنوهُنَّ من حيث سكنتم من وُجدِكم ولا تُضارُّوهن لتضيّقوا عليهن، وان كُنَّ اولات حَمْل فأنفقوا عليهن حتى يَضعْنَ حَمْلَهُنَّ فإن ارضعن لكم فآتوهنَ اجورهن واءتمـروا بينـكم

بمعروف ... » (٦ ـ الطلاق) .

« فلا اقتحم العقبة . وما ادراك ما العقبة . فك رقبة . أو اطعام في يوم ذي مسغبة يتيماً ذا مقربة . أو مسكينا ذا متربة » (١١ ـ ١٦ ـ البلد) .

« وآتى المال على حُبِّه ذوي القُربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين » (١٧٧ ـ البقرة) .

« والوالدات يُرْضِعْن اولادهن حولَيْن كاملَيْن لمن اراد ان يُتِم الرضاعة ، وعلى المولود له رزقُهن وكسوتُهن بالمعروف ، لا تُكلَّف نفس إلا وسعها ... » (٢٣٣ ـ البقرة) .

« ... والذين يبتغون الكتاب مما ملكت ايمانُكم فكاتبوهم ان علِمْتُم فيهم خيراً ، وآتوهم من مال الله الذي آتاكم ... ») ٣٣ ـ النور) .

« واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وبالوالدَيْن احساناً ، وبذي القربى واليتامى والمساكين ، والجار ذي القُربى ، والجار الجُنُب ، والصاحب بالجَنْب ، وابن السبيل ، وما ملكت ايمانُكم ان الله لا يحب مَنْ كاذ مختالا فخوراً . الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله ، واعتدنا للكافرين عذابا مُهينا » (٣٦ ـ ٣٧ ـ النساء) .

٤ ـ وقد حتم الاسلام على القادرين ان يكون انفاقهم من المال الحلال المُنَزَّه عن الرِّبا والكسب الحرام :

« الذين يأكلون الرِّبا لا يقومون الا كما يقوم الذي يَتَخَبَّطُهُ الشيطان من المَس » (٢٧٥ ـ البقرة) .

« يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيِّبات ما كسبتم ، ومما اخرجنا لكم من الارض ، ولا تَيَمَّمُوا الخبيثَ منه تُنْفِقُون ، ولستم بآخذيه الا أن تُغمضوا فيه ، واعلموا ان الله غني حميد » (٢٦٧ ـ

البقـرة) •

« ليس على الضعفاء ، ولا على المرضى ، ولا على الذين لايجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ••• ولا على الذين اذا مـا أتوك لتَحْمِلَهُم قلتَ : لا أجد ما احْمِلُكُم عليه تَوَلَّوا وأعينهم تفيض من الدمع حَزَناً ألا يجدوا ما ينفقون » (٩١ و ٩٢ ـ التوبة)•

وجعل الاسلام « جهنم » جزاء مَنْ لا يطعم المسـكين وجزاء الذين لا ينفقون مما اكتنزوه من الذهب والفضة •

« يا ايها الذين آمنوا! ان كثيراً من الاحبـار والرهبـان ليأكلون اموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشِّرهم بعذاب اليم • يوم يحمى عليها في نار جهنم فتُكْوَى بها جباهُهم وجنوبُهم وظُهورهم هـذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » (٣٤ و ٣٥ ـ التوبة)•

« الا اصحاب اليمين في جنـات يتسـاءلون • عن المجرمين • ما سلككم في سَقَر ؟ • قالوا : لم نَكُ من المُصَلِّين • ولـم نكُ نُطعم المسكين • » (٣٩ ـ ٤٤ ـ المدثر) •

٥ ـ وقد انذر الرسول كل من يجوع فيهم انسـان بان ذمة الله بريئة منه ولذلك حَبَّبَ الى الناس مساعدة بعضهم البعض ولو بشق تمرة وأمرهم بالصدقة ولو بالامساك عن الشر ، ونظم لهم هذه الامور بشتى الطرق من ذلك قوله :

« ما آمن بى مَنْ بات شبعان وجارُه جائع وهو يعلم » •

و « أيمّا أهل عرصة أصبح فيهم امرؤ جائعا فقد برئت منهم ذمة الله تبارك وتعالى » •

« من كان معه فضلُ ظَهْرٍ فليعدْ به على من لا ظَهْرَ لـه ، ومن كان له فضلُ زاد فليعدْ به على من لا زادَ له » •

قال راوي الحديث : «فذكر اصنافاً من المال حتى رأينا ان لا حق لأحد منا في فضل » •

و « اليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول » .
و « اتقوا النار ولو بِشقٍّ تمرة » .

وقال (ص) « على كل مسلم صدقة ، قالوا : يا نبي الله فمن لم يجد ؟ قال : يعمل بيده فينفع نفسه ويتصدق . قالوا : فإن لم يجد ؟ قال : يُعين ذا الحاجة الملهوف قالوا : فان لم يجد ؟ قال : فليعملْ بالمعروف وليُمْسك عن الشر فانه له صدقة » .

وقال ايضا : « ان الله فرض على الاغنياء في اموالهم بقدر ما يكفي فقراءهم » .

وقد اراد الرسول (ص) الغزو مرة فقال : « يا معشر المهاجرين والانصار إن من اخوانكم من ليس له مال ولا عشيرة ، فليضم احدكم اليه الرجلين والثلاثة » .

« ليس من نفس ابن آدم جارحة الا عليها صدقة في كل يوم طلعت فيه الشمس ، قيل يا رسول الله : من اين لنا صدقة تتصدق بها؟ فقال : ان ابواب الخير كثيرة ... تدل المستدل على حاجته ، وتسعى بشدة ساقيك مع اللهفان المستغيث ، وتحمل بشدة ذراعيك مع الضعيف ، فهذا كله صدقة منك على نفسك » .

« من ضم يتيما بين مسلمين الى طعامه وشرابه حتى يستغني وجبت له الجنة البتة » .

« خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يحسن اليه ، وشر بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يساء اليه » .

« لأن يمشي احدكم مع اخيه في قضاء حاجته أفضل من ان يعتكف في مسجدي هذا شهرين » .

«الساعي على الارملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله ، وكالذي يقوم الليل ويصوم النهار » .

روي عن الرسول انه دخل الجنة وقال : « ... فمضيت فاذا أكثر

أهل الجنة فقراء المهاجرين وذراري المسلمين ، ولم ار فيها احداً أقل من النساء والاغنياء قيل لى : اما الاغنياء فهم ها هنا بالباب يحاسبون ويمحصون واما النساء فألهاهن الاحمران : الذهب والحرير »[٢] •

٦ ــ وقد رويت احاديث كثيرة في كراهة الاحتكار منها :

« من احتكر طعام المسلمين فليس منا » •

« من احتكر الطعام اربعين ليلة ثم تصدق به لم تكن صدقة بل كفارة لاحتكاره » •

٧ ــ كما اشار القرآن الى ان اطعام الفقراء والاحسان اليهم ينبغي ان يكون بدون مقابل أي بدون أجر ، وانما اجور من يفعل ذلك على الله • واوصى بمعاملتهم بالحسنى وبالمعروف ، ونهى عن المن والأذى كما نهى ايضاً عن الرياء في اظهار المعونة من اطعام أو صدقة • وحبذ اخفاء الصدقة حتى لا تعلم الشمال ما انفقت اليمين• وأرشد المحسنين الى ان الانفاق ينبغي ان يكون خالصاً لوجه الله قل أو كثر قال تعالى :

« انما نُطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا » (٩ ــ الانسان) •

« واذا حضر القِسْمَةَ أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولاً معروفاً» (٨ ــ النساء) •

« يا أيها الذين آمنوا لا تُبْطِلوا صدقاتِكم بالمَنّ والاذى كالذي ينفِق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الاخر » (٢٦٤ ــ البقرة)

« الذين يُنْفقون اموالَهم في سبيل الله ثم لا يُتْبعون ما أنفقوا مَناً ولا أذى لهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (٢٦٢ ــ البقرة) •

« قول معروفٌ خيرٌ من صدَقة يتبعها أذى »

« إن تُبْدُوا الصدقات فَنِعِمّا هي ، وان تخفوها وتؤتوها

(٢) سيرة عمر بن الخطاب ص ٢٦

الفقراء فهو خير لكم ... » (٢٧١ ـ البقرة) .

« ... وما تنفقوا من خير فلأنفسكم ، وما تنفقون الا ابتغاء وجه الله وما تنفقوا من خير يوفَّ اليكم وانتم لا تُظلمون ... » (٢٧٢ ـ البقرة) .

« ومَثَلَ الذين يُنفقون اموالهم ابتغاءَ مرضاة الله وتثبيتا من انفسهم كمثل جنة بِرَبْوَة أصابها وابلٌ فآتتْ أكلَها ضِعفَيْن ، فان لم يُصِبْها وابلٌ فَطَلٌّ ، والله بما تعملون بصير » (٢٦٥ ـ البقرة) .

« والذين ينفقون اموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً » (٣٨ ـ النساء) .

« الذين يَلْمِزُون المُطَّوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جُهدَهم فَيَسْخَرُون منهم سَخِر الله منهم ولهم عذاب اليم » (٧٩ ـ التوبة) .

٨ ـ وقد وعد الاسلام المحسنين الذين يُنفقون اموالهم في السراء والضراء على النهج الذي شرحناه ، بحسن الثواب ومضاعفته لهم في جنة عَرْضُها السمواتُ والارضُ . قال تعالى :

« ولا يُنْفِقون نفقةً صغيرة ولا كبيرة ، ولا يَقْطَعُون وادياً الا كُتِبَ لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون » (١٢١ ـ التوبة)

« اولئك يُؤْتَوْن اجرهم مرتين بما صبروا ، ويدرءَون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون » (٥٤ ـ القصص) .

« ان المُصَّدقين والمُصَّدقات ، وأقرضوا الله قرضاً حسنا يُضاعَفُ لهم ولهم اجر كريم » (١٨ ـ الحديد) .

٣ ـ موارد التامين الاجتماعي في الاسلام :

لقد ضمنت الشريعة الاسلامية موارد للتأمين الاجتماعي كَفَلَت بها للمجتمع حاجاته ، وأنقذته من انتشار الفقر ، كما كفلَت للفقراء

التوسعة عليهم « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » • وكانت أهم هذه الموارد : انفاق المحسنين وتبرعاتهم • ولم يكتف الاسلام بذلك بل جعل للمحتاجين حقا واجبا في اموال الاغنياء وفي أموال الدولة • وفتح ابوابا عديدة للانفاق اهمها : الزكاة ، والكفارات ، والفيء من جزيه وخراج ، وما ينفق من صدقات في المواسم والاعياد والمناسبات الدينية المختلفة •

وقد ضمنت هذه التشريعات موارد مهمة للقضاء على الفقر ، والمرض ، والجهل ، وللصرف على مصالح الدولة العامة • وتعاونت على رفع مستوى الفرد في المجتمع ، وساهمت في اسعاد الاسرة • وقد اصاب هذا التنظيم حتى الحيوانات التي كانت تشترك في الحروب فقد كان لها نصيب في هذه الاموال ، اذ خصص لها سهم يعادل سهم الرجل وخصص لها احيانا سهمان ، وللرجل سهم واحد من أربعة اخماس الغنائم ، واليك شرحا في غاية الايجاز للموارد المذكورة آنفا :

١ ـ زكاة المال :

ان تشريع الزكاة في الاسلام واستخدام أموال خزينة الدولة لايفاء ديون المدينين حتى بعد موتهم ، ولتحرير الرقيق ، ولأمور الضمان الاجتماعي بوجه عام تشريع لم يسبق اليه دين" أو تشريع قبل الاسلام بل ان الدائن في الشرائع الاخرى كان يسترق المدين •

وقد جعل التشريع الاسلامي اموال الزكاة في ثمانية اقسام من اقسام المجتمع فجعل ثمناً للفقراء وثمناً المساكين وثمناً للعاملين عليها اي الموظفين والمستخدمين الذي يقومون بجبايتها وادارتها ، وثمناً للمؤلفة قلوبهم، وثمناً لتحرير العبيد وعتقهم ، وثمناً لفك ديون المدينين، وثمناً للجهاد والأمور العسكرية، وثمناً للمنقطعين عن ديارهم وأوطانهم• قال تعالى :

« انما الصدقات للفقراء والمساكين ، والعاملين عليها ، والمؤلفة

قلوبهم ، وفي الرقاب ، والغارمين ، وفي سبيل الله ، وابن السبيل » (٦٠ ـ التوبة) .

« خُذْ من اموالهم صدقة تطهّرُهم وتُزَكّيهم بها (١٠٣ ـ التوبة) .

« فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فأخوانكم في الدين » (١١ ـ التوبة) .

وقد اوجب الاسلام ايتاء الزكاة بعد ان تتوفر في المال شروط اربعة هي :

أ ـ بلوغ النصاب الذي هو الحد الادنى للغِنَى واليسار ، ولا زكاة فيما دون النصاب .

ب ـ ان يكون المال قابلاً للنماء أي ان الزكاة تدفع من ربح المال المستثمر ، الا اذا اختُزن ولم يستثمر فتكون الزكاة من رأس المال باعتباره قابلاً للاستثمار غير أن مالكه جَمَّده ولم يستثمره .

ج ـ ان يكون فاضلاً عن حاجة صاحبه ومن يعولهم ، وان لم يكن فاضلاً دَلَّ على أن صاحبه غير مُوسِر .

د ـ ان يحول عليه الحَوْل باعتبار أنه استثمر في هذه المدة ، ودرَّ على صاحبه ارباحاً .

وعلى هذا فان الزكاة لا تكون الا في « العَفْو » اي في المال الفائض عن الحاجة سواء كان ذلك في النقدين الذهب والفضة ، أو المزروعات ، أو الحيوانات كما نصت على ذلك الآية : « ويسألونك ماذا ينفقون ؟ قل العفو » (٢١٩ ـ البقرة) .

وفي الحديث : « انما الصدقة عن ظهر غِنى » .

ومن الزكاة أيضا : صدقة الفطر وهي من متممات الصوم ... وقد كَفَلَت التوسعة على الفقراء ، يخرجها المسلم وجوباً عنه وعن كل من يعيله من اسرته حتى الصغير منهم . وقد روي عن النبي (ص) قوله :

« رمضان معلّق بين السماء والأرض لا يرفع الا بزكاة الفطر ».

والزكاة لا تبطل بقية الحقوق التي في المال مثل : برّ الوالدين، وصلة الرّحم ، وقِرى الضيف . قال عبدالله بن عمر بن الخطاب : « من ادى الزكاة ، وقَرَى الضيف ، وأعطى في النائبة فقد برىء من الشّح » . ومثلها الاضاحي التي تنحر في عيد الاضحى فيستفيد الفقراء من لحومها .[3]

٢ ــ الكفارات :

لقد جعل الاسلام انفاق الاموال لمستحقيها من الفقراء والمساكين كفّارة لمحو كثير من الذنوب والآثام التي يقترفها الانسان، أو الاضرار التي يحدثها بالغير ولذلك كانت الكفّارات كثيرة ومتنوعة ، وهي كلها تشير اما الى وجوب اطعام عدد من المساكين يتراوح بين الواحد وبين الستين . أو كسوتهم أو تحرير رقبة أو صيام عدد من الايام من ثلاثة ايام الى شهرين متتابعين . ومن هذه الكفارات : الحِنْثُ باليمين ، والحِنْثُ بالعهد ، والفطر في رمضان لمن لا يطيق صومه الا بمشقة بالغة إما بسبب الشيخوخة وإما بسبب المرض المتزايد أو المزمن ، ثم الفِطْر العَمْد بدون عذر ، والقتل العَمْد والقتل الخطأ ، وكفارة النذور ، وشق الرجل ثوبه في مصاب ، وجز المرأة شعرها ، وخدش وجهها ، وكفارة الظّهار ، والفدية لمن يرتكب اثماً في الحج ، والدية على الاضرار التي يحدثها شخص بآخر ، وما يترتب على ذلك من احسان الى الفقراء .

٣ ــ اموال الغنائم :

لقد عرّف المشرعون الغنائم بانها جميع ما كان المسلمون يصيبونه

---

(٣) راجع بحثنا « مشروع الضحية » عن الذبائح من الضحايا والهدايا المنشور في جريدة الحرية في عدديها ٢١٣٥ و ٢١٣٦ بتاريخ ٧و٨ تموز من السنة ١٩٦٩ .

في حروبهم مع اعدائهم من شيء قلَّ أو كثر من المتاع والحيوان ، والعتاد ، والاسلاب ، والنقود ، والسبي • وكانت هذه الغنائم تجمع عند شخص يقال له : (القَبَضُ) وهو الامين الذي تودع لديه هذه الاموال في اثناء الحروب • وكان لا يجوز للفرد أن يتصرف في الغنيمة بحسب هواه قبل جمعها وتقسيمها• فقد روي ان رجلا سأل النبي(ص) عن الغنيمة يصيبها الرجل فقال له : « ان رُميت بسهم في جنبك فاستخرجتَه فلست بأحق به من اخيك المسلم »[٤] • وكانت اموال الغنائم تقسم بعد انتهاء الحرب على خمسة اخماس اربعة منها للمحاربين من المسلمين الذين كانوا يجاهدون في سبيل الله تقسم بينهم بالسوية الا من كانت له فرس فله سهم ولصاحبه سهم• وقال بعضهم كان يفرض للفرس سهمان ولصاحبه سهم واحد • اما الخمس فكان يصرف للاصناف الخمسة الذين سماهم القرآن بقوله تعالى : « واعْلَمُوا أنما غنمتم من شيء فأَنَّ لله خمسَه ، وللرسول ، ولذي القربى ، واليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل » وبذلك كان الخمس يقسم اما على اربعة اسهم أو على خمسة اسهم أو على ستة اسهم احيانا • ويظهر ان هذا التقسيم مرَّ في ظروف مختلفة وطبق ايضا بحسب الاحوال المختلفة في حالة القلة أو الكثرة وفي حالة اخذ الرسول (ص) من هذه الاموال شيئا لنفسه أو عدم اخذ شيء منها ولذلك يظهر لنا انها قسمت على اربعة عندما لم يأخذ منها الرسول (ص) شيئاً وعلى خمسة حين كان يأخذ منها وعلى ستة حينما خصص للكعبة سهم منها • فمن كان يقول بقسمته على اربعة أسهم فربع لله وللرسول ولذي القربى يعني قرابة النبي (ص) •

وروى ابن عباس ان ما كان لله وللرسول منها فهو لقرابة النبي (ص) وان الرسول لم يأخذ شيئا لنفسه ، والربع الثاني لليتامى •

---

(٤) الاموال ص ١٥ •

والربع الثالث للمساكين • والربع الرابع لابن السبيل ، وهو الضيف الفقير الذي ينزل بالمسلمين أو المنقطع • ومن كان يقول بقسمة الخمس على خمسة اسهم فخمس الله وخمس رسوله واحد وكان الرسول (ص) يحمل منه ويعطي ويضعه حيث شاء ويصنع به ما شاء ، والخمس الثاني لذي القربى • والخمس الثالث لليتامى • والخمس الرابع للمساكين • والخمس الخامس لابن السبيل • ومن كان يقول : إن الخمس يقسم على ستة فقد رووا أن رسول الله (ص) كان يؤتى بالغنيمة فيضرب بيده فما وقع فيها من شيء جعله للكعبة ، وهو سهم الله • ثم يقسم ما بقي على خمسة « للنبي سهم ، ولذي القربى سهم ، ولليتامى سهم ، وللمساكين سهم ، ولابن السبيل سهم[٥] • وكان المسلمون لا يعطون لأحد من صلب الغنيمة قبل تخميسها الا للأدلاء ورعاة الماشية والسواق لها ، لحاجة الجيوش اليهم[٦] • ويرى ابن سلام في كتابه (الاموال) ان الاصل في الخمس ان يوضع في أهله المسمَّيْن في القرآن فقط الا إذا كان صرفه الى المقاتلة زيادة على حصصهم خيراً للمسلمين عامة من ان يوضع في الاصناف الخمسة فيصرف حينئذ الى المقاتلة • اما اذا كانت الاصناف المذكورة آنفاً احوج اليه فلا يصرف الى غيرهم[٧] على انه يجوز للامام ان يتصرف بشيء من الخمس » • فقد روى ان الرسول (ص) زوّج عبدالمطلب بن ربيعة بن الحارث والفضل بن العباس الهاشميين ودفع عنهما صداقهما من الخمس[٨] •

واختلف العلماء في سهم الرسول (ص) ، وسهم اقاربه بعد وفاة الرسول (ص) فقال قائلون : سهم القرابة لقرابة النبي (ص) • وقال قائلون : سهم القرابة لقرابة الخليفة • وقال آخرون : سهم النبي (ص)

---

(٥) الاموال : ابو عبيد ص ٣٢٥ ـ ٣٢٦ .
(٦) الاموال : ابو عبيد ص ٣٠٨ و ص ٣٢٢ .
(٧) الاموال : ابو عبيد ٣٢٦ .
(٨) الاموال : إبو عبيد ص ٣٢٩ الى ٣٣٠ .

للخليفة من بعده . وقالوا ايضا : ذوو القربى قريش كلها . وكان عمر ابن الخطاب بحسب رواية ابن عباس قد عرض اقتراحا على بني هاشم يتلخص في ان يَعين من اراد ان يتزوج منهم ، ويقضي الدين عن غارمهم،ويعطي فقيرهم باعتبار ان الباقين منهم كانت تكفيهم المخصصات الوفيرة التي خصصها لهم عمر من العطاء ، فلم يقبلوا بذلك وقالوا : حق ذوي القربى خمس الخمس . فقال عمر : « انما جعل الله الخمس لاصناف سماهم فاسعدهم بها اكثرهم عددا واشدهم فاقة » .

قال ابن عباس : « فاخذ ذلك منا ناس وتركه ناس » . وكان عمر يبذل قصارى جهده لمساعدة بنى هاشم خاصة ، وتوفير الراحة لهم حتى روي عنه انه قال : « ان جاءني خمس العراق لا ادع هاشمياً الا زوجته ولا مَنْ لا جارية له الا اخدمته » . وكان يعطي الحسن والحسين من الخمس ايضا عدا ما كان يدفعه لهما من الفيء وهو ٥٠٠٠ درهم سنويا لكل منهما[٩] فاجمع راي المسلمين على ان يجعلوا هذين السهمين في الخيل والعدة في سبيل الله أي للجهاد ، وتجهيز الجيوش، وشراء الاسلحة . وكان نظرهم الصائب في هذا الامر نظراً بعيداً لانهم كانوا يومئذ يضعون اسس دولة يجب ان تخلد الى الابد ويجب ان تُوطدَّ اركانها بالسلاح ويشد أزرها بالجيش . وكان ذلك مدة خلافة الراشدين جميعا وقد سلك بعضهم سبيل الآخر ولم ينقض شيئا من سننه . قال الامام علي يخاطب عماله وولاته : « اقضوا كما كنتم تقضون فأني اكره الاختلاف حتى يكون للناس جماعة أو اموت على ما مات عليه اصحابي » . وجاء في كتاب نهج البلاغة في عهده لمالك بن الحارث الاشتر حين ولاه مصر ما يؤيد هذه السياسة التي كان يراد بها الالفة وجمع الكلمة : « ولا تَنْقُضْ سنة صالحةً عمِل بها صدور هذه الامة ، واجتمعت بها الألفة ، وصلحت عليها الرعية . ولا تحدثن سنة تضر بشيء من ماضي تلك السنن فيكون الاجر لمن سنها والوزر

---

(٩) الاموال ص ٣٣٢

عليك بما نقضت منها »[١٠] .

اما أربعة اخماس الغنيمة الاخرى فكانت تقسم بين الجند الذين اصابوها من أهل الديوان ، والمطوعة بالسوية يضرب للفارس سهمان وللراجل سهم واحد . وقالوا بل يضرب للفارس منهم ثلاثة اسهم سهمان لفرسه وسهم له ، وللراجل سهم واحد ولا يفضل الخيل بعضها على بعض ، ولا يفضل الفرس القوي على الفرس الضعيف ولا يفضل الرجل الشجاع التام السلاح ، على الرجل الجبان الذي لا سلاح معه الا سيفه[١١] .

قال ابو ذَرّ الغِفاري : شهدت انا واخي مع رسول الله (ص) (حُنَيْناً) ومعنا فرسان لنا فضرب لنا رسول الله (ص) ستة اسهم اربعة لفرسينا وسهمين لنا[١٢] . وكان الامام الاعظم ابو حنيفة يرى‌ان يكون للرجل سهم ، وللفرس سهم وكان يقول : لا افضل بهيمةً على رجل مسلم بينما يقول الامام أبو يوسف : ان ما جاء من الاحاديث والآثار ان للفرس سهمين وللرجل سهما أكثر من ذلك واوثق والعامة عليه ، ليس هذا على وجه التفضيل ولو كان على وجه التفضيل ما كان ينبغي ان يكون للفرس سهم وللرجل سهم لانه سوّى بهيمةً برجل مسلم انما هذا على ان يكون عُدّة الرجل أكثر من عُدّة الآخر ، وليَرْغَب الناس في ارتباط الخيل في سبيل الله . ألا ترى ان سهم الفرس يُرد على صاحب الفرس فلا يكون للفرس دونه . والمتطوع وصاحب الديوان في القسمة سواء . وكانوا لا يقسمون في الغنيمة لاكثر من فرسين[١٣] .

٤ ـ الركاز والمعادن :

وهو في رأي أهل العراق المال المدفون ، أو المعدن كالنحاس ،

---

(١٠) نهج البلاغة ج٥ ص ٣٥ .

(١١) الخراج : ص ٢١ .

(١٢) الخراج : ص ٢٣ والقرشي ص ٢٦ .

(١٣) الخراج : ص ٢٢

والرصّاص ، والحديد ، والذهب ، والفضة ، وفي كل واحد منها الخمس • وفي رأي أهل الحجاز هو المال المدفون خاصة ، وهو الذي فيه الخمس • أما المعدن فليس بركاز ولا خمس فيه ، انما فيه الزكاة • والزكاة في الفضة والذهب فقط • ويُعَرَّف الركاز ايضا أنه من دفن الجاهلية يوجد من غير أن يطلب بمال ولا يتكلف له كبير عمل [١٤] • فهو إذاً الاموال ، والكنوز التي يعثر عليها المسلمون فيأخذ الخلفاء منها الخمس لبيت المال أو يقسمونها كلها بين المسلمين أو يضعونها كلها في بيت المال من دون تخميس ، أو يعطونها الى مَنْ وجدها أو يُعطى منها شيء الى من وجدها ويجعل الباقي في بيت المال • ويروى ان عبداً وجد رِكزَةً على عهد عمر بن الخطاب فأعتقه وأعطاه شيئاً منها وجعل الباقي في مال الله • قال الامام ابو يوسف الانصاري : يجب الخمس في كل ما أصيب من المعادن من قليل أو كثير سواء في أرض العرب أو ارض العجم • وقال : لو ان رجلاً اصاب في معدن أقل من وزن مئتي درهم فضة أو أقل من عشرين مثقالاً ذهباً فأن فيه الخمس • أما ما استخرج من الياقوت والفيروزج والكحل والزئبق والكبريت والمَغْرَة فلا خمس في شيء من ذلك • انما ذلك كله بمنزلة الطين والتراب[١٥] • وقالوا ايضا : الركاز هو الذهب والفضة خلقه الله عز وجل في الارض يوم خُلقت وفيه الخمس ايضا • فمن اصاب كنزاً عاديا فيه ذهب أو فضة أو جوهر أو ثياب فان في ذلك الخمس ، واربعة اخماسه للذي اصابه • وهو بمنزلة الغنيمة يغنمها القوم فتخمس وما بقي فلهم[١٦] • وقال آخرون : إن الركاز هو الكنز العادي ما كان من ضرب الاعاجم وفيه الخمس[١٧] •

---

(١٤) الاموال ٣٣٩ .

(١٥) الخراج ٢٦ .

(١٦) الخراج ٢٥ والقرشي ١٦ .

(١٧) الخراج وصنعة الكتابة ١٨ .

وكان الخمس يؤخذ ايضا فيما يخرج من اللؤلؤ والعنبر • ومع انه روي عن اثنين من اصحاب الرسول (ص) ان العنبر لم يكن يخمس وأن أكثر العلماء على ان لا شيء فيهما وأنهما كالسمك ، فقد روى كثير من التابعين انه يؤخذ منهما الخمس ولمن اخرجه اربعة اخماسه • وقد رووا عن عمر بن الخطاب انه استعمل يَعْلَى بن أمية على البحرين فكتب يسأله في عنبرة وجدها رجل على الساحل فكتب عمر اليه : انه سَيْب" من سَيْب الله وفيما اخرج الله جل ثناؤه من البحر الخمس[١٨] •

اما المال الذي لا وارث له فيكون ملكاً للدولة وكذلك النفط وكل كنز من الكنوز الاسلامية التي وضعت في الاسلام ولم يعرف اصحابها •

٥ ــ الانفال :

والانفال هي ما اصابه المسلمون من المشركين أو ما شذ من المشركين الى المسلمين ولا تكون غنائم الانفال الا قبل الحرب أو بعدها • والانفال[١٩] اربعة اقسام : ــ

أ ــ النفل من الاسلاب : والاسلاب ما كان على القتيل من ثياب وحلي وسلاح ، وكذلك فرسه الذي قاتل عليه بأداته • وقد قضى الرسول(ص) أن تكون اسلاب المقتول للقاتل ولم يخمسها • وقال(ص) من قاتل فله السلب ••• وروي عنه (ص) انه قال يوم حنين « من قتل قتيلا له به بينة فله سلبه » ومعنى ذلك ان السلب يكون للقاتل عند البراز أو إذا عُلم انه قتله قبل اختلاط الصفوف فيسلم له حينئذ من غير ان يخمس ولا يلحق بالمغنم • هذا ، وقد روى ابن عباس عن الرسول (ص) انه قال : « إن السلب من النفل » • وروي عنه (ص)

---

(١٨) الاموال : ٨٣ •

(١٩) الاموال : ٣٠٤ و٣٠٨ ــ ٣١٠ و٣١٦ ــ ٣٢٢ و٣٢٦ و ٣٤٤ •

ايضا أنه قال : « السلب من النفل وفي النفل الخمس » • ولذلك كان عمر بن الخطاب أول من أخذ الخمس من السلب وجعله في بيت المال•

ب ـ النفل من الغنيمة بعد تخميسها : فقد يُنَفَّل منـها ثلثها أو ربعها بعد اخراج الخمس منها • رووا عن الرسول (ص) انه قال : « لا نفل الا من بعد الخمس » وكان الرسول (ص) ينفل الربع اذا كان في أرض العدو واذا اقبل راجعا وكل الناس معه نفل الثلث • وقدشرح لنا ذلك ابو عبيد بن سلام في كتابه الاموال حيث قال : وتأويل نفـل السرايا ان يدخل الجيش أرض العدو فيوجه الامام منهـا سراياه في بدأته فيضرب يميناً وشمالاً ويمضي هو في بقيةعسكره امامهوقد واعد امراء السرايا ان يوافوه في منزل قد سماه لهم يكون به مقامه الى ان يأتوه • ووقّت في ذلك أجلاً معلوماً فاذا وافته السرايا هناك بالغنائم بدأ فعزل الخمس من جملتها ثم جعل لهم الربع مما بقي تفلاً خاصالهم• ثم يصير ما فضل بعد الربع لسائر الجيش • وتكون السرايا شركاءهم في الباقي• ثم يفعل بهمبعد القفول مثل ذلك الا انهيزيدهم فيالانصراف فيعطيهم الثلث بعد الخمس • وانما جاءت الزيادة في المُنْصَرَف لانهم يبدأون اذا غَزَوْا نِشاطا متسرعين الى العدو ويقفلون كِلالاً بِطاءً قد ملوا السفر وأحبوا الاياب • واما اشتراك أهل العسكر مع السرايا في غنائمهم بعد النفل فإنما يُشركونهم لان هذا العسكر ردءٌ للسرايا وان كان اولئك حووا الغنيمة وهؤلاء غُيّبٌ عنها وهو تأويل قـول النبي (ص) « ويَرُدُّ اقصاهم على ادناهم، ومُشِدُّهم على مُضعِفِهم، ومتسريهم على قاعدهم » •

جـ ـ النفل من الخمس نفسه : وذلك ان الغنائم كانت تخمس ثم ينفلون من الخمس وللامام ان يُنَفِّل من الخمس : الغني والفقير باعتبار ان الخمس مفوض اليه ويُنَفِّلُ منه إن شاء حتى كان بعضهم يرى ان للامام ان ينفل الخمس كله إن شاء لانه الناظر في مصلحتهم ،

والقائم بأمرهم هذا اذا كان خيراً للاسلام وأهله وأرَدَّ عليهم ، وكانت عامتهم الى ذلك الوجه أفقر واهم أصلح من أن يُصْرف في الاصناف الخمسة . وقد نفَّل الرسول يوم حُنَيْن من الخمس، وروي عنه انه قال : «مالي مما افاء الله عليكم الا الخُمس ، والخمس مردود فيكم» . ونَفَّل يوم خيبر من الخمس ايضا .

د ـ النفل من الغنيمة قبل تخميسها : ولم يعمل بذلك الا الرسول (ص) في بعض الاحوال والا ما كان يهبه الامير لدليل ، أو راع ، أو لسواق الماشية ، لحاجة الجيوش اليهم . ولذلك اصبح نفلهم عاماً على المسلمين ، لأنه لا غَناء لهم عنهم فهو من جميع المال .

وهكذا كانت الانفال تدفع للمقاتلة اضافة الى سهامهم على قدر الغَناء في الاسلام ، والنكاية في العدو ، ويفضل بها بعض الجيش على بعض .

٦ ـ الفيء

وهو المال الذي كانت الدولة تجبيه من اموال أهل الذمة من جزية وخراج . اما الجزية فهي الضريبة التي وُضِعَتْ على رؤوسهم وبها حُقِنَت دماؤهم ، وحرمت اموالهم فلا تُغتَصَب ولا تُصادر وهي بمثابة الزكاة على المسلمين . وكان مقدارها طفيفا جداً اذا قيس بما كان يؤديه الفرد للدولة الساسانية أو البيزنطية فقد كانت في زمن الرسول (ص) وابي بكر ديناراً واحدا في السنة . وفي خلافة عمر بن الخطاب نظمت الجزية خارج الجزيرة العربية تنظيما متقناً تبناه الخلفاء من بعده فاتبعه عثمان بن عفان وعلى بن ابي طالب والامويون والعباسيون . وقد جعلها عمر على قدر الطاقة من أهل الذمة بلا حَمْلٍ عليهم ولا إضرار بفيء المسلمين . وزاد عليهم بقدر يسارهم وطاقتهم .

واما الخراج فهو ضريبة الارض على ما تخرجه من غلات وقد وضعت على اسس ثابتة وكانت تؤخذ بمقادير مختلفة مما يأتي :

أ ـ من الارض التي فتحت عَنْوة وأصبحت ملكا لهم ولم يقتسموها بل اقروها بأيدي أهلها يعملون فيها مقابل خراج يؤدونه الى خزينة الدولة مالا وغلة أي نقداً وعَيناً تتراوح كميته بين درهمين وعشرة دراهم عن الجريب الواحد في السنة ، ويخفض في حالة ضعف الارض عن الدفع ولا يزاد في حالة استطاعة الارض على الدفع أكثر مما حُمِّلَتْ ، ولا يكلف اهلُها فوق طاقتهم . فاذا اسلم من أهل العَنْوة أحد سقطت عنه الجزية وبقي الخراج على أرضه .

ب ـ من الارض التي فتحها المسلمون صلحاً وأصبحت ملكا لأهلها فيكون للدولة عليها خراج معين اتفق على مقداره الطرفان . فاذا اسلم من أهل الصلح احد رفعت الجزية عن رأسه والخراج عن ارضه وأصبحت ارضه ارض عُشْر .

جـ ـ العشر الذي يأخذه العاشر على تجارة أهل الذمة أو ممن اسلم من ارض الصلح أو ممن اسلم من بني تغلب . وكانت الصدقة تؤخذ من بني تغلب مضاعفة قبل اسلامهم وذلك بموافقتهم بعد ان امتنعوا عن دفع الجزية باعتبارهم عرباً .

د ـ ما يؤخذ من أهل الحرب اذا دخلوا بلاد الاسلام للتجارة فقد ذكروا ان من اقام منهم ستة أشهر اخذ منه العشر ومن اقام سنة أخذ منه نصف العشر ، ومن كل ما لا يصل اليه ماء الانهار ، ومن كل أرض كانت للعرب الذين لا تقبل منهم الجزية ، ولا يقبل منهم الا الاسلام فان ارضهم أرض عشر . وكذلك كل أرض تَغَلَّب عليها الرسول (ص) من أرض العرب .

وهذا الفيء هو الذي كان يوزع على المسلمين كافة غنيهم وفقيرهم المقاتلة والذرية والنساء والاطفال : والعرب الصرحاء والموالي واللقطاء . ومن هذا الفيء كان الانفاق على الامور العامة كتجهيز الجيوش ، وشراء الاسلحة وحماية الثغور ، وبناء المدن والمساجد ، وكَرْي الانهار وعقد الجسور ...

ويظهر ان ما كان يصل الى بيت المال كان يقسم بين المسلمين حالاً فاذا زاد على الاعطيات والجرايات وفضل منه شيء وزع على المسلمين ايضاً ، فكان الرسول (ص) لا يقبل مالاً عنده ولا يبيته . قال ابن سلاّم : يعني اذا جاء غدوة لم ينتصف النهار حتى يقسمه ، وان جاء عشية لم يبيته حتى يقسمه . وروى البخاري ان الرسول (ص) كان يقول : « لو كان عندي أحُد ذهباً لسَرّني أن لا تمر بي ثالثة وعندي منه شيء الا شيئاً أرصده لدين يكون عليّ . وكان الرسول (ص) يعطي الآهِلَ حظّيْن والاعزب حظاً واحداً » .

وكان ابو بكر الصديق يقسم المال بين الناس بصورة متساوية فقد سوّى في العطاء بين القرشيين ومواليهم ، والانصار ومواليهم . قال ابو قُرّة : قسم لي ابو بكر من الفيء مثلما قسم لسيدي . وقسم عمر بن الخطاب بين الناس فأصاب الرجل نصف دينار اذا كان وحده فان كانت معه امرأته اعطاه ديناراً . ثم نظّم عمر العطاء فلم يسوِّ بين الناس كما كان يفعله ابو بكر فقيل له بذلك فقال : « لا أجعل من قاتل رسول الله (ص) كمن قاتل معه » . أي انه لم يرد ان يجعل اولئك الذين حاربوا الرسول وقاتلوه وآذوه ثم اسلموا كأولئك الذين اسلموا من أول يوم وقاتلوا معه جنباً الى جنب ، وشهدوا جميع حروبه وكان يقول :

« والله ما أحد احق بهذا المال من أحد ، وما انا أحق به من أحد ووالله ما من المسلمين احد إلا وله من هذا المال نصيب الا عبداً مملوكاً ولكنا على منازلنا من كتاب الله عز وجل وقسمنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم . فالرجل وبلاؤه في الاسلام ، والرجل وقدمه في الاسلام ، والرجل وغَناؤه في الاسلام والرجل وحاجته . ووالله لئن بقيتُ لهم ليأتين الراعيَ بجبل صنعاء حظّه من هذا المال وهو يرعى مكانه »[٢٠] .

---

(٢٠) سيرة عمر بن الخطاب ص ١٠١ .

ولذلك قسم عمر الناس الى أصناف فجعل منهم : أهل البيت من النساء ، ثم اقارب الرسول من بني هاشم ، ثم البدريين ، فأهل احد ، وأهل الاحزاب الى ان وصل الى القادسية واليرموك وخصص لهم رواتب سنوية ، وجعل على رأس القائمة ام المؤمنين عائشة بنت ابي بكر الصديق ، وفرض لها اثني عشر الف درهم في السنة ، وجعل لكل واحد من زوجات الرسول (ص) عشرة آلاف درهم في السنة الا جُوَيرِيَة بنت الحارث ، وصفية بنت حُيَيّ بن أخْطَب اذ خصص لكل منهما ستة آلاف درهم سنوياً لأنهما كانتا مما افاء الله على رسول (ص) وفرض للعباس عم الرسول (ص) ٥٠٠٠ درهم وفرض لعمر بن مسلمة ٤٠٠٠ درهم ولاسامة بن زيد ٤٠٠٠ درهم لمكانتهما من الرسول (ص) كما خصص عمر بن الخطاب لسلمان الفارسي ٤٠٠٠ درهم ولعمار بن ياسر ٥٠٠٠ درهم .

اما أهل بدر فلم يفضل احدا عليهم الا زوجات الرسول (ص) . وتجمع الروايات على ان عمر خصص لكل واحد ممن اشترك في حرب بدر الكبرى من المهاجرين والانصار (٥٠٠٠) درهم في السنة وقيل (٦٠٠٠) درهم للصرحاء منهم أي العرب الخُلّص ولحلفائهم ، ولمواليهم على السواء . وقيل : إنه فرض لأهل بدر المهاجرين من العرب والموالي ٥٠٠٠ درهم وللانصار ومواليهم ٤٠٠٠ درهم .

وفرض لمن كان له اسلام كاسلام أهل بدر ، ومن هاجر الى الحبشة واشترك في احُد ٤٠٠٠ درهم سنويا .

وخصص لكل واحد من ابناء البدريين ٢٠٠٠ درهم الا الحسن والحسين فانه الحقهما بفريضة ابيهما لقرابتهما من الرسول (ص) فجعل لكل واحد منهما ٥٠٠٠ درهم .

وخصص لكل من هاجر قبل فتح مكة ٣٠٠٠ درهم في السنة، كما خصص لكل واحد من الذين اسلموا في اثناء فتح مكة ٢٠٠٠ درهم سنوياً .

وجعل لكل واحد من الاحداث والشبان من ابناء المهاجرين ٢٠٠٠

درهم سنويا .

وخصص لكل امرأة من النساء الصحابيات المهاجرات ٣٠٠٠درهم سنويا الا صفية بنت عبدالمطلب عمة الرسول فقد فرض لها ٦٠٠٠ درهم سنويا .

وفرض لنساء اخريات ١٠٠٠ درهم سنويا لكل واحدة منهن كأسماء بنت عُمَيْس وام كُلثوم بنت عقبة ، وام عبد الله بن مسعود .

وفرض للموالي الذين اسلموا من غير العرب رواتب سنوية ايضا كما اسلفنا ذكر ذلك في بحث المساواة وخصص للهرمزان الفارسي بعد اسلامه ٢٠٠٠ درهم سنوياً .

وهكذا فرض عمر للناس مخصصات وجرايات سنوية بحسب سبقهم الى الاسلام وخدماتهم التي قدموها للدولة وبحسب حاجتهم . وجعل من بقي من الناس بعد الاصناف التي ذكرناها باباً واحداً فألحق من جاءه من المسلمين بالمدينة في (٢٥) دينارا لكل رجل اي في (٣٠٠) درهم ، وفرض لآخرين معهم .

وفرض لليمانيين وللقيسيين الذين بالشام والعراق لكل رجل مبلغاً يتراوح بين (٢٠٠٠) درهم الى ٣٠٠ درهم . ولم ينقص احداً عن ٣٠٠ درهم سنوياً . ويروى عنه انه قال : « لئن كثر المال لأفرضن لكل رجل (٤٠٠٠) درهم . الفا لسفره ، والفا لسلاحه ، والفا يخلفه لاهله والفا لفرسه ونعله » .

وكان عمر يفرض للطفل المولود ١٠٠ درهم في السنة فاذا ترعرع بلغ به ٢٠٠ درهم . وقيل : كان عمر لا يخصص شيئاً للمولود حتى يفطم ، غير أن الامهات فيما يظهر صرن يعجلن في فطام اولادهن فخشي عمر على الاطفال ان يصيبهم الضعف فأمر مناديه فنادى : الا تعجلوا اولادكم عن الفطام فاننا نفرض لكل مولود في الاسلام . وكتب الى عماله وولاته في الآفاق ان يخصصوا راتباً سنويا لكل مولود في الاسلام .

وكان عمر يخصص لكل لقيط (١٠٠) درهم ويعيّن له رزقاً يأخذه وليه كل شهر بقدر ما يصلحه ثم يزيده من سنة الى سنة • وكان يوصي بهم خيراً ، ويجعل رضاعتهم ونفقتهم من بيت المال •

ولقد كان اغتباط الناس عظيماً بهذه التدابير التي اتخذها عمر بن الخطاب لتأمين التكافل الاجتماعي في البلاد الاسلامية ، فقد شعر الناس انهم يعيشون في بحبوحة من العيش ، وفي شيء من العزة والسعادة والحرمة والكرامة ، يظهر لنا ذلك جلياً من سؤاله لخالد العُذْري – حين قدم عليه – عن احوال الناس ورأيهم في اجراءاته التي اتخذها ومن جواب خالد له : « تركتهم يسألون الله لك ان يزيد في عمرك من اعمارهم • ما وطيء احد القادسية الا وعطاؤه الفان او خمس عشرة مئة • وما من مولود ذكراً كان أو انثى الا الحِقَ في مئة وجريبين في كل شهر » قال عمر : « انما حقهم وأنا اسعد بأدائه لو كان من مال الخطاب ما اعطيتموه • ولكن قد علمتُ أن فيه فضلاً فلو انه اذا خرج عطاء احد هؤلاء ابتاع منه غنماً فجعلها بسوادهم فاذا خرج عطاؤه ثانية ابتاع الرأس والرأسين فجعله فيها ، فإن بقي احد من ولده كان لهم شيء قد اعتقدوه فاني لا ادري ما يكون بعدي ، واني لأعمّ بنصيحتي مَنْ طوّقني الله أمره فأن رسول الله (ص) قال : « من مات غاشاً لرعيته لم يُرَح رائحة الجنة » • ولم يكتف عمر بهذه التدابير التي اتخذها لتأمين راحة أمته وبلاده حتى قال يوماً : « لئن عشت ان شاء الله لاسيرَنَّ في الرعية حولا فاني اعلم ان للناس حوائج تقطع عني ، أما هم فلا يَصِلُون اليّ وأما عُمّالهم فلا يرفعونها اليّ فأسير الى الشام فأقيم بها شهرين ، ثم اسير الى الجزيرة فأقيم بها شهرين ، ثم اسير الى مصر فأقيم بها شهرين ، ثم أسير الى البحرين فأقيم بها شهرين ثم اسير الى الكوفة فأقيم بها شهرين ثم اسير الى البصرة فأقيم بها شهرين والله لَنِعْمَ الحول هذا »[٢١] •

(٢١) سيرة عمر بن الخطاب ص ١٢٣ . والطبري ج٥ ص ١٨ .

وعندما رحل عمر الى الشام عقد مؤتمر الجابية ووضع اسس العطاء وقسم الارزاق والغنائم[٢٢] واستطاع ان يفرض لكل مسلم نصيباً من الطعام في كل شهر ، ذلك انه لما اجتمع عنده امراء الاجناد جاء اليه « بلال » فقال : يا عمر فقال عمر : هذا عمر فقال : انك بين هؤلاء وبين الله ، وليس بينك وبين الله احد فانظر مَنْ بين يديك ، ومَن عن يمينك ، ومَنْ عن شمالك فان هؤلاء الذين جاؤوك والله إنْ يأكلون الا لحوم الطير . فقال عمر : صدقت ، لا أقوم من مجلسي هذا حتى تكفلوا لي لكل رجل من المسلمين مُدَّيْ بُرٍّ ، وحظّهما من الخل والزَّيت فقالوا : نكفل لك يا أمير المؤمنين ، هو علينا ، قد اكثر الله من الخير ، واوسع . قال : فنعم اذن . ثم اعلن للجمهور ذلك وقد أخذ المُدَّ بيد والقِسْط بيد وقال : اني فرضتُ لكل نفس مسلمة في كل شهر مُدَّيْ حنطة وقسطي خَلّ ، وقِسْطي زيت . فقال رجل : والعبيد ؟ فقال عمر : نعم ... والعبيد .

وروي ان ثلاثة مملوكين لبني غِفار شهدوا بدراً فكان عمر يعطي كل انسان منهم ثلاثة آلاف درهم ، وروي عن ام المؤمنين عائشة الصّديقة ان عمر كان يرسل الى نساء النبي (ص) نصيبهن من الفيء حتى من الوَرْس والزعفران . فلما كانت خلافة علي بن ابي طالب سَلَكَ سبيل صاحبيه ابي بكر وعمر ولم يغير شيئاً مما صنع عمر . وجاء عنه في نهج البلاغة أنه قال لما قدم الكوفة : « ماقَدِمْتُ هاهنا لأحُلَّ عقدة شدَّها عمر » .

مما تقدم يمكننا أن نقرر ان العطاء الذي نظّمه عمر بن الخطاب هو بحد ذاته «الضمان الاجتماعي» لأنه لم يكن أجراً ولا صدقة وانما كان المستحق يأخذه على انه حق له في بيت المال .

ويظهر ان الامويين ايضا اتبعوا سيرة الخلفاء الراشدين في تقسيمهم الاموال على المسلمين وفي الاستفادة منها في الاغراض العامة

(٢٢) طبقات ابن سعد ج٣ ص ٢٨٢ و ٢٣٤ .

كالضمان الاجتماعي للامة فقد كانوا يوزعون العطاء من هذا الفيء في سبيل الله للمقاتلة والذرية ، وللشؤون المختلفة ، كما كانوا يقسمون ما زاد على ذلك بين الناس ، فقد روي ان معاوية بن ابي سفيان خطب مرة فقال : « إن في بيت مالكم فَضْلاً عن عطيتكم ، وأنا قاسم بينكم ذلك فان كان فيه في قابل فَضْلٌ قسمناه بينكم ، وإلا فلا عَتِيبَةَ علينا فيه ، فأنه ليس بمالنا ، إنما هو فيء الله الذي افاءه عليكم » .

وكان معاوية قد جعل على كل قبيلة من قبائل العرب بمصر رجلاً يصبح فيدور على المجلس فيقول : هل ولد الليلة فيكم مولود ؟ وهل نزل بكم نازل فيكتب اسماءهم في الديوان[٢٣] .

وأراد الأمويون ان يرفهوا على المسلمين ، ويحلوا مشاكلهم ، فكانوا يُوَفّون ديون الناس الذين اصبحوا مدينين في اشغالهم ، أو أصابتهم آفة ، ولم يسرفوا في انفاق اموالهم . كما انهم كانوا يزوجون من بيت المال كل انسان يرغب في الزواج ولا يملك ما يتزوج به . وساعدوا أهل الذمة الذين ضعفوا عن استثمار اراضيهم فكانوا يسلفونهم من اموال الفيء ليستعينوا بها على عمل ارضهم ، وليتمكنوا من دفع الجزية والخراج بانتظام الى بيت المال ، فقد روي ان عمر بن عبدالعزيز كتب الى عبدالحميد بن عبدالرحمن عامله على العراق . « أن أخرج للناس أعطياتهم » فكتب اليه عبدالحميد يقول : «اني قد اخرجت للناس اعطياتهم وقد بقي في بيت المال مال » فكتب اليه عمر : « ان انظر كلَّ من ادّان في غير سفه ولا سرف فاقض عنه » فكتب اليه : « اني قد قضيت عنهم ، وبقي في بيت المسلمين مال » فكتب اليه : « ان انظر كل بكْر ليس له مال فشاءأ ان تزوجه وأصدق عنه » فكتب اليه : « اني قد زوجت كل من وجدت ، وقد بقي في بيت مال المسلمين مال » فكتب اليه بعد مخرج هذا : ان انظر من كانت عليه جزية فضعف عن ارضه فأسلفه ما يقوى به على عمل ارضه فانا لا نريدهم لعام او لعامين » .

---

(٢٣) خطط المقريزي ج١ ص ١٥١

وروي ان الحجبة كتبوا الى عمر بن عبدالعزيز ليأمر للبيت بكسوة كما كان يفعل من كان قبله فكتب اليهم : « اني رأيت ان اجعل ذلك في اكباد جائعة فانه اولى بذلك من البيت »[٢٤] .

وذكر احد ولاة عمر بن عبدالعزيز ان عمر بعثه على صدقات بني تغلب وعهد اليه أن يقبضها ثم يردها على فقرائهم وشرح الطريقة التي كان يتبعها فقال : « كنت آتي الحي وأدعوهم بأموالهم فأقبض ما كان فيهم ، ثم ادعو فقراءهم واقسمها فيهم حتى انه ليصيب الرجل الفريضتين او الثلاث فما افارق الحي وفيهم فقير . ثم آتي الحي الآخر فأصنع بهم كذلك فما انصرف اليه بدرهم »[٢٥] .

وعني العباسيون بالتأمين الاجتماعي ايضا فقد انشأ العباسيون ديواناً للبر وديواناً للصدقات لمساعدة المعوزين [٢٦] وذكر الخطيب البغدادي[٢٧] ان المهدي قسم الاموال في سنة ١٦٤ هـ على بني هاشم ، ومشيخة القرشيين ، ومشيخة الانصار ، والعرب والموالي . وذكر ايضاً انه أخرج ما في الخزائن ففرقه حتى أكثر من ذلك . وبرّ أهله واقرباءه، ومواليه، وذوي الحرمة. وأخرج لأهل بيته ارزاقاً لكل واحد منهم في كل شهر خمسمئة درهم .

وذكر الاربلي في خلاصة الذهب المسبوك[٢٨] ان المهدي لما بنى «عيساباذ» ونزلها أمر ان تكتب له اسماء اولاد المهاجرين والانصار ففرق فيهم ثلاثة ملايين درهم فأغنى كل فقير ، وجبر كل أسير ، وفرّج كل مكروب .

وذكر الطبري [٢٩] ان يعقوب بن داود وزير المهدي كان يدخل

(٢٤) سيرة عمر بن عبدالعزيز ص ٧٦
(٢٥) سيرة عمر بن عبدالعزيز ص ٨٧ .
(٢٦) تجارب الامم ج١ ص ١٥٢ .
(٢٧) تاريخ بغداد ج١٣ ص ١٩٤ و ج٥ ص ٣٩٣ .
(٢٨) خلاصة الذهب المسبوك ص ٦٦ .
(٢٩) ج٩ ص ٣٢٨ ط . اولى . الحسينية .

على المهدي « ويرفع اليه النصائح في الامور الحسنة الجميلة من أمر الثغور ، وبناء الحصون ، وتقوية الغزاة ، وتزويج العزّاب ، وفكاك الأسارى، والمحبّسين، والقضاء عن الغارمين، والصدقة على المتعففين»

كما ذكر [٣٠] ان المهدي اتخذ المصانع وهي حياض الماء في كل منهل في الصحراء بين القادسية ومكة ، وأمر بتجديد الاميال والبرك وحفر الركايا وهي الآبار مع المصانع .

وجاء في البدء والتاريخ [٣١] ان الرشيد اجرى على المهاجرين والانصار ووجوه اهل الامصار وعلى اهل الدّين والآداب والمروآت.

وكانت زبيدة زوجته تنفق على اهل الفاقة من المعروف وهي التي اجرت عين زبيدة الى مكة ولا يزال هذا المشروع من اعظم الخدمات الاجتماعية لحجاج بيت الله وكانت كلفته مليوناً وسبعمئة الف دينار [٣٢] .

وكان للاشراف من العلويين والعباسيين مرتبات شهرية غير ما كان يصيبهم أو يعطى لهم في المناسبات الخاصة .

وكان الخليفة المعتمد يعطي لكل هاشمي عباسيا كان او علويا ، ولكل ولد من اولادهم ذكراً كان او انثى . وقد وزع المقتدر عليهم (١٥) الف دينار ، وزاد في ارزاقهم . وكانت امه تتصدق كثيراً من وارداتها التي ربما بلغت مليون دينار في العام ، وكانت تنفق على مصالح الحجاج وترسل معهم الى مكة الاطباء وخزانة للشراب وكانت تتعهد اصلاح الحياض[٣٣] .

وكان المعتضد يوزع خمسة عشر ديناراً يومياً على الحريم

---

(٣٠) ج٩ ص ٣٣٨ط . الحسينية .
(٣١) ج٦ ص١٠١ والفرج بعد الشدة ص٢٨١ والجهشياري ص١٧٧
(٣٢) الوزراء للصابي ص ٢٥ . مروج الذهب ج٨ ص٢٩٥-٢٩٧.
(٣٣) المنتظم ج٦ ص ٢٥٣ .

المحتاجات في قصر الخلافة . ويجري لمشايخ الهاشميين مرتباً خاصاً مقداره ٦٠٠ دينار في الشهر (٣٤) .

ويذكر ابن كثير (٣٥) ان المقتدر لما ختن اولاده ختن قبلهم ومعهم خلقاً من اليتامى واحسن اليهم بالمال والكساوى . وقد كلفه هذا الختان ستمئة الف دينار .

وكان ابن الفرات يجري على خمسة آلاف من المحتاجين جرايات اقلها خمسة دراهم في الشهر ونصف قفيز من الدقيق الى عشرة اقفزة ومئة دينار وما بين ذلك . وكان يوزعها على اهل العلم والدين والفقراء وكان يُضْرب بمروءته المثل . وكانت في داره حجرة شراب ، كان الكُتّاب والقواد يوجهون غلمانهم من المواضع البعيدة ليأخذوا لهم منها ما يريدون من السَّكَنْجَبين والجُلاّب والفُقّاع والثلج وغيرها وكان كل من يخرج من دار ابن الفرات عند غروب الشمس يأخذ معه شمعتين (٣٦) . ويذكر مسكويه ان ابن الفرات فرّق على طلاب الادب مالاً ، وعلى من يكتب الحديث مثله وكان جرى حديثهم في مجلسه فقال : لعل الواحد منهم يبخل على نفسه بدانق فضة ودونها ويصرفه الى ثمن حبر وورق .

وفرّق على الشعراء مالاً وقال : « انا اولى من عاونهم على امرهم »(٣٧) . وكان الوزير علي بن عيسى بن الجراح يجري الارزاق على الأئمة والقراء والمؤذنين (٣٨) .

وهكذا كانت الدولة العربية الاسلامية تعْنَى بالأمة جمعاء ،

---

(٣٤) الوزراء للصابي ص ٢٥ .
(٣٥) البداية والنهاية ج١١ ص ١٢٢ .
(٣٦) ثمار القلوب ص ٢١٢ وابن خلكان ج٣ ص ٩٨ — ٩٩ .
(٣٧) تجارب الامم ج١ ص ١١٩ .
(٣٨) تجارب الامم ج١ ص ١٥٢ .

ولاسيما بالضعفاء من افرادها • وقد روي عن الرسول (ص) انه قال : « انا اولى بالمؤمنين فمن ترك دَيْناً فعليّ قضاؤه ، ومن ترك مالا فلورثته » وفي رواية « من تَرَكَ كَلاًّ فإلينا ، ومن ترك مالاً فلورثته » [39] •

(٣٩) راجع بحثنا « اول تأميم في العراق ص ٣ الى ص ٧ من مجلة الاقلام ج٤ من السنة الاولى رجب سنة ١٣٨٤ هـ ـ كانون الاول ١٩٦٤م» وكتاب الاموال لابي عبيد بن سلام ص ٣٥ ، ٢٣٥ ـ ٢٣٦ وفتوح البلدان للبلاذري ص ٤٣٨ و ٤٤٥ . وراجع ايضا بحثنا « الضمان الاجتماعي في الاسلام » أو التنظيم العمري في الخراج من ص ٣ إلى ١٢ من مجلة الاقلام ج٧ من السنة الاولى آذار سنة ١٩٦٥ .

الفصل الثامن

الدعوة الى الضمان الاجتماعي من المرض والجهل

١ ـ التأمين من المرض :

لئن عالج الاسلام مشكلة الفقر بالانظمة الاقتصادية التي شرّعها فقد عالج مشكلة المرض بما وضع المسلمون من قواعد وارشادات صحية، وبما انشأوا من مستشفيات لا تحصى في بلادهم الواسعة خلال حكمهم الطويل ، على الصعيدين الرسمي والشعبي .

فقد عُني الاسلام بالصحة ، وشرّع للنظافة ولما يعود على جسم الانسان بالخير والعافية . ودعا الى القيام بجملة من الخدمات الاجتماعية التي قلما نجدها في الحضارات العالمية او الاديان الاخرى ، وامتدح الاسلام الصحة والقوة ليقوى المسلم على الكفاح ، ولأن « المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف » وليشعر بلذة الحياة ، وليستمتع بما فيها من اطايب . جاء في القرآن : « ان خير من استأجرت القوي الامين » (٢٦ ـ القصص) ، « ... وزاده بسطة في العلم والجسم » (٢٤٧ ـ البقرة) .

وقال تعالى : « ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله اليك » (٧٧ ـ القصص) .

« اليوم أحِلّ لكم الطيبات ، وطعام الذين اوتوا الكتاب حِلٌّ لكم وطعامكم حِلٌّ لهم » (٥ ـ المائدة) .

ولقد دعا الاسلام الى مكافحة الامراض بالنظافة التي عدّها من الايمان ، وأمر بالوضوء خمس مرات في اليوم . وسَنَّ الرسول (ص) غسل كل عضو ثلاث مرات بالاضافة الى المضمضة والاستنشاق ومسح الاذنين وتدليك الجسم وتخليل ما بين الاصابع . ودعا الى الاغتسال من الجنابة والاحتلام والاكثار من الاستحمام . قال تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وايديكم الى المرافق ، وامسحوا برؤوسكم وارجلكم الى الكعبين.. » (٦ ـ المائدة) .

« وثيابَكَ فطَهِّر . والرُّجْزَ فاهجر » (٤و٥ ـ المدثر) .

« وان كنتم جُنُباً فاطَّهَّرُوا » (٦ ـ المائدة) .

وفي الحديث :

« اتقوا القوارع الثلاث : البراز في الموارد ، وقارعة الطريق ، والظل » .

و « طهِّروا افنيتكم فان اليهود لا تطهر افنيتها » .

و « نظفوا افواهكم فانها طرق القرآن » .

وحرّم الاسلام أكل اللحوم الضارة لئلا تتأذى منها الاجسام ، قال تعالى :

« حُرِّمَتْ عليكم الميتة ، والدم ، ولحم الخنزير ، وما أُهِلَّ لغير الله به ، والمنخنقة ، والموقوذة ، والمتردِّية ، والنطيحة ، وما أكل السَّبُعُ إلا ما ذَكَّيْتُم ... » (٣ ـ المائدة) .

كما حرّم كل ذي مخلب من الطير ، وكل ذي ناب من السباع.

واستعمل الرسول (ص) واصحابه « السِّواك » [١] قبل استعمال فرشة الاسنان بزمن طويل قال (ص) :

« لولا أن اشق على أمتي لأمرتهم بالسواك قبل كل صلاة » .

كما حَثّ الاسلام على الاستفادة من الادوية والمعالجة والحِمْيَة وتجنب التخمة من ذلك قول الرسول (ص) :

« تداوَوا عباد الله فأن الله لم يضع داءً الا وضع له دواءً غير داء واحد : الهرم » .

« لا تُكْرِهوا مرضاكم على الطعام والشراب فان الله يطعمهم ويسقيهم » .

---

(١) راجع ص ١٨٤ من كتاب « الظرف والظرفاء » .

« اذا سمعتم بالطاعون في ارض فلا تقدموا عليها ، واذا وقع في ارض وأنتم فيها فلا تخرجوا فراراً منه » .

« ما ملأ ابن آدم وعاءً شراً من بطنه ، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فان كان لا بد فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه » .

وقال تعالى : « ... وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين » (٣٠ ــ الاعراف) .

وقد عضد الاسلام الطب والتمريض لحاجة العرب المسلمين اليهما في حروبهم ، كما عنوا بالطب البيطري لمعالجة حيواناتهم . وكان الطب البيطري ضرورة ملحة في حياتهم لأنه يحافظ على ثروتهم الحيوانية التي كان عليها جل اعتمادهم .

ويعلق العالم الفرنسي الدكتور گوستاف لوبون على الوصايا الطبية التي أثرت عن الرسول (ص) بقوله : وما امر به القرآن من الوضوء ، والامتناع عن شرب الخمر ، ثم ما سار عليه ابناء البلاد الحارة من تفضيل الطعام النباتي على الطعام الحيواني مما هو غاية في الحكمة . وليس فيما روي عن النبي من الوصايا ما يمكن انتقاده .

وفي خلافة الراشدين فرض عمر بن الخطاب للمجذومين رزقاً من بيت المال ، ومنع اختلاطهم بالناس وكان يعطي العجزة والزمنى[2] . اما الامويون فهم اول من اسس مستشفى للمجذومين في الاسلام في خلافة الوليد بن عبدالملك سنة ٨٩هـ (٧٠٧م) وهو اول خليفة جعل لكل اعمى قائداً يقوده ولكل مقعد خادماً يخدمه .

والوليد بن عبدالملك هو الذي عمل البيمارستان للمرضى ودار الضيافة وكان اول من أجرى على العميان والمساكين والمجذمين الارزاق . وأول من اجرى طعام شهر رمضان في المساجد[3] .

---

(٢) الطبري ج٢ ص١٣٦٧ . وفي فتوح البلدان ص ١٣٥ أنه اجرى القوت على نصارى مجذمين في دمشق .

(٣) تاريخ اليعقوبي : ٢٩٠ ــ ٢٩١ .

وكان الوليد يختن الايتام، ويرتب لهم المؤدبين، كما كان يرتب للزَّمْنَى من يخدمهم ، وللأضِرّاء من يقودهم ، ورزق الفقهاء والضعفاء، وحرَّم عليهم سؤال الناس ، وفرض لهم ما يكفيهم ، وضبط الامور أتم ضبط [٤] .

ويروى ان عمر بن عبدالعزيز كتب الى امصار الشام : « أن ارفعوا اليّ كل اعمى في الديوان ، او مُقْعَد ، أو من به فالج ، أو مَنْ به زمانة تحول بينه وبين القيام الى الصلاة . فرُفعوا اليه . فأمر لكل اعمى بقائد ، وأمر لكل اثنين من الزَّمْنَى بخادم »[٥] .

وكتب اليهم ايضاً : « ان ارفعوا اليّ كل يتيم ، ومَنْ لا أحد له ممن قد أجرى على والده الديوان فأمر لكل خمسة بخادم يتوزعونه بينهم بالسوية » [٦] .

ويذكر الطبري [٧] ان الوليد بن يزيد بن عبدالملك أجرى على الزَّمْنَى في الشام والعميان وكساهم .

واسس العباسيون عددا كبيرا من المستشفيات[٨] في جميع البلاد التي كانوا يحكمونها منذ عهد المهدي وابنه هارون الرشيد حتى انقضاء دولتهم في العراق ومصر ، كذلك فعلت الدول الاسلامية كافة في آسية وافريقية واوربة . وكان من هذه المستشفيات :

١ ــ مستشفيات للمجانين الذين كانوا يعالجون في مستشفيات خاصة كما كانوا يعالجون في المستشفيات العامة . وقد عالج العرب هؤلاء المجانين بالطب النفساني وعن طريق الايحاء، وبواسطة الموسيقى ايضا .

---

(٤) تاريخ السيوطي : ٢٢٣ ــ ٢٢٤ .

(٥) سيرة عمر بن عبدالعزيز ص ١٥٤ ــ ١٥٥ .

(٦) سيرة عمر بن عبدالعزيز ص ١٥٥

(٧) ج٢ ص ١٧٥٤ .

(٨) راجع الفصل الخامس من بحثنا « مستشفيات بغداد في العصر العباسي » في العدد الرابع من مجلة الشريعة سنة ١٩٦٨ .

٢ ــ مآوى للعميان والايتام والنساء العاجـزات كالمستشفيات التي بناها المأمون في المدن الكبيرة . وجـاء في البدء والتاريخ[٩] ان المهدي وضع دوراً للمرضى ، وأجـرى على العميـان والمجذومـين والضَّعْفَى .

٣ ــ مستشفيات الجيش . وكانت هذه المستشفيات متحركة تنقل على ظهور الجمال والبغال ولذلك يمـكن القـول بأنه كان للجيوش مستشفيات خاصة بها تشبه وحدات الميدان الطبية . وكانت النسـاء تقوم بتمريض الجرحى من الجنود حتى يشفوا . ومن المسـتوصفات السيارة بيمارستان السلطان محمود السلجوقي الذي كان يحمل على اربعين جملاً، وبيمارستان الوزير شمس الملك بن نظام الملك الذي كان يحمل آلاته وخيمه وادويته ، والاطباء والغلمان والمرضى مئتان مـن الجمـال .

٤ ــ المستشفيات العامة . وكانت تنشأ في المدن الكبيرة . وكان يقوم ببنائها الخلفاء والامراء والاطباء انفسهم ، وينفق عليها بسـخاء من الاوقاف التي ترصد لها ومن هبات المحسنين .

وكان يقبل في هذه المستشفيات كل مريض يحتاج الـى المعالجة بصرف النظر عن لونه ودينه أو مقامه، ذكراً كان أو انثى . كما عولجت البهائم ايضا[١٠] .

٥ ــ المستشفيات السيارة . وهي المستشفيات النقالة التي كانت تعرف بالمحمولة لانها كانت تحمل الى الاماكن التي لا يوجد فيها اطباء وبخاصة في القرى حيث كانوا يعالجون المرضى عامة .

ولعل من أعظم الخدمات الاجتماعية في خلافة العباسيين عنايتهم بتطبيب أهل القرى والارياف والسجون . ومما يذكر في هذا الصدد

---

(٩) ج٦ ص ٩٦ .

(١٠) راجع الفصل الاول من بحثنا « مستشفيات بغداد في العصر العباسي » في العدد الرابع من مجلة كلية الشريعة سنة ١٩٦٨ م .

ما فعله الوزير البغدادي علي بن عيسى الذي أهتم بانشاء المستشفيات النقّالة فقد وقّع للطبيب سنان بن ثابت رئيس اطباء بغداد توقيعاً يقول له فيه : « فكَّرْتُ ـ مَدّ الله في عمرك ـ فيمن بالسواد من أهله ، وأنه لا يخلو من أن يكون فيه مرضى لا يشرف متطبب عليهم لخلو السواد من الاطباء فتقدم ـ مد الله في عمرك ـ بانفاذ متطببين ، وخزانة من الادوية والاشربة ، يطوفون في السواد ، ويقيمون في كل صقع منه مدة ما تدعو الى مقامهم ، ويعالجون مَنْ فيه ، ثم ينقلون الى غيره » ففعل سنان ذلك[11] وأعلم سنان الوزير : أن الرسم في بيمارستان الحضرة قد جرى للملي والذمي . وكتب الوزير المذكور توقيعاً آخر الى سنان جاء فيه : « واكتب الى اصحابك به ووصٍّ بالتنقل في القرى والمواضع التي فيها الاوباء الكثيرة والامراض المعاشية »[12] .

وقد عُني العرب بمعالجة المسجونين كما يفهم ذلك من التوقيع الذي وقعه الوزير البغدادي علي بن عيسى الى سنان بن ثابت في سنة كثرت فيها الامراض والاوبئة ونصه : « فكَّرْتُ ـ مد الله في عمرك ـ في امر مَنْ في الحبوس ، وأنهم لا يخلون مع كثرة عددهم وجفاء اماكنهم ان تنالهم الامراض وهم مُعَوَّقون عن التصرف في منافعهم ، ولقاء منْ يشاورونه من الاطباء في امراضهم فينبغي ـ اكرمك الله ـ انتفرد لهم اطباء يدخلون اليهم في كل يوم ، ويحملون معهم الادوية والاشربة وما يحتاجون اليه من المزوّرات[13] وتتقدم اليهم بأنيدخلوا سائر الحبوس ، ويعالجوا مَنْ فيها من المرضى ، ويزيحوا عِلَلَهم فيما يصفون لهم ان شاء الله تعالى »[14] .

---

(١١) القفطي ص ١٩٤ وابن ابي اصيبعة ج١ ص ٢٢١ .
(١٢) القفطي ص ١٩٤ .
(١٣) شوربة الخضروات بدون لحم او سمن .
(١٤) إبن ابي اصيبعة ٢٢١ والقفطي ١٩٣ .

ومما يدل على مبلغ عناية القوم بالمرضى والتخفيف عنهم ومحاولتهم القضاء على الامراض ما ذكره المؤرخون عن بيمارستان بدر المنسوب الى بدر غلام الخليفة المعتضد بمحلة المخرّم جنوبي رصافة المهدي فقد كانت النفقة عليه من واردات السيدة سجاح أم المتوكل . وكان الوقف في يد ابي الصقر وهب بن محمد الكلواذي . وكان قسم من هذه الواردات ينفق الى بني هاشم . ويظهر انأبا الصقر كان يروّج على بني هاشم مالهم ويؤخر ما يصرف الى نفقة البيمارستان ويعيقه فكتب سنان بن ثابت الى الوزير علي بن عيسى يعرّفه ما لحق المرضى من الضرر بذلكوقصور ما يقام لهممن الفحم والمؤن والدثار وغير ذلك عن مقدار حاجتهم فكتب على ظهر كتاب سنان الى ابي الصقر توقيعاً هذا نصه : « أنت اكرمك الله تقف على ما ذكره وهو غليظ جداً ، والكلام فيه معك خاصة فيما يقع منك يلزمك ، وما احسبك تسلم من الاثم فيه ، وقد حكيت عني في الهاشميين قولاً لست اذكره ، وكيف تصرفت الاحوال في زيادة المال أو نقصانه ووفوره أو قصوره ، ولابد من تعديل الحال فيه بين ان تأخذ منه وتجعل للبيمارستان قسطاً ، بل هو احق بالتقديم على غيره لضعف من يلجأ اليه ، وعظيم النفع به فعرّفني ـ اكرمك الله ـ ما النكتة في قصور المال ونقصانه في تخلف نفقة البيمارستان هذه الشهور المتتابعة وفي هذا الوقت خاصة مع الشتاء واشتداد البرد فاحتَل بكل حيلة لما يُطلق لهم ، ويُعجَّل حتى يدفأ من في البيمارستان من المرضى والممرورين بالدثار والكسوة والفحم ، ويقام لهم القوت ، ويتصل لهم العلاج والخدمة . واجبني بما يكون منك في ذلك ، وانفذ لي عملاً يدلني على حجتك . واعن بأمر البيمارستان فضل عناية ان شاء الله تعالى»(١٥) .

وكانت هذه المستشفيات تقوم على اموال الاوقاف التي كانت

---

(١٥) ابن ابي اصيبعة ج١ ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣ .



صيدلية ببغداد سنة ٦٢١ هـ (١٢٢٤) م

تكون واردات كبيرة تكفي للقيام بحاجات المستشفى من غذاء وكساء وادوية وأجور للاطباء والممرضين والخدم والوقود والمياه والاثاث ومرمة للبناء . وكانت المستشفيات تؤثث بأحسن الاثاث فقد قيل : ان أثاث المستشفى المنصوري بالقاهرة كان يماثل اثاث قصر الخليفة وقصور الأمراء . وكان الغذاء يحتوي على لحوم الضأن والابقار والطيور . وكان المريض يزود بعد استحمامه ، بثياب نظيفة . ويبقى في المستشفى حتى الشفاء التام . وكانت علامة الشفاء ، مقدرة المريض على أكل رغيف كامل ودجاجة كاملة في الدفعة الاولى . وعند خروجه من المستشفى كان يعطى بدلة من الثياب ومبلغاً من النقود يكفيه العوز الى ان يصبح قادراً على العمل .

ولئن عُني العرب بمعالجة المرضى في المستشفيات فقد عُنوا بدراسة الطب فيها ايضا . وفتحوا في البلاد الاسلامية كثيراً من مدارس الطب التي كانت تقوم بتدريس الطب . ولما انشئت المستنصرية ببغداد وهي أول جامعة في العالم الاسلامي الحقت بها مدرسة للطب وكان طبيبها يتردد الى مرضى المستنصرية بكرة كل يوم يتفقدهم ، ويداويهم من مخزنها اي من مذخر ادويتها الذي كان فيه انواع الاشربة والادوية والعقاقير علاوة على المشاهرات ، والمواد العينية التي كانت توزع عليهم كل يوم .

وكان حفظ قوام الصحة وتقويم الابدان من الامور التي تدرس بالمستنصرية وتحظى بعناية مدرسيها واطبائها . كما كان الطلبة الذين يقومون بدراسة الطب موضع عناية خاصة من الدولة أو الواقفين أو منشئي المدارس فقد كانت لهم المشاهرات النقدية والجرايات العينية الدارّة من الخبز واللحم وما يوصف لمرضاهم من الادوية والاشربة والاكحال السائلة والسكر والفراريج والفرش والآلات[١٦] حتى بلغ من عناية العباسيين بالصحة العامة ، ان بغداد في خلافة المستعصم خلت

---

(١٦) راجع كتابنا «تاريخ علماء المستنصرية» المجلد الاول ٣٨٧-٣٩٦

من ميت سوى طفل صغير وذلك في يوم عيد الفطر سنة ٦٤٦ هـ كما جاء ذلك في التقرير الذي قدمه ناظر ديوان التركات الى الديوان[١٧] .

ومما يجدر ذكره ان الاطباء كانوا يحرصون على خدمة الناس ومعالجتهم معالجة صادقة اذ كانوا يستشعرون الله تعالى في قلوبهم وضمائرهم ، فقد قال الطبيب البغدادي ابو الحسن المختار بن الحسن المعروف بابن بُطْلان احد نصارى الكرخ المتوفى سنة ٤٤٤ هـ « .. وان لنا موقفَ حساب، ومجمعَ ثواب وعقاب يتكلم فيه المرضى الى خالقهم ، ويطالبون الاطباء بالأغلاط القاضية بهلاكهم »[١٨] وقال الطبيب البغدادي « حُنَيْن بن أسحق » : « الصناعة تمنعنا من الاضرار بابناء الجنس لانها موضوعة لنفعهم ، ومقصورة على مصالحهم ، ومع هذا فقد جعل الله في رقاب الاطباء عهداً مؤكداً بأيمان مغلظة ان ان لا يُعطُوا دواءً قتالاً ولا ما يؤذي[١٩] .

٢ ـ التأمين من الجهل :

وقد حارب الاسلام : الجهل كما حارب الفقر والمرض.وليس أدل على ذلك مما جاء في بحث النزعة العلمية في الحضارة العربية[٢٠] حيث ذكرنا ان القرآن ردد ذكر العلم ومشتقاته واشار الى أهميته في (٧٨٠) آية عدا الاحاديث الكثيرة واقوال العلماء التي حبذت العلم وكرمت العلماء ودعت الى مقاومة الجهل حتى انتشر العلم في كل مكان ، وجاء على كل لسان . وكان الرسول (ص) هو المعلم الاول الذي علم العرب القرآن والشريعة الاسلامية وفَقَّهَهُم في دين الله. وكان اصحابه والتابعون

---

(١٧) الحوادث الجامعة ص ٢٢٩ .
(١٧) الحوادث الجامعة ص ٢٢٩ .
(١٨) القفطي ص ٣٦٤ .
(١٩) ابن ابي إصيبعة ج١ ص ١٤٥ في ترجمة حنين بن اسحق .
(٢٠) راجع الفصل الثامن من الباب الثالث من هذا الكتاب .

هم المجتهدين الاوائل في البلاد التي فتحوها في اسية وافريقية واوربة.

وقد اتخذ الرسول (ص) مسجده بالمدينة مركزاً لنشر الاسلام وكان أول مسجد انبثقت منه انوار المعرفة طيلة عهد الرسالة وعصر الراشدين وغدت المساجد الجامعة التي بنيت على غراره في البلاد الاسلامية ، من أهم مراكز النشاط العلمي • ووصلت الى مستوى عال في التفكير العقلي والانتاج اللغوي والديني وفي البحث والنقد والاخذ والرد والجدل والمناظرة •

وقد أهتم الرسول (ص) بتعليم المسلمين الاولين فكان يفقههم في أمور الدنيا والدين بنفسه • ومما يذكر في هذا الصدد انه بعد موقعة (بدر) طلب الى اسراه الذين لم يستطيعوا ان يفدوا انفسهم بالمال ان يعلم كل واحد منهم عشرة من صبيان المدينة القراءة والكتابة •

وبلغ عدد كتّاب الرسول (ص) كما اسلفنا (٤٢) كاتبا[٢١] كانوا يكتبون له في جميع أموره ومهام دولته من رسائل وكتب الى الملوك والامراء من عهود واتفاقات بينه وبين أهل الذمة وقريش والقبائل المختلفة • وكان بعضهم يكتب مغانم الرسول ، واموال الصدقات والمداينات والمعاملات[٢٢] وكان يطلق اسم الكَمَلَة[٢٣] على الذين كانوا يكتبون له • وكان الكملة في الجاهلية واول الاسلام ، هم الذين يكتبون العربية ، ويحسنون العوم والرمي •

وقددعا الاسلام الى التعلم وتكريم العلم والعلماء في اقوال كثيرة لا يمكن احصاؤها ولا ادراكها • قال علي : « العلم خير من المال • العلم يحرسك وانت تحرس المال • العلم حاكم والمال محكوم عليه •

---

(٢١) راجع عنهم : (المحبّر) ص ٣٧٧ وتاريخ اليعقوبي ج٢ والعقد الفريد ج٤ والجهشياري ص١٢-١٣ والتنبيه والاشراف • وفي هذا الكتاب الاخير اسماء كتاب ابى بكر وعمر وعثمان وعلي •

(٢٢) سيرة عمر بن الخطاب ص ٥٨

(٢٣) البلاذري ص ٤٧٤ •

والمال تنقصه النفقة ، والعلم يزكو بالانفاق » وقال ابو حنيفة : « من ظن انه يستغني عن التعلم فليبك على نفسه » • وروي ان أبا معاوية الضرير قال : « اكلت مع هارون الرشيد ـ امير المؤمنين ـ طعاماً يوماً من الأيام فصب على يدي رجل لا أعرفه ، فقال هارون الرشيد : يا أبا معاوية تدري من يصب على يديك ؟ قلتُ : لا • قال : أنا قلتُ : انت يا امير المؤمنين ! قال : نعم • اجلالاً للعلم »[٢٤] •

ويروى ان عمر بن الخطاب جعل في المدينة رجالاً يفحصون المارة فمن وجدوه غير متعلم اخذوه الى الكُتّاب ليعلموه • وهو أول من جعل بالمدينة قارئين قارئاً يصلي بالرجال ، وقارئاً يصلي بالنساء وكان عمر يفرض العطاء على تعلم القرآن ويروى انه بعث رجلاً يستقرئ أهل البوادي فمن لم يقرأ ضربه[٢٥] • ويظهر انه صار للفقراء فيما بعد اماكن يدرسون فيها تسمى « كُتّاب السبيل » كما ان بعض الكتاتيب كانت لاولاد العامة وبعضها لاولاد الاكابر • وكان المؤدب يعلم اولاد الخاصة وهم أولاد الخلفاء والقادة والاعيان •

وقد رافقت هذه الكتاتيب التعليم عند المسلمين في جميع ادواره منذ صدر الاسلام حتى في عهود الدولة العباسية التي انتشرت فيها دور العلم ، فقد جاء في معجم البلدان[٢٦] ان رجلاً قدم على ابي بكر في المدينة وأصله من حاضر حلب ، فجعله ابو بكر في المكتب •وفي تاج العروس[٢٧] اشارة الى ان الكتاب كان موجودا في زمن عمر • وكانت دار القراء في المدينة • وكان لعلقمة بن ابي علقمة مولى عائشة مكتب يعلم فيه العربية والعروض والنحو ومات في خلافة المنصور[٢٨] •

(٢٤) الخطيب البغدادي ج١٤ ص ٨ •

(٢٥) ألاموال ص ٢٦١ وسيرة عمر بن الخطاب ص ٥٨ والاصابة ج١ ص ٨٣ •

(٢٦) في مادة « حاضر » •

(٢٧) في مادة ابجد

(٢٨) الاعلاق النفيسة ص ٢١٦ •

وقال الامام احمد بن حنبل عن نفسه « كنت وانا غُليم اختلف الى الكتّاب ثم اختلفت الى الديوان وانا ابن اربع عشرة سنة [٢٩] » وهناك اشارات كثيرة الى الكتّاب فقد اشار ابن الجوزي الى الكتاب الذي تعلم فيه المعتصم [٣٠] . وفي المَحبَّر [٣١] ذكر لكتّاب الضحاك بن مزاحم . والضحاك معلم جماعة ورد ذكره في اشراف المعلمين وفقهائهم. كما ظلت الحلقات في المساجد حتى اليوم مع وجود المدارس والجامعات.

وارسل الأمويون المعلمين الى القبائل الرحّل ليعلموهم أمور دينهم وقراءة القرآن وشيئاً من الكتابة والحساب. ويذكر ابن الجوزي في سيرة عمر بن عبدالعزيز ان عمر ارسل الى البادية كلا من يزيد بن ابي مالك الدمشقي والحارث الاشعري يفقّهان الناس في البدو واجرى عليهما رزقاً . واحسن عمر بن عبدالعزيز الى الفقهاء ووصلهم بالجوائز، من ذلك ما كتبه الى عامله في حمص : « انظر الى القوم الذين نصبوا انفسهم للفقه وحبسوها في المسجد عن طلب الدنيا فأعط كل رجل منهم مئة دينار يستعينون بها على ما هم عليه من بيت مال المسلمين حين يأتيك كتابي هذا . وإن خير الخير اعجله والسلام عليك [٣٢] » .

واتخذ القراء والمحدثون والفقهاء حلقات لهم في المساجد الجامعة يجلسون فيها للدرس والمناظرة يتحلّق فيها طلابهم حولهم يتلقون عنهم علوم اللغة وعلوم الدين ...

وقد تطورت الحلقات خلال العصور وصار موضع العالِم يتميز بالسجادة التي يصلي عليها . وانقسم اصحاب الحلقات حسب اماكنهم في المساجد : الى اصحاب الكراسي وهم القُصاص أو الوعاظ ، واصحاب الاساطين وهم المفتون ، واصحاب الزوايا وهم أهل المعرفة . ويروى انه كان في المسجد الجامع بالبصرة حلقة واحدة لعلماء الفقه ،

---

(٢٩) ابن حنبل لابي زهرة ص ١٨ .
(٣٠) ابن الجوزي ج٣ ص ٣٤٣ .
(٣١) المحبَّر : ص ٤٧٥ .
(٣٢) سيرة عمر بن عبدالعزيز ص ٩٥ والاموال ص ٢٦٢

على حين كان للقصاص حلقات متعددة كانت المساجد تغص بها • وكان القاضي هو الذي يتولى القصص أول الامر ثم صار القصاص رجالاً ونساءً يعظون العامة ويقصون لهم القصص الدينية والنوادر والاساطير• ويروي المقدسي انه شاهد جامع الفسطاط بين المغرب والعشاء غاصاً بحلقات الفقهاء وأئمة القراء واهل الادب والحكمة وأحصى فيه (١١٠) مجالس • وكان الحضور في هذه الحلقات مباحاً للجميع •

ولم تكن المساجد قاصرة على تعليم الناس أمور دينهم ولغتهم بل كانت تدرس فيها العلوم الدنيوية الى جانب العلوم الدينية واللغوية• وظلت الدراسة قائمة في المساجد والمنازل ودور العلم ، وبيوت الحكمة والرُبُط وفي الاسواق والمارستانات الى أن انشئت المدارس المستقلة عن الجوامع في منتصف القرن الرابع الهجري لتدريس الفقه أو الطب أو القرآن أو الحديث واصبح في كل مدرسة مسـجد صغير للطلبة • وبعد ان كانت المساجد هي الاصل الذي تخضع له المدارس التي فيها أصبحت المدارس هي الاصل والمساجد هي الفرع • وأصبح التعليم في كثير من المدارس الكبيرة رسمياً بعد ان كان شـعبيا عامـا في حلقات المساجد • وتحدد الحضور في المدارس المستقلة واقتصر على عدد من الطلاب • على ان التعليم بوجه عام كان يشمل كل طبقات الناس رجالاً ونساءً حتى المماليك والعبيد والمغنين والجواري والايتام، والملاقيط ، والاماء من النســاء • كما انتشرت الثقافة بين البوابين والفراشين ، في المدارس وبين مناولي الكتب في دور العلم وغيرهم ممن يحسبون على العامة • وكان بين هؤلاء البوابين ببغداد من تلقى العلم على أكابـر العلماء • وقد اجاز بعضهم لعدد من مشاهير العلماء والمؤرخين فقد اجاز ابن ملاح الشط القصري وهو ابو الفرج عبدالرحمن بن محمد بن ابي ياسر البغدادي المتوفى سنة ٥٩٧ هـ وكان بواب مدرسة ام الناصـر لدين الله العباسي كلاً من ابن الدبيثي الواسـطي المـؤرخ العراقي الشهير ، وزكي الدين عبدالعظيم المنذري المؤرخ المصري المعروف •

وكان الأسعد الجبريلي بوأب دار الخلافة ببغداد يقصده طلاب الحديث للسّماع منه[٣٢] .

وقد انتشرت المدارس في العالم الأسلامي انتشارا يدعو الى التأمل من ذلك :

١ ــ المدارس التي ذكرها المؤرخون العراقيون في مؤلفاتهم كابن الأثير وابن الساعي وابن النجار وابن الفوطي ...

٢ ــ ما ذكره المقريزي وابن تغري بردي من المؤرخين المصريين.

٣ ــ ما جاء في ذلك الثبت الطويل الذي دوّنه عبدالقادر النعيمي في كتابه : « الدارس في اخبار المدارس » عن المدارس الحنفية والشافعية والحنبلية والمالكية في ديار الشام .

٤ ــ ما جاء في المصادر المختلفة عن مدارس المغرب وشمال افريقية ومدارس اليمن والحجاز ، ومدارس الاندلس ، ومدارس الهند وخراسان وتركية وسائر بلاد المشرق .

وكانت هذه المدارس اما احادية المذهب وهي التي تدرس مذهباً فقيهاً واحداً كالمذهب الحنفي أو الشافعي او الحنبلي أو المالكي. واما ثنائية المذهب وهي المدارس المشتركة بين مذهبين فقهيين كالمدارس المشتركة بين الحنفية والشافعية ، أو بين الحنفية والمالكية أو بين الشافعية والمالكية أو بين الشافعية والحنابلة أو بين الحنابلة والمالكية. وكانت توجد ايضا مدارس مشتركة بين الحديث والفقه على مذهب واحد أو بين الحديث والفقه على مذهبين . واما مدارس ثلاثية وهي المدارس المشتركة بين ثلاثة مذاهب .

وقد عملت دور القرآن ودور الحديث في الوقت ذاته على محو الجهل وبث التعليم في الاوساط المختلفة ذلك ان المسلمين كانوا

---

(٣٣) راجع الموجز في تاريخ الحضارة العربية ص ١٤١ ــ ١٦٦ وكتابنا « نشأة المدارس المستقلة في الاسلام » وبحثنا « صفحات من حضارة بغداد » في العدد الثاني من مجلة كلية الشريعة سنة ١٩٦٦ .

يتدارسون القرآن في المساجد وفي دور خاصة ، وفي المدارس التي كان يلحق بها دوما دور للقرآن، كذلك كانت السنة النبوية فقد كانت تدرس في المساجد وفي دور مستقلة كدور القرآن أو مشتركة بين القرآن والحديث أو بدور ملحقة بالمدارس • كما وجدت مؤسسات ثقافية أخرى انشئت لتجمع بين دراسة القرآن والحديث والفقه •

اما المدارس الرباعية وهي التي بنيت على المذاهب الاربعة فيمكن عدها جامعات لتدريسها المذاهب الفقهية الاربعة ولاحتوائها على اقسام علمية متعددة • وقد شرع ببناء أول جامعة ببغداد في سنة ٦٢٥ هـ وهي المستنصرية التي تم افتتاحها في سنة ٦٣١ هـ وكانت تدرس الفقه على المذاهب الاربعة والتفسير وعلوم القرآن والحديث والطب والعربية والرياضيات ومنافع الحيوان وحفظ الصحة وتقويم الابدان • وقد حذت حذو بغداد في بناء المدارس الرباعية والجامعات كل من مصر في سنة ٦٤١ هـ وحلب سنة ٧٣٧ هـ ومكة سنة ٨١٤ هـ[٣٤] •

وبعد ان تطورت الدراسة من الجامع الى المدارس والجامعات أصبح المدرسون يعينون بتوقيع اي بمرسوم خليفتي أو ملكي ، أو اميري ، او وزيري ، بعد ان كان التدريس في المساجد بدون توقيع أو تقليد • وخصصت للمدرسين المعاليم وهي المرتبات أو الجرايات بعد ان كان التعليم حسبة لله تعالى لان العلم عند المسلمين ما كان يقوَّم بثمن أو يثمن بمال اي لا يعادل بمادة من معلوم او مرتب او جراية •

وكانت التوقيعات التدريسية تحتوي على أمور تتعلق بمنصب التدريس ، وأهمية المدارس ، حيث لم يكن يُعَيَّن للتدريس الا من عرف بعلمه وعفته، وسداد رأيه، وتقواه، وخشية الله وطاعته مستشعراً ذلك في علنه وسريرته[٣٥] •

---

(٣٤) راجع كتابنا « تاريخ علماء المستنصرية » ج١ ص ٣٧-٤١ . وكتابنا « نشأة المدارس المستقلة في الاسلام » .

(٣٥) راجع كتابنا « التوقيعات التدريسية » .

الفصل التاسع

الدعوة الى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر

يمكننا ان نصف الاسلام بأنه نظام ايجابي يدعو الى اقامة نظام سياسي واقتصادي في غاية العدالة . ويأمر بالمعروف والخير . ولا يكتفي بذلك بل هو من الناحية الاخرى ينهى عن المنكر ، فيمنع الظلم، ويدفع الاذى عن الانسان ، ويصد عنه كل ما يؤدي الى استغلاله أو استعباده ويبيح له حرية القول والفعل في تغيير كل منكر يراه ، وتعديل كل معوج يطلع عليه . ويوجب عليه ان ينصر الله في كل شيء لئلا يستشري الفساد ، ويهلك العباد . قال الرسول (ص) : « من رأي منكم منكراً فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك اضعف الايمان » . اي انه يتحتم على الانسان تغيير المنكر بالقوة ، وإلا يتحتم على حملة الاقلام والقوّالين والخطباء المفوّهين ان ينبهوا الحكام وولاة أمورهم والناس كافة بالاقوال والخطب،وعلى صفحات الصحف ، وعن طريق الاذاعة لأن الساكت عن الخطأ كالشيطان الاخرس .

ويقرر العلماء ان المسلم اذا قتل بسبب دعوته الحكام الجائرين الى الاصلاح كان شهيداً، لذلك كان منعادة السلف التعرض للأخبار، والتصريح بالانكار من غير مبالاة بهلاك المهجة ، والتعرض لأنواع العذاب لعلمهم بأن ذلك شهادة . قال الرسول (ص) « خير الشهداء حمزة بن عبدالمطلب ثم رجل قام الى امام جائر فأمره ونهاه في ذات الله تعالى فقتله على ذلك »[1] وقال : « أفضل الجهاد كلمة حق عند

(١) احياء علوم الدين ج٢ ص ٣٤٣ ، وكتب الحديث المختلفة .

سلطان جائر » وقال ابو عبيدة بن الجراح : قلت : يا رسول الله اي الشهداء اكرم على الله عز وجل ؟ قال : « رجل قام الى والٍ جائر فأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر فقتله فان لم يقتله فان القلم لا يجري عليه بعد ذلك وان عاش ما عاش » .

وقد اوجب الاسلام دعوة الناس كافة الى المعروف ونهيهم عن المنكر . قال تعالى « ولتكن منكم أمةٌ يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف ويَنْهَوْنَ عن المنكر وأولئك هم المفلحون » (١٠٤ ــ آل عمران) . وقال : « كنتم خير أمة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتَنْهَوْنَ عن المنكر وتؤمنون بالله » (١١٠ ــ آل عمران) .

واجمعت المعتزلة إلا « الأصم » على وجوب الامر بالمعروف ، والنهي عن المنكر مع الامكان والقدرة باللسان واليد والسيف كيف قدروا على ذلك(٢) .

وعاب الاسلام من لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر . فقد ذم القرآن اليهود بالآية الكريمة « لُعِنَ الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عَصَوْا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهَوْنَ عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون (٧٨ و ٧٩ ــ المائدة) .

وقد وردت في القرآن آيات كثيرة عن المعروف وعن المنكر ، وآيات تحث على الأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، يبلغ عددها أربعين آية عدا الآيات الكثيرة التي تأمر بالاحسان وتنهى عن السوء والفساد من ذلك قوله تعالى :

« ليسوا سواءً من أهل الكتاب أمةٌ قائمة يتلون آياتِ الله آناء الليل وهم يسجدون . يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ويأمرون بالمعروف، « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياءُ بعض يأمرون بالمعروف

---

(٢) مقالات الاسلامية للاشعري ص ٢٧٨

وَينْهَوْنَ عن المنكر ، ويسارعون في الخيرات واولئك من الصالحين» (١١٣ و ١١٤ ــ آل عمران) •

« والمؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياءُ بعض يأمرون بالمعروف ويَنْهَوْنَ عن المنكر ، ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ••• » (٧١ ــ التوبـة) •

« فلما نَسُوا ما ذُكِّروا به انجينا الذين يَنْهَوْنَ عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بَئِيس بما كانوا يفسُقون » (١٦٥ ــ الاعـراف) •

« الذين إن مَكنّاهم في الارض اقامُوا الصـلاة وآتَوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الامور » (٤١ ــ الحج)•

« يا ايها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقِسْط شهداء لله ولو على انفسـكم أو الوالدين والاقربين ان يكن غنياً أو فقيراً فالله اولى بهمـا ••• » (١٣٥ ــ النساء) •

« لا خير في كثير من نجواهم الا مَنْ أمَرَ بصدقة أو معروف، أو اصلاح بين الناس ومن يفعَلْ ذلك ابتغاءَ مرضاة الله فسوف نؤتيه اجراً عظماً (١١٤ ــ النساء) •

وفي الحديث ان الرسول (ص) قال : « اياكـم والجلوس على الطرقات » قالوا : مالنا بد انما هي مجالسنا نتحدث فيهـا • قـال : « فاذا ابيتم الا ذلك فأعطوا الطريق حقها » قالوا : وما حق الطريق ؟ قال : « غض البصر ، وكف الأذى ، ورد السلام ، والامر بالمعروف ، والنهي عن المنكر » • ومنه قوله صلى الله عليه وسلم :

« كلام ابن آدم كله عليه لا له الا امراً بمعروف او نهياً عن منكر أو ذكرا لله تعالى » •

و « لاتَقِفنَّ عند رجل يقتل مظلوماً فان اللعنة تنزل على مـن حضره ولم يدفع عنه ، ولا تقفن عند رجل يضرب مظلوماً فان اللعنة تنزل على من حضره ولم يدفع عنه » •

وقيل للرسول (ص) : اي الناس افضل ؟ قال : « اتقاهم لله ، واوصلهم لرحمه ، وآمرهم بالمعروف ، وانهاهم عن المنكر » .

قال عمر بن الخطاب : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « بئس القوم قوم لا يأمرون بالقسط ، وبئس قوم لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر » .

وقال ابو الدرداء : « لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر او ليسلطن الله عليكم سلطاناً ظالما لا يجل كبيركم ولا يرحم صغيركم ويدعو عليه خياركم فلا يستجاب لهم ، وتنتصرون فلا تنصرون ،وتستغفرون فلا يغفر لكم » .

ومما قاله معاوية بن ابي سفيان : « لا اضع سيفي حيث يكفيني سوطي ، ولا اضع سوطي حيث يكفيني لساني . ولو ان بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت . لا ينبغي ان نسوس الناس سياسة واحدة، ان نلين فيمرح الناس في المعصية ، ولا نشتد جميعاً فنحمل الناس على المهالك »[3] .

وقد جعل العلماء[4] للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اركاناً وآدابا فجعلوا له أربعة اركان هي :

١ ـ المحتسِب : وهو الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر ومن أهم اعماله احكام السوق والتحدث في أمر المكاييل والموازين ونحوهما، كما ينظر في الغش والتدليس ، وبكاء أهل الميت والخروج الى المقابر، والتطفيف ، والاحتكار ، والدراهم المبهرجة وهي المخلوطة بالنحاس .

٢ ـ المحتسَب عليه : وهو الذي يؤمر بالمعروف ويُنهى عن المنكر، وأقل ما يكفي في ذلك ان يكون انساناً فيمنع من أمور لا تليق

---

(٣) عيون الاخبار ج١ ص ٩ ، العقد الفريد ج١ ص ٢٥

(٤) احياء علوم الدين ج٢ ص ٣٠٦-٣٤٣ وراجع ايضا الماوردي والاحتساب للزيدي وكتب الحسبة المختلفة .

به من حيث انه انسان محترم . ويحتسب حتى على الصبي وان كان قبل البلوغ ، وعلى المجنون اذا صدرت منه أمور تستوجب المنع كشرب الخمر .

٣ ـ المحتسَب فيه : وهو نوع المنكر الذي تجب محاربته . والذي ينبغي ان يكون ظاهراً للمحتسب بغير تجسس فكل من ستر معصية في داره واغلق بابه لا يجوز ان يتجسس عليه . ولا يجوز الدخول عليه بغير اذنه . وان يكون المنكر معلوماً بغير اجتهاد لان كل ما هو في محل الاجتهاد فلا حسبة فيه .

٤ ـ نفس الاحتساب : اي الطريقة التي تتبع في الامر بالمعروف والنهي عن المنكر كالوعظ والنصح والتخويف والمنع باللطف والتغيير باليد والتهديد ، والضرب ، وبقوة السلاح .

كما اشترطوا في المحتسب الذي يقوم باعمال الحِسبة التي منها الامر بالمعروف والنهي عن المنكر شروطاً من أهمها .

١ ـ التكليف : وذلك ان المكلف ملزم بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، على أن غير المكلف ايضاً ليس ممنوعا من ذلك .

٢ ـ الايمان : ويعتبر الايمان نصرة للدين بخلاف الجاحد الذي هو عدو للدين .

٣ ـ العدالة : وهي شرط للاصلاح لأن من لم يكن صالحاً في نفسه لا يستطيع ان يصلح غيره أو كما قالوا : « لا يستقيم الظل والعود اعوج » . ومع ذلك فقد قالوا ان من حق الفاسق ايضا ان يحتسب وان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر .

٤ ـ الاذن : ويظهر انالاذن منجهة الامام أو الامير أو السلطان كانلتنظيم الامر بالمعروف والنهي عنالمنكر وإلا فإن الآياتوالاحاديث تشير الى ان ذلك من حق كل فرد مسلم ، وخصوصاً اذا كان الحكم على الامام فكيف يحتاج الى اذنه .

وقد عدّ الغزالي القاعد عن ارشاد الناس ليس خالياً عن منكر

لأن أكثر الناس مثلاً جاهلون بالشرع في شروط الصلاة في المدنفكيف بمن في القرى ، والبوادي . ولذلك أوجب ان يكون في كل مسجد ومحلة وقرية فقيه يعلم الناس ، واوجب على الفقيه ان يخرج الى من يجاور بلده من أهل السواد من العرب والاكراد وغيرهم فان لم يتم ذلك اصاب الحرجُ الناسَ ، واعتُبر العالِمُ مقصراً لأنه لم يخرج ، واعتبر الجاهل مقصرا لانه لم يتعلم . وأوجب على العامي اذا عرف شروط الصلاة ان يعرّف غيره تلك الشروط وإلا فهو شريك في الاثم.

ويبسط لنا الغزالي طريقة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فيقول . ان كل من تعلم مسألة فعليه ان يعلمها غيره، ويجعل الاثم على الفقهاء أشد من غيرهم اذا لم يعلموا غيرهم لانهم اقدر على التعليم . وفي رأبه ان كل من استطاع ان يغير منكراً فلا يجوز له القعود عنه حتى لو قدر على تغيير جزء منه .

والانسان في الاسلام مسؤول اولاً عن نفسه ، ثم أهل بيته، ثم جيرانه ، ثم أهل محلته ثم أهل بلده ، ثم أهل السواد المحيطين ببلده، ثم أهل البوادي ، وهكذا الى اقصى العالم فان قام به الادنى سقط عن الابعد ، والا كان الحَرَج على كل قادر قريبا كان أو بعيداً . ولا يسقط الحرج ما دام على وجه الارض جاهل بفرض من فروض دينه وهو قادر على ان يسعى اليه بنفسه أو بغيره .

وقد جعلوا للمحتسب الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر آداباً منها : الرقة والرفق والحلم والاناة والصبر والفقه . وللرسول الكريم في هذه الآداب اقوال منها :

« لا يأمر بالمعروف ، ولا ينهى عن المنكر الا رفيق فيما يأمر به ، رفيق فيما ينهى عنه ، حليم فيما يأمر به ، حليم فيما ينهى عنه ، فقيه فيما يأمر به ، فقيه فيما ينهى عنه » .

و « من أمر بمعروف فليكن أمره بمعروف » .

ولا بد لنا ان نذكر بايجاز تام ما يراد بالمعروف وما يراد بالمنكر.

فأما المعروف فقد افاضت الكتب بذكره كآداب الاخوة والصحبة والالفة ، والتعاون على البر والتقوى والاعانة في قضاء الحاجات ، والعفو عن الزلات والهفوات ، والوفاء والاخلاص ، وصلة الرحم والجوار واكرام الوالدين ، والمملوك ، ومقاتلة البغاة ، والاحسان الى الناس ، ومراعاة حق الجار . ومساعدة الضعفاء ، وسد سبل الشر ، والوفاء بالكيل ...

قال تعالى : « ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربي، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي » . وقال معاذ : « اوصاني رسول الله صلى الله عليه وسلم » فقال : « يا معاذ اوصيك باتقاء الله ، وصدق الحديث ، والوفاء بالعهد ، واداء الامانة ، وترك الخيانة ، وحفظ الجار ورحمة اليتيم ، ولين الكلام ، وبذل السلام ، وحسن العمل ، وقصر الأمل ، ولزوم الايمان ، والتفقه في القرآن ، وحب الآخرة ، والجزع من الحساب ، وخفض الجناح . وأنهاك ان تسب حكيماً أو تكذب صادقا ، أو تطيع آثما ، أو تعصي اماما عادلاً ، أو تفسد أرضا . واوصيك باتقاء الله عند كل حجر ، وشجر ، ومدر ، وأن تحدث لكل ذنب توبة . السر بالسر ، والعلانية بالعلانية »[٥] .

واما ما يراد بالمنكر فأمور كثيرة منها : البغي والفساد ، والتعاون على الاثم والعدوان ، وشرب الخمر والزنا ، ولبس الحرير ، والاكثار من اللحن في القرآن لمن كان قادراً على التعلم . واعتبروا قراءة القرآن باللحن والتطريب فيه ، وتطويل المؤذنين في الاذان من المكروهات . ومثل ذلك اتخاذ المسجد طريقاً للمرور . ومنها : اخفاء العيوب في البضائع والسلع ، وبيع الاواني المتخذة من الذهب والفضة ، والتطفيف في الكيل والميزان ، والتعامل بالزيوف ، واحتكار الطعام . ومنها : استعمال الطرق والارصفة للبيع والشراء ، وكشف العورات في

---

(٥) احياء علوم الدين ج٢ ص ٣٥٩ .

الحمامات والنظر اليها . ومجالسة الفساق في حالة مباشرة الفسق ، والاسراف في الطعام والبناء وصرف المال الى النائحة والمطرب والمنكرات، والقعود عن ارشاد الناس والتجسس والاحتيال والفحش .

ولما كان « المنكر » عند المسلمين قبيحاً كله فقد وجب النهي عنه. والغرض من النهي عنه ألا يقع المنكر . ومنه ما يقبح من كل مكلف ، وعلى كل حال كالظلم ، على أن يكون المنهي عنه واقعاً لان غير الواقع لا يحسن النهي عنه ، وانما يحسن الذم عليه ، والنهي عن امثاله .وعليه بنى اصحاب الزهد في الدنيا الانكار على الامراء والخلفاء ومواجهتهم بالكلام الغليظ لما عجزوا عن الانكار باليد ، ولذلك فهو عندهم أصل شريف اشرف من جميع أبواب البر والعبادة[٦] .

وكان الرسول (ص) كثيراً ما يقول : « اللهم جنبني منكرات الاخلاق »

وفي تاريخ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر امثلة كثيرة تتعلق بالآداب التي ذكرناها تجد منها جملة صالحة في الكتب التي بحثت في سِيَر القضاة والوعاظ والعلماء[٧] .

فقد اشتهر في المسلمين عدد من القضاة الجريئين والعلماء الاحرار كانت لهم مواقف جريئة من الخلفاء العظام والملوك الجبابرة والامراء المتنفذين وقد وعظوهم وأمروهم بالمعروف ونهوهم عن المنكر دون خوف او وجل أو خشية من عقاب نذكر منهم على سبيل المثال النماذج الآتية[٨] :

١ ـ عبدالملك بن مروان وعطاء بن ابي رباح :

قال الاصمعي : دخل عطاء بن ابي رباح على عبدالملك بن مروان

---

(٦) شرح نهج البلاغة ج٥ ص ٦٦٤ ـ ٦٦٧

(٧) احياء علوم الدين ج٢ ص ٣٣٣ـ٣٣٥ وامهات الكتب التاريخية.

(٨) احياء علوم الدين ج٢ ص ٣١٦ ـ ٣٥٢ وشرح نهج البلاغة ج٥ ص ٣٠٤ ـ ٣٠٦ .

ــ وهو جالس على سريره وحواليه الاشراف من كل بطن وذلك بمكة في وقت حجه في خلافته ــ فلما بَصُرَ به قام اليه واجلسه معه على السرير وقعد بين يديه وقال له : يا ابا محمد ما حاجتك ؟ فقال : يا امير المؤمنين اتق الله في حرم الله ، وحرم رسوله ، فتعاهده بالعمارة ، واتق الله في اولاد المهاجرين والانصار فانك بهم جلست هذا المجلس . واتق الله في أهل الثغور فإنهم حصن المسلمين . وتفقد أمور المسلمين فانك وحدك المسؤول عنهم . واتق الله فيمن على بابك فلا تغفل عنهم ، ولا تغلق بابك دونهم . فقال له : أجل أفعل . ثم نهض وقام فقبض عليه عبدالملك فقال : يا أبا محمد انما سألتنا حاجة لغيرك وقد قضيناها فما حاجتك أنت ؟ فقال : مالي الى مخلوق حاجة . ثم خرج فقال عبدالملك هذا وأبيك الشرف .

٢ ــ واعظ ابي جعفر المنصور :

قال ابن المهاجر : قدم أمير المؤمنين المنصور مكة شرفها الله حاجا، فكان يخرج من دار الندوة الى الطواف في آخر الليل يطوف ويصلي ولا يعلم به، فإذا طلع الفجر رجع الى دار الندوة وجاء المؤذنون فسلموا عليه وأقيمت الصلاة فيصلي بالناس ، فخرج ذات ليلة حتى أسحر فبينما هو يطوف اذ سمع رجلاً عند الملتزم وهو يقول : اللهم إني أشكو اليك ظهور البغي والفساد في الارض وما يحول بين الحق وأهله من الظلم والطمع . فأسرع المنصور في مشيه حتى ملأ مسامعه من قوله، ثم خرج فجلس ناحية من المسجد وأرسل اليه فدعاه فأتاه الرسول وقال له: أجب أمير المؤمنين ، فصلى ركعتين واستلم الركن وأقبل مع الرسول فسلم عليه فقال له المنصور : ما هذا الذي سمعتك تقوله من ظهور البغي والفساد في الارض وما يحول بين الحق وأهله من الطمع والظلم ، فوالله لقد حشوت مسامعي ما ارمضني وأقلقني ! فقال : يا أمير المؤمنين إن أمنتني على نفسي انبأتك بالأمور من أصولها وإلا اقتصرت على نفسي ففيها لي شغل شاغل ، فقال له : أنت آمن على نفسك فقال:

الذي دخله الطمع حتى حال بينه وبين الحق ، واصلاح ما ظهر من البغي والفساد في الارض أنت. فقال: ويحك وكيف يدخلني الطمع والصفراء والبيضاء في يدي، والحلو والحامض في قبضتي؟ قال : وهل دخل أحداً من الطمع ما دخلك يا أمير المؤمنين ؟ إن الله تعالى استرعاك أمور المسلمين وأموالهم فاغفلت أمورهم ، واهتممت بجمع أموالهم ،وجعلت بينك وبينهم حجابا من الجص والاجر ، وابواباً من الحديد ، وحجبة معهم السلاح ثم سجنت نفسك فيها منهم ، وبعثت عمالك في جمع الاموال وجبايتها ، واتخذت وزراء وأعوانا ظلمة ، إن نسيت لم يذكروك، وإن ذكرت لم يعينوك. وقويتهم على ظلم الناس بالاموال والكراع والسلاح . وأمرت بأن لا يدخل عليك من الناس إلا فلان وفلان نفر سميتهم . ولم تأمر بإيصال المظلوم ولا الملهوف ، ولا الجائع ولا العارى ولا الضعيف ولا الفقير ، ولا أحد ممن له في هذا المال حق. فلما رآك هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك، وآثرتهم على رعيتك، وأمرت ألا يحجبوا عنك ، تجبي الاموال ولا تقسمها قالوا : هذا قد خان الله فما لنا لا نخونه وقد سخر لنا نفسه فائتمروا على ألا يصل إليك من علم اخبار الناس شيء إلا ما أرادوا ، وأن لا يخرج لك عامل فيخالف لهم أمرا الا أقصوه ، حتى تسقط منزلته ، ويصغر قدره ، فلما انتشر ذلك عنك وعنهم اعظمهم الناس وهابوهم . وكان أول من صانعهم عمالك بالهدايا والاموال ليتقووا بهم على ظلم رعيتك ، ثم فعل ذلك ذوو القدرة والثروة من رعيتك لينالوا ظلم مَنْ دونهم من الرعية ، فامتلأت بلاد الله بالطمع بغيا وفساداً . وصار هؤلاء القوم شركاءك في سلطانك ، وأنت غافل ، فإن جاء متظلم حِيْلَ بينه وبين الدخول اليك ، وان اراد رفع صوته أو قصته إليك عند ظهورك وجدك قد نهيت عن ذلك ، ووقفت للناس رجلاً ينظر في مظالمهم ، فان جاء ذلك الرجل فبلغ بطانتك خبره سألوا صاحب المظالم ألا يرفع مظلمته اليك . وإن كانت للمتظلم بهحرمة واجبة لم يمكنه مما يريد خوفاً منهم،

فلا يزال المظلوم يختلف اليه ، ويلوذ به ، ويشكو ويستغيث وهو يدفعه ، ويعتل عليه فإذا اجهد واحرج وظهرت صرخ بين يديك فيضرب ضربا مبرحاً ليكون نكالاً لغيره وأنت تنظر ولا تنكر ولا تغني. فما بقاء الأسلام واهله على هذا ؟ ولقد كانت بنو أمية ، وكانت العرب لا ينتهي إليهم المظلوم الا رفعت ظلامته اليهم فينصف ولقد كان الرجل يأتي من اقصى البلاد حتى يبلغ باب سلطانهم فينادي يا أهل الاسلام فيبتدرونه : مالك ؟ فيرفعون مظلمته الى سلطانهم فينصف ولقد كنت يا أمير المؤمنين اسافر الى ارض الصين وبها ملك فقدمتها مرة وقدذهب سمع ملكهم فجعل يبكي فقال له وزراؤه : مالك تبكي لابكت عيناك؟ فقال : أما اني لست أبكي على المصيبة التي نزلت بي ولكن أبكي لمظلوم يصرخ بالباب فلا اسمع صوته ، ثم قال : أما ان كان قد ذهب سمعي فإن بصري لم يذهب نادوا في الناس : ألا لا يلبس ثوبا أحمر الا مظلوم . فكان يركب الفيل ويطوف طرفي النهار هل يرى مظلوماً فينصفه ؟ هذا يا أمير المؤمنين مشرك بالله قد غلبت رأفته بالمشركين ورقته على شح نفسه في ملكه ، وأنت مؤمن بالله ، وابن عم نبي الله لا تغلبك رأفتك بالمسلمين ، ورقتك على شح نفسك ، فإنك لاتجمع الاموال إلا لواحد من ثلاثة ، إن قلت أجمعها لولدي فقد أراك اللهعبراً في الطفل الصغير ، يسقط من بطن أمه وما له على الارض مال ، وما من مال إلا ودونه يد شحيحة تحويه فما يزال الله تعالى يلطف بذلك الطفل حتى تعظم رغبة الناس إليه ، ولست الذي تعطي بل الله يعطي من يشاء وان قلت : أجمع المال لأشيد سلطاني ، فقد أراك الله عبراً فيمن كان قبلك ما أغنى عنهم ما جمعوه من الذهب والفضة، وما أعدوا من الرجال والسلاح والكراع ، وما ضرك وولد أبيك ما كنتم فيه من قلة الجدة والضعف حين اراد الله بكم ما أراده.وإن قلت أجمع المال لطلب غاية هي اجسم من الغاية التي أنت فيها ، فوالله ما فوق ما أنت فيه إلا منزلة لا تدرك الا بالعمل الصالح ، يا أمير المؤمنين هل تعاقب من عصاك من

رعيتك بأشد من القتل؟ قال : لا . قال فان الله الذي خوّلك ماخوّلك لا يعاقب من عصاه بالقتل ، ولكن يعاقب من عصاه بالخلود في العذاب الاليم . وهو الذي يرى منك ما عقد عليه قلبُك وأضمرته جوارحُك؟ فماذا تقول إذا انتزع الملكُ الحقُ المبين مُلكَ الدنيا من يدك، ودعاك الى الحساب ؟ هل يغني عنك عنده شيء مما كنت فيه مما شححت عليه من مُلك الدنيا .

فبكى المنصور بكاء شديداً حتى نحب وارتفع صوته ثم قال : يا ليتني لم أخلق ولم أكُ شيئاً ، ثم قال كيف احتيالي فيما خولت فيه ولم أر من الناس إلا خائنا ؟ قال : يا أمير المؤمنين عليك بالائمة الاعلام المرشدين قال : ومن هم ؟ قال : العلماء . قال : قد فروا مني ، قال : هربوا منك مخافة أن تحملهم على ما ظهر من طريقتك من قِبل عمالك، ولكن افتح الابواب وسهّل الحجاب ، وانتصر للمظلوم من الظالم ، وامنع المظالم ، وخذ الشيء مما حل وطاب ، واقسمه بالحق والعدل ، وأنا ضامن على أن من هرب منك ان يأتيك فيعاونك على صلاح أمرك ورعيتك ، فقال المنصور : اللهم وفقني ان اعمل بما قال هذا الرجل .

٣ ــ المهدي وعبيد الله بن مرزوق :

روي ان المهدي لما قدم مكة لبث بها ما شاء الله ، فلما أخذ في الطواف نحّي الناس عن البيت فوثب عبدالله بن مرزوق فلبَّبَهُ بردائه ثم هزه وقال له : انظر ما تصنع ؟ من جعلك بهذا البيت أحق ممن اتاه من البعد ، حتى إذا صار عنده حلت بينه وبينه ؟ وقد قال الله تعالى « سواء العاكف فيه والباد » من جعل لك هذا ، فنظر في وجهه ــ وكان يعرفه لانه من مواليهم ــ فقال : اعبدالله بن مرزوق ، قال : نعم، فأخذ فجيء به الى بغداد فكره ان يعاقبه عقوبة يشنع بها عليه في العامة .

٤ ــ المهدي وسفيان الثوري :

قال سفيان الثوري : حج المهدي سنة ست وستين ومائة فرأيته يرمي جمرة العقبة والناس يخبطون يمينا وشمالاً بالسياط ، فوقفت

فقلت : يا حسن الوجه حدثنا أيمن عن وائل عن قدامة بن عبدالله الكلابي قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يرمي الجمرة يوم النحر على جمل لاضَرَبَ ولاطَرَدَ ولاجلد ولا إليك إليك وها أنت تخبط الناس بين يديك يميناً وشمالاً ، فقال لرجل : من هذا ؟ قال : سفيان الثوري ، فقال : ياسفيان لو كان المنصور ما احتملك على هذا ؟ فقال : لو أخبرك المنصور بما لقي لقصرت عما أنت فيه ، قال : فقيل له انه قال لك يا حسن الوجه ولم يقل لك يا امير المؤمنين فقال : اطلبوه فطلب سفيان فاختفى .

٥ ـ الرشد والشيخ الزاهد :

قال حِبّان بن عبدالله : تنزه هرون الرشيد ومعه رجل من بني هاشم وهو سليمان بن أبي جعفر فقال هرون : قد كانت لك جارية تغني فتحسن فجئنا بها ، قال فجاءت فغنت فلم يحمد غناءها ، فقال لها: ما شأنك ؟ فقالت : ليس هذا عودي ، فقال للخادم جئنا بعودها ، قال: فجاء بالعود فوافق شيخاً يلقط النوى فقال : الطريق يا شيخ ، فرفع الشيخ رأسه فرأى العود فأخذه من الخادم فضرب به الارض ، فأخذه الخادم وذهب به الى صاحب الربع فقال : احتفظ بهذا فإنه طلبة امير المؤمنين فقال له صاحب الربع : ليس ببغداد أعبد من هذا فكيف يكون طلبة أمير المؤمنين ؟ فقال له : اسمع ما أقول لك ، ثم دخل على هرون فقال : إني مررت على شيخ يلقط النوى فقلت له : الطريق ، فرفع رأسه فرأى العود فأخذه فضرب به الارض فكسره ، فاستشاط هرون وغضب واحمرت عيناه فقال له سليمان بن أبي جعفر : ما هذا الغضب يا أمير المؤمنين، ابعث الى صاحب الربع يضرب عنقه ويرم به في الدجلة، فقال : لا ، ولكن نبعث اليه ونناظره اولا ، فجاء الرسول فقال : أجب امير المؤمنين ، فقال : نعم ، قال : اركب ، قال : لا ، فجاء يمشي حتى وقف على باب القصر ، فقيل لهرون : قد جاء الشيخ ، فأمر به فأدخل ـ وفي كمه الكيس الذي فيه النوى ـ فقال له الخادم : أخرج هذا من

كمك وادخل على :مير المؤمنين ، فقال : من هذا عشائي الليلة ، قال : نحن نُعَشّيك ، قال : لا حاجة لي في عشائكم ، فقال هرون للخادم : أي شيء تريد منه ؟ قال في كمه نوى قلت له اطرحه وادخل على أمير المؤمنين فقال: دعه لا يطرحه، قال: فدخل وسلم وجلس،فقال لههرون: ياشيخ ما حملك على ما صنعت؟ قال: وأي شيء صنعت؟ وجعل هرون يستحيي أن يقول كسرت عودي ، فلما أكثر عليه قال: إني سمعت أباك وأجدادك يقرأون هذه الآية على المنبر «إن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي » وأنا رأيت منكراً فغيرته ، فغيّره • فوالله ما قال الا هذا ، فلما خرج أعطى الخليفة رجلا بَدرة وقال : اتبع الشيخ فإن رأيته يقول : قلت لأمير المؤمنين وقال لي، فلا تعطه شيئاً ،وان رأيته لا يكلم احداً فأعطه البَدْرَة، فلماخرج من القصر اذا هو بنواة في الارض قد غاصت فجعل يعالجها ولم يكلم أحداً فقال له : يقول لك : أمير المؤمنين خذ هذه البَدْرَة فقال : قل لأمير المؤمنين يردها من حيث اخذها •

٦ ــ عبدالرحمن الناصر ومنذر بن سعيد البلّوطي الاندلسي :(٩)

كان عبدالرحمن الناصر عالم الخلفاء في الاندلس وحامي العلوم والآداب والفنون فيها وكان رب السيف والقلم الذي خضعت له اسپانية وعندما بنى مدينة الزهراء على مقربة من قرطبة وانفق عليها النفقات الطائلة واستفرغ جهده في اتقان قصورها وزخرفة مصانعها وانهمك في ذلك حتى عطّل شهود الجمعة بالمسجد الجامع فقام قاضي قرطبة منذر بن سعيد البلوطي يعظه على المنبر وابتدأ خطبته بقوله تعالى : « اتبنون بكل رِيْع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ، واذا بطشتم بطشتم جبارين فاتقوا الله واطيعون • واتقوا الذي أمدّكم بما تعملون ، أمدّكم بأنعام وبنين وجنات وعيون اني

(٩) محمد كرد علي : الاسلام والحضارة العربية ج١ ص ١٩٣ ــ ١٩٤

اخاف عليكم عذاب يوم عظيم » ثم تطرق الى ذم المشيد والاستغراق في زخرفته ، والاسراف في الانفاق عليه ثم تلا قوله تعالى : « افمن اسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير" ام مَنْ اسس بنيانه على شفا جُرُف هارٍ فانهارَ به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين * لايزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم الا ان تقطَّعَ قلوبُهم والله عليم حكيم» (١٠٩و١١٠ ــ التوبة) وتمكن القاضي ان يبكي الناس والخليفة فشكا الخليفة أمر القاضي الى ابنه الحكم ويقسم الا يصلي خلفه الجمعة ابداً فقال الحكم لأبيه: «وما الذي يمنعك عن عزل منذر بن سعيد والاستبدال به » فزجره ابوه وانتهره وقال : امثل منذر بن سعيد في فضله وورعه وعلمه وحلمه لا أم لك ــ يعزل ارضاءً لنفس ناكبة عن الرشد ، هذا ما لا يكون ، واني لاستحيي من الله تعالى ألا اجعل بيني وبينه شفيعاً في صلاة الجمعة مثل منذر بن سعيد ، ولكنه قد وقذَ نفسي ، وكاد يذهبها ، والله لوددت ان أجد سبيلاً الى كفارة يميني بملكي ، بل يصلي بالناس حياته وحياتنا فما أظننا نعتاض منه أبداً .

٧ ــ الوزير ابن جَهِير وابن عَقِيل الحنبلي البغدادي :

كتب عالم بغداد ابو الوفاء بن عقيل الى الوزير عميد الدولة المعروف بابن جهير كتاباً بمناسبة عبث البغداديين بالشريعة عندما اذن لهم الوزير في الفرجة والعمل في السور الذي خطه على حريم دار الخلافة سنة ٤٨٨ هـ يقول له فيه :

« لولا اعتقادي صحة البعث ، وأن لنا داراً أخرى لعلي اكون فيها على حال احمدها لما بغّضْتَ نفسي الى مالك عصري . وعلى الله اعتمد في جميع ما اورده بعد ان أشهده اني محب" متعصب ، لكن اذا تقابل دين محمد ودين بني جهير فوالله ما أزِنُ هذه بهذه . ولو كنتُ كذلك كنتُ كافراً فأقول : ان كان هذا الخرق الذي جرى بالشريعة عن عمد لمناصبة واضعها ، فما بالنا نعتقد الختمات ، ورواية الاحاديث؟

واذا نزلت بنا الحوادث تقدمنا مجموع الختمات والدعاء عقيبها ، ثم بعد ذلك طبول ، وسواني ، ومخانيث ، وكشف عورات الرجال مع حضور النساء اسقاطا لحكم الله .

وما عندي يا شرف الدين ان فيك ان تقوم لسخطة من سخطات الله ، ترى بأي وجه تلقى محمداً صلى الله عليه وسلم ؟ بل لو رأيته في المنام مقطباً كان ذلك يزعجك في يقظتك ، وأي حرمة تبقى لوجوهنا وايدينا والسنتنا عند الله اذا وضعنا الجباه ساجدة ؟ ثم كيف نطالب الاجناد تقبيل عتبة ولثم ترابها ، ونقيم الحد في دهليز الحريم صباحاً ومساءً على قَدَح سبيل مختلف فيه ثم تمرح العوام في المنكر المُجْمَع على تحريمه ؟ هذا مضاف الى الزنا الظاهر بباب بدر ، ولبس الحرير على جميع المتعلقين والاصحاب .

يا شرف الدين أتق سخط الله فان سخطه لا تقاومه سماء ولا أرض فان فسدت حالي بما قلت فلعل الله يلطف بي ويكفيني هوائج الطباع ثم لا تلومنا على ملازمة البيوت والاختفاء عن العوام لأنهم ان سألونا لم نقل إلا ما يقتضي الاعظام لهذه القبائح ، والانكار لها، والنياحة على الشريعة .

أترى لو جاءت معتبة من الله سبحانه في منام ، أو على لسان نبي أن لو كان بقي للوحي نزول ، أو القي الى رُوْع مسلم بإلهام هل كانت إلا اليك فاتق الله تقوى مَنْ عَلِمَ مقدار سخطه فقد قال : (فلما آسفونا انتقمنا منهم) وقد ملأتكم في عيونكم مدائح الشعراء، ومداجاة المتمولين بدولتكم ، الاغنياء الاغبياء الذين خسروا الله فيكم فحسَّنُوا لكم طرائقكم . والعاقلُ مَنْ عرف نفسه ولم يغيره مدحُ مَن لا يخبرها » (١٠) .

(١٠) المنتظم ج٩ ص ٨٥ ـ ٩٦

الفصل العاشر

الدعوة الى الجهاد في الاسلام

ليس الجهاد في الحضارة الاسلامية امراً عسكرياً او قاعدة من قواعد الاسلام الدينية حَسْبُ بل هو بالاضافة الى ذلك أمر حضاري يهدف الى غايات انسانية نبيلة واغراض سلمية سامية لان الاسلام يعترف ان الحرب وسيلة لاقرار السلام ومكافحة الشر ، والدفاع عن النفس ، والوقوف امام العدوان ومقاومة الباطل ، وصيانة الحريات وحماية الحقوق ، واشاعة الخير بين الناس ، ودفع الاذى عنهم ، ومحاربة الظلم والبغي ، ونشر الرحمة وتحقيق العدالة ، واسعاد الانسانية •

والمسلمون كافة في نظر الاسلام مدعوون لرفع الظلم عن اهل الأرض جميعاً باعتبار ان الاسلام دين عام للبشرية كلها فاذا لم تنفع الحلول السلمية مع الاعداء ، ولم يرتدعوا عن الظلم ، ولم يكفوا عن الاعتداء فقد وجبت محاربتهم بالقوة لمنع تعدياتهم على الغير • قال تعالى :

« أذِنَ للذين يقاتَلون بأنهم ظُلِمُوا وأن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخْرِجُوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا : رَبُّنا الله، ولولا دفعُ الله الناسَ بعضَهم ببعض لهُدِّمَتْ صوامعُ وبِيَعٌ وصلواتٌ ومساجدُ يذكر فيها اسمُ الله كثيراً • ولينصُرَنَّ اللهُ من ينصُره ان الله لقوى عزيز » (٣٩و٤٠ ــ الحج) •

ولا يقر الاسلام الحربَ من اجل التوسع والاستعمار ، ونهب

ثروات البلاد ، واستعباد الامم ، ونشر الفساد في الارض ، والاعتداء على الناس و الاستعلاء عليهم ، واذلال نفوسهم ، والتحكم في رقابهم.
قال تعالى :
« الذين ان مكناهم في الارض اقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور »
(٤١ ـ الحج) .
وقال : « تلك الدار الاخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين » (٨٣ ـ القصص) .
وانما يريد مقاومة المعتدين ، ورد كيدهم الى نحورهم اذا كانوا هم المعتدين ولذلك يخاطب الله المسلمين بقوله : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين . واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث اخرجوكم ، والفتنة أشد من القتل . ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه ، فان قاتلوكم فاقتلوهم ، كذلك جزاء الكافرين ، فان انتهوا فان الله غفور رحيم . وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين لله فان انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين » (١٩٠ ـ ١٩٣ ـ البقرة) .

ومن هنا ندرك السر في اقتران هذا القتال او الجهاد باسم الله دوماً كما ندرك ان كل جهاد في سبيل الله ، وكل قتال في سبيل الله انما هو للدفاع عن دين الله ، ونصرة الحق ، والقضاء على الظلم ، وانصاف المظلومين والشد من أزر المستضعفين من الرجال والنساء والولدان ، ومقاومة المستعبدين الذين طغوا وعلوا في الأرض، وسلبوا الناس حقوقهم . ولذلك ايضاً كرم الاسلام المجاهدين والشهداء وزاد الخلفاء في أعطياتهم .

ذكر ابن الجوزي [1] عن عبدالله بن عمر قال : بينما الناس

(١) سيرة عمر بن الخطاب ص ٧١ ـ ٧٢ .

يأخذون اعطياتهم بين يدي عمر فرفع رأسه فنظر الى رجل في وجهه ضربة • قال : فسأله فأخبره انه اصابته في غزاة كان فيها فقال : عدوا له الفاً فاعطي الرجل الف درهم ، ثم قال عدوا له الفاً فاعطي له الف أخرى • ثم قال له ذلك اربع مرات كل مرة يعطيه ألف درهم فاستحيى الرجل من كثرة ما يعطيه فخرج فسأل عنه فقيل له : انا رأيناه استحيى من كثرة ما تعطيه فخرج • فقال : اما والله لو انه مكث مازلت اعطيه ما بقي منها درهم ، رجل ضرب ضربة في سبيل الله حفرت وجهه » •

ولا يكون الجهاد في سبيل الله الا بالمال والنفس واللسان قال (ص) « جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم والسنتكم » اي ان الجهاد لا يكون الا بتجهيز الجيوش ، وتدريب الناس على القتال والتضحية بالمال والنفس ، والخطب والكلام والكتابة وذلك ما نسميه اليوم بمعركة « الكلمة » •

وقد جاءت في القرآن آيات كثيرة تدعو الى الجهاد ونصرة الضعيف الذي يُحال بينه وبين حريته وقد بلغت هي ومشتقاتها احدى واربعين آية • كما ان آيات القتال بلغت هي ومشتقاتها مئة وسبعين آية • اما الآيات التي ذكرت فيها المواثيق فتبلغ اربعاً وثلاثين آية • واما التي ورد فيها نقض العهود فتسع ، والتي فيها نكث الأيمان فسبع • ومن آيات الجهاد والقتال :

« وقاتلوا في سبيل الله ، واعلموا أن الله سميع عليم » (٢٤٤ ــ البقــرة) •

« وجاهدوا في الله حقَّ جهاده » (٧٨ ــ الحج) •

« فلْيقاتِل في سبيل الله الذين يَشْرونَ الحياة الدنيا بالآخرة، ومن يقاتلْ في سبيل الله فيُقْتَلْ او يَغْلِب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً ، ومالكم لا تقاتلون في سبيل الله ، والمستضعَفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون : ربنا أخرِجْنا من هذه القرية الظالِم أهلُها ، واجعلْ لنا من لَدُنْكَ ولياً ، واجعلْ لنا من لدنك

نصيرا • الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله ، والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت ، فقاتلوا اولياء الشيطان ان كيد الشيطان كان ضعيفاً » (٧٤-٧٦-النساء) •

وقد وضعت للجهاد قواعد وشروط تدل على سمو الحضارة الاسلامية واصالتها ونبل سجاياها من ذلك :

١ - تبليغ الاعداء بدعوة الاسلام قبل الشروع في القتال • فقد روى مسلم ان الرسول (ص) قال لأحد قواده : « اذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم الى احدى ثلاث فأيتهن اجابوك فاقبل منهم وكف عنهم : الاسلام ، او الجزية او القتال » •

وفي القرآن « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الاخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » (٢٩-التوبة)•

٢ - لا تجوز محاربة غير المحاربين ولا المحايدين بل يجب محاربة المعتدين فقط ، قال تعالى : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا •• » (١٩٠ - البقرة) •

« ••• فلا عدوان الا على الظالمين • الشهر الحرام بالشهر الحرام ، والحرمات قصاص ، فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا ان الله مع المتقين ••» (١٩٣-١٩٤ - البقرة) •

« ••• فان اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقَوْا اليكم السَّلَم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا » (٩٠ - النساء) •

« ••• وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا ان الله مع المتقين » (٣٦ - التوبة) •

« لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم ان تَبَرّوهم وتُقسِطوا اليهم ان الله يحب المقسطين • انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين واخرجوكم من دياركم وظاهروا

على اخراجكم ان تَولّوْهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » (٨ ـ ٩ ـ الممتحنة) •

٣ ـ لا يجوز للمسلمين ان يعتدوا على ذرية اعدائهم ولا نسائهم ولا شيوخهم ولا على رجال دينهم، لأن المسلمين لا يحاربون الا الجنود الذين يحاربونهم •

٤ ـ لا يجوز للمسلمين ان يعقروا نخيل اعدائهم ، وليس لهم ان يقلعوا شجراً او يهدموا بيتاً •

٥ ـ يحرم الاسلام الغدر وتعذيب الاعداء والتمثيل بهم حتى لو مَثّلوا بالمسلمين • ولذلك كان الرسول (ص) يوصي قواده بقوله : « اغزوا باسم الله وفي سبيل الله • قاتلوا من كفر بالله ، اغزوا ولا تغلوا ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا وليداً » • وأوصى ابو بكر قائده اسامة بن زيد بقوله : « لا تخونوا ، ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلا صغيرا ، ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلا ، ولا تحرقوه • ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا، الا لمأكلة » •

وكتب عمر بن عبدالعزيز الى عامله في قتال الحرورية الذين خرجوا لقتاله :

« اما بعد فاني ذكرت آية في كتاب الله « ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » وان من العدوان قتل الصبيان والنساء فلا تقتلن امرأة ولا صبياً ولا اسيرا ولا تطلبن هارباً • ولا تجهزن على جريح ان شاء الله » [٢] •

٦ ـ يقرر الاسلام تكريم الاسرى وحسن معاملتهم «ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً واسيراً » (٨ ـ الانسان) •

٧ ـ يجير الاسلام المستجير ويحميه حتى لو كان مشركاً « وإن أحَدٌ من المشركين استجارك فأجِرْهُ حتى يسمع كلام الله ، ثم

---

(٢) سيرة عمر بن عبدالعزيز ص ٧٨ .

أبْلِغْهُ مأمنَه » (٦ ــ التوبة) .

٨ ــ يسمح الاسلام لكل مسلم رجلا كان او امرأة أن يجير أي فرد او أية جماعة من الناس ، ففي الحديث « ذمة المسلمين واحدة يسعى بها ادناهم » .

٩ ــ يوجب الاسلام الوفاء بالعهود لمن لم ينقضوا عهدهم كما يوجب قتال مَنْ نَكَث الأيمان « وأوفوا بالعهد ان العهد كان مسؤولا » (٣٤ ــ الاسراء) . « وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها ... » (٩١ ــ النحل) « وان نكثوا أيمانَهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر انهم لا أيْمان لهم لعلهم ينتهون ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانَهم وهموا باخراج الرسول وهم بدأوكم أول مرة اتخشونهم فالله أحق ان تخشَوه ان كنتم مؤمنين » (١٢ ــ التوبة) .

١٠ ــ يوجب الاسلام نقض العهد اذا لاحتْ من المعاهَديْن أمارات الخيانة وذلك بان يطرح المسلمون اليهم عهدهم باخبارهم علناً بأنهم ابطلوا العهد الذي بينهم . وينبغي عدم مبادأتهم بالحرب اذا ظنوا ان العهد لا يزال قائما بين الفريقين لان مفاجأتهم بالحرب على هذا الوجه يعدها الاسلام خيانة ممقوتة « وإما تخافَنّ من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء ان الله لا يحب الخائنين » (٥٨ ــ الانفال) .

« الا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم احداً فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم ان الله يحب المتقين » (٤ ــ التوبة) .

« الا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ان الله يحب المتقين » (٧ ــ التوبة) .

« وان استنصروكم في الدين فعليكم النصر الا على قوم بينكم وبينهم ميثاق (٧٢ ــ الانفال) .

«الا الذين يصِلون الى قوم بينكم وبينهم ميثاق» (٩٠ــالنساء).

واليك نصاً تاريخياً من النصوص التي فيها دعوة للجهاد ببغداد مدينة السلام في عهد المطيع لله العباسي في سنة ٣٦٢ هـ وفيه يحرض علماء بغداد الامير بختيار البويهي على الجهاد والدفاع عن البلاد •

قال ابو حيان التوحيدي[٣] « ••• ان الروم تهايجت على المسلمين،فسارت الى نصيبين بجمع عظيم زائد على ما عهد على مر السنين، وكان هذا في اخر سنة اثنتين وستين، فخاف الناس بالموصل وما حولها، واخذوا في الانحدار على رعب قُذِفَ في قلوبهم ، ليكون سببا لما صار اليه الامر ، وماج الناس بمدينة السلام واضطربوا ، وتَقَسَّمَ هذا الموج والاضطراب بين الخاصة والعامة ، وصارت العامة طائفتين، طائفة ترق للدين ولما دهم المسلمين ، وتستعظم ذلك فَرَقاً مما يُنْتَهَى اليه ، بعد ما يُؤتَى عليه ، وطائفة وَجدت فرصتها في العيث والفساد، والنهب والغارة بوساطة التعصب للمذهب •

وافترقت الخاصة ايضا فرقتين : فرقة احبت ان تكون للناس حَمِيَّة" للاسلام ، ونهوض الى الغزو ، وانبعاث في نصرة المسلمين إذ قد أضرب السلطان عن هذا الحديث ، لانهماكه في القَصْف والعزف ، وإعراضه عن المصالح الدينية والخيرات السياسية ، وطائفة اختارت السكون والاقبال على ما هو احسم لمادة الوثوب والهَيْج ، وأقطع لشغب الشاغب ، واقمع لخلاف المتهم ، فإن الاختلاف إذا عرض خفي موضع الاتفاق ، والتبس الامر على الصغار والكبار ، وبمثل هذا فُتِحَت البلاد ، ومُلِكَت الحصون ، وأزيلت النِّعَم ، وأريقت الدِّماء ، وهتكت المحارم ، وأبيدت الامم ، ونعوذ بالله من غضب الله ومما قرب من سخط الله ، واذا أراد الله أمراً كثَّر بواعثه ، وفرق نوابثه •

ولما اشتعلت النائرة ، واشتغلت الثائرة ، صاح الناس : النفير النفير ، والإسلاماه ، وامحمداه ، واصوماه ، واصلاتاه ، واحجاه ،

---

(٣) الامتاع والمؤانسة ج٣ ص ١٥١ — ١٥٧ •

واغزواه، وأسراه، في أيدي الروم والطغاة • وكان عز الدولة قد خرج في ذلك الاوان الى الكوفة للصيد ، ولاغراض غير ذلك، فاجتمع الناس عند الشيوخ والأماثِل والوجوه والاشراف والعلماء ، وكانت النية بعدُ حسنة ، وللناس في ظل السلطان مبيت ومقيل ، يستعذبون ورده، ويستسهلون صَدَرَهُ ، وعجوا وضجوا ، وقالوا : الله الله ، انظروا في أمر الضعفاء واحوال الفقراء ، واغضبوا لله ولدينه ، فإن هذا الامر إذا تفاقم تعدى ضعفاءنا الى اقويائنا ، وبطل رأي كبرائنا في تدبير صغرائنا ، والتدارك واجب • وهو الاسلام ، إن لم نذبّ عنه غلب الكفر • وهو الامن والسكون إن لم يحفظا ، فهو الخوف والبلاء وذهاب الحرث والنسل ، وفضيحة الولد والاهل • فسكن المشايخ منهم، وطيبوا انفسهم وقووا مُنَّتَهُم ووعدوهم أن يرتئوا فيه متفقين، ويجتمعوا عليه مجتهدين ، ويستخيروا الله ضارعين ، وانصرف الناس عنهم ، واجتمع القوم · أبو تمام الزينبي ، ومحمد بن صالح بن شيبان، وابن معروف القاضي ، وابن غسان القاضي ، وابن مكرّم — وكان من كبار الشهود في سوق يحيى — وابن أيوب القطان العدل ، وابو بكر الرازي الفقيه ، وعلي بن عيسى ، والعوّامي صاحب الزبيري ، وابن رُباط شيخ الكرخ ، ونائب الشيعة ولسان الجماعة ، وابن آدم التاجر، والشالوسي أبو محمد ، وغيرهم ممن يطول ذكرهم ، وتشاوروا وتفاوضوا وقلبوا الامر، وشعّبوا القول، وصوبوا وصعّدوا، وقربوا وبعدوا • والتأم لهم من ذلك أن تخرج طائفة وراء الامير بختيار الى الكوفة وتلقاه وتعرّفه ما قد شمل مدينة السلام من الاهتمام ، وأن الخوف قد غلبهم ، وأن الذعر قد ملكهم ، وأنهم يقولون : لو كان لنا خليفة أو امير أو ناظر سائس لم يُفْضِ الامر الى هذه الشناعة ، وأن أمير المؤمنين المطيع لله انما ولاه ما وراء بابه ليتيقظ في ليله ، متنكراً في مصالح الرعايا ، وينفذ في نهاره آمراً وناهياً ما يعود بمراشد الدين، ومنافع الدانين والقاصين وإلا فلا طاعة ، وكلاما على هذا الطابع ، وفي

هذا النسج ، فاتفق جماعة على صريمة الرأي في الحركة الى الكوفة ، منهم أبو كعب الانصاري ، وأبو الحسن مِدْرَه القوم ، وعلي بن عيسى ، والعوّامي، وابن حسان القاضي صاحب الوقوف، وأبو أحمد الجرجاني القاضي بليغ ، وابن سَيّارٍ القاضي أبو بكر ، وأبو بكر الرازي. وأما جُعَل ، فإنه ذكر ما به من وجع النقْرِس ، واستعفى.

وأما جُعَل ، فإنه ذكر ما به من وجع النقْرِس ، واستعفى .

وأما أبو سعيد السيرافي ، فانه ذكر ضعفاً وسناً ، وقال : أنا اعين في هذه النائبة باقامة رجلٍ جلد مُزاحِ العلة بالفَرَس والسلاح ، وقعد الجم الغفير ، وسارت الجماعة الى الكوفة ، ولحقت عز الدولة في التصيد ، وانتظرته ، فلما عاد قامت في وجهه واستأذنت في الوصول إليه على خلوة وسكون بال وقلة شغل ، فلم يلتفت اليهم ، ولا عاج عليهم — وكان وافر الحظ من سوء الادب ، قليل التحاشي من أهل الفضل والحكمة — ثم قيل له : إن القوم وردوا في مهم لا يجوز التغافل عنه ، والامساك دونه فاذن لهم بين المغرب والعَتَمة ، فجلسوا بحضرته كما اتفق من غير ترتيب ، فقال : تكلموا .

فقال أبو الوفاء المهندس لابي بكر الرازي : تكلم ايها الشيخ، فإنك رضا الجماعة ، ومَقْنَعُ العصابة .

فقال أبو بكر : الحمد الله الذي لا موهبة الا منه ، ولا بلوى إلا بقضائه ، ولا مفزع إلا اليه ، ولا يُسْرَ الا فيما يسره ، ولا مصلحة الا فيما قدره ، له الحكم واليه المصير ، وصلى الله على سيدنا محمد رسوله المبعوث، الى الوارث والموروث، أما بعدفان الله تعالى قد حض على الجهاد ، وأمر بإعزاز الدين ، والذّبِّ عن الحريم والاسلام والمسلمين في الدهر الصالح ، والزمان المطمئن ، فكيف اذا اضطرب الحبل وانتكثت مريرته ، وأبرز مصونه ، وعُرِّي حريمه بالاستباحه ،

ونيل جانبه بالضيم ، وضعضع مناره بالرغم ، وقصد ركنه بالهدم ، وانت أيها المولى من وراء سُدَّة أمير المؤمنين المطيع لله ، والحامل لاعباء مهماته والناهض بأثقال نوائبه واحداثه والمفزع اليك ، والمعوَّل عليك ، فان كان منك جِدٌ وتشمير" فما أقرب الفرج مما قد أظل وأزعج ، وان كان منك توانٍ وتقصير فما أصعبه من خطب وما أبعده من شَعْب !! وقد جئناك نحقق عندك ما بلغك من توسط هذه الطاغية أطراف الموصل وما والاها ، وأن الناس قد جلوا عن أوطانهم ، وفتنوا في اديانهم وضعفوا عن حقيقة إيمانهم ، للرعب الذي أذهلهم ، والخوف الذي وهلهم ، وإنما هم بين أطفال صغار ، ونساء ضعاف ، وشيوخ قد أخذ الزمان منهم ، فهم أرض لكل واطيء ، ونهب لكل يد ، وشباب لا يقفون لعدوهم لقلة سلاحهم ، وسوء تأتّيهم في القِراعِ والدّفاع ، ونحن نسألك ان تتوخى في أمة محمد صلى الله عليه وسلم ما يزلفك عنده ، ويكون لك في ذلك ذُخْر" من شفاعته ، (وبختيار مطرق) .

ثم اندفع علي بن عيسى فقال : أيها الامير ، ان الصغير يُتَدارَكُ قبل ان يكبر ، فكيف يجوز ألا يستقبل بالجِدّ والاجتهاد وهو قد عسَا وكَبُر . والله إنْ بِنا إلا أن يظن أهل الجبل وأذربيجان وخراسان أنه ليس لنا ذاب" عن حريمنا ، ولا ناصر لديننا ، ولا حافظ لبيضتنا ، ولا مفرج لكُرْبَتِنَا ، ولا مَن يهمه شيء مِنْ أمورنا ، فالله الله ، لا تجرّن علينا شماتتهم بنا ، وخذ بأيدينا بقوتك ، وحسن نيتك ، وحميد طَويَّتِك ، وعزك وسلطانك ، وأوليائك وأعوانك ، واكتب قبل هذا الى عُدَّةِ الدولة بما يبعثه على حفظ أطرافه، وحراسة أكنافه ، مع استطلاع الرأي مِنْ جهتك ، ومطالعة أمير المؤمنين برأيك ومشورتك .

ثم رفع الانصاري رأسه وقال : ليس في تكرير الكلام ــ أطال الله بقاء الامير ــ فائدة كبيرة ، ولئن كان الايجاز في هذا الباب لا يكفي ،

فالاطناب فيه ايضا لا يُغْني ، والله لو نهضت بنا ونحن احراض كما ترى لا نُقلّب مَخْصَرَة بكف ، ولا نرمي دُحْروجَةً بيَد ، ولا نعرف سلاحاً إلا بالاسم ، لنهضنا وسرنا تحت رايتك ، وتصرفنا بين أمرك ونهيك وفديناك بأرواحنا ضَنّاً بك،وبعثنا على مثل ذلك أحداثنا وأولادنا الذين ربيناهم بنعمتك ، وخرجناهم في أيامك ، وأدخرناهم للنوازل إذا قامت ، والحوادث إذا ترامت ، فإن كان في المال قلة فخذ مِن موسِرِنا وممَّنْ له فضل في حاله ، فأنه يُفْرِج عنه طاعة لك ، وطمعا فيما عند الله من الثواب .

وقال العَوّامي : والله ما سُمِّيْتَ للدولة عزا ، إلا لان الله تعالى قد ذخرك للمسلمين كنزاً ، وجعل لهم على يديك وبتدبيرك راحة وفوزاً ، ولم يعرّضك لهذه الفادحة الا ليخصك بانفراجها على يدك ويبقي لك بها ذكراً يطبق الارض ويبلغ أمراء خراسان ومصر والحجاز واليمن فيصيبهم الحسد على ما هيأ الله لك منها .

ونظر بختيار الى ابن حَسّان القاضي ــ وكان منبسطا معه لقديم خدمته ــ فقال : ايها القاضي ، أنت لا تقول شيئا ؟ قال : أيها الامير ، وما القول وعندك هؤلاء العلماء ، والمصاقع الألباء ، وان سراجي لا يزدهر في شمسهم ، وان سحابتي لا تبلّ على بِلالهم : وقد قالوا فأنعموا ، وجروا فأمعنوا ، وليس قدامهم إمام ، ولا وراءهم أمام ، لكني أقول : ماجَشَمْنا اليك هذه الكلف إلا لتنظر على ضعف اركاننا وعُلُوّ اسناننا وقلة اعواننا ، لأنا رأيناك أهلا للنظر في أمرنا ، والاهتمام بحالنا ، وبما يعود نفعه على صغيرنا وكبيرنا .

فقال عز الدولة : ما زُويَ عني ما طَرَقَ هذه البلاد ، ولقد اشرفتُ عليه ، وفكرتُ فيه ، وما احببتُ تجشّم هذه الطائفة على هذا الوجه ، وما أعجبني هذا التقريعَ من الصغير والكبير . وما كان يجوز لي أن انعس على هذه الكارثة ، وأتنعَمَ بالعيش معها . ولعمري إن

الغفلة علينا اغلب ، والسهوَ فينا اعمَلُ ، ولكن فيما ركبتموه مني تهجين شديد، وتوبيخ فاحش • وان هذا المجلس لما يُتنَهادَى حديثه بالزائد والناقص، والحسن والقبيح • وانكم لتَظنُون انكم مظلومون بسلطاني عليكم ، وولايتي لأموركم ، كلا، ولكن كما تكونون يوَلَّى عليكم، هكذا قولُ صاحب الشريعة فينا وفيكم • والله لو لم تكونوا اشباهي لما وَلِيتكم • ولولا أني كواحد منكم لما جُعلت قيّماً عليكم، ولو خلا كل واحد منا بعيب نفسه لعلم أنه لا يسعه وعظ غيره، وتهجين سلطانه •••

الباب الخامس

الاقتباس في الحضارة العربية

الفصل الاول

التفاعل بين الحضارة العربية والحضارات العالمية القديمة

لقد خرج العرب الفاتحون من جزيرتهم بعد اسلامهم يحملون معهم:

١ ـ ما كان عندهم من تراث في اليمن والحجاز وحضرموت وعمان في العصر الجاهلي من انظمة الري،وبناء المدنوالسدود والمصانع والآبار ، ومعارف في الفلك والطب والزراعة والتجارة والصناعة .

٢ ـ اللغة العربية التي تتمثل بلاغتها في الشعر الجاهلي وبخاصة شعرالمعلقات السبع أو العشر المشهورة ، وفي الحِكم البليغة ، والأمثال السائرة ، وسجع الكهان ، وخطب الخطباء .

٣ ـ التعاليم الاسلامية الجديدة التي جاء بها الاسلام، وتتمثل في القرآن الكريم الذيعالجمشاكل العربالدينية والاجتماعيةوالاقتصادية والعسكرية . كما تتمثل في سنة الرسول (ص) من احاديث واعمال وتقريرات ، وفي الفقه الذي شارك فيه الخلفاء والصحابة من المهاجرين والانصار ، ومن جاء بعدهم من التابعين وتابعي التابعين في البلاد الاسلامية كافة .

٤ ـ السجايا العربية وهي الصفات الحسنة والخصال الحميدة التي كانوا يتفاخرون بها كالكرم والذِّمام والنخوة والنجدة والجوار التي اسلفنا ذكرها . فلما فتح العرب بلاد الانبراطوريتين الساسانية والبيزنطية اعطوا أهلها ما يأتي :

١ ـ اللغة العربية وهي لغة الله تعالى التي انزل بها القرآن والتي أصبحت مع الزمن لغة السياسة والعلم والثقافة والتخاطب عند العرب

والمسلمين من العرب وغير العرب • وتعلم الناس شعرها ونثرها ونحوها وبلاغتها •

٢ ـ الخط العربي الذي أصبح الخط المقدس الذي دُوّن به القرآن والذي أقسم الله تعالى به بالاية : « نون والقلم وما يسطرون » وكان أساساً للدين الاسلامي والحضارة العربية • وصار يكتب به المسلمون كافة في آسية وافريقية واوربة • وقد تفنن المسلمون في رسم حروفه وتحسينها حتى وصل الى اعلى مراتب الجمال في الدولة العباسية عند العرب وعند الفرس والاتراك وغيرهم •

٣ ـ الدين الاسلامي الذي اعتنقه الناس وأحلوه محل اديانهم الوثنية ، وطبعوا بطابعه أكثر أمورهم ، وعاشوا في ظله في وحدة اسلامية كانت تضم اعظم انبراطورية في خلافة الراشدين والامويين والعباسيين والعثمانيين عدا تلك الدول الاسلامية الكبيرة والصغيرة التي انبثقت منها في الشرق والغرب • ولم تزل الامم التي دخلت في حظيرة الاسلام تؤمن بهذا الدين وتجله وتحترمه وتقيم شعائره وتدافع عنه بشتى اللغات •

٤ ـ الاخلاق العربية وقد اقتبست هذه الامم كثيراً من اخلاق العرب وعاداتهم التي كانوا يتصفون بها في الجاهلية والاسلام •

وفي الوقت الذي ترك فيه العرب المسلمون كل هذه الآثار في الامم التي اعتنقت الاسلام فان العرب المسلمين اقتبسوا منها ما كان عندهم مما لم يخالف الاسلام فأخذوا منهم بعض الانظمة العسكرية والادارية كما اقتبسوا منهم فيما بعد كثيراً من علومهم في الرياضيات والطبيعيات والطب والفلك واضافوه الى ما كان عندهم من أصول الثقافة العربية والاسلامية• وقد تكون منذلك كله ما نسميه بالحضارة العربية الاسلامية التي كان للعرب فيها مبتكرات مهمة واضافات عظيمة اعترف بها المستشرقون والمنصفون من علماء الغرب كما سنشير الى ذلك عند بحثنا في الابداع والابتكار في كتاب آخر •

وبعد هذه الكلمة الموجزة في تأثير العرب في الامم التي دخلت تحت حكمهم نود أن نذكر تأثرهم بالغير فنشير الى ما اقتبسه العرب من الامم التي فتحوا بلادها أو ترجموا علومها ، والدوافع التي حملتهم على هذا الاقتباس ، والروح الجديدة التي صبغوا بها تلك المقتبسات. فقد كان العرب تواقين الى ارتشاف العلوم بحيث لم يسبقهم الى ذلك أحد قبلهم . وكانوا يقدرون تلك النعم التي وصلت اليهم من الحضارات القديمة حق قدرها . واذ شاع بين الغالبين من العرب والمغلوبين من الامم الاخرى التزاوج والتصاهر ووحدة المعتقد بالله الواحد فقد كان اختلاط بعضهم ببعض سريعاً . وعن هذا الاختلاط نشأت حضارة جديدة نفخ فيها العرب روحا جديدة فنمت وازدهرت وذلك حين ألف العرب بين مقومات الحضارة اليونانية والفارسية والرومانية بالعبقرية العربية ، والروح الاسلامية ، فأشرقت وازدهرت وعلت علواً كبيرا . ومما قاله لوثروپ ستودارد الامريكي في هذا الصدد :[1] ان الممالك الاسلامية في القرون الثلاثة الاولى من تاريخها (٦٥٠ - ١٠٠٠ م) سارت احسن سير فكانت أكثر ممالك الدنيا حضارة ورقيا تقدما وعمرانا ، مرصعة الاقطار بجواهر المدن الزاهرة ، والحواضر العامرة ، والمساجد الفخمة، والجامعات العلمية المنظمة .. وظل الشرق الاسلامي خلال هذه القرون الثلاثة يرسل انواره على الغرب النصراني ..

وقال لوبون : « ان من الواجب علينا ان نذكر ان العرب ، والعرب وحدهم ، هم الذين هدونا الى العالم اليوناني واللاتيني. وان الجامعات الغربية ومنها : جامعة باريس عاشت مدة ستمئة سنة من مترجمات كتبهم ، وجرت على اساليبهم في البحث . وكانت المدنية العربية من ادهش ما عرف التاريخ »[2] .

---

(١) حاضر العالم الاسلامي .

(٢) La Psychologie Politique

ومما لاشك فيه ان العرب زادوا على ما أخذوه من حضارات الامم التي سبقتهم بكل ما استطاعوا فاوصلوها بأمانة الى الامم الحديثة • وظلت مؤلفات العرب تدرس في اوربة قرونا عديدة من ذلك مؤلفات الرئيس ابن سينا وابي بكر الرازي • ولم يبطل تدريس كتاب القانون لابن سينا الا في القرن الثامن عشر •

وينبغي ألا نبالغ كثيراً فيما اخذه العرب من الغير أو اقتبسوه من الامم فقد قال الدكتور أوليري De LACY O'leary : ان المادة العلمية الاغريقية التي تسلمها العرب لم يسلموها كما هي الى غيرهم ممن جاء بعدهم فقد كان لها حياة ونمو حقيقيان في البيئة العربية • ويمكن ان يقال ان الجبر والمثلثات يعتبران تطوراً عربياً بهذه الدراسات • وكان العرب اذكياء في ملاحظة الافلاك وتسجيل الملاحظات عليها ، وان العرب استطاعوا ان يصححوا معلومات الاغريق القدماء • ولم يعترف كثير من علماء المسلمين بالتنجيم ولم يروا علاقة بين النجوم وبين ما يحدث للناس في الارض[٣] ، وبذلك خالفوا اليهود والمسيحيين • أما في الطب فان اطباء العرب كانوا دقيقي الملاحظة وقد اضافوا من خبراتهم في المستشفيات الشيء الكثير الى ما تعلموه من الاغريق • كما اخترعوا كثيراً من الآلات التي تستعمل في الجراحة • وظل العرب قروناً عديدة في المقدمة في اعمالهم الطبية كما ساهموا بتطوير العلوم تطويرا حقيقيا مكنهم ان يعطوا للاجيال المتعاقبة أكثر مما تسلموه ممن سبقهم[٤] •

وجاء في كتاب ايقاظ الغرب[٥] قول لآرثر ليونارد يتلخص في ان المدنية الاسلامية عند العرب وصلت الى اعلى مستوى من عظمة العمران والعلم ، فأحيت جذوة المجتمع الاوربي ، وحفظته من الانحطاط • وقوله : لم نعترف ونحن نرى انفسنا في اعلى قمة من التهذيب والمدنية

---

(٣) راجع كتابنا « المراصد الفلكية ببغداد » .

(٤) مسالك الثقافة الاغريقية ص ٥٠ .

(٥) تأليف هدلي وترجمة اسماعيل حلمي البارودي .

بأنه لولا التهذيب الاسلامي، ومدنية العرب وعلمهم وعظمتهم في مسائل العمران ، وحسن نظام مدارسهم ، لكانت اوربة اليوم غارقة في ظلمات الجهـل .

ويقول گوتييه Gautier الفرنسي[٦] : ان محصول المدنية العربية في العلم على اختلاف انواعه يفوق محصـول المدنية اليونانية كثـيراً .

واما في بلاد الشرق فقد كان تأثير العرب كبيرا في الفرس وغيرهم فقد تثقف هؤلاء كما اسلفنا بالثقافة العربية واعتنق أكثرهم الاسلام ، وتعلموا العربية وكتبوا بخطها العربي ، وغير الفرس أسـاليب نظمهم وشعرهم واقتبسوا الاوزان العربية . وقضى علم العروض العربي على الاساليب الفارسية القديمة . وأصبح للعربية مكانة محترمة في ادب الفرس حتى اليوم .

ويظهر ان تقدم العرب في العلوم بلغ درجة اذهلت الاوربيين في القرون الوسطى حتى لقد وَقَرَ في اذهانهم عدم استطاعتهم اللحاق بالعرب أو مضاهاتهم ، وباسـتحالة الاسـتغناء عن اللغة العربية في الشؤون الفكرية . فقد كان پترارك Petrarque الايطالـي في اوائل القرن الرابع عشر الميلادي يحاور الايطاليين عن إمكان مباراة العرب ، والاستغناء عن اللغة العربية في تحصيل العلوم ، فيقول لهم : « لقـد اسـتطاع شـيشرون Ciceron ان يكـون خطيباً بعد ديموسـتين *Demosténe* وصار ڤرجيل Virgil شاعراً بعد هومـيروس *Homere* ، وانتم تتوهمون مع ذلك بأنه لن ينبـغ أحد بعد العرب . لقد ضاهينا اليونان حتى أننا سـبقناهم في بعض الاحيان ، وضاهينا وسبقنا بذلك جميع الامم ، وانتم تقولون الان إننا لن نضاهي العرب ! فهل تخدرت عبقرية الطليان ، وخَبَت الـى هذا

---

(٦) محمد كرد علي ج١ ص ١٠٩ .

الحد » ؟[٧]

ويقول اوجين يونغ[٨] Eugéne yung في كتابه : يقظة الاسلام والعرب Le Rèveil de L,Islam et des Arabes : لقد كان للعرب ماضٍ يحق لهم ان يُعجبوا به، ماضٍ حربي ، ثم ماضٍ في العلم العالي ، والصنائع ، والرفاهية ، مما اتخذته اوربة في القرون الوسطى ايام كانت نصف متوحشة ، دعامة لقيام النهضة الحديثة. ولعله يقال : ان الاوربيين لا يقدرون ان يغفروا لأساتذتنا ما لقنوهم من المعارف. ويقول : ليت شعري هل القوة الاجتماعية في الاسلام هي التي تقلق أوربة أو دولها العظمى ؟ ربما كان ذلك لان تعاليم الاسلام حرة ، فهو لا يقول بالطبقات ولا بالامتيازات . ولا يدعو الى التسلط على نحو ما تدعو الكنائس النصرانية . وليس في مطاويه شيء من الرياء السياسي الذي تنقاد اليه بعض الحكومات . ان شعار المسلمين الجميل هو تقريب القلوب والارواح . وهذه خطوة انتقال الى السلام العام ، وهذا ما يراد ولا شك القضاء عليه ، وما مصير من يعمل ذلك الا الخيبة .

---

(٧) ساطع الحصري : اراء واحاديث في القومية العربية ص ١٣٨ .
(٨) راجع الاسلام والحضارة العربية لمحمد كرد علي ج١ ص ٦٢

الفصل الثاني

تراث العرب القديم

يُعَد العرب من بين الامم التي خدمت العلم قديماً وحديثا .
فقد ذكر القاضي صاعد الاندلسي التغلبي[1] ان ثماني أمم عُنِيَتْ بالعلم، وصدرت عنها فنون المعارف وهي: امم الهند والفرس والكدانيون والعبرانيون واليونانيون والروم وأهل مصر والعرب . واما الامم التي لم تُعْنَ بالعلم عناية تستحق بها اسمه فلم ينقل عنها فائدة حكمة، ولا رؤيت لها تنيجة فكرة فهي : أمم الصين ويأجوج ومأجوج والترك والصقالبة والروس والبربر وأصناف السودان من الحبشة والنوبة والزنج ..

ويتكلم القاضي صاعد عن أثر المناخ في الناس فيقول : ان من كان منهم موغلاً في بلاد الشمال فهم اشبه بالبهائم منهم بالناس ، لأن « افراط بُعْد الشمس عن مسامتة رؤوسهم بَرَّدَ هواءهم ، وكثَّف جوهم . فصارت لذلك أمزجتهم باردة ، وأخلاطهم فجَّة . فعظمت ابدانهم ، وابيضَّت الوانهم ، وانسدلت شعورهم . فعُدِموا بهذا دقة الافهام ، وثقوب الخواطر ، وغلب عليهم الجهل والبلادة ، وفشا فيهم العمى والغباوة .. » ثم يصف من كان منهم قرب خط الاستواء فيذكر أن طول مقارنة الشمس لِسَمْت رؤوسهم اسخن هواءهم ، وسخف جوهم ، فصارت لذلك امزجتهم حارة ، وأخلاطهم محرَّقة . فاسودَّت الوانهم ، وتفلفلت شعورهم فعدموا بهذا رجاحة الاحلام ، وثبوت البصائر . وغلب عليهم الطيش ، وفشا فيهم النوْك والجهل .. فهؤلاء

---

(١) طبقات الامم ص ٧ ــ ٨

وغيرهم لم يستعملوا افكارهم في الحكمة ، ولا راضوا انفسهم بتعلم الفلسفة غير أنه كانت لهم سياسة تضبطهم ومدنية تظهر في بناء المدن والأنظمة والقوانين[٢] .

ونستطيع ان نقرر ان العرب في العصر الجاهلي كما ذكرنا غير مرة في هذا الكتاب لم يكونوا في عزلة عن العالم الخارجي بل كانوا على اتصال وثيق به ، يؤثرون فيه ويتأثرون به . وكان آخر اتصال حضاري لهم بالأمم المجاورة ايلاف قريش وهو رحلات الشتاء والصيف ، ومحالفاتهم التجارية مع القياصرة والاكاسرة والاحباش وغيرهم . اما في الاسلام فقد كان احتكاكهم أكثر وتجاربهم اعمق ذلك انهم خالطوا امماً شتى في آسية وافريقية وأوربة . وأثروا فيها وتأثروا بها واقتبسوا منها بعض علومهم ثم زادوا عليها بما ابتكروه وابتدعوه .

وبمكننا ان نتبين أهمية تاريخ العرب قبل الاسلام اذا قمنا بدراسة دقيقة لما بين ايدينا من تراث ادبي تناقله كتاب العرب في العصور الاسلامية اذ لا بد ان يكون لهذه الامة العربية التي انتجت هذه اللغة العربية ، والشعر العربي بأوزانه العديدة المختلفة تأريخ حافل له خصائصه ومزاياه وأصوله . فالشعر العربي مثلاً يمكننا ان نعتبره قديما قدم العرب وهو يدل من دون شك على مبلغ تحضر العرب في اجيال طويلة متلاحقة ، موغلة في القدم ، نستنتج ذلك مما ثبت فيه من صفات ومزايا طبعته بطابع خاص كالفردية ، وخطاب الاثنين ، وتنوع الاوزان ، والتغني بالاطلال ، والتعبير عن مشاكل القبائل وأيامها وحروبها . ومما لا شك فيه ان الشعر العربي قد تناول كل شيء في الحياة العربية في الجزيرة ولذلك وضع الجاحظ[٣] الشعر عند العرب موضع البناء عند العجم . ويقول ابن خلدون[٤] : « واما العرب فكان

---

(٢) طبقات الامم ص ٨ – ٩

(٣) الحيوان ج١ ص ٣٦ – ٣٧

(٤) المقدمة ص ٤٢٦ – ٤٢٧

لهم اولاً فن الشعر يؤلفون فيه الكلام اجزاءً متساوية على تناسب بينها في عدة حروفها المتحركة والساكنة ، ويفصلون الكلام في تلك الاجزاء تفصيلاً يكون كل جزء منها مستقلا بالافادة لا ينعطف على الآخر ويسمونه : البيت فتلائمُ الطبعَ بالتجزئة اولاً ، ثم بتناسب الاجزاء في المقاطع والمبادىء ، ثم بتأدية المعنى المقصود وتطبيق الكلام عليها ، فلهجوا به فامتاز من بين كلامهم بحظٍّ من الشرف ليس لغيره لاجل اختصاصه بهذا التناسب وجعلوه ديواناً لاخبارهم وحِكَمِهم وشرفهم، ومَحَكّاً لقرائحهم في اصابة المعاني ، واجادة الاساليب . واستمروا على ذلك . وهذا التناسق الذي من أجل الاجزاء والمتحرك والساكن من الحروف قطرة من بحر من تناسب الاصوات كما هو معروف في كتب الموسيقى » .

ومع ذلك كله فان حضارة العرب في العصر الجاهلي لا تقوم على اللغة والشعر فقط بل تقوم أيضاً كما اسلفنا على بناء المدن[٥] والقصور وبناء المعابد والسدود ، وانشاء الدول وممارسة التجارة والصناعة والزراعة . وعلى ما كان لهم من اديان سماوية وأرضية ، وما كان فيها من نُسُك وحج وتلبية او طواف .

ومن نافلة القول ان نقول ان هذه الحضارة العربية في الجزيرة العربية قد عاصرت الحضارة البابلية والآشورية والفرعونية كما عاصرت حضارة الفرس واليونان والرومان . وان العرب كانوا مستقلين في قلب جزيرتهم ، وفي مأمن من كل فاتح او غازٍ . وانهم كانوا كما قال ديودور الصقلي[٦] : «ولما كان العرب القاطنون في هذه البلاد لا يُنالون في حرب فقد ظلوا احراراً ابدا لا يستعبدهم مستعبد . وأكثر من ذلك انهم لا يقبلون قط رجلاً اجنبياً عنهم سيداً عليهم وهم لا يزالون يحتفظون بحرية لا تشوبها شائبة ، فلم يقدر على استعبادهم آشوريو

---

(٥) راجع كتابنا « عروبة المدن الاسلامية » .

(٦) Diodorus Siculus 11. P 48

الزمان القديم ، ولا ملوك ميدية ولا الفرس ، ولا ملـوك مقدونية .
ومع ان هذه الامم قد جردت عليهم جيوشاً جرارة فانها جميعا عجزت
عن تحقيق غايتها » .

ومن مزايا العرب في تحضرهم وتأثرهم بغيرهم وتأثيرهم في الامم،
ما تحدث به أبو حيان التوحيدي في « الامتاع والمؤانسة »(٧) الـى
الوزير ابي عبدالله العارض الحسين بن احمد بن سعدان وزير صمصام
الدولة البويهي في مسامرته معه في الليلة السادسة عن تفضيل العرب
على العجم حيث قال :

فأول ما فاتح المجلس ان قال : أتفضـل العـرب على العجم ام
العجم على العـرب ؟

قلتُ : الامم عند العلماء اربع : الروم ، والعرب ، وفارس ، والهند
وثلاث من هؤلاء عجم ، وصعب أن يقال : العرب وحدها أفضل مـن
هؤلاء الثلاثة مع جوامع ما لها ، وتفاريق ما عندها . قال : انما ريد
بهذا الفُرس . فقلت : قبل ان احكم بشيء من تلقاء نفسي أروي كلاماً
لابن المقفع وهو اصيلٌ في الفرس عريق في العجم ، مفضَّل بين أهل
الفضل . وهو صاحب (اليتيمة) القائل : تركت اصحابَ الرسائل بعد
هذا الكتاب في ضحضاح من الكلام .

قال : هات على بركة الله وعونه . قلت : قال شبيب بن شَبّة ،
إنا لوقوف في عرصة المِرْبَد ـ وهو موقف الاشراف، ومجتمع الناس
وقد حضر اعيان المصر ـ اذ طلع ابن المقفع فما فينا أحد الا هَشّ له
وارتاح الى مُساءلته ، وسررنا بطلعته فقال : ما يقفُكم على متـون
دوابكم في هذا الموضع ؟ فوالله لو بعث الخليفة الى أهل الارض يبتغي
مثلكم ما أصاب احداً سواكم، فهل لكم في دار ابن برثن في ظل ممدود،
وواقية من الشمس، واستقبال من الشمال، وترويح للدواب والغلمان،

(٧) ج١ ص ٧٠ ـ ٧٣ .

ونتمهّد الأرضَ فانها خير بساط وأوطؤه ، ويَسمع بعضنا من بعض فهو امَد للمجلس وادَر للحديث • فسارعنا الى ذلك ، ونزلنا عن دوابنا في دار ابن برثن نتنسم الشَّمال ، اذ اقبل علينا ابن المقفع فقال: أي الامم اعقل ؟ فظننا انه يريد الفرس ، فقلنا : فارسُ اعقل الامم • نقصد مقاربته ، ونتوخى مصانعته • فقال : كلا ، ليس ذلك لها ولا فيها وهم قوم عُلِّموا فتعلَّموا ، ومُثّل لهم فامتثلوا واقتدوا • وبُدئوا بامر فصاروا الى اتّباعه، ليس لهم استنباط، ولا استخراج• فقلنا له : الروم • فقال : ليس ذلك عندها ، بل لهم ابدان وثيقة ، وهم اصحاب بناء وهندسة لا يعرفون سواهما ، ولا يحسنون غيرهما •

قلنا : فالصّين • قال : اصحاب اثاث وصنعة ، لا فكر لها ولا روِيَّة • قلنا : فالتُرك • قال : سباع للهِراش • قلنا : فالهند قال : اصحاب وهْم ومخرقة وشَعْبذَة وحيلة • قلنا : فالزنجُ • قال : بهائم هاملة • فرددنا الامر اليه • قال : العرب ، فتلاحَظنا وهمس بعضنا الى بعض ، فغاظه ذلك منا ، وامتُقع لونه ، ثم قال : كأنكم تظنون فيَّ مقارَبتكم ، فوالله لوددتُ انّ الامر ليس لكم ولا فيكم ، ولكن كرهتُ إن فاتني الامر ان يفوتني الصواب ، ولكن لا ادعُكم حتى ابين لكم لِمَ قلت ذلك لأخرج من ظِنَّة المداراة وتوهم المصانَعة • ان العرب ليس لها اول" تَؤُمه ، ولا كتاب يدلّها ، أهلُ بلدٍ قَفْرٍ، ووحشةٍ من الأنس ، احتاج كل واحد منهم في وحدته الى فكره ونظره وعقله• وعلموا انمعاشهم من نبات الارضفوسموا كلَّ شيء بِسمَته، ونسبوه الى جنسه ، وعرفوا مصلحة ذلك في رَطْبه ويابسه وأوقاته وازمنته • وما يَصلُح منه في الشاة والبعير ، ثم نظروا الى الزمان واختلافه ، فجعلوه ربيعيا وصيفيا ، وقيظيا وشتويا • ثم علموا ان شربهم من السماء فَوضعوا لذلك الانواء • وعرفوا تغَيُّر الزمان ، فجعلوا له منازله من السنة • واحتاجوا الى الانتشار في الارض ، فجعلوا نجوم السماء أدلَّة على اطراف الارض وأقطارها ، فسلكوا بها

البلاد ، وجعلوا بينهم شيئا ينتهون به عن المنكر ، ويرغّبهم في الجميل، ويتجنّبون به الدناءة ويحضّهم على المكارم ، حتى إن الرجل منهم وهو في فَجّ من الارض يصف المكارم فما يُبقي من نعتها شيئا ، ويسرف في ذمّ المساويء فلا يقصّر . ليس لهم كلام الا وهم يَحاضّون به على اصطناع المعروف ، ثم حفظ الجار ، وبذل المال ، وابتناء المحامد . كل واحد منهم يصيب ذلك بعقله ، ويستخرجه بفطنته وفكرته فلا يتعلمون ، ولا يتأدبون بل نَحائزُ مؤدبةٌ ، وعقول عارفة. فلذلك قلت لكم : انهم أعقل الامم، لصحة الفِطْرة، واعتدال البِنْيَة، وصواب الفِكْر ، وذكاء الفهم ... »

ثم يقول بعد كلام طويل وصف به الامم الاخرى من غير العرب[٨]:

« ... على ان العرب ــ رحمك الله ــ احسنُ الناس حالاً وعيشا اذا جادتهم السماء وصَدَقَتْهم الانـواء . وازدانت الارضُ فهُدّلت الثمار، واطردت الاودية، وكثر اللّبن والاقط والجبن واللحم والرطب والتّمْر والقمح ، وقامت لهم الاسـواق ، وطابت المرابع ، وفشا الخِصب ، وتوالى النِّتاج ، واتصلت الميرة ، وصدق المصاب وأرفَغَ المُنتجع، وتلاقت القبائل على المَحاضر، وتقاولوا، وتضايفوا، وتعاقدوا ، وتعاهدوا ، وتزاوروا ، وتناشدوا ،وعقدوا الذمم، ونطقوا بالحِكَم ، وقَرَوا الطُّرّاق ، ووصلوا العُفاة ، وزوّدوا السـابلة ، وأرشدوا الضُلاّل ، وقاموا بالحَمالات، وفكّوا الأسرى، وتداعَوا الجَفَلى ، وتعافَوا النَّقَرَى ، وتنافسوا في افعال المعروف . هذا وهم في مساقط رؤوسهم بين جبالهم ورمالهم ومناشىء آبائهم واجدادهم، وموالِد أهلهم واولادهم ، على جاهليّتهم الاولى والثانية . وقد رأيت حين هبّت ريحُهم ، وأشرقت دولتهم بالدعوة ، وانتشرت دعوتهم بالمِلّة ، وعزّت ملتُهم بالنبوة ، وغلبت نبوتُهم بالشريعة ، ورسخت

---

(٨) ج١ ص ٨٠ ــ ٨٣ .

شريعتهم بالخلافة ، ونضّرت خلافتهم بالسياسة الدينية والدنيوية، كيف تحولت جميع محاسن الأمم اليهم ، وكيف وقعت فضائل الاجيال عليهم من غير ان طلبوها وكدحوا في حيازتها ، أو تعبوا في نيلها ، بل جاءتهم هذه المناقب والمفاخر، وهذه النوادر من المآثر عفوا، وقطنت بين اطناب بيوتهم سهوا رهوا . وهكذا يكون كل شيء تولاه الله بتوفيقه ، وساقه الى أهله بتأييده ، وحلّى مستحقيه باختياره . ولا

غالب لامر الله ، ولا مبدّل لحكم الله ولذلك قال الله تعالى : « قل اللهمّ مالك الملك تؤتي الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شيء قدير». ولله في خلقه اسرار تتصرف بها دوائر الليل والنهار ، وتتدلّلها مجاري الاقدار حتى ينتهي بمحبوبها ومكروهها الى القرار . عزّ إلهاً معبوداً، وجلّ رباً محموداً مقصودا .

وبعد فالذي لا شك فيه من وصف العرب ، ولا جاحد له من حالها ، انه ليس على وجه الارض جيل من الناس ينزلون القفر ، وينتجعون السحاب والقطر، ويعالجون الابل والخيل والغنم وغيرها، ويستبدلون في مصالحهم بكل ما عزّ وهان ، وبكل ما قلّ وكثر ، وبكل ما سهل وعسر ، ويرجون الخير من السماء في صوبها ،ومن الارض في نباتها ، مع مراعاة الاوان بعد الاوان ، وثقة بالحال بعد الحال ، وتبصرة فيما يفعل ويجتنب، ما للعرب فيما قدّمنا وصفه، وكررنا شرحه من علمهم بالخصب والجدب ، واللين والقسوة ؛ والحر والبرد ، والرياح المختلفة ، والسحائب الكاذبة ، والمخايل الصادقة ، والانواء المحمودة والمذمومة ، والاسباب الغريبة العجيبة .

وهذا لانهم مع توحشهم مستأنسون ، وفي بواديهم حاضرون فقد اجتمع لهم من عادات الحاضرة احسن العادات، ومن اخلاق البادية اظهر الاخلاق . وهذا المعنى على هذا النظم قد عدمه اصحاب المدن،

وأرباب الحَضَر ، لان الدناءة والرِّقة والكَيْس والهَيْن والخلابةَ والخِداع والحيلة والمكر والخِبَ تَغْلِب على هؤلاء وتَملِكهم ، لأن مدار أمرهم على المعاملات السيئة ، والكذب في الحِس، والخلف في الوعد .

والعرب قد قدَّسها الله في هذا الباب بأسره وجَبَلَها على أشرف الأخلاق بقدرته ، ولهذا تجد أحدهم وهو في بَتٍّ حافياً حاسراً يذكر الكرم ، ويفتخر بالمَحْمَدة ، وينتحل النجدة ، ويحتمل الكَلَّ ، ويضحك في وجه الضيف ، ويستقبله بالبِشْر ، ويقول : احدثه إن الحديث من القِرى . ثم لا يقنع ببثّ العُرف ، وفعل الخير ، والصبر على النوائب ، حتى يَحُضَّ الصغير والكبير على ذلك ، ويدعوَ اليه، ويستنهضَه نحوَه ، ويكلّفَه مجهودَه وعَفْوَه ... » .

ثم يقول : « ومما يدل على تحضّرهم في باديتهم ، وتَبدِّيهم في تحضّرهم، وتحلّيهم بأشرف أحوال الأمرين : اسواقهم[٩] التي في الجاهلية مثل دُومَة الجَنْدَل بين العراق والشام كان ينزلها الناس أول يوم من شهر ربيع الاول فيقيمون اسواقهم بالبيع والشراء ،والأخذ والعطاء ... فيقوم سوقهم الى آخر الشهر ثم ينتقلون الى سوق هَجَر وهو المُشَقَّر في شهر ربيع الآخر فتقوم اسواقهم ... ثم يرتحلون نحو عُمان فتقوم سوقهم بديار دَبا ثم بُصحار ، ثم يرتحلون فينزلون إرَم ، وقرى الشِّحْر فتقوم اسواقهم اياماً ، ثم يرتحلون فينزلون عَدَن أبْيَن .

ومن سوق عدن تُشتَرى اللَّطائم ، وأنواع الطيْب ، ولم يكن في الارض أكثر طيبا ، ولا احذق صناعا للطيب من عدن . ثم يرتحلون فينزلون الرابية من حضرموت . ومنهم من يجوزها وَيَرد صنعاءَ فتقوم اسواقهم بها . ومنها كانت تجلب آلة الخَرَز والادم والبرود ،

---

(٩) راجع عن اسواق العرب العشرة : تاريخ اليعقوبي ج١ ص ٢٢٦ ط . النجف .

وكانت تجلب اليها من «معافر» وهي معدن البُرود والحِبَر . ثم يرتحلون الى عُكاظ وذي المجاز في الاشهر الحُرُم ، فتقوم اسواقهم بها فيتناشدون ويتحاجّون ويتحادثون . ومن له أسير يسعى في فدائه، ومن له حكومة ارتفع الى الذي يقوم بأمر الحكومة من بني تميم .. ثم يقفون بعَرَفَة ويقضون ماعليهم من مناسكهم ثم يتوجهون الى أوطانهم.

وهذه الاسواق كانت تقوم طول السنة فيحضرها مَن قَرُبَ من العرب ومَنْ بَعُدَ. هذا حديثهم، وهم هَمَل لاعِزَّ لهم الا بالسؤدد ولامَعْقِل لهم الا السيف، ولاحصون لهم الا الخيل، ولافخر الا بالبلاغة.

ثم لما ملكوا الدور والقصور والجنان والاودية والانهار والمعادن والقلاع والمدن والبلدان والسهل والجبل والبر والبحر ، لم يقعدوا عن شأْوِ مَنْ تقدم بآلاف سنين ، ولم يعجزوا عن شيء كان لهم ، بل ابَرّوا عليهم وزادوا ، وأغربوا وأفادوا . وهذا الحكم ظاهر معروف، وحاضر مكشوف، ليس الى مردّه سبيل، ولا لجاحده ومُنْكِرِه دليل».

ومهما يكن من أمر فأن تراث العرب العظيم يؤلف افضل مصدر لتاريخ الامم في العالم لما لموقع بلادهم الجغرافي من أهمية بالغة بسبب وجودها في مركز وسط بين الامم، من حيث المكان والزمان، وبما دوّنه العرب عن سائر الاقوام التي فتحوا بلادها ، وانضوت تحت حكمهم ، أو كانت لهم علاقات معهم ، سواء كانوا من الوثنيين أم من أتباع الديانات السماوية . كما يؤلف اعظم مصدر عن النتاج العلمي العربي الذي يقدر بعدد من ملايين الكتب[٩] والتي تشمل نحو ٥٠٠ علم . وقد بقي من هذا التراث جملة صالحة في مكتبات العالم العامة والخاصة، وكلها تشير الى الآفاق الواسعة التي بلغها علماء العرب والمسلمين ، والتي عزا الغربيون القدماء كثيرا منها الى السحر . كما يمكن القول: انه لولا العرب وحضارتهم ويَقَظَتهم الفكرية لم يكن بالامكان معرفة حضارات الام التي سبقتهم ولا إيصالها الى العالم الحديث مع النتاج العربي الاصيل والتراث الاسلامي العظيم .

(٩) تاريخ التمدن الاسلامي ج٣ في بحث المكتبات أو خزائن الكتب ص٢٣٥ .

الفصل الثالث

تراث الاغريق والرومان

يقول صاعد الاندلسي التغلبي في كتابه « طبقات الامم »[1] « كانت لعرب في صدر الاسلام لا تُعْنَى بشي من العلوم الا بِلُغَتِها ومعرفة أحكام شريعتها ، حاشا صناعة الطب ، فانها كانت موجودة عند افراد من العرب ، غير مُنْكَرَة عند جماهيرهم ، لحاجة الناس طُرّاً اليها ... » .

ان هذه العلوم العربية التي نشأت بنشأة الاسلام سرعان ما اتسعت وتعددت وانتشرت في بيئة اسلامية واسعة الارجاء، وتأثرت كما اسلفنا بثقافات الامم القديمة بعض التأثر ، ذلك ان العرب ترجموا الكتب التي الفها علماء تلك الامم ، وحذقوا ما فيها ، ولخّصوه وعلّقوا عليه بشتى التعليقات . وسنجد في هذا الفصل بعض الاعلام من مفكري الاغريق الذين تأثر بهم العرب ، وبما وضعوا من قواعد علمية وصلت اليهم بواسطة المسالك الآتية :

١ ـ عن طريق علماء السريان .

٢ ـ عن طريق علماء الاغريق مباشرة .

٣ ـ عن طريق علماء الهند .

٤ ـ عن طريق مدينة حرّان الوثنية .

فقد انتشرت الثقافة الاغريقية في الهلال الخصيب منذ ان غزا الاسكندر بلاد الشرق سنة ٣٣١ ق.م . وبعد موته سنة ٣٢٣ ق.م عندما سيطر خلفاؤه على المنطقة المتاخمة للبحر الابيض المتوسط من الشرق الادنى . وكان ذلك سبباً في انتشار لغة الاغريق ، وثقافتهم ،

---

(١) ص : ٤٧

وعاداتهم ، ودياتنهم بين الطبقة الحاكمة بوجه خاص • اما الطبقة العامة من أهل القرى والفلاحين فلم تتأثر بها الا قليلا •

وتُعْزَى ثقافة الاغريق في الشرق الى الاسكندرية ، وتعتبر ثقافة الاسكندرية تطوراً طبيعياً لثقافة الاغريق القدماء • وقد تخصصت الفلسفة منذ أيام افلاطون في الدراسات الطبيعية بقيادة ارسطو ، وركزت جهودها في الطب والفلك والرياضيات • وكانت غاية الفلسفة الكشف عن نظام الطبيعة • وقد استخدموا المنطق وسيلة لذلك •

لقد أتخذ بطليموس خليفة الاسكندر على مصر من الاسكندرية عاصمة له ، وأنشأ فيها المتحف الذي أصبح فيما بعد جامعة هيلينية تنافس المدارس الاثينية القديمة، وقد تحول حكماء عين شمس المصريون الى الاسكندرية وبذلك ورثت الاسكندرية كلاً من اثينا اليونانية وعين شمس المصرية • وبالرغم من ذلك كله فان نفوذ الشرق كان كبيراً في الاسكندرية حتى أن الكثير من شؤون الحياة والافكار الاغريقية يمكن رده الى مصر الفراعنة وبابل العراقية •

وكان مما انشأه بطليموس الى جانب المتحف : المكتبة الشهيرة بمكتبة الاسكندرية التي صَيَّرت من الاسكندرية كعبة للعلماء[٢] •

ومن اشهر العلماء الذين درسوا في مصر : ارسطو طاليس ، وفيثاغورس الذي ينسب الى جزيرة ساموس أو الى مدينة صور فقد ذهب الى مصر ، ودرس فيها • ثم رحل الى جنوب ايطالية حيث انشأ مدرسة تتبع الاساليب المصرية • كما ان افلوطين تعلم في الاسكندرية وهو مصري ولد في سنة ٢٠٠م ومات سنة ٢٦٩م في بيت وهبه له الطبيب العربي زيد Zet'us الذي كان أحد تلاميذه[٣] •

اما « افلاطون » فقد انتشرت تعاليمه في روما ، وترجمت بعض كتبه الى السريانية باسم لاهوت « ارسطو » وانتشرت بين المسيحيين

---

(٢) اوليري ص ٢٨ — ٢٩ •

(٣) اوليري ص ٣٥ •

وبخاصة بين اليعاقبة ، وقد قبلها المتقدمون من علماء بغداد الذين كانوا قبل الكندي • أما « فورفوريوس » فقد كان من بلاد سورية ، درس في أثينا ثم درس في روما على « افلوطين » وانتقد العقيدة المسيحية • ومن كتبه : كتاب « ايساغوجي » Isagoge أو مقدمة مقولات « ارسطو » الذي اوضح فيه منطق « ارسطو » • وكان « فورفوريوس » مثل كثير من الافلاطونيين المُحْدَثين نباتياً ، زاهداً، يمتنع عن أكل اللحوم متبعاً في ذلك طريقة الكهنة المصريين ، والكهنة البوذيين •

وكان بين علماء الاغريق عدد كبير من العلماء الذين ينتمون الى سورية مثل « يامليخا » الذي ينسب الى قِنِّسْرِين في سورية • وكان آخر رئيس لاكاديمية ثينا : « داماسيوس » أي الدمشقي وهو من ابناء دمشق • وقد درس في الاسكندرية ثم في اثينا •

ولما كان اتجاه اكاديمية اثينا اتجاهاً وثنياً فقد اغلقت سنة ٥٢٩ م في زمن الامبراطور « جوستنيان » وهاجر سبعة من الفلاسفة الى فارس من بينهم « داماسيوس » المذكور فرحب بهم كسرى سنة ٥٣٢م غير انهم عادوا الى « جوستنيان » سنة ٥٣٣م •

اما الرومان فقد أصبح لهم نفوذ كبير في الشرق قبل الميلاد وبعده• وكانت لهم حروب مستمرة مع الفرس ، ومع بعض الدول العربية التي لم تخضع للحكم البارثي ولا للحكم السلوقي الذي كان مقره في انطاكية • وكانت الامارات العربية يومئذ تمتد من ارمينية الى شمال جزيرة العرب • ففي منتصف القرن الثاني قبل الميلاد احتل البارثيون العراق وقضوا على الدولة التي انشأها سلوقوس ، كما تمكن قسم من القبائل العربية ان تحتل بعض اجزاء من هذه البلاد ، وتستقر فيها، وتؤسس الولايات والامارات المحلية حتى أصبح العرب سادة البلاد الحقيقيين[٤] في زمن الانباط والتدمريين والغساسنة في ديار الشام

---

(٤) اوليري ص ١٣ •

والمناذرة في ديار العراق . وقد اصاب الفرسَ خسائرَ فادحة" على يد « أُذيْنة » العربي ملك تدمر . كما اصاب الرومَ مثلُ ذلك ايضا . وأصبح لتدمر نفوذ واسع في سياسة الشرق الادنى ولا سيما بعد ان امتدت حدودها حتى الفرات . وأصبحت مركزاً تجارياً رئيساً بين العراق وسورية . وتلقب «أذينة» بلقب الملك بعد سنة ٢٦٠م . وزحف على فارس ، وهاجم المدائن « طيسفون » . وبعد مقتله غزت ارملته « زنوبية » أو « الزبَّاء » مصر واقتربت في فتوحها من القسطنطينية. وعظمت تدمر حتى غدت تنافس روما وتعاديها لولا ان الامبراطور اورليان تصدى لها وخرب مدينتها[٥] ثم ان « تراجان » الروماني الذي غزا العراق سنة ١١٥م وبلاد الپارثيين سنة ١١٦م استطاع ان يستولي على سلوقية عاصمة الدولة السلوقية ، الواقعة على دجلة قبالة المدائن ويحرقها . كما أحرق مدينة الرّها . وبعد موته في سنة ١١٧م خلفه الامبراطور « هادريان » فلم يحاول ان يتدخل في أمور العراق لصعوبة مراسه ، ولذلك اعاد الفرات حداً فاصلاً لامبراطوريته. غير انالرومان استفحلوا فتقدموا في سنة ١٦٢م نحو المدائن وهي «طيسفون» عاصمة الپارثيين وهدموها . وفي سنة ١٩٤م فتحوا العراق ، وجعلوا مدينة « نُصيبين » عاصمة له . وفي سنة ١٩٨م حاربوا الپارثيين واستولوا على سلوقية ، والمدائن مرة أخرى . وفي سنة ٢١١م انتقل الحكم الى الاسرة الساسانية التي نشرت الديانة الزرادشتية وقاومت المانوية والمزدكية[٦] .

ان العرب المسلمين عندما فتحوا بلاد الرومان لم يتأثروا بالآداب اليونانية التي كانت سائدة في بلادهم لانشغال العرب بالفتوح ، ولان العرب كانوا محافظين على تراثهم في الشعر الجاهلي ، متعصبين له ، معتزين به . لا يسمحون لانفسهم ان يغيروا شيئاً مما كان في ذلك

---

(٥) اوليري ص ٢٣ .
(٦) اوليري ص ١٨٠ .

العصر ، ولا ان يأخذوا شيئا من أدب اليونان الوثني لمخالفة ذلك للاسلام ، ولان المُثُل العليا التي جاء بها الاسلام تختلف كثيراً عما كان عند اليونان والرومان من ناحية ، ولان العرب الفاتحين من ناحية اخرى قضوا على ما كان لهم من دول البلاد العربية ، وفي افريقية ، وجزر البحر الابيض المتوسط عندما اخضعوا تلك البلدان لسلطانهم •

على ان المسلمين بوجه عام ، وبعض فرقهم كالمعتزلة والصوفية واخوان الصفا بوجه خاص قد تأثروا ببعض المذاهب الفلسفية التي كانت تنتشر في بعض هذه الاماكن كمذهب الاسكندرانيين أو مايسمى بـ « الافلاطونية الحديثة » التي اشتهر بتنظيمها « افلوطين » المولود سنة ٢٠٥م بمدينة اسيوط • وكان قد درس في الاسكندرية ، واطلع على علوم الفرس والهنود في أثناء الحملة التي غزت فارس ، ثم سافر الى روما سنة ٢٤٥م حيث اسس مدرسة للفلسفة هناك •

واذا كان العرب قد ورثوا جانباً من الثقافة الهيلينية Hillinstic Culture فقد حفظوا علم الاغريق حتى ليمكن القول: انه لولا العرب ما كان يمكن آن تظهر هذه الثقافة •

ولئن نبغ العرب في الطب والفلك لانهما علمان عمليان فإن تقدمهم لم يقف عند هذين العلمين فقط بل نبغوا في سائر العلوم كما يشهد لهم بذلك علماء الغرب ، هذا الى انهم فاقوا العلماء المشهورين امثال سترابو Strabo وبطليموس Btolemy وپليني Pliny وأضرابهم •

واذا كان اليونان قد قدموا خدمات علمية كبيرة ، والرومان قد قاموا بفتوحات عسكرية واسعة ، فان العرب اشتهروا بالناحيتين ، وبرزوا فيهما ، وفاقوا غيرهم بمراحل • وابتدعوا وابتكروا ما شاءوا من المبتكرات العلمية والمكتشفات الحضارية • وعاش المجتمع العربي الاسلامي وأهل الذمة من الملل والنحل في ظل الاسلام حياة اخاء ومودة وحرية وعدل ومساواة لم تكن عند غيرهم من الامم •

الفصل الرابع

تراث والفرس والسريان والهنود

١ ـ الفرس :

لم يتأثر العرب قبل الاسلام ولا بعده بالمجوسية دين الفرس رغم العلاقات التجارية والسياسية وروابط الجوار التي كانت تربط بينهم وبين العرب ، غير انه وجد بين العرب من كان يعرف الفارسية ، ومن اطلع على بعض معارفهم في الطب أمثال الحارث بن كَلَدَة الثقفي وابنه النضر • أما دياناتهم الثَّنْوِية فلم يأخذ العرب المسلمون شيئاً من تعاليمها لمخالفتها للاسلام الذي يقول بالتوحيد المحض الخالص بل استغلتها بعض الفِرَق الغالية محاوِلةً إفساد التعاليم الاسلامية ، وإضعاف العرب ، والسيطرة على الحكم واعادة المجوسية التي كانوا يطلقون عليها « الدين الاكبر ، والمِلَّة العظمى »[1] • وكانت المعتزلة والسنة من المذاهب الاسلامية التي كافحت مثل هذه الحركات وقاومتها بشدة • ويمكن ان نوجز اديانهم الوثنية بما يأتي :

تطلق لفظة المجوسية عند الفرس على أتباع الديانات الثَّنْوِيَّة Dwalism وهي ديانة الفرس من زرادشتية ومانوية ومزدكية وكلها لا تمت الى التوحيد بصلة أو نسب •

فالزرادشتية : نسبة الى زرادشت Zoroasetr الذي ولد في ميدية في الجزء الشمالي الغربي من بلاد ايران• وكان ظهور زرادشت قبل الميلاد ووفاته في سنة ٥٨٣ق•م ويطلق على كتابه آفستا Avesta وأما شروحه فتسمى زندافستا Zendavesta • ودين زرداشت دين ثَنَوي يرى ان للعالم أصلين أو إلهين لكل منهما ذات مستقلة : إله

---

(١) الملل والنحل ص ١٧٩ •

الخير وهو اهورا أو اهورامزدا ، واله الشر وهو أهْرِمَن • وان اصل الخير هو النور ، الذي خلق كل ما هو حسن ونافع • اما إله الشر فهو الظلمة الذي خلق كل شر في العالم • والحرب بين الإلهين سِجال ، ولكن الفوز النهائي لإله الخير ، ولا بد للانسان في هذه الدنيا من اتباع أحد الإلهين • وقالوا: النور أزلي، والظلمة مُحْدَثَة • وعندهم ان الامتزاج بين النور والظلمة هو المبدأ ، وخلاص النور من الظُلْمة هو المعاد •

والمانوية نسبة الى ماني[٢] المولود سنة ٢١٥م وتعتبر تعاليمه مزيجاً من الزرادشتية والنصرانية وهو يشارك زرادشت بقوله بالثَّنَوِيه غير انه يخالف زرادشت اذ يرى ان الحياة شرٌ لان امتزاج الخير والشرّ، شَر ولابد من التخلص من هذا الشر ، ولذلك دعا الى الزهد ، وتحريم النكاح ليستعجل الفناء •

أما المزدكية فتنسب الى مَزْدَك الذي كان موجوداً سنة ٤٨٧ م وكان ثَنَوِيا أيضا يقول بالنور والظلمة • وكان يرى ان اسباب البغضاء والحروب بين الناس ناجمة من عاملين هما : المال والنساء ولذلك قرر ان يجعل المال والنساء مشاعين ومباحين بين الناس حتى يكونا كالماء والهواء ليس لأحد الحق في ملكيتهما وانما تكون ملكيتهما للناس كافة • وقد حاول الفرس فرض الديانة المزدكية على عرب العراق غير ان المنذر ابن ماء السماء رفضها فكان جزاؤه الطرد من عرش الحيرة • كما ان كسرى قُباذ نَكَّلَ بمَزْدك ، وباتباعه وكاد يستأصلهم في المذبحة التي دبرها لهم في سنة ٥٢٣م •

ويمكن القول : بأن الفرس بعد دخولهم في الاسلام تعلموا العربية وكتبوا بخطها المقدس كما أسلفنا وأصبح الخط الفارسي أثراً بعدعَيْن • وقلدوا العرب في قول الشعر العربي وفي أوزانه وأغراضه وتأدبوا بآدابهم وتخلقوا بكثير من أخلاقهم وعاداتهم •

ولما كان الفرس أصحاب حضارة عريقة وتجارب في السياسة ،

---

(٢) في الملل والنحل : ماني بن فاتك • وفي الفهرست: ماني بن فتّق.

والحكم فقد تركت امثالهم وحِكَمُهُم بعض الاثر في أدب العرب، اما بالنسبة لبعض الفرق الهدّامة التي ظهرت في فارس أو بعض أماكن من العراق وأحيت اديانا قديمة تمكنت ان تنال من قوة العرب والاسلام بعض الشيء فليست من الفِرق الاسلامية لانها تحللت من المحرَّمات، واسقطت الفروض والتكاليف عن اتباعها . ولا نجد بين مؤسسيها على كثرتهم الا وجهاً عربيا واحداً[٣] . اما الباقون فهم من غير العرب واشهر فرقهم التي حاولت استئصال الاسلام: البيانية أو السمعانية والخَطّابية والمغيرية والمنصورية والسبأية والكَيْسانية والراوندية والقرامطة والخُرَّمِيَّة وغيرهم من الشعوبية والغلاّة الذين ابتعدوا عن الاسلام او تستروا به بدافع من النزعات القومية والمطامع السياسية . وان ما دخل في آراء هذه الفِرق لا يقوم دليلاً على تأثر أصول الاسلام بدين الفرس . اما ما تأثر به المسلمون فكان في طريقة المناظرة والجدل باعتبار انهم أثاروا بعض المسائل التي كثر النقاش حولها كما في البحث في المعاد والثواب والعقاب ، وفي بعض الامور الفلسفية والآراء السياسية . أما بالنسبة الى النظم الادارية والدواوين وما يتعلق بالترف والحياة الاجتماعية ، فمما لا شك فيه ان العرب تأثروا بالفرس وغيرهم أول الامر . كما اعجبوا ببعض الحِكَم التي لاءمت اذواقهم لمشابهتها لأمثالهم وحِكَمهم في الجاهلية والاسلام .

٢ ـ السريان :

وللمسلمين علاقات ثقافية مع السريان ومعرفة بتراثهم . وتعدّ لغتهم من اللغات الإرَمية التي انتشرت في العراق والجزيرة وخاصة في الرّها ونصيبين . وقد انتشرت أيضا في انطاكية وما جاورها من مرتفعات بلاد الشام . وكان للسريان أثر مهم في نشر الفلسفة اليونانية . كما

---

(٣) هو ابو منصور العجلي من بني عبدالقيس زعيم المنصورية . وكان قد تأثر بالمغيرة زعيم المغيرية أحد الموالي الغلاة الذين اشتهروا بخنق خصومهم .

كانت لهم عناية بالوثنية وبخاصة في حرّان التي كانت من مراكز الوثنية والثقافة اليونانية قبل الاسلام وبعد الفتح الاسلامي • كما ان قسماً من السريان عنوا بالدين المسيحي بعد تنصرهم • وقد قدّم السريان خدمات كبيرة للعلم والفلسفة بما ترجموه من كتب اليونان الى لغتهم أول الامر ، أو الى اللغة العربية فيما بعد • وقد استفاد العرب من نقل هذه الكتب الى السريانية ، وكانت المصدر الاول لمعارفهم عن تراث اليونان في المنطق والطب والرياضيات والفلك • ويُعْزَى الى السريان انهم ترجموا من الفهلوية لغة الفرس أيضا • ومن كبار علماء السريان ابن دِيْصان المتوفى سنة ٢٢٢م وهو الذي مزج بين النصرانية وبين الثَّنَوية دين الفرس • ومنهم سرجس الرَّسْعَني (او الرأسي) المتوفي سنة ٥٣٦ م الذي ينسب الى مدينة (رأس عين) في أقليم الجزيرة الفراتية •

وفي العصور الاسلامية أسلم بعض السريان ، ونبغ عدد منهم في العصرين : الاموي والعباسي • وكان لهم اثر واضح في نقل العلوم الى العربية في خلافة العباسيين • وأخيراً يمكن القول : بأن السريان النساطرة كانوا الصِّلة بين الاغريق والعرب •

٣ ـ الهنود :

اما بالنسبة للهنود فقد مرت الثقافة الاغريقية من الاسكندرية الى الهند عن طريق البحر • وصار يبدو على علم الفلك والرياضيات الهندي شيء من الطابع الاغريقي الاسكندري • وفي أوائل الدولة العباسية عرف العرب شيئا من الفلك الهندي • ولعل اسم كتاب (السِّنْد هند) عندهم مأخوذ من أسم مؤلفه الفلكي الهندي «براهما سِدهانتا» (Brahma sidhanta) وهذا الكتاب يحتوي على معلومات فلكية ورياضية• وكان يستخدم في مدرسة جُنْدَيسابور وقد نُقل الى العربية بعد ان تُرجم الى الفارسية وربما الى السريانية أيضا • وقد مرت الثقافة الاغريقية في مناطق آسيوية اخرى عن طريق البر حيث وصلت الى بَلْخ ومرو وبلاد الصُّغْد وذلك في اثناء غزوة الاسكندر •

الفصل الخامس

أثر الاديان العربية واليهودية والنصرانية في الحضـــارة العربيـــة

١ ـ اديان العرب قبل الاسلام :

لقد كان عرب الجاهلية ذوي دول وعمران ومدنية وحضارة وآلهة تكلمنا على بعض نواحيها في مطاوي هذا الكتاب • ونزيد هنا انه كان بين العرب من يقول : بالطبع المحيي والدهر المفني ، وهم الدَّهْرِيَّة الذين قالوا : ان المُكَوِّن للاشياء هو الطَّبْع ، والمُفْنِي المهلِك لها هو الدهر • « وقالوا إنْ هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ومـا نحن بمبعوثين » (٣٧ ـ المؤمنون) « وقالوا ما هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر وما لهم بذلك من علم إنْ هم الا يظنون » (٢٤ ـ الجاثية) • وسواء كان العرب دهريين ، أي ممن انكروا الخالق والبعث ، أو ممن اعترفوا بوجود الخالق وأنكروا البعث ، أو من الذين أقروا بالخالق غير انهم انكروا الرسل ، وعبدوا الاصـنام واتخذوها شُفَعاء فيظهر ان هذه الوثنية من الامور التي دخلت على العرب من خارج الجزيرة لان القرآن الكريم يشير الى ان منهم من كانوا موحِّدين في زمن النبي هود (ع) الذي ارسله الله الى قوم عاد وفي زمن النبـي صالح (ع) الذي ارسله الله الى ثمود ، كما يشير الى الحنيفية ديـن ابيهم ابراهيم الخليل (ع) الذي كان دين العرب القومي الـذي جمع العرب على اختلافهم • ولعل الوثنية قد وفدت الى الجزيرة من العراق والشام لاننا نلحظ ان الآلهة التي كانت في العراق على عهد نوح (ع) كانت قبل الاسلام منتشرة في أماكن مختلفة من الجزيرة العربية ، ولعل كثيراً من الآلهة تسربت من مدينة الحَضَر في العراق ومن سورية ايضا

الى جزيرة العرب،يؤيد ذلك وجود لوحة في سورية عليها ثلاث إلاهات يسترجح انهن اللات والعزى ومَناة الثالثة الاخرى • ويؤيد ذلك أيضا العثور على اللات وما يرمز الى العزّى في « الحضر » كما دلت التنقيبات التي اجرتها مديرية الآثار العامة العراقية في تلك المدينة • ويذكر الشهرستاني[1] ان عمرو بن لُحَي لما ساد قومَه بمكة سار الى البَلْقاء بالشام فرأي قوماً يعبدون الاصنام فسألهم عنها فقالوا : هذه أرباب اتخذناها على شكل الهياكل العُلوية ، والاشخاص البَشَرية ، نستنصر بها فننصر ، ونستسقِي فنسقَى فأعجبه ذلك ، وطلب منهم صنماً من أصنامهم فدفعوا اليه بـ (هُبَل) فصار به الى مكة ، ووضعه في الكعبة • وكان مكسور اليد اليمنى فعملت له قريش يداً من ذهب• وفي رواية اخرى ان « هُبَل » كان من بلدة هيت في العراق • وكان معه صنمان آخران هما : إساف، ونائلة على شكل زوجين ، فدعا الناس الى تعظيمهما ، والتقرب اليهما ، والتوسل بهما الى الله تعالى • وقد نصبهما على الصفا والمَرْوَة ، وكان يذبح عليهما تجاه الكعبة •

ولم يقتصر العرب على حرم الكعبة ، بل كان لغَطَفان حرم كحرم مكة لا يقتل صيده ولا يهاج عائذه • وكان لكليب حرم كحرم مكة كان يحمى فيه الانسان والحيوان على السواء • وكان للعُزّى حرم يضاهى به حرم الكعبة • وكان لبني الحارث كعبة يعظمونها • كما كان لإياد كعبة بسنداد من ارض العرب بين الكوفة والبصرة •

وقد ظل حكم الجاهلية الذي أشار اليه القرآن الكريم بالآية « أفحكمَ الجاهلية يبغون ••• » (٥٠ ــ المائدة) حتى مجيء الاسلام• وكان يراد بهذا الحكم : الوضع الذي كان عليه العرب من تنظيم ديني له طقوسه واقداسه ، ويمثل حالة خاصة وحَمِيَّة جاهلية حلّ محلها

---

(١) الملل والنحل ص ٤٣٠-٤٣١ ولاحظ ص ٤٣٢ منه عن مُعَطِّلة العرب .

حكم اسلامي يمكن وصفه بأنه حكم عربي عام يمثله قوله تعالى « ... وكذلك انزلناه حكماً عربيا ... » (٣٧ ـ الرعد) .

٢ ـ اليهودية والمسيحية :

انتشرت اليهودية[٢] بين الحِمْيَريين في اليمن ، كما انتشرت المسيحية بينهم بعد غزو الاحباش لليمن ، وأنشئت الكنائس في ظِفار وفي عدن ونجران وصنعاء. وبلغ النزاع أشده بين اليهودية والنصرانية، وفتك اليهود بالنصارى في وقعة « الاخدود » التي اشار اليها القرآن الكريم في سورة « البروج » . واتخذ المسيحيون معابد لهم على غرار حرم مكة كالحرم الذي اتخذوه في نجران اليمن وجمعوا فيه عظام شهداء «الاخدود» وكان حرماً لا يقرب طيره ولا يقتل عائذه. واعتنقت بعض القبائل العربية الدين المسيحي غير ان النزاع اشتد بين العرب الوثنيين والعرب النصارى عندما بنيت كنيسة « القُلَّيْس » في صنعاء لتنافس الكعبة بمكة وعندما توجه الاحباش النصارى لهدم الكعبة . ولذلك نجد الافراح في كل مكان وعلى كل لسان عندما دُمرت حملة اصحاب الفيل الذين كانوا من الاحباش النصارى . كما انتشرت المسيحية في العراق في اثناء الحكم البارثي الذي دام حتى سنة ٢٢٦م وظهرت تعاليم نسطور في القرن الخامس الميلادي وصار يطلق على اتباع « نسطور » « النساطرة » وهم السريان الشرقيون كما ظهر اليعاقبة وهم السريان الغربيون. ويعرف « النساطرة » اليوم بالكلدان اما اليعاقبة فيعرفون بالسريان . وفي اواخر القرن الثالث الميلادي كانت المحاولات في العراق بين عبد يشوع اسقف كسْكَرَ وبين ماني صاحب الديانة المانوية التي اسلفنا ذكرها .

ولما جاء الاسلام اسلم من اليهود من اسلم مثل كعب الاحبار ووهب ابن منبّه ، وبقي الآخرون على يهوديتهم تحت حكم المسلمين . ومن

---

(٢) راجع الملل والنحل ص ١٥٠ .

يهود صنعاء عبدالله بن سبأ الملقب بابن السوداء وقد اظهر الاسلام في خلافة عثمان بن عفان • ويذكر المؤرخون انه حاول ان يفسد على المسلمين دينهم ، وان يبث في البلاد كثيراً من العقائد الضارة • وقد كان طاف ، الحجاز والعراق والشام ومصر •

ولما كانت اليهودية قد عاشت الحكم اليوناني والروماني فقد تأثرت بثقافة اليونان والرومان • غير ان اليهود لم يستطيعوا ان يساهموا في الفلسفة الا عندما كانوا تحت الحكم العربي[٣] •

وانتشرت النصرانية في الجزيرة كما اسلفنا وانتشرت الرهبنة وبنيت الاديرة ، وكما كانت اليهودية تحمل شيئا من الثقافة الاغريقية فان المسيحية كانت كذلك فقد تسربت اليها فلسفة ارسطو وأفلاطون وغيرهما •

وهكذا ينبغي دراسة ما تسرب من اليهودية والمسيحية او عن طريقهما الى الامة العربية قبل الاسلام وبعده بمثل دراستنا للوثنية أو الحنيفية أو الصابئة لنتعرف الى تأثير ذلك في الحضارة العربية بعد ظهور الاسلام لان انتشار الاسلام في بلاد كانت تحتضن الوثنية واليهودية والنصرانية وتنشأ فيها المساجد الى جنب الكنائس المسيحية، والمعابد اليهودية ، وبيوت النار المجوسية ، قد ادى الى احتكاك الاسلام بكل هذه الاديان عن طريق المناظرات والمجادلات في العقائد ، وفلسفة الاديان • كما نتج من ذلك عند المسلمين ما يعرف بعلم الكلام الذي استخدموه للذب عن الدين الاسلامي والدفاع عن آرائه ومبادئه ومناقشة المشاكل التي كان يطرحها عليهم خصومهم من اليهود والنصارى •

وينبغي ألا يغيب عن البال أمر مهم آخر وهو ما دخل في التفسير وفي تاريخ العرب من الدس الذي يعرف بالاسرائيليات والنصرانيات عن طريق بعض من اسلم من اليهود والنصارى • ومثل ذلك يقال عن كثرة

---

(٣) اوليري ص ٦٠

الوضع في الحديث لاسباب شتى ، ونسبته كَذِباً الى الرسول (ص) .

وفي الوقت نفسه يجب ان نشير الى ان الحروب التي اعلنها اليهود على الرسول (ص) ومماألأتهم لاعدائه كانت تتصف بالدس والمكر والخداع والنفاق بعكس حرب العرب له حيث كانت حرب رجال اشراف خالية من كل غدر وخيانة ولذلك عمل عمر بن الخطاب على اجلاء اليهود والنصارى من جزيرة العرب فأجلى من يهود خيبر من لم يكن عنده عهد من رسول الله[٤] وأجلى نصارى نجران بعد ان نقضوا عهدهم الذي عقدوه مع الرسول (ص) وخالفوا شروطه وتعاملوا بالربا وقد دفع لهم عمر تعويضا مضاعفا عن املاكهم واسكنهم في النجرانية بناحية الكوفة ، واسقط عنهم الجزية سنتين ، ومنع الظلم عنهم[٥] ودخل يهود نجران مع النصارى في الصلح وكانوا كالاتباع لهم ، وأوصى بهم عثمان بعد استخلافه ، وفي خلافة علي بن ابي طالب اتوه يناشدونه ردهم الى ديارهم فقال لهم : « ان عمر كان رشيد الأمر وانا اكره خلافه » .

(٤) بن هشام ٢ : ٤٩

(٥) فتوح البلدان ٧٧ ـ ٧٩ .

الفصل السادس

المراكز الثقافية في الهلال الخصيب ومصر

لقد سكن العراق في القرون الاولى امم سامية متعددة كانت لهم حضارات عريقة منهم البابليون والآشوريون والكلدان والنبط .وكان الكلدانيون من الامم التي عنيت بالعلم . وهم اصحاب المباني التي عرفت بالزيقورة وهي المَجْدَل ومنها مَجْدَل نمرود . ومن ملوكهم بختنصر الذي غزا بني اسرائيل،وقتل منهم خلقاً ،وسبى بقيتهم وأسرهم في بابل سنة ٥٨٨ ق.م وكان من الكلدانيين علماء في فنون المعارف ، والعلوم الرياضية كما كانت لهم معرفة بارصاد الكواكب وأسرار الفلك. ومن اشهر علمائهم : « هرمس » البابلي الذي كان يعاصر سقراط . وقد ذكر عنه ابو معشر جعفر بن محمد بن عمر البلخي بانه هو الذي صحح كثيراً من كتب الاوائل في علوم النجوم ، وغيرها من اصناف الفلسفة . وقد وصلت بعض آرائه الى العرب[1] .

ويظهر ان اليونانيين استفادوا من مذهب البابليين في حركات النجوم ، وصورة هيأة الفلك . فان بطليموس اليوناني نقل في كتابه « المجسطي » عنهم ارصاداً في تصحيح حركات الكواكب المتحيرة اذ لم يجد لاصحابه اليونانيين في ذلك ارصاداً يثق بها[2] . ويبدو ان عرب الجزيرة تعلموا الشيء الكثير من علم الفلك الذي كان عند اخوانهم الكلدانيين في العراق . كما ان اليونان بثوا فلسفتهم على أسس اخذوا بعضها من الكلدانيين في العراق والبعض الآخر من المصريين القدماء وغيرهم .

---

(١) طبقات الامم ص ١٩ .

(٢) طبقات الامم ص ١٩ .

وعندما خرج العرب من الجزيرة العربية بعـد اسلامهم يبشرون بالاسلام كان يومئذ في مصر والهلال الخصيب عدد من المدارس التي كانت تصطبغ بالصبغة الاغريقية • ومن اشهر تلك المدارس : مدرسة الاسكندرية ، ومدرسة انطاكية ، ومدرسة دمشق ، ومدرسة قِنِّسرين على الفرات، ومدرسة نصيبين، ومدرسة الرها، ومدرسة جُنْديسابور وبلغ عدد مدارس السريان في العراق وحده نحو خمسين مدرسة لتدريس العلوم بالسريانية واليونانية واليك نبذة في غاية الايجاز عن أهمهـا :

١ ـ مدرسة الاسكندرية :

كانت في بدء القرن الثالث الميلادي • وتعتبر الاسكندرية اساس الثقافة الاغريقية بعد تأسيس الاسكندر لها سنة ٣٢٣ ق • م وقد اضاف البطالسة الى مكتبتها كثيراً من الكتب التي وجدوها في خزائن اثينا • واوجبوا على كل من يقيم بالاسكندرية أو يمر بها من أهل العلم ان يقدم لمكتبتها نسخة من كل ما يملكه من الكتب• وبالاضافة الى ذلك فقد ورثت مدرسة الاسكندرية حكمة المصريين عندما انتقل اليها العلماء من معبد عين شمس كما انتقل اليها كثير من الافكار الشرقية ولاسيما من بابل وبذلك اصبحت الاسكندرية كعبة العلماء وغدت مدرستها ومتحفها ومكتبتها من أشهر المؤسسات الثقافية في العالم القديم •

٢ ـ مدرسة نصيبين :

لقد اعتبرت نصيبين في حدود سنة ٢٩٧م مقر كرسي الاسقفية • وقد تأسست بها مدرسة على غرار مدرسة الاسكندرية وهي على شكل دير لنشر اللاهوت الاغريقي بين المسيحيين الذين يتكلمون السريانية ولذلك كان التعليم فيها بالسريانية • وكانت مدرسة نصيبين موجودة ايام الفتح الاسلامي[٣] وكانت لها شهرة عظيمة •

---

(٣) اوليري مسالك الثقافة ص ٩٩ •

٣ ـ مدرسة انطاكيـة

انشـئت في القرن الرابع الميـلادي اسسـها اسـقف انطاكية «يوسطاثيوس» مقلدا مدرسه الاسكندريه الكبرى ايضا وتعتبر مدرسة انطاكية ذات صبغة اغريقية • وكان تاريـخ المدرسة متقلبا فقد نفـي مؤسسها سنة ٣٣١م وبقيت المدرسة حتى عام ٣٧٩م ثم تفرقت في سنة ٣٨١ وانتهت عام ٣٩٢م •

٤ ـ مدرسة دمشق :

وكانت المناقشات بين المسلمين ورجال الدين المسيحيين تجري في دمشق بحرية تامة وكان سرجيوس (سرجون) في اثنـاء الفتح العربي واسطة التفاهم مع الفاتحين من العرب المسلمين • وقد عني هو وابناؤه في الأمور المالية منذ ولاية معاوية،وفي خلافة الخلفاء الامويين الاخرين•

٥ ـ مدرسة الرهـا (EDESSA) :

لما استولى الفرس على نصيبين عام ٣٦٣م حلت محلهـا مدرسة الرها التي تعتبر استمراراً لها • وقد ترجمت فيها علوم الاغريق الـى السريانية • وزادت شهرة هذه المدرسة بـين المسيحيين الذين كانوا يتكلمون السريانية في العراق وبلاد الفرس• وكان معظم اساقفة الفرس من طلابها عام ٤١١ـ٤١٢م ومن الكتب التي ترجمت فيها الى السريانية كتاب فورفوريوس المعروف بـ (ايساغوجي) في المنطق •

وقد اضطهدت مدرسـة الرها بنتيجة الخلافات المذهبية بـين المسيحيين كما اضطهد كثير من معلميها ، ذلك ان « نسـطور » وهو راهب انطاكي كان بطريركاً على القسطنطينية سـنة ٤٢٨م اختلف مع الطوائف المسيحية هناك ، وانتهى الخـلاف بمجلس عقده الانبراطور سنة ٤٣١م تقرر فيه حرمان نسطور وطرده من الكنيسة ، ونفيه الـى البتراء غير أن كثيراً من السوريين لم يوافقوا على هذا القرار وتبرأوا من المجلس وانفصلوا عن الكنيسة الارذودكسية • ويطلق على هؤلاء المنشقين اسم « النساطرة » وقد نال « نسطور » تأييد مدرسـة الرها

بصفة عامة . وفي سنة ٤٨٩م غلقت المدرسة نهائياً وهاجر معلموها النسطوريون الى فارس فاقاموا في نصيبين وفتحوا مدرسة نسطورية تعتبر وريثة لمدرسة الرّها . وكان لهؤلاء النساطرة أثر كبير في ايصال الثقافة الاغريقية الى العرب بما ترجموه من تراثهم الى العربية إما عن طريق السريانية وإما عن طريق اليونانية مباشرة . وكانت الثقافة النسطورية اغريقية المادة سريانية اللغة. وكانت الحيرة العربية في العراق في منتصف القرن السادس الميلادي قلعة منيعة للنسطورية التي اشتهرت بمقاومتها للمزدكية . وفي الحيرة تحول كثير من العرب الوثنيين الى المسيحية وبخاصة بعد تنصر النعمان ملك الحيرة . وكان أهل الحيرة يستعملون اللغة السريانية في صلواتهم .

٦ ــ مدرسة جُنْدَيْسابور :

لقد حاول الفرس ان يجلبوا علم الاغريق الى بلادهم لذلك انشأ « خسرو الاول » (٥٣١ ــ ٥٧٨م) مدرسة جُنْدَيْسابور في مدينة « سوسة » . وقد اتبعت المناهج التي كانت في مدرسة الاسكندرية والتي كانت متبعة في مدرسة حمص . ولم يكتف « خسرو الاول » بالثقافة الاغريقية بل كان يرسل في طلب الثقافة الهندية فترجمت بعض الكتب الهندية الى السريانية .

وكانت في مدرسة جُنْدَيْسابور كلية للطب لها مستشفى ملحق بها . كما كانت فيها كلية للفلك ايضاً أُلْحِقَ بها مرصد على غرار ما كان في مدرسة الاسكندرية . وكانت مساهمة النساطرة في الثقافة عن طريق مدرسة جنديسابور التي تأثر بها العرب .

ولما فتح العرب بلاد الانبراطورية الرومانية كان النزاع على اشده بين المسيحيين من النساطرة واليعاقبة الذين كانوا في الوقت نفسه مضطهدين من الحكومة البيزنطية . ومع ذلك فان الفتح العربي سنة ٦٣٢م لم يوقف الحياة العقلية أو الدينية في المجتمع النسطوري أو

ليعقوبي بل ترك للناس قوانينهم وعاداتهم وظلت تسلك طريقها الثقافي الخاص[٤] ولذلك كان العراق يومئذ غاصاً بالاطباء والفلاسفة حافلاً بالفلكيين والرياضيين .

ويظهر ان الدراسات في الكنيسة النسطورية تحت الحكم العربي ظلت قائمة فلما اسست بغداد كان علماء جُنْدَيْسابور أمثال : جبرائيل بن بختيشوع وخلفائه ممن ساعدوا على نشر الثقافة الاغريقية فيها وبذلك اتبعت هذه الثقافة في سيرها طريق الرها ، فنصيبين فجُنْدَيْسابور الى بغداد .

(٤) اوليري مسالك الثقافة ص ١٢٧ .

الفصل السابع

العلوم التي اقتبسها العرب

يحاول كثير من علماء الغرب ان يشيروا بدون دليل ، ولا برهان الى ان الفكر الاغريقي في التشريع انتقل الى الاسلام ، وان التأملات الاولى لفقهاء المسلمين الاولين مليئة بالنظريات المأخوذة من القانون الروماني ، وان التعاليم الاغريقية الفلسفية انتقلت الى العرب ، باعتبار ان القانون الروماني أيام الفتح العربي كان منتشراً بالاغريقية . وعزوا الوازع الديني عند المسلمين أو الاحساس والوعي الداخلي بالقيم الانسانية وبما هو عدل وحق ، الى تلك النظريات المأخوذة من الغير[1]، غير انهم لا يملكون الدليل ولا البرهان على ذلك ولهذا يكثرون من استعمال الفاظ الاحتمالات مثل : لعل وربما ، أو من المحتمل أو من الاكثر احتمالاً ... وغيرها من الالفاظ التي تدل على الشك ولا تدل على اليقين .

ومما يثبت أن كثيراً من هؤلاء العلماء لا يملكون الدليل على ما يقولون ان الدكتور أوليري (O'leary) نفسه يقول : « يجب ان نعترف اننا ليس لدينا شواهد على ان التأملات الفلسفية واللاهوتية في سورية في زمن الدولة الاموية قد أثرت في العرب ، حيث يبدو ان هذه الامور لم تجذب اليها العرب يومئذ ، وان بداية التأمل في الفلسفة والتوحيد والبحث العلمي بدىء بها في العراق ، وعلى الاخص في البصرة ثم الكوفة . وكانت هاتان المدينتان قريبتين من الحيرة وجُنْدَيْسابور » . ثم يتكهن ويقول : « وواضح ان نتيجة النفوذ

---

(١) اوليري مسالك الثقافة ص ٢٠٣ .

الاغريقي لم تبدأ ظهورها في سورية حيث كان حكامها المسلمون على صلة وثيقة باللاهوت المسيحي ، وافكاره الفلسفية ولكن في البصرة مع اننا ليس لنا اي دليل على وجود اتصال هناك مع الاغريق والعناصر المسيحية . وقد كانت الرياضة والسياسة هواية دمشق وبلاطها ، ولا يمكن ان تكون التأملات الفلسفية قد تأصلت هناك . اما البصرة من جهة اخرى فقد احتفظت بتقاليد علمية ، ولابد انها اعجبت بالثقافة الاغريقية الوافدة اليها من الحيرة على احتمال ، ومن جُنْدَيْسابور على احتمال آخر اقوى »[٢] .

ويقول الدكتور « اوليري » ايضا ان بعض فروع القانون الروماني ربما وصلت الى العرب عن طريق اليهود ، واكثر احتمالاً ان كل القوانين التي تتناول الخراج والعقود والرهن والميراث قد جاءت من القانون الذي كان سائداً في سورية ومصر حين غزا العرب هذه البلاد. وان العرب وجدوا في سورية ومصر نظاماً معقداً للخراج ، كما وجدوا قانون التعاقد ، والتشريعات التجارية التي تتناول اموراً لا يعرفها بدو الصحراء البسطاء .

وأن اللاهوت المسيحي قد أوحى الى المسلمين استعمال الاصطلاح « كلمة » التي ذكرها القرآن بالآية الكريمة «يا أهل الكتاب لا تَغْلُوا في دينكم ولا تقولوا على الله الا الحقّ ، إنما المسيحُ عيسى بنُ مريم رسولُ الله وكلمته ألقاها الى مريم ، وروحٌ منه فآمِنوا بالله ورُسُلِه . ولا تقولوا ثلاثةٌ ، انتهوا ، خيراً لكم ، إنما الله إله واحد، سبحانه أن يكونَ له ولدٌ ، له ما في السموات وما في الارض ، وكفى بالله وكيلا » (١٧١ ــ النساء) ، أي ان المسلمين في رأيه انتحلوا هذا الاصطلاح عن طريق تعاليم يوحنا الدمشقي[٣] او عن غيرها من التعاليم!

---

(٢) اوليري ص ٢٢٠ .

(٣) اوليري ص ٢١٤ ــ ٢١٥ ، الملل والنحل ص ١٧٥ ــ ١٧٨ .

وان الصفات التي يوصف بها الله تعالى قد انتحلها الاسلام من تعاليم « افلوطين » !!

اننا نستغرب صدور هذه المفتريات من مثل هذا العالِم، كما ننكر على الافاضل الذين ترجموا كتابه « مسالك الثقافة الاغريقية الى العرب »[٤] عدم ردهم عليه أو التعليق على الاخطاء التاريخية التي سردها في كتابه ، وأقحمها من دون مبرر ، ومن دون ان تكون لها علاقة بانتقال العلوم الاغريقية الى العرب، ولعله ظن انها حقائق لا ريب فيها. والظاهر ان « اوليري » جهل أو تجاهل حقيقة الاسلام والغاية من الفتوحات التي قام بها العرب الاولون ، استمع اليه يقول عن العرب :

١ ـ فكان من رأيهم ان يخلقوا احتلالاً عسكرياً ، وان يعيشوا على ثمرات تعب السكان المحليين[٥] !!

٢ ـ ولقد كان العرب الذين استقروا (على الحدود الفارسية والرومانية قبل الاسلام) وتسلّموا الاعانة (من الفرس والروم) محل حسد لبدو الجياع في الصحراء ، وبدت معيشتهم كأنها مثالية . وحين غزا العرب (المسلمون) الاقاليم الشرقية من الامبراطورية الرومانية وبلاد الفرس ارادوا ان يحيَوْا حياة مثل هذه فيشغلوا أنفسهم بالصيد، وما يعرض من حروب ، ويعيشوا على الجزية التي كان يدفعها اليهم السكان المغلوبون[٦] ...!!

٣ ـ ومما هو موضع نقاش : ما اذا كان محمد يقصد بدينه ان يكون عالمياً ، أو للعرب فحسب ؟؟ ثم يفسر الآية : « وما ارسلناك الا كافة للناس بشيراً ونذيرا » بأنها تشير الى ان نهاية العالم قد قربت .. فمن الضروري لجميع العرب ان يعتقدوا في رسالة محمد اذا ارادوا ان يخلصوا انفسهم من النار ، ولكن من غير المنصوص عليه ضرورة ذلك

---

(٤) ترجمه الدكتور تمام حسان وطبعه بالقاهرة سنة ١٩٥٧ م وترجمه السيدان متي بيثون ويحيى الثعالبي وطبعاه ببغداد سنة ١٩٥٨م

(٥) مسالك الثقافة ص ٢٠١ .

(٦) مسالك الثقافة ص ٢٠١ .

الاعتقاد لغير العرب[7] !!

٤ ــ أما العالم غير العربي فيبدو ان القرآن قد اعدّ له الغزو لا الهداية[8] !!

٥ ــ ويجب ان يُعْطَى بعض الوزن للتردد الواضح من اوائل المسلمين في نشر الدعوة خارج بلاد العرب حتى لا يزيد عدد المهتدين من الاغراب على عدد العرب المحليين[9] !!

٦ ــ ان سيرة النبي المنسوبة لابن اسحق تقول : ان محمداً قد ارسل بكتب الى ملوك اجانب مثل ملك الفرس وانبراطور الروم وآخرين دعاهم بها الى الاسلام ولكن هذه السيرة قد تم تأليفها في أول شكل من اشكالها بعد محمد بقرن من الزمان وتشتمل على كثير مما لا يمكن اعتباره معلومات تاريخية[10] !!

٧ ــ ومن المؤكد ان هؤلاء العرب لم يكونوا متعصبين ولم يحاولوا ان يفرضوا دينهم على المغلوبين ، بل فضلوا ان يبقوهم كادحين كما كانوا . وان يعيشوا هم انفسهم على اتناج تعبهم[11] !!

٨ ــ لم يفرض العرب دينهم على الشعوب المغلوبة بل تركوها الى دينها الاصلي ، وقوانينها وعاداتها ولغاتها وأريد لها ان تكون دافعة جزية . وكان المثل العربي الاعلى ان يعيش العربي في رفاهية على اتناج كد هؤلاء[12] !!

٩ ــ لقد أصر « الخلفاء الاوائل وهم رجال من اخصاء (محمد) وتلاميذه » بعض الوقت على ان يصبح المهتدون الى الاسلام موالي لقبيلة عربية[13] !!

---

(٧) مسالك الثقافة الاغريقية ص ٢٠١ ــ ٢٠٢ .

(٨) مسالك الثقافة الاغريقية ص ٢٠٢

(٩) مسالك الثقافة الاغريقية ص ٢٠٤

(١٠) مسالك الثقافة الاغريقية ص ٢٠٤

(١١) مسالك الثقافة الاغريقية ص ٢٠٥

(١٢) مسالك الثقافة الاغريقية ص ٢٠٦

(١٣) مسالك الثقافة الاغريقية ص ٢٠٤

١٠ ويهجو الاخطل هؤلاء الذين يصفهم بأنهم اصبحوا مسلمين تحت ضغط الجوع أكثر مما كانوا بسبب العقيدة[١٤] !!

اما العلوم التي اقتبسها العرب فمنها :

أ ـ الرياضيات : كان اقليدس من علماء مدرسة الاسكندرية وهو من الذين عنوا بدراسة الرياضيات • وقد عرفه العرب معرفة جيدة واخذوا عنه الرياضيات كما اخذوا عن ارشميدس الفيزيائي وهو من الرياضيين ايضا • ويمكن ان نذكر أن كثيراً من علماء الاسكندرية أيضا بحثوا في الفلك والجغرافية وقياس محيط الارض وقطرها ، والنظريات الهندسية • وينبغي ان نذكر ان بعض فلكييهم قد اخذوا كثيراً من معلوماتهم الفلكية عن البابليين كتقسيم الدائرة الى ٣٦٠ درجة ثم التقسيمات الستينية التي لا يزال معمولاً بها حتى اليوم كما كان لهم المام في العدسات والميكانيك والموسيقى • وبعد ان اخذ العرب أكثر هذه المعارف والعلوم عن الاغريق استطاعوا أن يصلحوا كثيراً من المعلومات الفلكية عند الاغريق[١٥] وكان من أحسن جهود العرب في ذلك علم الفلك الذي ظهر ببغداد[١٦] والشام ، وعلم الفلك الذي ظهر في الاندلس في القرن الخامس الهجري أي الحادي عشر الميلادي •

ب ـ الطب : لقد ترجمت المؤلفات الطبية الى العربية ببغداد على يد حُنَيْن بن اسحق وغيره • وكانت كتب «جالينوس» (Galien) المتوفى سنة ٢٠٠م ذات أهمية في الطب الاغريقي • وكانت تدرس في مدرستي الرُّها وجُنْدَيْسابور • وكان منها نسخ مترجمة الى السريانية ترجمها « سرجس » الرَّسْعَني « أو الرأسي » وراجعها حُنَيْن بن اسحق وغيره في بيت الحكمة ببغداد •

وهناك عدد من الاطباء السوريين والاسكندريين ألفوا كتباً في الطب بالاغريقية ترجم العرب كثيراً منها في زمن الدولة العباسية •

---

(١٤) مسالك الثقافة ص ٢٠٨

(١٥) اوليري ص ٤٨

(١٦) راجع كتابنا : المراصد الفلكية ببغداد

جـ ـ الفلسفة : ينبغي ان نذكر قبل البحث في الفلسفة ان العداوة بين اليهودية والمسيحية كانت سبباً لاكثر الاضطهادات التي اصابت الكنيسة ان لم تكن جميعها . وان أول اضطهاد فعلي وقع على المسيحيين باعتبارهم مجتمعاً كان في روما على يدي «نيرون» الذي حرضه اليهود بلا شك اذ كانوا ذوي نفوذ في البلاط[17] . وزادت العداوة بينهما في آسية الصغرى . وكانت المسيحية في روما في عهد تراجان تعتبر جريمة تستحق القتل . وتشدد بعض انبراطرة الرومان مع المسيحيين وتعقبوهم حتى في مقابرهم التي تحت الارض ، فكان من جراء ذلك هجرة المسيحيين الى خارج الانبراطورية الرومانية . من ذلك هجرتهم الى العراق ، وأتخاذهم الرها مركزاً لهم ، وبناء كنيسة لهم فيها اشتهر عدد من رجالها الذين كتبوا عن الحواريين ، وعن تعاليم الكنيسة ونظمها ، وكانت بحوثهم بالاغريقية ، وبعض كتاباتهم بالسريانية .

وقد هيأت الكنيسة الطريق للثقافة الاغريقية ، وانتفعت الكنيسة من التعاليم الفلسفية التي كانت سائدة في العالم الاغريقي خلال القرون الاولى من الميلاد[18] . وقد قادت هذه الفلسفة المناظرات التي قام بها في الكنيسة كل من آريوس ونسطور وغيرهما . وكانت هذه الكنيسة تضم الفرس والعرب والشرقيين الآخرين . وبواسطة هؤلاء المسيحيين انتقلت العلوم والفلسفة وغيرها من التراث الاغريقي الى العرب بوجه عام . وكان الرومان قد اخذوا العلم والفلسفة عن اليونان وقلما زادوا فيها ، اما العرب فلم يكتفوا بنقل العلم عن اليونان واستبقائه على حاله بل درسوه وزادوا فيه من نتاج قرائحهم وعقولهم وبما نقلوه من علوم الفرس والهند والكلدان ، فضلاً عما وضعوه هم انفسهم من العلوم الاسلامية واللسانية وما تفردوا به من قريحة الشعر[19] ، وما ابتدعوه وابتكروه في مختلف العلوم والآداب والفنون .

---

(١٧) اوليري ص ٦٠

(١٨) اوليري ص ٦٧

(١٩) التمدن الاسلامي ج٣ ص ٥٢ .

الفصل الثامن

الترجمة الى العربية

ان العلوم القديمة في الهلال الخصيب تعد بوجه عام سِمَة لثقافة عربية أصيلة ترجع أصولها الى الجزيرة العربية ، مهد الساميين الاول • وقد تكونت الحضارة العربية منها ، ومن العلوم العربية والاسلامية ، ومما نقل من علوم الاغريق والفرس والهنود وغيرهم •

ويمكننا ان نقسم الادوار التي مرت بها هذه العلوم الى ثلاث مراحل :

الاولى : علوم الساميين قبل الميلاد :

وتتمثل هذه المرحلة الطويلة بالعلوم التي اشتهرت بها الدول العربية السامية التي نشأت في هذه البلاد • وقد دلت التنقيبات على ما كان في امهات المدن من مدارس ومن خزائن للكتب[1] ، ومن مصنفات دونت على الواح الطين والآجر ، والاحجار ، والجدران والتماثيل ، باللغة السومرية و لاكدية والآشورية[2] •

وقد تبين للعلماء والمنقبين انها تشتمل على الواح فلكية ونجومية، وجداول رياضية ، كما وجدت فيها وثائق قانونية وادارية وصكوك ، وعقود تجارية ، ونصوص لغوية ، وطبية ، ودينية ، وتاريخية ، وجغرافية ، ونباتية • واحتوت على أمور تتعلق بالحياة الاجتماعية كالاسرة ، والزواج ، وما الى ذلك مما انتقل الى الفرس واليونان والرومان •

الثانية : علوم الساميين بين الميلاد وظهور الاسلام :

ويتمثل هذا الدور في أمرين لهما علاقة كبيرة بالثقافة اولهما :

---

(١) كوركيس عواد : خزائن العراق القديمة •

(٢) كلدة وآثور •

كثرة الديارات التي انشئت بعد انتشار المسيحية وبخاصة في العراق • وقد اتخذت فيها دور الكتب ، وصنفت فيها المصنفات المختلفة • وكان العلماء الذين قاموا بتصنيفها يشتغلون بالانتساخ والترجمة من الاصول القديمة أو عن الامم التي اقتبستها منها • وقد اشتملت مؤلفاتهم على الامور الدينية والتاريخية والكيمياء والنجوم والادب والفلسفة ، دوّنوها على الورق والرّق بالآرامية والسريانية والعربية • ثانيهما : كثرة المدارس التي انشئت في هذه البلاد ولاسيما في العراق الذي كان فيه يومئذ نحو خمسين مدرسة[٣] وقد كانت هذه المدارس عاملاً مهماً في نقل التراث القديم عن طريق الفرس والاغريق •

الثالثة : العلوم العربية في العصور الاسلامية :

وهي المرحلة التي تتمثل في العلوم التي جاء بها الاسلام في عصوره المختلفة ، ودوله العديدة في آسية وافريقية واورپة ، وفيما انشأوه خلال هذه المرحلة الكبرى من مراكز ثقافية جديدة ، ليس في الهلال الخصيب ومصر فقط ، بل في جميع البلاد التي فتحها العرب المسلمون ونشروا فيها الاسلام • وقد اصبحت بلاد الحجاز والشام والعراق ومصر والاندلس بوجه عام من أهم المراكز الثقافية • كما أصبح العراق في العصر العباسي أهم مكان للحركة العلمية في الدنيا لا سيما بغداد التي حصلت على شهرة عالمية واسعة لاتدانيها في ذلك شهرة مدينة من مدن الانبراطورية العباسية ، إنْ في العلوم الاسلامية والعربية ، أو في نقل العلوم الاجنبية • وقد ساعدهم على ذلك معرفة علمائها بعدد من اللغات كالسريانية والاغريقية والفارسية والهندية والارامية والحبشية والعبرية • ومما سهل الترجمة ايضا ان العراق في العصر العباسي كان يموج بالاطباء والفلاسفة والمنجمين والحسّابين من الشعرب المختلفة ، حتى ليزيد عدد المترجمين على المئة[٤] • ويمكننا ان نذكر ان الترجمة

---

(٣) احمد امين . ضحى الاسلام ج٢ ص ٥٩ ـ ٦٠

(٤) راجع ابن ابي اصيبعة ج١ ص ٢٠٣ ـ ٢٠٦ ، وراجع ايضا تاريخ الحكماء للقفطي •

الى العربية في هذه المرحلة قد مرت بالادوار الآتية :

١ ـ الدور الاول ـ في خلافة الامويين :

لقد بدأ العرب في خلافة الامويين يأخذون بالتدريج ما عند الامم الاخرى شفاهاً وبصورة مجملة أول الامر ، ثم بالترجمة المنظمة التي قام بها خالد بن يزيد بن معاوية المتوفى سنة ٨٥هـ (٨٠٤م) وكان يطلق عليه حكيم بني مروان وهو أول من عُني بالترجمة الى العربية من الامويين . وكان خالد يأمر بنقل الكمياء والطب[٥] والفلك . وممن عُني في هذا الامر عمر بن عبدالعزيز ايضاً[٦] .

ومن الامور التي يمكن ان نشير اليها في صدد الترجمة في خلافة الامويين : نقل الدواوين الى العربية . ففي عهد عبدالملك بن مروان ، وعامله على العراق الحجاج بن يوسف الثقفي ، عربت الدواوين في العراق والشام من الفارسية واليونانية الى العربية . كما تم تعريب النقود والطراز . وفي عهد الوليد الاول تم نقل ديوان مصر من اليونانية والقبطية الى العربية ، وبذلك قُضي على اللغات الاجنبية في جميع انحاء الدولة العربية . واصبحت اللغة العربية لغة الانبراطورية الأموية بأسرها .

٢ ـ الدور الثاني من خلافة المنصور سنة ١٣٦ هـ (٧٥٣م) الى نهاية خلافة الامين سنة ١٩٨هـ (٨١٨م) ويتميز هذا الدور بترجمة العلوم العملية كالطب والفلك في عهد الرشيد ترجمة منظمة على ايدي علماء من العرب والفرس والسريان والهنود . أما في عهد الامين فيظهر ان الخلاف بينه وبين اخيه المأمون والحروب التي دارت بينهما ومقتل الامين وافتتاح جيوش المأمون لبغداد قد أثر ذلك كله في حركة الترجمة .

٣ ـ الدور الثالث من سنة ١٩٨ هـ (٨٢٣م) الى سنة ٣٠٠ هـ (٩١٢م) ويتميز بترجمة الرياضيات والفلسفة ، والمنطق ، والقيام بالتأليف والتعليق والتلخيص .

٤ ـ الدور الرابع بعد سنة ٣٠٠هـ (٩١٢م) ويتميز بترجمة الكتب

---

(٥) الفهرست لابن النديم ص ٢٤١ .
(٦) عيون الانباء ج١ ص ١٦٣ .

في مختلف العلوم وحتى في الآداب التي نقلت في الغالب من ادب الفرس لقيام بعض رجالهم وبخاصة الشعوبية والزنادقة منهم بمباراة العرب ومنافستهم ، وبنشر امجادهم وآدابهم التي قضى عليها الاسلام مثل تاريخ ملوك الفرس ، وآيين نامه (اي نظم الفرس وتقاليدهم وأعرافهم) وكتاب آفستا ، وكتاب مزدك ، وهزار فسانه .. الخ .

دواعي الترجمة ونتائجها

يمكننا ان نجمل الدوافع التي دعت العرب الى نقل علوم الاجانب الى العربية بما يأتي :

١ ـ الرغبة في الاطلاع على ما عند الامم الاجنبية من العلوم والآداب ، كرغبة خالد بن يزيد بن معاوية في الاطلاع على كتب الكيمياء اليونانية ، ورغبة بعض الخلفاء العباسيين في العلوم كالمنصور والرشيد والمأمون .

٢ ـ الجدل الديني والمناظرات : ذلك ان المسلمين بدأوا في العصر الاموي يعقدون الحلقات والمجالس في المساجد الجامعة ، ويكثرون من المناقشة والمجادلة في القضاء والقدر ، وفيما اذا كان الانسان مُسَيَّراً أو مخَيَّراً فانقسموا الى فئتين ، كل فئة تناصر أحد الرأيين ، ولذلك احتاجوا في العصر العباسي الى معرفة ما عند الامم الاخرى مما يفيدهم في تلك المجادلات والمناظرات .

٣ ـ معرفة الفلسفة والمنطق اليونانيين: لقد أدى الجدل والمناظرات بين المسلمين واليهود والنصارى الى ان يرى المسلمون ان اليهود والنصارى يجادلونهم بالفلسفة والمنطق اليونانيين فاضطروا الى دراستهما لاتخاذهما وسيلة للدفاع عن الدين الاسلامي .

٤ ـ التدوين بالعربية : ان الامم الاجنبية التي اعتنقت الاسلام ، أو انضوت تحت لوائه صارت تدون علومها ، وآدابها باللغة العربية التي تعلمتها بسبب الدين ، أو بسبب انتشار العربية ، وغَلَبَتِها على لغاتهم الاصلية ، وتقرباً من العرب الفاتحين ، للاستفادة من الوظائف

والمناصب ، ودعاية لماضيهم ، وأحياناً تحقيقا لبعض مآربهم القومية ، وغاياتهم السياسية .

وكان من أهم نتائج الترجمة :

١ ــ عناية العباسيين عامة بأمر الترجمة ، ورغبة خلفائهم في ترجمة العلوم العقلية . وتوصل العرب الى علم الكيمياء ، أو ما يعرف بالصنعة التي كانت لهم فيها خدمات كبيرة . ومثل ذلك يقال عن عنايتهم بالطب والفلك والرياضيات ، وولوج المسلمين الى العلوم الفلسفية كاللاهوت والمنطق ، وصيرورة الترجمة هواية لكثير من المثرين والعلماء كبني موسى بن شاكر : محمد واحمد والحسن ، والوزير محمد بن عبدالملك الزيات ...

٢ ــ وكان من نتائج الترجمة المهمة نشوء الوِراقة والورّاقين ببغداد ، وانتساخ الكتب المترجمة لعدد كبير من الناس الذين كانوا يحرصون على اقتنائها أو بيعها . كما كانوا يُعْنَون بدراستها ، ومناقشتها في مجالس الأدب والمناظرة .

٣ ــ ولعل من ابرز المزايا التي اتصفت بها الترجمة في العصور العباسية : اخذها بترجمة الكتب العلمية كالطب والرياضيات والفلك والكيمياء والفلسفة لحاجتهم الماسة اليها ، دون الكتب الادبية والدينية التي كان العرب يمتلكون منها ثروة طائلة كما ذكرنا . هذا الى قيام التراجمة بالتعليق والتصحيح والتأليف ، وانشاء المكتبات المعتبرة في المراصد الفلكية ، والمساجد ، والمدارس والرُّبُط والمارستانات ، وانشاء دور العلم، والمكتبات الخاصة مما سنشير اليه في الفصل العاشر من هذا الباب .

الفصل التاسع

أشهر النقلة الى العربية

لقد كان للعرب والمسلمين وغيرهم خدمات كبيرة في نقل العلوم الى العربية ، فلم يكن النَّقَلَةُ من غير العرب فقط ، ولم يكونوا من غير المسلمين فقط ، بل شارك في النقل مترجمون من العرب والفرس والسريان والهنود ، كما شارك في ذلك مترجمون من المسلمين واليهود والنصارى والصابئة .

وقد اشرنا قبلاً الى ان الأمويين أول من بدأ بهذه الترجمة ، ونضيف الى ذلك ان المنصور والرشيد والمأمون قد عضدوا العلماء الذين ترجموا المؤلفات العلمية . وكان وكلاء الرشيد يشترون المخطوطات الاغريقية التي في الانبراطورية الرومانية ولاسيما الطبية منها . وقد بذل الرشيد في ذلك الاموال السخية . وعلى هذا يكون الرشيد أول من عُني بالترجمة العلمية .

ولما كان المسلمون قد اهتموا بالفلك والرياضيات ، فقد تُرجم الى العربية كتاب « السنْد هند » . ويقال : إن المترجم له هو ابراهيم الفَزاري المنجم ، ويعقوب بن طارق . والفَزاري أول عربي صنع الاسطرلاب[1] . وهناك من يشك في ترجمة الفَزاري لكتاب السِّنْدهند في خلافة المنصور ، وينسب الترجمة الى محمد بن موسى الخوارزمي[2] الذي جعلها اساس جداوله الفلكية .

ويقول الدكتور اوليري[3] : من المؤكد ان اوائل الرياضيين العرب

---

(١) كتابنا : المراصد الفلكية ببغداد ص ١٧ .

(٢) مسالك الثقافة اوليري ص ٢٣٠ .

(٣) مسالك الثقافة ٢٣٢ .

كالخوارزمي قد علموا الكثير الذي لم يظهر في مؤلفات الاغـريق ، وكثير منه لا كلّه يمكن رجعه الى المؤلفات الهندية • وكانت مـرو وجَنْدَيْسابور محلين للمترجمين الذين تنسب اليهم الترجمة الـى العـربية •

ومن بين النقلة المشهورين : الحجاج بن يوسف بن مطر الحاسب الذي ترجم ببغداد كتاب «المجسطي» في الجغرافية • وهناك من يقول: ان الدي ترجمه هو سهل بن ربان الطبري من مـرو • ويقال عنه انه ترجم الكتاب للرشيد ببغداد • وثمة من يقول : إن « سـهل بن ربان ترجم « المجسطي » وان الحجاج راجعه ثم راجع الترجـمة بعد ذلك حُنَيْن بن سحق ثم ثابت بن قُرَّة، ثم محمد بن جابر بن سنان البتّاني المتوفى سنة ٣١٧هـ (٩٢٩م)• أما ترجمة الحجاج لاقليدس فقد راجعها قسطا بن لوقا في سنة ٣٠٠هـ (٩١٢ ـ ٩١٣م) •

ومن أول المعلومات التي حصل عليها العرب عن ارسـطو مـن المصادر السريانية اقتصرت على مؤلفاته في المنطق • وقد ترجمت مرة وأعيدت ترجمتها الى السريانية •

وكان جبرائيل بن بختيشوع شديد الاعجاب بالطب الاغريقي وقد ألف كُنَّاشاً أي مجموعة طبية بالسريانية اقتبس كثيراً من موادها من جالينوس ، وهيبوقراط ، وبولس الأيجيني • ومن النَّقَلَة ابو زكريا يوحنا بن ماسَوَيْه الذي كان في أيام الرشيد• وقد ولاه ترجمة الكتب الطبية التي وجدها بأنقرة وعمورية وسـائر بلاد الروم • وقد جعله الرشيد أميناً على الترجمة ، ورتب له كتابا حُذاقاً يكتبون بين يديه • وقد خدم الرشيد والامين والمأمون ومَنْ بعدهم من الخلفاء الى أيام المتوكل • وكان معظماً ببغداد جليل المقدار • وكان في حياتـه يعقد مجلساً للنظر ، ويعمر ذلك المجلس بالعلم الذي اختص به اتم عمارة ، ويجري فيه من كل نوع من العلوم القديمة بأحسن عبارة • واجتمع

اليه أهل العلوم والادب.وكان يدرس ويجتمع اليه تلاميذ كثيرون[٤].

ومن اشهر المترجمين الى العربية حُنَيْن بن اسحق العَبادي[٥] المتوفى سنة ٢٦٤هـ (٨٧٣م) أو في سنة ٨٧٧م على رواية اخرى . وهو من أهل الحيرة . وكان ابوه نسطورياً . وقد درس على يحيى بن ماسوَيْه في جُنْدَيابور، واصبح صيدلياً عنده، وتعلم اللغة الاغريقية، واستقر في البصرة وتعلم العربية على يد الخليل بن احمد الفراهيدي ، ثم توجه الى بغداد ، ورعاه ابناء موسى بن شاكر الثلاثة محمد واحمد والحسن وهم من رعاة الحركة العلمية ببغداد وقدموه الى الخليفة المأمون . ولما كان المأمون يهتم ببيت الحكمة ببغداد ويعْنَى بترجمة كتب الاغريق الى العربية فقد جعل حُنَيْن بن اسحق على رأس هذا المعهد . وكان المأمون يعطيه من الذهب زنة ما ينقله من الكتب الى العربي مثلاً بمثل[٦] . وكانت الترجمة بالعربية والسريانية . وتمكن حُنَين ان يأتي باصدقائه الاطباء في مدرسة جُنْدَيسابور الى بغداد وعنوا بدراسة العربية . وكانت الترجمات تتم من مخطوطات اغريقية استحضر وكلاء الخليفة أكثرها من الانبراطورية الرومانية بعد ان انفقوا الاموال الطائلة لشرائها. وجعل له المتوكل كُتاباً نحارير عالمين بالترجمة كانوا يترجمون ويتصفح ما ترجموا . وكان عالماً بالعربية والسريانية واليونانية والفارسية[٧] .

وقد ترجم حُنَين الى السريانية عشرين كتاباً لجالينوس وترجم أربعة عشر مؤلفاً الى العربية[٨] .

وفي عهد المتوكل خصصت الأموال لبيت الحكمة ، وتم في عهده

---

(٤) القفطي ص ٣٨٠ .

(٥) نسبة الى العباد بفتح العين وتخفيف الباء قبائل شتى من بطون العرب بالحيرة . راجع عيون الانباء ج١ ص ١٨٤ — ٢٠٠ .

(٦) عيون الانباء ج١ ص ١٨٧ .

(٧) عيون الانباء ج١ ص ٢٠٣ .

(٨) القفطي ص ١٧١ .

احسن اعمال الترجمة . ويقول ابن ابي اصيبعة : أن حُنيناً اختير للترجمة وائتمن عليها . وكان المتخير له المتوكل على الله . وخدم حنين بالطب المتوكل على الله ، وحظي في ايامه[٩] .

ومن بين الذين عملوا مع حُنَين ابنه اسحق المتوفى عام ٢٩٨ هـ (٩١٠ أو ٩١١ م) وكان في منزلة ابيه في الفضل وصحة النقل من اليونانية والسريانية ، وابن أخته حُبَيْش بن الحسن الاعسم ، وعيسى بن يحيى بن ابراهيم .

ومن بين الذين اشتغلوا في الترجمة : يوسف الخوري القس ، وقسطا بن لوقا البعلبكي ، وابو بشر متي بن يونس ، وابو زكريا يحيى بن عدي المنطقي اليعقوبي ، وابو علي بن اسحق بن زرعة ، وعبدالله بن المقفع ، وموسى بن خالد ، وأبو عثمان سعيد بن يعقوب الدمشقي الذي كان منقطعاً الى الوزير علي بن عيسى ، وعلي بن يحيى المعروف بابن المنجم احد كتاب المأمون ، ومحمد بن عبدالملك الزيات الذي كان ما يدفعه للنقلة والنساخ في كل شهر يبلغ نحو الفي دينار[١٠] .

ومن أشهر النقلة ايضاً : ثابت بن قرّة الحرّاني وهو من الذين راجعوا وصححوا الترجمات العربية في المؤلفات الرياضية والفلكية . وكان يجيد الاغريقية والسريانية والعربية . وقد ألف بالعربية نحو مئة وخمسين بحثاً في المنطق والرياضيات والفلك والطب. وكتب بالسريانية خمسة عشر بحثاً .

ويذكر القفطي[١١] : ان بني المنجم وهم محمد واحمد والحسن ابناء موسى بن شاكر كانوا يرزقون جماعة من النقلة منهم : حنين بن اسحاق وحبيش بن الحسن ، وثابت بن قرة وغيرهم في الشهر خمسمئة دينار للنقل والترجمة والملازمة .. ويقول عن بني موسى هؤلاء : انهم

---

(٩) عيون الانباء ج١ ص ١٨٩ .
(١٠) ابن ابي اصيبعة ج١ ص ٢٠٥ — ٢٠٦
(١١) ص ٣٠ — ٣١ .

ممن عني باخراج الكتب من بلاد الروم وبذلوا في ذلك الرغائب واحضروا الغرايب منها في الفلسفة والهندسة والموسيقى والارثماطيقي والطب وغيرها .

ولابد ان نشير الى ان الترجمة عنيت بالمصطلحات الطبية والرياضية والفلكية لتكون الترجمة دقيقة . وللوصول الى هذه الدقة كان لابد من مراجعة الترجمات التي كان يقوم بها النقلة أو التي مرّ عليها بعض الزمن وهذا ما كان يقوم به المراجعون من النقلة كما ذكرنا . وثمة أمر آخر مهم وهو ان انتشار المعارف العلمية على نطاق واسع ببغداد قد أدى الى وضع تعليقات ومؤلفات مهمة لكبار العلماء والنقلة ، والى اقتناء الكتب المترجمة والمؤلفة من قِبَل أغنياء الناس أو المؤسسات العلمية في خارج بغداد كبيت الحكمة التونسي في رقّادة، ودار الحكمة الفاطمية بالقاهرة وغيرهما . وكانت الكتب المؤلفة ببغداد تنتشر احياناً في الخارج قبل تداولها ببغداد .

الفصل العاشر

معاهد الترجمة والتأليف

يظهر أن الترجمة في العصر العباسي كانت تتم في اماكن مختلفة يمكننا ان نذكر منها : بيوت الحكمة العامة ، وبيوت الحكمة الخاصة، ودور العلم والمكتبات الخاصة ، ومكتبات المساجد ، وخزائن المراصد الفلكية والرُبُط والمستشفيات ، والمدارس والجامعات في البلاد الاسلامية كافة. غير انهذه المعاهد لم تكن بوجه عام للترجمة والتعريب فقط بل كانت في كثير من الاحيان تتخذ اماكن للتأليف والمطالعة والانتساخ والتوريق بالاضافة الى خزن الكتب المترجمة والمصنفة ، والمصوَّرات الجغرافية والفلكية ، والخطوط المختلفة . وهي فيجملتها تدل على النشاط العلمي العجيب الذي قامبه المسلمون خلالالعصور. واليك نبذة يسيرة عن أهم هذه المنشآت وما قدمته من خدمات للحضارة العربية والعالمية .

أولا ـ بيوت الحكمة العامة والخاصة

ان بيوت الحكمة العامة هي خزائن الكتب التي اسسها الخلفاء العباسيون وامراء الاغالبة والخلفاء الفاطميون وغيرهم من امراء المسلمين .

اما بيوت الحكمة الخاصة فهي خزائن الكتب التي انشأها العلماء والادباء والاعيان في دورهم وكان يستفيد منها الناس . ومن أشهر الخزائن العامة :

أ ـ بيت الحكمة البغدادي

ان بيت الحكمة ببغداد فيما تدل عليه الاخبار التاريخية المختلفة يمكن انيوصف: بأنه كان بناية كبيرة فيها عدد من القاعات،والحجرات

الواسعة موزعة في اقسام الدار ، وتضم مجموعة من خزائن الكتب ، في كل خزانة مجموعة من الاسفار العلمية الخاصة التي تنسب في الغالب الى مؤسسها كخزانة الرشيد وخزانة المأمون .

ويقترن بيت الحكمة البغدادي بذكر عدد من الاعلام المشهورين كالرشيد والبرامكة والامين والمأمون والمتوكل . كما يرد فيها ذكر عدد من العلماء والخزّان والموظفين ممن سنشير اليهم في هذا البحث .

وكان يدير بيت الحكمة البغدادي : مديرون وأمناء على الترجمة ومعهم كُتّاب حُذّاق نحارير كما يذكر القفطي[1] ، كما كان يشتغل فيه علماء ونساخون وخُزّان ومجلّدون من مختلف الاديان والاجناس والمذاهب والثقافات ، ومعهم الورّاقون .

اننا لا نعلم اين كان بيت الحكمة الذي انشأه الرشيد ببغداد ، ولا نعلم إن كان جزءً من قصر الخليفة او كان بناية مستقلة غير أننا نسترجح انه كان داراً خاصة بالكتب ضمن قصور الخلافة ففي معجم الادباء نص يشير الى دار تتكون من عدد من الحجر والخزائن وفيها عدد من الورّاقين الذين كانوا يملون على ناس لا يمكن ضبط عددهم لكثرتهم مما يدل على ان هذه الدار كانت مكتبة عامة . ولم تشر المصادر في خلافة المأمون الى غير بيت الحكمة المذكور فلعل تلك الدار هي بيت الحكمة المُنَوّه به .

قال ياقوت[2] : ان ابا بُرَيْدَة الوضاحي قال : « أمر امير المؤمنين المأمونُ الفرّاءَ ان يؤلف ما يجمع به اصول النحو[3] ، وما سمع من العرب ، فأمر ان تفرد له حجرة من حجر الدار ، ووكل بها جواري وخدماً للقيام بما يحتاج اليه حتى لا يتعلق قلبه ، ولا تتشوّف

---

(١) اخبار الحكماء ص ٣٨٠ و ص ١٧١ .
(٢) ج٢ ص ٢٧٧ .
(٣) كان الفراء المتوفى سنة ٢٠٧ هـ يعد « امير المؤمنين في النحو » راجع عنه معجم الادباء ج٧ ص ٢٧٨ .

نفسه الى شيء ، حتى انهم كانوا يؤذونه بأوقات الصلاة . وصيَّر له الورّاقين ، وألزمه الامناءَ والمنفقين . فكان الوراقون يكتبون له حتى صنَّف الحدود . وأمر المأمون بكتبه في الخزائن . وبعد أن فرغ من ذلك خرج الى الناس ، وابتدأ يملي كتاب المعاني (في تفسير القرآن) وكان ورّاقيْه سَلَمَةَ بن عاصم وأبو نصر بن الجهم . قال أبو بُرَيدة : فأردنا أن نعد الناس الذين اجتمعوا لاملاء كتاب المعاني فلم نضبط عددهم . ولما فرغ من املائه خزنه الوراقون عن الناس ليتكسبوا به لا نخرجه لأحد إلا لمن اراد نسخه .. » .

ويظهر ان أول من اسس بيت الحكمة ببغداد هو الخليفة العباسي هارون الرشيد فقد ذكر ابن النديم[٤] انابا سهل الفضل بن نَوبَخْت «كان في خزانة الحكمة لهارون الرشيد ولهذا الرجل نَقْل" من الفارسي الى العربي»[٥] وفي تاريخ الحكماء : « الفضل نَوبَخْت ابو سهل كان من المتكلمين في زمن الرشيد . وقد ولاه القيام بخزانة كتب الحكمة » . وفيه ايضاً أن الرشيد « ولَّى يوحنا بن ماسَوَيْه ترجمة الكتب الطبية القديمة لما وجدها بأنقرة وعمورية ، وسائر بلاد الروم حين افتتحها المسلمون ، وسَبَوا سبيها . ووضعه اميناً على الترجمة ، ورتب له كُتّاباً حذّاقاً بين يديه »[٦] .

ومما يدل ايضا على ان بيت الحكمة انشيء ببغداد في خلافة الرشيد ما ذكره ابن النديم[٧] عن المجسطي كتاب بطليموس وترجمته الى العربية قال : « وأول من عُنِي بتفسيره واخراجه الى العربية يحيى ابن خالد بن برمك فسَّرَه له جماعة فلم يتقنوه ، ولم يَرْض ذلك فندب لتفسيره أبا حسان وسَلْماً صاحب بيت الحكمة فأتقناه ، واجتهدا

(٤) الفهرست ٢٧٤ .
(٥) ص ٢٥٥ .
(٦) تاريخ الحكماء ص ٦٢ .
(٧) الفهرست ص ٢٦٧ – ٢٦٨ .

في تصحيحه بعد أن احضرا النقلة المجوّدين فاختبرا نقلهم ، وأخذا بأفصحه وأصحه . وقد قيل : ان الحجاج بن مطر نقله ايضاً » .

وفي خلافة المأمون زادت العناية ببيت الحكمة لما أثر عن المأمون من محبته للفلسفة ، والعلوم العقلية فقد ذكر ابن النديم[٨] ان علاّن الشعوبي كان « ينسخ في بيت الحكمة للرشيد والمأمون والبرامكة » كما ذكر أيضاً ان المأمون كان بينه وبين ملك الروم مراسلات ، وقد استظهر عليه المأمون فكتب الى ملك الروم يسأله الاذن في انفاذ مايختار من العلوم القديمة المخزونة المدّخرة ببلد الروم فأجاب الى ذلك بعد امتناع شديد . فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم : الحجاج بن مطر ، وابن البطريق وسَلْماً صاحب بيت الحكمة وغيرهم . فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا فلما حملوه اليه أمرهم بنقله فنقل . وقد قيل : ان يوحنا بن ماسَوَيْه ممن نفذ الى بلد الروم .

وفي سرح العيون[٩] أن سهل بن هارون كان « كاتباً على خزائن الحكمة ، وهي كتب الفلاسفة التي نقلت للمأمون من جزيرة قبرس وذلك ان المأمون لما هادن صاحب هذه الجزيرة ارسل اليه يطلب خزانة كتب اليونان ، وكانت مجموعة عندهم في بيت لا يظهر عليها احد ..فأرسلها اليه . واغتبط بها المأمون . وجعل سهل بن هارون خازناً لها » .

وذكر القفطي[١٠] ان محمد بن موسى الخوارزمي كان منقطعاً الى خزانة كتب الحكمة للمأمون . وهو من اصحاب علم الهيأة . وكان الناس قبل الرصد يعوّلون على زيجيه الاول والثاني .

ومن اخبار بيت الحكمة التي يرد فيها ذكر الامين والمتوكل ماذكره ابن ابي أصيبعة في عيون الانباء[١١] وهي ان يوحنا بن ماسَوَيْه ظل اميناً على الترجمة هناك في زمن الرشيد والامين والمأمون واستمر الى

---

(٨) الفهرست ص ١٠٥ .

(٩) ص ١٣٢ .

(١٠) ص ٢٨٦ .

(١١) ج١ ص ١٧٥ .

ايام المتوكل وبذلك يدخل المعتصم والواثق ايضاً . وجاء في الفهرست[١٢] انه « خدم المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل » .

ويظهر ان بيت الحكمة قد أهمل بعد المتوكل على الله . ويبدو ان للفتن والحروب بين المعتز والمستعين اثراً بعيداً في اهمال بيت الحكمة ، ومع ذلك فلم يتخل الخلفاء العباسيون بسامراء ولا وزراؤهم أمثال محمد بن عبدالملك الزيات عن مؤازرة الترجمة الى العربية فقد اختص كل خليفة بطبيب من الاطباء المشهورين الذين عرفوا بالترجمة والتأليف ايضاً . وعندما رجع الخلفاء من سامراء الى بغداد صاروا يشجعون الترجمة فكان الطبيب يوحنا بن يختيشوع ينقل من اليوناني الى السرياني في زمن الموفق بالله طلحة بن جعفر المتوكل[١٣] . وكان لعيسى بن علي الطبيب تصانيف في الطب والحكمة[١٤] وكان قد اختص بالمعتمد احمد بن المتوكل الذي ترك سامراء واتخذ بغداد عاصمة له . كما يظهر ان المعتضد لما اراد بناء قصره في الشماسية ببغداد « استزاد في الذرع بعد أن فرغ من تقدير ما أراد فسئل عن ذلك فذكر انه يريده ليبني فيه دوراً ومساكن ومقاصير ، يرتب في موضعٍ رؤساء كل صناعة ومذهب من مذاهب العلوم النظرية والعملية ، وتُجرى عليهم الارزاق السَّنِيَّة ليقصد كلٌّ من اختار علماً أو صناعةً رئيسَ ما يختاره فيأخذ منه »[١٥] .

ومن اشهر الذين اشتغلوا ببيت الحكمة البغدادي :

١ ــ ابو سَهْل الفضل بن نَوْبَخْت : وكان يعمل في خزانة الحكمة لهارون الرشيد .

٢ ــ عَلاّن الشعوبي : وكان ينسخ في بيت الحكمة للرشيد والبرامكة والمأمون .

---

(١٢) ص ٢٩٥ .

(١٣) عيون الانباء ج١ ص ٣٢٩ .

(١٤) عيون الانباء ج١ ص ٢٠٣ .

(١٥) خطط المقريزي ٤ : ١٩٢ .

٣ ــ يوحنّا بن ماسَوَيْه : وكان يترجم للرشيد والامين والمأمــون والمعتصم والواثق والمتوكل ۰ وقيل انه أرسل الى ملك الروم لجلب المخطوطات ۰

٤ ــ حُنَيْن بن اسحق العَبادي : وكان يترجم للمأمون ۰

٥ ــ سهل بن هارون : جعله المأمون كاتباً في بيــت الحكمة ، وخازناً للكتب فيهــا ۰

٦ ــ سَلْم صاحب بيت الحكمة ، ارسله المأمون الى ملك الروم لجلب المخطــوطات ۰

٧ ــ الحجاج بن مطر: ارسله المأمون الى بلاد الروم لجلب المخطوطات۰

٨ ــ ابن البِطريق : ارسله المأمون الى ملك الروم لجلب المخطوطات ۰۰۰ وغيرهم[١٦] ۰

ومن العلماء الذين اشتغلوا في بيت الحكمة ببغداد[١٧] ايضا :ــ

٩ ــ يحيى بن ابي منصور الموصلي : منجم المأمون ۰

١٠ ــ محمد بن موسى الخوارزمي رئيس بيت الحكمة في زمن المأمون

١١ ــ سعيد بن هارون الكاتب ۰

١٢ ــ اسحق بن حُنَيْن ۰

١٣ ــ حُبَيْش بن الحسن الاعسم ۰

١٤ ــ ثابت بن قُرَّة ۰

١٥ ــ عمر بن الفَرُّخان الطبري ۰

١٦ ــ ابن ابي الحَرِيش: وكان يُجَلِّد في خزانة الحكمة للمأمون[١٨] ۰

ومن عُنِي بأخراج الكتب من بلاد الروم : محمد واحمد والحسن بنو شاكر المنجم ، وقد انفذوا حُنَيْن بن اســحق وغيره فجاؤوهم

---

(١٦) الفهرست ص ٢٤٣ ۰

(١٧) خزائن الكتب القديمة ص ١١٠ ۰وكتابنا المراصد الفلكية ص ١٠

(١٨) الفهرست ص ١٠ ۰

بطرائف الكتب ، وغرائب المصنفات في الفلسفة والهندسة والموسيقى والارثماطيقي والطب . وكان قسطا بن لوقا قد حمل معه شيئاً فنقله ، ونُقِل لـه .

وفي الفهرست لابن النديم ، وعيـون الانباء لابن ابـي اصيبعة الخزرجي ، وتاريخ الحكماء للقفْطي مجموعات مـن اسـماء النقلة والمؤلفين لا نشك في ان عدداً كبيراً منهم كانوا ممن يشتغلون في بيت الحكمة لاسيما اولئك الذين كانوا في خلافة الرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل[19] .

ولا نعلم بعد ذلك ان كان بيت الحكمة قد ظل داراً للكتب والترجمة والتأليف والانتساخ كما كان في عهوده السابقة أم أصبح مجرد مكتبة كبرى في قصور الخلفاء ، لأنه ليس فيما بين ايدينا من المصادر ذكـر لبيت الحكمة . والمسترجح أنه ظل خزانة للكتب في البلاط العباسي، وانه كان النواة الكبرى لخزائن كتب الخلفاء التي ترد اخبارها كثيراً مع اخبار الخلفاء كخزانة الناصر لدين الله العظيمة التي نقل منها ألوف المخطوطات الى المدرسة النظامية ، والى دار المسناة ، والـى الرباط الخاتوني . قال القفطي[20] في ترجمة البرهان المتوفى سنة ٥٨٩ هـ : « مبشر بن احمد بن علي بن احمد بن عمر الرازي الأصل ، البغدادي المولد والدار ابو الرشيد الحاسب الملقب بالبرهان .. اعتمد في اختيار الكتب التي وقفها بالرباط الخاتوني السلجوقي ، وبالمدرسة النظامية، وبدار المسناة فانه ادخله الى خزائن الكتب بالدار الخليفية وأفـرده لاختيارها » وكخزانة المستنصر التي في دار الخلافة والتي نقل منهـا الى مكتبة المستنصرية نحو ثمانين ألف مجلد ، وكخزانة المستعصم التي روي انها كانت خزانتين متقابلتين سلّم احداهما وهي القديمة الـى الشيخ صدرالدين علي بن النيّار ناظر المستنصرية وشـيخ الخليفة .

(١٩) الفهرست ص ٢٤٤ وما بعدها .
(٢٠) تاريخ الحكماء ص ٢٦٩ ـ ٢٧٠ .

وسلّم الثانية وهي الجديدة الى صفي الدين الأُرموي ، وهو أحد فقهاء الشافعية بالمستنصرية .

ومما لاشك فيه ان ظهور خزائن الكتب الكبرى في دور العلم التي انشئت ببغداد ، وفي المساجد ، والمراصد الفلكية وفي الربط والمارستانات وفي المدارس والجامعات وفي بيوت الاشخاص كان له تأثير كبير على خزانة بيت الحكمة واحتباسها في قصور الخلفاء . على ان هناك سبباً وجيهاً لأفول خزانة بيت الحكمة ، وخفوت صوتها بعد المأمون بفترة قصيرة هو محنة خلق القرآن التي اوذي بسببها عدد من العلماء على رأسهم الامام « احمد حنبل » الشيباني ، لذلك نجد ان بيت الحكمة اقتصر على بعض العلماء المشتغلين بالحكمة والفلسفة وكان كثير منهم من غير المسلمين أو من الشعوبيين أو من المسلمين غير المتدينين . ولعل كل اولئك يفسر لنا قِلّة الاخبار عن هذا المعهد العظيم وعن الذين كانوا ينتسبون اليه .

ومما لا شك فيه ايضاً ان التدمير[٢١] الذي اصاب الكتب ببغداد أو انتهابها في اثناء الغزو المغولي انما يراد به تدمير خزائن كتب الخلفاء التي ذكرناها قبلاً . أما خزائن المساجد والمدارس ففي رأينا انها لم تتأثر كثيراً في العهد المغولي بدليل وجود دور الكتب في اغلب المدارس التي استؤنفت الدراسة فيها بعد الغزو المغولي لبغداد كخزانة الكتب في المستنصرية والنظامية والبشيرية ومدرسة ابي حنيفة ... الخ فقد فوّض نصير الدين الطوسي أمر خزائن الكتب ببغداد الى موفق الدين ابن ابي الحديد واخيه عز الدين . وان جل ما اصاب هذه الخزائن من تدمير وتخريب انما كان في عهد تيمورلنك الذي خرّب بغداد مرتين في سنة ٧٩٥هـ (١٣٩٢م) و٨٠٣هـ (١٤٠٠م) اي بعد هولاكو بنحو قرن

(٢١) كتابنا تاريخ علماء المستنصرية ج١ ص ٤٣ و ٤٩ .
(٢٢) كتابنا تاريخ علماء المستنصرية ج٢ ص ٦٨ .

ونصف القرن • حتى ليقول ابن عنبة المتوفى سنة ٨٣٧ هـ (١٤٢٤م) في مكتبة المستنصرية : «وكان المستنصر قد اودع خزانته في المستنصريه ثمانين الف مجلد على ما قيل • والظاهر انه لم يبق الآن منها شيء والله الباقي »[٢٣] •

ب ـ بيت الحكمة التونسي

لقد انشىء بيت الحكمة التونسي[٢٤] في عهد الاغالبة انشأه الامير ابراهيم الثاني الأغلبي التميمي تاسع امراء الاغالبة بتونس• وهو الذي انشأ أيضاً مدينة رقادة قرب القيروان سنة ٢٦٤هـ (٨٧٨م) وكان ينزل فيها امراء بني الاغلب التميميون من قبل بني العباس • وكان الامير ابراهيم الثاني يجلس للعدل في جامع القيروان يوم الخميس والاثنين • وقد عرف بفتوحاته لبعض المدن في صقلية وجنوبي ايطالية ، كما عرف بميله الى علم الفلك •

ومن أعظم اعماله انشاؤه « بيت الحكمة » برقادة • ويظهر انه انشأه على غرار بيت الحكمة ببغداد حتى بالاسم وحتى في المداولة في موضوع «خلق القرآن» الذي كان من ابرز الموضوعات في عهد المأمون وبعده • وقد اعتمد بيت الحكمة التونسي على علماء من بغداد سنذكر بعضهم ، على ان الامير ابراهيم الاغلبي جلب له العلماء والكتّاب من العراق والشام ومصر في وقت كانت العلوم قد اصطبغت بالصبغة العربية في انحاء العالم العربي ، وتميزت الحضارة العربية عن سائر الحضارات التي سبقتها • ومما لاشك فيه ان بيت الحكمة التونسي كان يحتوي على كثير مما ترجم أو صنّف ببغداد من كتب الفلسفة والمنطق والجغرافية والفلك والطب والهندسة والحساب والنبات •••

ومما يذكر عن مؤسسه الامير ابراهيم الاغلبي التميمي انه كان

---

(٢٣) عمدة الطالب ١٨٢ وكتابنا تاريخ علماء المستنصرية ج١ ص٤٩

(٢٤) راجع « ورقات » للمرحوم حسن حسني عبدالوهاب ص ١٩٢ ـ ٢٦٦ .

يرسل الى بغداد في كل عام مرة أو مرتين سفارة لتجديد ولائه للخليفة العباسي ، ولاقتناء نفائس الكتب ، واستجلاب علماء مختصين في سائر العلوم من العراق ومن مصر. وقد استولى الفاطميون على هذه المكتبة سنة ٢٩٦ هـ (٩٠٩م) وصارت نواة لمكتبتهم الكبرى في القاهرة .

وكانت الادارة في « بيت الحكمة التونسي » تشبه الادارة ببيت الحكمة البغدادي فقد كان يدير بيت الحكمة بتونس قيّمون مرتبون يرأسهم ناظر يطلق عليه «صاحب بيت الحكمة» كما كان الحال ببغداد.

ولما مات الامير ابراهيم خلفه ابنه عبدالله الثاني فعُني بتنشيط « بيت الحكمة » ولما اغتيل بتونس سنة ٢٩٠هـ (٩٠٣م) خلفه ابنه زيادة الله الثالث . وكان يحرص على جلب العلماء من بغداد والفسطاط ومن بلاد اليونان لاضافتهم الى بيت الحكمة . ومما يذكر عن هؤلاء الامراء الاغالبة الثلاثة انهم كانوا يتقنون اللغة اللاتينية بحكم معيشتهم في صقلية وقيامهم ببعض الحروب فيها وفي ايطالية ، ولذلك يكون من المحتمل ان بعض الكتب قد ترجمت الى العربية عن اللغة اللاتينية .

وعندما انقرضت دولة بني الاغلب التميميين واستولى عبيدالله المهدي على مملكتهم الواسعة اتخذ داعيه أبو عبدالله الصنعاني « بيت الحكمة » مجلساً للدعوة الاسماعيلية لكنه أهمل بعد مقتل الصنعاني. ولما انتقل المهدي الى المهدية بتونس طمس معالم رقّادة وبيت الحكمة بعد ازدهار دام اربعين سنة .

وتحولت المناظرات والمجادلات بعد ذلك الى « دار العلم » التي انشأها الفاطميون في القاهرة ، وبذلك خرجت عن خطها الذي كان مرسوماً لها وهو تنشيط الحركة العلمية بالتأليف والترجمة والذي كان متبعا فيها وفي بيت الحكمة ببغداد . غير ان صلاح الدين الايوبي أمر بهدم هذه « دار العلم » عندما قضى على الدولة الفاطمية بمصر .

ومن تولى أمر هذه المكتبة :

١ ــ أبو اليُسْر ابراهيم الشيباني المشهور بالرياضي المتوفى

بالقيروان سنة ٢٩٨هـ (٩١١م) وكان قد عاش ببغداد ، ودرس على علمائها و دبائها ، ثم قصد الاندلس ونزل على اميرها محمد بن عبدالرحمن الاموي بقرطبة ثم قصد رقادة فأكرم الامير ابراهيم الثاني وفادته ، وولاه رئاسة ديوان الرسائل • وتولى في عهد زيادة الله الثالث رئاسة بيت الحكمة ، ولعله هو الذي حبب الى الامير ابراهيم الثاني ان يؤسس بيت الحكمة بتونس بما كان يعلمه عن بيت الحكمة البغدادي •

٢ ــ عثمان بن سعيد المعروف بالصَيْقَل ، ويظهر انه جاء من بغداد صغيراً مع بعض السفارات الاغلبية وكان قد درس في شبابه ببغداد وصحب أبا اليُسْر ابراهيم الشيباني بتونس مدة طويلة • وبعد سقوط الاغالبة انضم هو واستاذه الشيباني الى عبيدالله المهدي غير انه سافر الى الاندلس واتصل بعبدالرحمن الناصر حتى وفاته سنة ٣٣٠هـ (٩٤١م) •

ج ــ دار الحكمة بالقاهرة

لقد اتخذ الفاطميون في قصورهم بالقاهرة خزائن عديدة للكتب الاسلامية أو المترجمة ، حوت كثيراً مما ألف في العلوم القديمة والعلوم العربية والاسلامية فقد كان في خزانة « العزيز الفاطمي » كثير من المؤلفات العراقية • وكان بالقصر من سائر العلوم اربعون خزانة من جملتها خزانة فيها ثمانية عشر الف كتاب من العلوم القديمة •

وفي عهد « الحاكم بأمر الله » انشئت دار الحكمة(٢٥) في سنة ٣٩٥ هـ (١٠٠٤م) وكانت تسمى ايضا «دار العلم» • ويظهر ان تسميتها بدار الحكمة كان تقليداً لبيت الحكمة ببغداد ، وبيت الحكمة بتونس وكانت مكتبة عامة يقصدها الناس للقراءة والانتساخ والدراسة والمناظرة • وكان فيها من يشتغل بالطب والمنطق والتنجيم واللغة • وجلس فيها العلماء ، ورتّب لها القوام والخدم والفراشون • وحملت اليها الكتب من خزائن القصور الفاطمية من سائر العلوم والآداب والخطوط

(٢٥) خطط المقريزي ج٢ ص ٣٣٤ ــ ٣٣٧ و ص ٣١٣ •

المنسوبة . وجُعل فيها ما يحتاج الناس اليه من الحبر والمحابر والاقلام والورق ، ووقفت عليها الوقوف . وقد استمرت حتى سنة ٥١٦ هـ (١١٢٢م) اي الى ان أبطلها الافضل بن امير الجيوش . ويظهر انها تأثرت ببعض المذاهب العراقية ، كمذهب ابي الحسن الأشعري وفلسفة الحلاج فافتتن بعض الناس في دينهم ومذهبهم . ثم اعيد فتحها على اسس جديدة في سنة ٥١٧ هـ (١١٢٣م) في مكان غير مكانها الأول . ولم تزل عامرة حتى زالت الدولة الفاطمية سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١م) .

اما خزائن الحكمة الخاصة فيمكننا ان نذكر منها خزانتين هما :

أ ـ خزانة الحكمة الخاصة بعلي بن يحيى المنجم

روى ياقوت في معجم الادباء[٢٦] ان ابا الحسن علي بن يحيى بن ابي منصور المنجم الذي توفي بسامراء سنة ٢٧٥(٨٨٨م) كان له بكركر من نواحي القُفْص ضيعة نفيسة ، وقصر جليل فيه خزانة كتب عظيمة يسميها « خزانة الحكمة » يقصدها الناس من كل بلد فيقيمون فيها ويتعلمون منها صنوف العلم . والكتب مبذولة في ذلك لهم . والصيانة مشتملة عليهم ، والنفقة في ذلك من مال علي بن يحيى المذكور . فقدم ابو معشر المنجم من خراسان يريد الحج وهو اذ ذاك لا يحسن كبير شيء من النجوم فوصفت له الخزانة فمضى فرآها فهاله امرها ، فأقام بها ، وأضرب عن الحج ، وتعلم فيها علم النجوم ، وأعرق فيه حتى الْحَدَ . وكان ذلك آخر عهده بالحج والدين والاسلام ايضا .

ب ـ خزانة الحكمة الخاصة بالفتح بن خاقان

روى ياقوت ايضا ان علي بن يحيى المنجم اتصل بالفتح بن خاقان وزير المتوكل فعمل له « خزانة حكمة » ونقل اليها من كتبه ، ومما استكتبه للفتح بنفسه من مشاهير الكتب فكانت من خزائن الحكمة العجيبة التي لم يُرَ اعظم منها كثرة وحسناً . وكان يحضر دار الفتح

(٢٦) ج٥ ص ٤٦٧ و ص ٤٧٦ .

فصحاء الاعراب وعلماء الكوفيين والبصريين حتى مقتله بالمتوكلية مع المتوكل لاربع خَلَوْن من شوال سنة ٢٤٧ هـ(٢٧) .

ويبدو ان علي بن يحيى قد تأثر ببيت الحكمة البغدادي وبأبيه يحيى الذي كان منجماً للمأمون في بيت الحكمة فقام بهذين الاثرين الجليلين ، الاول لنفسه في بلدة كركر من نواحي القُفْص والثاني للفتح ابن خاقان وزير المتوكل بسامراء .

ثانيا – المراصد الفلكية

لقد كان لعناية العرب بالفلك وازدهار المدارس الفلكية ببغداد والشام والقاهرة والاندلس وغيرها من البلاد العربية والاسلامية اثر كبير في نقل علم الفلك الذي كان عند الكلدان واليونان الى العربية وفي بناء المراصد الفلكية ، وتأليف الكتب الفلكية، وتسجيل مجموعات الارصاد التي قام بها علماء العرب خلال العصور .وقد ظلت مدرسة بغداد الفلكية على ازدهارها حتى اواسط القرن التاسع الهجري «الخامس عشر الميلادي» .ولم تنقطع عن نشر كثير من الرسائل المهمة في الفلك. فالبيروني كان يعلّم الهنود ما انتهت اليه مدرسة بغداد . وكان ابن يونس المصري يعوّل في ارصاده على ارصاد بني موسى بن شاكر البغداديين . وهولاكو نقل افضل علماء العرب الى المرصد الذي انشأه بمراغة . كما نقل اخوه قبلاي خان الى بلاد الصين كتب علماء بغداد والقاهرة في علم الفلك . وقد استنبط الصينيون معارفهم الفلكية الاساسية من تلك الكتب العربية .

ومن الفلكيين الذي اشتهروا في المرصد المأموني في الشماسية شمال بغداد سِنْد بن علي الذي جعله المأمون ممتحناً للارصاد، ولمواقع الكواكب . وله زيج مشهور ظل معمولاً به الى القرن السابع الهجري. وكان معه العباس بن سعيد الجوهري ، وقد عمل زيجاً مشهوراً عند

(٢٧) معجم الادباء ج٥ ص ٤٥٩ و ج٦ ص ١١٧ .

الفلكيين • ويحيى بن ابي منصور الذي اشتهر بكتابه : الزيج الممتحن، وكتاب العمل لسدس ساعة في الارتفاع بمدينة السلام • والجوهري علي بن اسماعيل علَم الدين البغدادي وكان بارعاً في علم الهندسة والرياضيات • وبنو موسى الذين ثبتوا في بيت الحكمة فخرجوا نهاية في علومهم • وثابت بن قرة الذي له مؤلفات قيّمة في الطب والرياضيات والفلك والفلسفة • وقد اضاف في الرياضيات والفلك اضافات جليلة•

واشتهر في المرصد الشرفي ببغداد ايام مؤسسه شرف الدولة بن عضد الدولة البويهي عدد من الفلكيين الذين قاموا بالرصد ، والفوا الكتب أو ترجموها منهم : احمد بن محمد الصاغاني ، وأبو سهل الكوهي،وأبو الوفاء البوزجاني،وابن زهرون ابو اسحق بن هلال الحرّاني وعبدالرحمن الصوفي• ومن كبار الفلكيين: محمد بن جابر البتّاني أحد عظماء العرب المشهورين برصد الكواكب والمتقدمين في علم الهندسة وعلم الافلاك • والبتّاني فلكي شامي جاء الى بغداد فلما رجع مات في طريقه بقصر الجص بسامراء وقد عدّه الفلكي الفرنسي «لالند» La Lande واحداً من العشرين فلكياً المشهورين في العالم كله • ويعقوب الكندي وهو فيلسوف العرب الشهير من ذرية الاشعث بن قيس الكندي أحد اصحاب الرسول (ص) ويشتهر بتبحره في فنون الحكمة ، وهو من الاثني عشر عبقرياً الذين ظهروا في العالم لأنه كان عالما بالطب والفلسفة والحساب والهندسة والمنطق وعلم النجوم وتأليف اللحون • وقد انتخبه المأمون ليكون احد الذين يعهد اليهم في ترجمة مؤلفات ارسطو• وقد عده بعض المؤرخين واحداً من ثمانية هم أئمة العلوم الفلكية في القرون الوسطى•وكان لا يؤمن بأن للكواكب تأثيراً في السعد والنحس• وقد لاحظ اوضاع الكواكب وبخاصة الشمس والقمر بالنسبة للارض فأتى بآراء خطيرة وجريئة عن نشأة الحياة على الارض دفعت العلماء الى الاعتراف بانه مفكر عميق من الطراز الحديث • وكان لمؤلفاته في

البَصَريات تأثير كبير على العقل الاوربي. وقد وضع تآليف في الايقاع الموسيقي قبل ان تعرف اوربة الايقاع بعدة قرون . وله عدد كبير جداً من المؤلفات العلمية .

وآخيراً فان الحضارة العربية تفخر على حضارات العالم بالفلكيين العرب الذين يبلغ عددهم « ٥٣٤ » عالماً وهو عدد لم يوجد الا عند القليل من الشعوب المتمدنة كما تقول المستشرقة هونكه[٢٨] .

ثالثا – المستشفيات

في الحضارة العربية عدد كبير من المستشفيات والمدارس الطبية كان الخلفاء ونساؤهم ، ووزراء الدولة واعيانها يتسابقون في انشائها . وقد كانت هذه المستشفيات تقوم بالاضافة الى عملها الانساني وهو معالجة المرضى جسمياً وعقليا تتخذ محلاً لتدريس الطب النظري والعملي. وكان اطباؤها يقومون بتأليف الكتب الطبية التي تؤلف رصيداً ضخماً في الحضارة العربية فقد كان في المارستان العضدي ببغداد الغربية والمارستان النوري بدمشق والمنصوري بالقاهرة ومدارس الطب بدمشق والقاهرة وبغداد عدد كبير من الاطباء الذين عنوا بالتأليف والترجمة منهم : ابو بكر الرازي الذي الف (٢٣٧) كتاباً في الطب من اشهرها : الحاوي ، ومنها كتاب في الطب الروحاني . ونظيف النفس الرومي وكان طبيباً عالماً بالنقل من اليوناني الى العربي . وجبرائيل بن عبيدالله ابن بختيشوع الطبيب المتوفى سنة ٣٩٦ هـ الذي ألف كُنّاشه الكبير المعروف بالكافي . وابن التلميذ وهو امين الدولة أبو الحسن هبةالله المتوفى سنة ٥٦٠ هـ وكان يجيد السريانية والفارسية . وعلي بن العباس الذي صنّف لعضد الدولة كتابه المشهور المعروف بـ (الملكي) ، وهو كتاب جليل يشتمل على اجزاء الصناعة الطبية . ومن اطباء العرب

(٢٨) لاحظ كتابنا : المراصد الفلكية ببغداد . وشمس العرب لهونكه ص ١٢٦ .

الرئيس ابو علي بن سينا صاحب كتاب (القانون) • وعلي بن عيسى أشهر كَحّالي العرب الذي الف كتابه (تذكرة الكحالين) الذي وصف فيه مئة وثلاثين مرضا من امراض العيون • وابن جزلة مؤلف كتاب (تقويم الابدان في تدبير الانسان) الذي وصف فيه الامراض وأعراضها وانذاراتها وعلاجها•ووصف الرازي مرضَيْ الجدري والحصبة•وابن سينا أول من وصف التهاب السحايا الحادّ • ووصف ابن زُهْر الحوادث السريرية ودوّن ملاحظاته عليها • ويزودنا ابن ابي اصيبعة والقفطي وابن جلجل باسماء الكتب اليونانية التي ترجمت للعربية [٢٩] إما من اليونانية مباشرة وإما من السريانية • كما يذكرون كثيراً مما ألف بالعربية • ويكفي العرب فخراً انهم انقذوا كثيراً من كتب اليونان من الضياع بتعريبهم لها لأن النسخ اليونانية الأصلية قد ضاعت جميعها ولم يبق سوى النسخ العربية ولذلك فأن الكتب اليونانية تعرف من الترجمة العربية فقط •

رابعا ــ دور العلم او دور الكتب

نريد بدور العلم : المكتبات العامة التي انشئت خارج المدارس والجامعات لتسهيل المطالعة والانتساخ وتيسيرهما للراغبين في العلم وخاصة لغير القادرين منهم على اقتناء الكتب بسبب غلائها وندرتها في تلك العصور ، ولذلك سارع الاغنياء والعلماء والامراء والوزراء الى تأسيس دور عامة للكتب أطلق عليها : « دور العلم » فكانت معاهد عامة للدرس والانتساخ والترجمة والتأليف تختلف عن الخزائن الخاصة • وسنذكر على سبيل المثال نماذج من هذه الدور التي انشئت في العراق ، والكتب التي وقفت عليها وشيئاً مما قدمته للثقافة مع الاشارة الى الاوقاف المادية التى وقفت عليها لإدامتها وتنميتها ،

---

(٢٩) الطب العربي من ص ٢٢٥ الى نهاية ص ٢٥٥ حيث ذكرت اسماء الكتب التي ترجمت الى العربية .

والانفاق على اربابها . من ذلك :

١ ـ داران للكتب بالبصرة : الاولى كانت « اول دار كتب عملت في الاسلام » ذكر ذلك ابن الجوزي [٣٠] وذكر انها احترقت عندما احرقت البصرة في جُمادَى الاولى سنة ٤٨٣ هـ . وقال ابن الاثير [٣١]: انها اول دار وقفت في الاسلام . وقد رآها عضد الدولة فقال : « هذه مكرمة سُبِقْنا اليها » .

اما الدار الثانية فهي التي وقفها الوزير أبو منصور بن شاه مَرِدان وكان بها نفائس الكتب واعيانها كما يقول ابن الأثير [٣٢] ، وقد احترقت بنفس الحريق الذي احترقت به دار الكتب الأولى التي بالبصرة سنة ٤٨٣ هـ .

٢ ـ خزانة الوقف بالبصرة

ذكر ابن النديم [٣٣] ان الذي انشأها بالبصرة أبو علي بن سوّار الكاتب ، وكان محباً للعلوم ، شديد الشغف بها . وكان يقول : ان في خزانته من مصنفات ابي القاسم البشتي : كتاب الاشجار والنبات وكتاب صون العلم وسياسة النفس ، وجوابه في قدم العالم ، ورسالته في سَبْر العضو الرئيس في بدن الانسان ..

٣ ـ دار علم الموصل

لقد انشأ هذه الدار ابو القاسم جعفر بن محمد بن حمدان الموصلي الشافعي المتوفى سنة ٣٢٣ هـ وكان من اهل الرئاسات بالموصل . وقد جعل في هذه الدار خزانة كتب من جميع العلوم وقفاً على كل طالب علم من العلوم ، لا يمنع أحد من دخولها . وكان يعطي الغرباء من طلاب الأدب الورَق والوَرِق . وكانت هذه الدار تفتح كل يوم ،

---

(٣٠) المنتظم ج٩ ص ٥٣ .
(٣١) الكامل ج١٠ ص ١٨٤ .
(٣٢) الكامل ج١٠ ص ١٨٤ .
(٣٣) الفهرست ص ١٣٩ .

ويجلس هو فيها اذا عاد من ركوبه ، ويجتمع اليه الناس فيملي عليهم من شعره ، وشعر غيره ، ومصنفاته ، ثم يملي من حفظه الحكايات المستطابة ، وشيئاً من النوادر المؤلفة ، وطرقاً من الفقه . وكان بارعاً في النحو والكلام والجدل والفقه ومعرفة اللغة ، بصيراً بعلم النجوم ، عالماً مطلعاً على علوم الأوائل . وكان يتبجح بمعرفة كتاب اقليدس وأشكاله ، وزيادات زادها عليه من مبتكراته وكان له عدد من المؤلفات[٣٤] .

٤ ـ دار علم الشريف الرضي المتوفى ببغداد سنة ٤٠٦هـ (١٠١٥م)

وقد اشتهر الشريف الرضي الى جانب شهرته في الشعر بانشاء خزانة للكتب اطلق عليها « دار العلم » وكانت منظمة تنظيماً حسناً . وكان فيها طلاب ينفق عليهم من ماله الخاص ، ومخزن يحتوي على جميع ما يحتاج اليه الطلاب[٣٥] .

٥ ـ دار العلم بالكرخ :

وهي الدار التي انشأها ببغداد بجانب الكرخ الوزير ابو نصر سابور بن اردشير المتوفى سنة ٤١٦ هـ في عهد البويهيين سنة ٣٨١ هـ (٩٩١م) ولم يكن في الدنيا احسن كتباً منها ، وكانت كلها بخطوط الأئمة المعتبرة ، وأصولهم المحررة[٣٦] وقد وقف عليها أبو نصر الوقوف ، ونقل اليها كتباً كثيرة مما ابتاعه وجمعه . وعمل لها فهرستاً . ويذكر ابن الجوزي[٣٧] وابن الاثير[٣٨] ان عدد كتبها بلغت اكثر من عشرة آلاف مجلد ، وترد في رواية اخرى عشرة آلاف واربعمئة مجلد[٣٩] . وقد جعل النظر فيها الى الشريفين أبي الحسين محمد بن أبي شيبة ، وابي عبدالله محمد بن احمد الحسني ، والى القاضي ابي

---

(٣٤) معجم الادباء ج٢ ص ٤١٩ ـ ٤٢١ والفهرست ص ١٤٩ .
(٣٥) خزائن العراق القديمة ص ٢٣١ .
(٣٦) معجم البلدان ج١ ص ٥٣٤ في مادة « بين السورين » .
(٣٧) المنتظم ج٨ ص ٢٢ .
(٣٨) الكامل ج٩ ص ٣٥٠ .
(٣٩) الكامل ج١٠ ص ٧ .

عبدالله الحسين بن هارون الضبي . وكلف، الشيخ ابا بكر محمد بن موسى الخوارزمي الحنفي شيخ أهل الرأي وفقيههم فضل عناية بها[٤٠] وكانت قد انتهت اليه الرياسة في مذهب أبي حنيفة . وكان من تلامذته الشريف الرضي والصَّيْمَري[٤١] .

وقد احترقت فيما احرق من محال الكرخ عند ورود طغْرل بك أول ملوك السلجوقية الى بغداد [٤٢] وكانت هذه الدار مكتبة عامة يختلف اليها العلماء والادباء . ومن اشهر من قصدها : الشاعر الفيلسوف ابو العلاء المعري . وقد ورد في اخبارها ان بعض المؤلفين وقفوا كتبهم على هذه الدار .

٦ ـ خزانة غَرْس النعمة الصابيء المتوفى ببغداد سنة ٤٨٠ هـ (١٠٨٧م) وهو أبو الحسن محمد بن هلال الصابيء كان محباً للعلم والتأليف كأبيه هلال مؤلف « تحفة الامراء في تاريخ الوزراء » و « رسوم دار الخلافة » . وقد انشأ دار كتب بالجانب الغربي من بغداد في شارع ابن ابي عوف ونقل اليها نحو الف كتاب وفي رواية ٤٠٠ مجلد في فنون العلم،وفي رواية اربعة آلاف مجلد[٤٣] . ويذكر ابن الجوزي[٤٤] ان الذي دفعه الى وقف هذه الكتب احتراق دار العلم التي وقفها أبو نصر سابور بين السورين ونهب اكثر ما فيها فبعثه الخوف على ذهاب العلم ان وقف هذه الكتب .

٧ ـ دار علم « ابن المارستانية » .

انشأها ابو بكر عبيدالله بن علي التيمي البكري المتوفى سنة

---

(٤٠) المنتظم ج٧ ص ١٧٢ .

(٤١) المنتظم ج٧ ص ٢٦٦ .

(٤٢) في المنتظم ج٨ ص ٢٢ انها احترقت سنة ٤٥٠هـ وفي ص٢٠٥ انها احترقت سنة ٤٥١ هـ .

(٤٣) راجع الروايات المختلفة عن عدد الكتب في : المنتظم ج٨ ص٢١٦ و ج٩ ص ٤٢ والبداية والنهاية ج١٢ ص ١٣٤ .

(٤٤) المنتظم ج٨ ص ٢١٦ .

٥٩٩هـ (١٢٠٢) وهو من ذرية أبي بكر الصدّيق وكان ابوه وامه يخدمان المرضى في المستشفى العَضُدي ببغداد . وكان يعرف الطب والحكمة وعلم النجوم . وصنف تاريخاً كبيراً لبغداد سماه « ديوان الاسلام في تاريخ دار السلام » وكانت له حلقة بجامع القصر يقرىء فيها الحدبث يوم الجمعة ويحضره الناس .

وقد بنى ابن المارستانية داراً بدرب الشاكرية ببغداد سماها « دار العلم » وجعل فيها خزانة كتب وقفها على طلاب العلم . ولما سجن بيعت « دار العلم » بما فيها . وبعد اطلاق سراحه أثرى وعاد الى حال حسنة وحصل كتباً كثيرة [٤٥] .

خامسا ـ المدارس والجامعات

لقد حفلت البلاد الاسلامية بعدد كبير من المدارس والجامعات لمختلف العلوم والآداب والفنون وكان في جميع هذه المدارس دور للكتب ولم تخل مدرسة من مكتبة قط . اما خزائن الكتب في الجامعات فقد زخرت بالمؤلفات المصنفة أو المنقولة باعتبارها من أهم مستلزمات الدراسة العالية . ومن اشهر هذه الخزائن ببغداد :

١ ـ خزانة مدرسة ابي حنيفة التي انشئت سنة ٤٥٩هـ ووقفت لها كتب كثيرة . وكان فيها اكثر مؤلفات الجاحظ كما ان ابن جزلة الطبيب اوقف فيها كتبه .

٢ ـ خزانة المدرسة النظامية وقد افتتحت أيضاً في سنة ٤٥٩ هـ وكان لها خُزان ومشرفون حفلت باخبارهم كتب التراجم . وقد جمع فيها نظام الملك مختلف الكتب غير ما نقل اليها الناصر لدين الله بعد ذلك من الوف الكتب النفيسة التي لا يوجد مثلها .

٣ ـ خزانة المدرسة البشيرية التي انشأتها زوجة المستعصم وام ولده محمد ابي نصر على المذاهب الاربعة وافتتحت سنة ٦٥٤ هـ وكانت

---

(٤٥) خزائن العراق ص ٢٥٩ .

كتبها لا تعار الا برهن حافظ لقيمتها .

٤ ـ خزانة المستنصرية التي افتتحت سنة ٦٣١هـ (١٢٣٣م) وكانت مرجعاً لطلاب المستنصرية ومدرسيها وشيوخها كما كانت مرجعاً عاماً لطلاب العلم والعلماء خارج المستنصرية ولطالما قصدها الكثير منهم وترددوا عليها وافادوا من كنوزها العلمية والأدبية نحو قرنين من الزمن أما الكتب التي نقلت اليها فقد جاء في الحوادث الجامعة (٤٦) ان الخليفة المستنصر نقل اليها يوم الافتتاح من الربعات الشريفة والكتب النفيسة المحتوية على العلوم الدينية والادبية ما حمله مئة وستون حمالاً ، وجعلت في خزانة الكتب سوى ما نقل اليها فيما بعد. وقد رتبت هذه الكتب بحسب الفنون ليسهل تناولها ، ولا يتعب مناولها ، وكانت هذه الخزانة عديمة المثل ، ولم يوجد مثلها في العالم . ولعل مكتبة المستنصرية كانت في القرنين السابع والثامن الهجريين اعظم دور العلم ، واشهرها في العالم (٤٧) كله .

اما الجامعات الأخرى (٤٨) في البلاد العربية فكانت كلها مراكز علمية على غرار المستنصرية ببغداد . وكانت كلها تحتوي على خزائن الكتب ، وضعت لها أنظمة خاصة بها . وسنكتفي بذكر اسماء الجامعات الاسلامية التي كانت رباعية المذاهب او الاواوين والتي كانت تدرس سائر العلوم اسوة بالمستنصرية اولى الجامعات الاسلامية التي سنت لها هذه السنة فمنها :

١ ـ المدرسة الصالحية بمصر : وهي اول مدرسة رباعية فتحت بمصر بعد المستنصرية انشأها الملك الصالح نجم الدين أيوب بالقاهرة سنة ٦٤١هـ (١٢٤٣م) ووقف لها اوقافاً عديدة(٤٩) .

---

(٤٦) ص ٥٤

(٤٧) راجع كتابنا : «تاريخ علماء المستنصرية» ج٢ ص ٥٩ــ١٢٠ .

(٤٨) تاريخ علماء المستنصرية ج١ ص ٣٧ ـ ٤١ .

(٤٩) خطط المقريزي ج٤ ص ٢٠٩ ـ ٢١٠ .

٢ ــ المدرسة الظاهرية بمصر : انشأها الملك الظاهر بيبرس بين القصرين بالقاهرة سنة ٦٦٢هـ (١٢٦٣م) وجعل فيها اربعة اواوين . اثنان منها للحنفية والشافعية واثنان لأهل الحديث والقراآت السبع . وجعل بها خزانة تشتمل على امهات الكتب في سائر العلوم ، وتعتبر من أجمل مدارس القاهرة .

٣ ــ المدرسة العصمتية ببغداد : تم بناؤها في سنة ٦٧١ هـ (١٢٧٢م) بجوار مشهد عبيدالله بن عمر العلوي (بالاعظمية) انشأتها السيدة شمس الضحى حفيدة السلطان صلاح الدين الايوبي . وهي ام رأبعة حفيدة الخليفة المستعصم . ووقفتها على المذاب الاربعة . وكانت فيها دار كتب .

٤ و ٥ ــ المدرسة المنصورية والقبة المنصورية بمصر : انشأهما الملك المنصور بن قلاوون الالفي سنة ٦٨٤هـ وكان في كل منهما دروس على المذاهب الاربعة مع درس للطب وسائر الدروس الاخرى . ووقف عليهما وقوفاً عظيمة وجعل في القبة خزانة جليلة كان فيها عدة احمال من الكتب في أنواع العلوم [٥٠] .

٦ ــ المدرسة الناصرية بمصر : وقد اتمها السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون في سنة ٧٠٣ هـ (١٣٠٣م) وجعل فيها أربعة اواوين للمذاهب الاربعة . ووقف عليها الوقوف الجليلة ، وجعل فيها خزانة كتب [٥١] نفيسة .

٧ ــ المدرسة الصلاحية بحلب : وقفها الامير صلاح الدين يوسف ابن الاسعد الدوادار وجعلها على المذاهب الاربعة[٥٢] .

٨ ــ مدرسة السلطان حسن : انشأها السلطان حسن بالقاهرة سنة ٧٥٧هـ (١٣٥٦م) على المذاهب الاربعة وجعل فيها اربعة اواوين

---

(٥٠) المقريزي ٢١٨ ــ ٢٢١ .
(٥١) المقريزي ٢٢١ ــ ٢٢٢ .
(٥٢) اعلام النبلاء للطباخ ٢ : ٤١٣ ونهر الذهب ٢ : ١٩٢

متقابلة وتم بناؤها سنة ٧٦٤هـ ووقفت عليها اوقاف عظيمة [٥٣] •

٩ ــ المدرسة البرقوقية بمصر : وكانت تقع بين القصرين ، بنيت للمذاهب الاربعة وتمت عمارتها سنة ٧٨٨ هـ [٥٤] •

١٠ ــ المدرسة المسعودية ببغداد : بناها خواجة مسعود الشافعي ابن (سديد الدولة اليهودي) وجعلها وقفاً على المذاهب الاربعة على صفة المستنصرية [٥٥] •

١١ ــ المدرسة الجمالية بمصر : انتهت عمارتها سنة ٨١١ هـ (١٤٠٨م) وكانت للمذاهب الاربعة ، وعرفت بالناصرية ايضاً • وكان في خزانتها عشرة مصاحف ، طول كل مصحف اربعة اشبار الى خمسة ، في عرض يقرب من ذلك احدها بخط ياقوت المستعصمي ، وآخر بخط ابن البواب ، وباقيها بخطوط منسوبة ، ولها جلود في غاية الحسن معمولة في اكياس من الحرير الأصلي • وفيها من الكتب النفيسة عشرة احمال كانت في مدرسة الملك الاشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون [٥٦] •

١٢ ــ المدرسة الغيائية أو مدرسة الملك المنصور بمكة[٥٧] : بناها الملك المنصور غياث الدين ابو المظفر اعظم شاه الهندي وجعلها على المذاهب الأربعة • ابتدأ في بنائها في شهر رمضان سنة ٨١٣ هـ وفرغ من بنائها في آخر صفر سنة ٨١٤ هـ وانفق عليها وعلى اوقافها اموالاً جليلة •

١٣ ــ مدرسة السلطان قايتباي[٥٨] بمكة : شرع ببنائها سنة ٨٨٢ هـ وتمت عمارتها في سنة ٨٨٤هـ • وكانت تحتوي على ٧٢ خلوة

---

(٥٣) المقريزي ج٤ ص ١١٧ .

(٥٤) الشذرات ج٦ ص ٢٩٩ .

(٥٥) الغياثي : ١٨٥ .

(٥٦) المقريزي ج٤ ص ٢٥٢ ــ ٢٥٦ .

(٥٧) شفاء الغرام ج١ ص ٣٢٨ ــ ٣٢٩ وكتابنا : المدارس الشرابية ص ٣١٥ ــ ٣٥٧ .

وعلى مدرسة بنيت بالرخام وعلى اربعة مدرسين للفقه على المذاهب الاربعة و ٤٠ طالباً . وجعل فيها اربعين صبياً من الايتام .وأرسل خزانة كتب وقفها على طلبة العلم ، وجعل مقرها المدرسة المذكورة . وجعل لها خازناً . وممن تولاها المؤرخ قطب الدين الحنفي مؤلف كتاب « الإعلام بأعلام بيت الله الحرام » . ووقف عليها اوقافاً كثيرة .

١٤ ـ المدارس الاربع بمكة : بناها السلطان سليمان القانوني للمذاهب الاربعة في سنة ٩٧٢هـ ولذلك سميت المدارس السلطانية والسليمانية . واوقف عليها اوقافاً جليلة(٥٩) .

سادسا ـ الربط

لقد اطلق الرباط أول الامر على المكان أو الثغر الذي يرابط فيه جنود المسلمين للجهاد في سبيل الله ، ويلازمونه مترصدين للعدو ، مستعدين للغزو . ثم صار الرباط يطلق على المكان الذي يرابط فيه الصوفية للعبادة والانقطاع الى الله تعالى ، والتوبة ومجاهدة النفس والحد من شهواتها ، كما صار مأوى للعاجزين والنساء المطلقات أو المهجورات ، واليتامى والفقراء ، ومسكناً للفقهاء الغرباء واحياناً لكبار العلماء. وهكذا أصبحت الربط تؤدي خدمات اجتماعية ودينية وثقافية كالوعظ والاقراء والتحديث(٦٠) والسماع والافتاء ، ومنح الاجازات العلمية ، وتصنيف الكتب . ومما ساعد على ذلك ان الواقفين انشأوا فيها الخزائن ووقفوا فيها الكتب ، وعينوا لها القوام والخزان ومن يقوم بصيانتها وترتيبها ومناولتها . وكان الزهاد والمتصوفة الساكنون في الربط أو الذين يترددون عليها يرتادون المكتبات التي في ربطهم وكذلك كان يفعل الرحالون الذين يرحلون في طلب العلم .

---

(٥٨) تاريخ القطبي ص ١٨٦ ، ١٩٧ ـ ١٩٨ . والمدارس الشرابية ٣١٩ ـ ٣٢١ .

(٥٩) تاريخ القطبي ص ١٨١، ٢٩٣ـ٢٩٦ والمدارس الشرابية ٣٢٢ـ٣٢٦

(٦٠) المنتظم ج١٠ ص ١٠٠ .

ففي رباط الزوزني احد الربط القديمة ببغداد الغربية حِذاء جامع المنصور كانت خزانة كتب • وفي رباط زمرد خاتون أم الخليفة الناصر لدين الله بالمأمونية خزانة كتب كبيرة • وفي رباط الاخلاطية وهي سلجوقي خاتون زوجة الناصر لدين الله خزانة مشهورة كانت مشتركة بين الرباط والتربة • قال ياقوت[٦١] يذكر مؤلفات علي بن فضال الفرزدقي المتوفى سنة ٤٧٩هـ ويشير من بينها الى كتاب في تاريخ الدول فيقول : رأيت في الوقف السلجوقي ببغداد منه ثلاثين مجلداً ، ويعوزه شيء آخر •

وكان العلماء يتخذون من الربط أماكن للمطالعة والكتابة والانتساخ والتأليف يساعدهم على ذلك وجود مكتبات عامرة فيها ومكوثهم فيها اوقاتاً طويلة ، ولذلك يلاحظ ان كثيراً من كتب التصوف أُلفت في الربُط باعتبار ان الربط كانت مجمعاً للزهاد والمتصوفة •على ان الربط لم تخل من مؤلفات بعض الفلاسفة والعلماء والادباء والفقهاء واللغويين والنحاة وغيرهم مثل : كتاب الفصول والغايات لأبي العلاء المعري وكتاب الفنون لأبي الوفاء علي بن عقيل البغدادي الحنبلي المتوفى سنة ٥١٣هـ ، وكتاب الاصول لابن السراج، وكتاب التاريخ المجاهدي[٦٢] لمؤلفه وجيه الدين ابي حفص السهروردي المتوفى سنة ٥٣٢هـ وكان شيخ الصوفية برباط الامير سعادة • ومن الكتب التي ألفت داخل الرُبُط كتاب عوارف المعارف الذي ألفه الشيخ شهاب الدين عمر السهروردي المتوفى سنة ٦٣٢هـ والناسخ والمنسوخ في الحديث الذي الفه الحازمي في رباط البديع مع كتابين في الانساب ... الـخ •

وكانت الربط عامرة بالفقهاء والصلحاء الذين بلغ اشتغالهم بالعلم

---

(٦١) معجم الادباء ج٥ ص ٢٩٠ .
(٦٢) نسبة الى مجاهد الدين بِهروز .

في بعض الربط أكثر من الاشتغال في سائر المدارس، اما الشيوخ الذين كانوا يتولون مشيخة الربط فكانوا من أكابر العلماء وفضليات النساء.

سابعا ـ الخزائن الخاصة

لقد كانت خزائن العلماء والكتاب والادباء والوزراء في البلاد الاسلامية من الأمور التي تشير الاعجاب وتدل على العناية بالعلم والاهتمام بأهله . وفي كتب التاريخ والادب اخبار كثيرة ومتناثرة عن مكتبات الاشخاص من الاطباء والحكماء والفلاسفة والمؤرخين والشعراء وعلماء الدين والعربية وعن الورّاقين الذين كانوا يورقون لهم لتنمية خزائنهم ... مما لا نجد لذلك مثيلاً عند مَن سبقهم أو عاصرهم من الأمم .

ولما كانت خزائن الاشخاص كثيرة ومتفرقة فسنذكر بعض ما كان منها مراجع للبحث والتأليف لأصحابها وبعض من يلوذ بهم من الوجوه والاعيان والاصدقاء ومن أشهرها :

١ ـ خزانة الواقدي محمد بن عمر العالم بالمغازي والسِّيَر والفتوح . ولي القضاء للمأمون ببغداد بعسكر المهدي أي جانب الرصافة . وتوفي ببغداد سنة ٢٠٧هـ (٨٢٢م) وكانت له خزانة كتب فيها آلاف التصانيف فقد ذكر الخطيب البغدادي ان الواقدي عندما انتقل من الجانب الغربي الى الرصافة « يقال انه حمل كتبه على عشرين ومئة وِقْر»[٦٣] كما ذكر ابن النديم انه خلف بعد وفاته ستمئة قِمَطْر كتباً كل قمطر منها حِمْلُ رجلين . وكان له غلامان مملوكان يكتبان الليل والنهار[٦٤] .

٢ ـ خزانة محمد بن عبدالملك الزيات المتوفى سنة ٢٣٣هـ (٨٤٧م) وزر للمعتصم والواثق والمتوكل وكانت له بسامراء مكتبة فيها كتب

---

(٦٣) الخطيب ج٣ ص ٥ ومعجم الادباء ج٧ ص ٥٧ ـ ٥٨ .

(٦٤) الفهرست ص ٩٨ .

نقلت من اليونانية . وفي عيون الانباء[٦٥] « كان يقارب عطاؤه للنَّقَلَة والنساخ في كل شهر الفي دينار ، ونقل باسمه كتب عدة ... » .

٣ ــ خزانة الكندي يعقوب بن اسحق فيلسوف العرب الشهير المتوفى ببغداد سنة ٢٤٦هـ (٨٦٠م) وكان عالماً في الطب والفلسفة والنجوم والحساب والهندسة والمنطق والموسيقى وقد دونت مؤلفاته الكثيرة في كل فن من الفنون[٦٦] .

٤ ــ خزانة الجاحظ وهو ابو عثمان عمرو بن بحر المتوفى سنة ٢٥٥هـ (٨٦٨م) قيل عنه انه « ... لم يقع بيده كتاب قط الا استوفى قراءته كائناً ما كان حتى انه كان يكتري دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر »[٦٧] وكانت له خزانة كتب شهيرة « روي ان موته كان بوقوع مجلدات عليه،وكان من عادته ان يَصُفَّها قائمة كالحائط محيطة به وهو جالس اليها ، وكان عليلاً فسقطت عليه فقتلته ... »[٦٨] .

٥ ــ خزانة عضد الدولة البويهي المتوفى ببغداد سنة ٣٧٢هـ (٩٨٢م) وكان محباً للعلوم ، مقرباً لهم ، محسناً اليهم ، وكان يجلس معهم يعارضهم في المسائل فقصده العلماء من كل بلد . وصنفوا له الكتب منها : الايضاح في النحو ، والحجة في القراآت ، والملكي في الطب ، والتاجي في التاريخ . وكانت خزانته في شيراز ويظهر انها نقلت الى بغداد عندما تولى الحكم فيها . وكان لا يدخلها الا وجيه ، وكان لها فهرست باسماء الكتب التي فيها[٦٩] .

٦ ــ خزانة ابن النديم محمد بن اسحق صاحب كتاب «الفهرست»

---

(٦٥) ١ : ٢٠٦

(٦٦) راجع الفهرست ص ٢٥٥ ــ ٢٦١ وعيون الانباء ج١ ص ٢٠٩ ــ ٢١٤

(٦٧) الفهرست ص ١١٦ ومعجم الادباء ج٦ ص ٥٦

(٦٨) ابن الفداء في حوادث سنة ٢٥٥ هـ .

(٦٩) الكامل ج٩ ص ٢١ ــ ٢٢ واحسن التقاسيم للبشاري المقدسي ص ٤٤٩ .

العظيم . وكان وراقاً يبيع الكتب[٧٠] ومما لا شك فيه ان خزانته حوت كثيراً من الكتب التي ورد ذكرها في الفهرست وهي التي ساعدته على تأليف هذا الكتاب القيم .

٧ ــ خزانة الخطيب البغدادي وهو أبو بكر بن علي المتوفى ببغداد سنة ٤٦٣ هـ (١٠٧٠م) صاحب كتاب تاريخ بغداد الشهير الذي طبع بـ ١٤ مجلداً . ويظهر ان الخطيب كانت لديه خزانة كتب عامرة وقد وقفها قبل موته على المسلمين لكنها احترقت اخيراً[٧١] .

٨ ــ خزانة ابن النجار[٧٢] المتوفى ببغداد سنة ٦٤٣ هـ (١٢٤٥م) وهو محب الدين محمد بن محمود البغدادي المؤرخ مدرس الحديث بدار السنة بالمستنصرية . وكانت له خزانة كتب كبيرة، وقد وقفها على المدرسة النظامية ببغداد ، وأوصى الى ابن الساعي في أمر تركته . وكان من جملتها انه « وقف خزانتين من الكتب بالنظامية تساوي ألف دينار فأمضى ذلك الخليفة المستعصم » .

٩ ــ خزانة ابن الفُوَطي[٧٣] الشيباني المتوفى ببغداد سنة ٧٢٣هـ (١٣٢٣م) وهو خازن دار الرَّصَد بمراغة التي كانت تحتوي على ٤٠٠ ألف مجلد . ثم خازن دار الكتب بالمستنصرية التي كان فيها ثمانون الف مجلد . وكان منزله ببغداد وخزانته الخاصة ، ملتقى الادباء والعلماء .

١٠ ــ خزانة ابن عبدالحق المتوفى ببغداد سنة ٧٣٩هـ (١٣٣٨م) وهو صفي الدين عبدالمؤمن بن عبدالحق الحنبلي مدرس المستنصرية ، ومؤلف كتاب « مراصد الاطلاع في اسماء الامكنة والبقاع » وكانت له خزانة كتب وقفها على المدرسة المجاهدية وهي يومذاك أكبر مدارس

---

(٧٠) معجم الادباء ج٦ ص ٤٠٨ .

(٧١) المنتظم ج٨ ص ٢٦٩ ومعجم الادباء ج١ ص ٢٥٢ و ٢٥٩

(٧٢) راجع ترجمته في كتابنا « تاريخ علماء المستنصرية » ج١ ص ٣٣٣ ــ ٣٣٨ .

(٧٣) المصدر نفسه ج٢ ص ٨٤ــ١١٥ .

بغداد كما يقول ابن رافع[٧٤] .

وهناك خزائن كتب عديدة لعدد كبير من الاشخاص لايتسع المجال لذكرها كلها منها : خزانة الشريف المرتضى التي يقال انها كانت تشتمل على ثمانين الف مخطوطة ، وخزانة القاضي الفاضل التي كان فيها على ما يروى (١٤٠) الف كتاب . وكانت كتب الصاحب اسماعيل بن عبَّاد تحتاج لنقلها الى ٧٠٠ بعير . ويروى انها كانت ١١٤ الف كتاب . وخزانة ابن العلقمي التي كان فيها عشرة آلاف مجلد ... الخ .

ثامنا ـ المساجد والمشاهد

يعد المسجد في الاسلام من معاهد الثقافة الاولى لدراسة العلوم الاسلامية والعربية ولكثير من العلوم العقلية التي تنوعت وتطورت في العصر العباسي . وكان مسجد الرسول (ص) في المدينة أول مركز ثقافي في الاسلام انبثقت منه المعارف ثم تبعته المساجد التي انشئت على غراره في البلاد التي فتحها العرب المسلمون . ومن احسن الامثلة على ذلك: مسجد البصرة ، ومسجد الكوفة ، ومسجد عمرو بن العاص بالفسطاط فقد كان في مسجد البصرة حلقة قوم من أهل الجدل يتصايحون في المقالات ، وبجانبهم حلقة للشعر واللغة العربية . ومثل ذلك يقال عن مسجد الكوفة ومسجد عمرو وعن المساجد التي انشئت في العصر الاموي . أما المساجد التي انشئت في العصر العباسي فقد اشتهرت في حلقاتها العلمية كمسجد المنصور ببغداد الغربية الذي حدَّث فيه الخطيب البغدادي . ومسجد المهدي وهو مسجد الرصافة الذي حدَّث فيه الامام احمد بن حنبل ويحيى بن معين وكان ببغداد الشرقية . وجامع القصر الذي بقيت منه منارته المعروفة بمنارة سوق الغزل وكان فيه اربع دكات يتناظر عليها فقهاء المستنصرية ويتجادلون بعد صلاة الجمعة. وكذلك في سائر المساجد الاخرى في العالم الاسلامي كالجامع الاموي

---

(٧٤) راجع المصدر نفسه ج١ ص ١٨٣ ـ ١٨٩ عن ابن عبدالحق وأما عن المجاهدية فراجع منتخب المختار ص ١٢٣ .

بدمشق ، ومسجد احمد بن طولون ، والازهر بمصر، ومسجدالقيروان والزيتونة في شمال افريقية، ومساجد سامراء وبخارى وغزنة واصبهان. اما في الاندلس فكان الناس يقرأون جميع العلوم في المساجد . ومن أهم مساجد الاندلس جامع قرطبة . وقد شملت الدراسة في المساجد العلوم النقلية والعقلية على السواء وكان الطب يدرس في الازهر(٧٥) . وكانت المساجد تحتوي على خزائن للكتب بمختلف الفنون للمطالعة والانتساخ والتأليف وقد ساعدت على ذلك حركة الترجمة والتأليف وتقدم صناعة الورق التي ازدهرت ببغداد وانتشرت منها الى سائر البلاد .

ومما يدل على ان المساجد والمشاهد كانت تحتوي على خزائن للكتب ان كثيراً من العلماء واصحاب الخزائن الخاصة كانوا يقفون كتبهم عليها . من ذلك ان ابن جزلة الطبيب البغدادي المتوفى سنة ٤٩٣هـ (١٠٩٩م) وقف كتبه بمشهد الامام أبي حنيفة ، وان أبا الحسن الشريف الزيدي المتوفى سنة ٥٧٥هـ (١١٧٩م) وقف كتبه على المسلمين كافة بمسجده الذي كان يؤم الناس فيه في اوقات الصلوات بدرب دينار الصغير بسوق الثلاثاء من بغداد الشرقية . ووقف ابو الخير صبيح بن عبدالله الحبشي المتوفى سنة ٥٨٤هـ (١١٨٨م) كتبه في مسجد الزيدي ايضاً . كما وقف أبو الخطاب العُلَيْمي الدمشقي المتوفى سنة ٥٧٤هـ (١١٧٨م) كتبه في هذا المسجد نفسه . ووقف ياقوت الحموي الجغرافي المؤرخ المتوفى سنة ٦٢٦ هـ (١٢٢٨م) كتبه في مسجد الزيدي ايضاً(٧٦) .

ومن المشاهد والمساجد التي احتوت على خزائن للكتب :

١ ـ خزانة المشهد الشريف الغروي : وهي في صحن المشهد الذي فيه ضريح الامام علي بن ابي طالب كرم الله وجهه في النجف وهي من الخزائن القديمة التي تكونت بمرور الزمن من هدايا السلاطين والامراء

---

(٧٥) عيون الانباء ج٢ ص ٢٠٧ .

(٧٦) راجع بحثنا « خزانة المستنصرية » في مجلة الاقلام ج٤ من السنة الثانية سنة ١٩٦٥ ص ١٦ـ٢٦ .

والوزراء والاغنياء • وفيها من الكتب الثمينة والتحف النادرة بخطوط أشهر الخطاطين الشيء الكثير(٧٧) •

٢ ـ خزانة جامع البصرة : لما احترق جامع البصرة في سنة أربع وعشرين وستمئة واستهدم معظمه اعاد أبو المظفر باتكين بن عبدالله الرومي الناصري المتوفى سنة ٦٤٠هـ (١٢٤٢م) عمارته في خلافة المستنصر • وأحضر حجارة اساطينه من جبل الاهواز ، وجلب له الخشب والصنوبر والساج من البحر وشيراز ورحبة الشام •••• وبنى في دهليز الجامع حجرتين جعل في احداهما كتبا • ووقف في جميع المدارس كتبا ، وانتشر العلم في زمانه • وكان العلماء وغيرهم يقصدونه من جميع الآفاق فيرفدهم(٧٨) •

٣ ـ خزانة جامع قُمْرِية ببغداد : وهو من المساجد التي بنيت في خلافة المستنصر بالله العباسي • جاء عنه في كتاب الحوادث في أخبار سنة ٦٢٦هـ ما يأتي :

« في شعبان تكامل بناء المسجد المستجد المعروف بقُمْرِية بالجانب الغربي على شاطىء دجلة المقابل للرباط البِسْطامي • ونقل اليه الفرش والآلات وقناديل الذهب والفضة والشموع وغير ذلك • وفتح في شهر رمضان ورتب فيه مصلياً لشيخ عبدالصمد بن احمد بن ابي الجيش ، وأثبت فيه ثلاثون صبياً ينلقنون القرآن عليه ، ورتب فيه معيد يحفظهم التلاقين ، ورتب ايضاً فيه الشيخ حسن بن الزبيدي محدثاً يقرأ عليه الحديث النبوي في كل يوم اثنين وخميس• ورتب ايضا قارىء للحديث• وجعل في المسجد خزانة للكتب ، وحمل اليها كتب كثيرة »(٧٩) •

هذا ويمكننا ان نذكر في ختام هذا الفصل بأن الحضارة في الجزيرة العربية قد قطعت شوطاً بعيداً في التقدم والرقي قبل الاسلام • وان العرب الذين خرجوا من جزيرتهم على هيأة طوالع الى الهلال الخصيب

---

(٧٧) خزائن العراق االقديمة ص ١٣٠ ـ ١٣١ •
(٧٨) الحوادث الجامعة ص ١٨١ •
(٧٩) الحوادث الجامعة ص ٤

كانوا على جانب من الثقافة والمعرفة والتمدن • وليس ادل على ذلك من عناية العرب بخزانات المياه ، والسدود الشهيرة ، والمصانع التي ذكرها القرآن الكريم ، واهتمامهم بالزراعة وهندسة الري ، ولذلك يمكننا ان نجزم بان ثقافة السكان في الهلال الخصيب لاسيما ببابل وآشور كانت من الثقافات العربية السامية المستمدة من الجزيرة العربية • وقد تأثر الفرس بالثقافة العربية العراقيه عندما فتح كورش بابل الكلدانية عام ٥٣٩ ق • م ، كما تأثروا بالثقافة المصرية واليونانية عندما تُوِّج « دارا » (٥٢٠ــ ٤٨٥ ق•م) ملكاً على بابل ومصر • غير أن الحروب بين الفرس واليونان انتهت باضعاف شوكة الفرس ، وانتصار الاسكندر اليوناني عليهم •

ولما اتخذ الاسكندر اليوناني مدينة بابل عاصمة له ، وخضعت له مصر تأثر قومه اليونان بالحضارة العراقية والمصرية معاً • وبذلك يكون الاغريق قد اقتبسوا الكثير من علوم العراقيين والمصريين والفرس •

ولما جاء العرب المسلمون ورثوا حضارة اجدادهم الساميين والعرب في العراق والشام ومصر مع ما طرأ عليها من تطورات ، وما أضيف اليها من اضافات في عهد الاغريق وغيرهم • وقام العرب هم ومَنْ كان معهم من المسلمين وغير المسلمين بخدمات ممتازة في نقل العلوم الى العربية وغدت بغداد بوجه خاص أهم مركز للترجمة والتأليف ، ولتجمّع الثقافات من مختلف البلاد • وصارت الغلبة فيها للثقافة العربية الاسلامية ، لان الدور الفعّال في ذلك كله كان للعرب انفسهم في جميع مدنهم واقطارهم كما اسلفنا • وظلت الحياة تطبع ببغداد بالطابع العربي الاسلامي ، والثقافات تصطبغ بالصبغة العربية الاصيلة ، وتنتشر بهذا الشكل العربي في العالم الاسلامي وغيره الى جانب ما توصّل اليه العرب من نظريات جديدة ، وآراء مبتكرة ، في الفلسفة والعلوم والطب والفلك وفي الآداب والفنون والنُظُم وغير ذلك من الأمور الحضارية التي ملأت العالم ، والتي اقتبستها منهم أمم الغرب إبّان النهضة الاوربية الحديثة وجعلتها اساساً لحضاراتها وامجادها •

ملحـــق
بالشروح والمصطلحات والتعليقـات

الصفحة والسطر

٢٤/١٤ : سلسبيل المعين : يريد به الماء العذب الصافي •

٢٥/١٣ : الروح الامين : جبريل (ع) •

٢٨/١٠ : الشعوبية : نسبة الى الشعوب وهم الذين ينكرون فضل العرب ، وهم الذين شككوا الناس في الاسلام • يقول الجاحظ : « فانما عامة من ارتاب بالاسلام انما جاءه هذا عن طريق الشعوبية فاذا ابغض شيئاً ابغض اهله • وان ابغض تلك اللغة ابغض تلك الجزيرة • فلا تزال الحالات تنتقل به حتى ينسلخ من الاسلام اذ كانت العرب هي التي جاءت به وكانوا السلف » •

٢٨/١٠ : الغلاة أو الغالية : من الغلو في الدين أي التشدد فيه ومجاوزة الحد • والغلاة أو الغالية : ايضاً هم الذين يؤلهون الامام علياً أو احد ابنائه وينسبون اليهم صفات الربوبية •

٣٠/٢٣ : الماسونية Free masons : من أقدم الجمعيات السرية في التاريخ • تنتشر محافلها في كل انحاء العالم • ومعناها « البنّاء الحر » او البنّاؤون الاحرار • وكل الدلائل التي نشرها الكتاب والعلماء عن الماسونية تشير الى أنها واجهة خفية لليهودية العالمية • فشعارها: النجمة اليهودية السداسية، ومحافلها صورة مصغرة لهيكل سليمان ، والمنتسبون لها ينبغي ان يكونوا احراراً ، غير متدينين ، أما اهدافها الظاهرة فخدمة الانسانية ! وتكمن خطورتها في سريتها • ولها مراتب

ودرجات على غرار ما كان عند اخوان الصفا والاسماعيلية •
كما ان لها رموزاً ومصطلحات خاصة بها ، يعرفها المنتمون
اليها بحسب درجاتهم •

١/٢٣ : عذبة العمامة : طرفها الذي يسدل على الكتف ، وعذبة كل
شيء : طرفه • وعذبة اللسان : طرفه الدقيق •

٢/٣٢ : الظهير البربري : مرسوم سنّه الفرنسيون في شهر مايس سنة
١٩٣٠ لتنصير البربر الذين كان الفرنسيون يدّعون انهم غير
مسلمين • بينما كان القصد من ذلك واضحاً وهو تأريث نار
العداوة بين العرب والبربر في المغرب وقد بذل الفرنسيون
ما في وسعهم ، لفتنة البربر وصدهم عن الاسلام • وقد
استطاع الفرنسيون ان يدخلوا عليهم بعض الشكوك في
عقائدهم فصار منهم بعض المُعَطِّلَة والملاحدة لكنهم مع ذلك
كله لم يستطيعوا تنصيرهم • وكان لابون La Bonne
الفرنسي ينصح بوجوب التضييق على التعليم الاسلامي
ومراقبة من يواظب على صلاته من مسلمي السنغال • ويذكر
مضار الحج ، ويوصي بالقضاء على اللغة العربية في شمالي
افريقية واحلال الفرنسية محلها لتكون اللغة القومية لهم ،
ولتتمكن من نشر الدعوة المسيحية ، ولتستطيع بالتالي محو
الاسلام • وقد بدأ الفرنسيون بتنصير البربر باعتبار ان
البربر أبعد من العرب عن الاسلام ، وكانوا يرون ان الدعوة
الى التنصر لا بد أن تكون أكثر قبولاً عندهم • وقد اجبر
السلطان على توقيع المرسوم المذكور الذي يلغي العمل
بالشريعة الاسلامية بين البربر وصدرت الاوامر بمنع الفقهاء
والقراء ومشايخ الطّرق من الدخول الى مناطق البربر الا
باذن خاص • وقد أحدث هذا الظهير البربري ضجة كبيرة
في العالم الاسلامي عامة وفي بلاد المغرب خاصة وقاومه الناس

في جامع القرويين وغيره فعمدت الحكومة الفرنسية الى جَلْد عدد كبير بالسياط والقائهم في غياهب السجون • كما نفي عدد من رؤسائهم • وظلت المقاومة مستمرة حتى تمكن المغاربة من الغائه بعد جهاد دام ستاً وعشرين سنة وذلك في شهر ايلول سنة ١٩٥٦ عندما صدر مرسوم الملك محمد الخامس بالغائه •

١٤/٣٣ و ١٢/٥٦ :
الوأد : دفن البنت بالقبر حية ، وهي الموؤدة حيث كانت تدفن في الجاهلية بعد وضعها مخافة العار والحاجة أو عند المجاعة • وقد يشمل الوأد وقتل الاولاد الذي أشار اليه القرآن الكريم في آيات عديدة كلاً من الاجهاض والعزل عن المرأة وهو ما يعرف بالوأد الخفي •

وقد وجد قبل الاسلام بين العرب من كان يقاوم فكرة الوأد مثل صعصعة بن ناجية الذي كان يطوف البلاد ليفدي كل مؤودة بناقتين وجمل • ويقال انه انقذ نحو ٣٦٠ فتاةفلقب من اجل ذلك بمحيي الموؤدات •

٧/٣٤ : (••• رسول من انفسكم •••) : بمعنى تعرفونه ولم يكن من غيركم فتتهموه بالنصيحة لكم •

٧/٣٤ : (••• عزيز عليه ما عَنِتُّم •••) اي عزيز عليه عَنَتُكُمْ وهو دخول المشقة والمكروه والاذى عليكم •

٧/٣٤ : (••• حريص عليكم •••) : اي حريص على هُدَى ضُلاّلكم وتوبتهم ورجوعهم الى الحق •

١٣/٣٦ : العرب : كل من نزل بلاد الريف واستوطن المدن والقرى العربية وغيرها ممن ينتمي الى العرب • اما الاعراب فهم من نزل البادية من العرب ، أو جاور البادين ، وظعن بظعنهم ، وانتوى بانتوائهم • وهم ساكنو البادية من العرب الذين

لا يقيمون في الامصار ، ولا يدخلونها إلا لحاجة • ولايجوز
ان يقال للمهاجرين والأنصار : اعراب انما هم عرب لأنهم
استوطنوا القرى العربية ، وسكنوا المدن ، سواء منهم
الناشيء ثم استوطن القرى ، أو الناشيء بمكة ثم هاجر
الى المدينة • فان لحقت طائفة منهم بعد هجرتهم ، واقتنوا
نَعَماً ورعوا مساقط الغيث بعدما كانوا حاضرة أو مهاجرة
قبل قد تعربوا ، اي صاروا اعرابا بعدما كانوا عَرَباً • وفي
الحديث : ثلاثة من الكبائر منها التعرُّب بعد الهجرة هو ان
يعود الى البادية ويقيم مع الاعراب بعد ان كان مهاجراً وكان
مَنْ رجع بعد الهجرة الى موضعه من غير عذر يعدّونه كالمرتد•
والرسول (ص) يقول : « لا هجْرَة بعد الفتح » • وكان
المهاجرون يستعيذون بالله من التعرُّب وهو سكنى البادية ،
حيث لا تجب الهجْرة • ولم يبق إلا فضل السكنى بالمدينة
وهو هجْرة • ومن ذلك قول الحجاج لسلمة حين سكن البادية:
ارتددتَ على عقبيك تعرَّبتَ • نعى عليه في ترك السكنى
بالمدينة • وتعَرَّبْتَ : اشارة الى أنه صار من الاعراب الذين
لا يهاجرون • وليس التعرُّب دليلاً على مذمَة البدو لان
مشروعية الهِجرة انما كانت لمظاهرة النبي وحراسته• وقد افترضت
اول الاسلام على أهل مكة ليكونوا مع النبي (ص) حيث
حل من المواطن ينصرونه ويظاهرونه على امره ويحرسونه •
ولم تكن واجبة على الاعراب اهل البادية• وعلى هذا فليست
دليلا على مذمة البدو أو التعرب لان البدو اقرب الى الخير
من أهل الحضر • (مقدمة ابن خلدون ص ١٢٣ ــ ١٢٤) •
ويرى الامام الباقر ان « من ولد في الاسلام حرٌّ فهو عربي»
(الروضة الكثليني ص ١٤٨) •
ويقول الإمام جعفر الصادق : « ••• المؤمن عربي ••• »

(الاختصاص للمفيد ص ١٤٣) •
ويقول ايضا : « من ولد في الاسلام فهو عربي » (معاني الاخبار للصدوق ص ٢٣٩) •

٣٨/١٣ : (ولا تُجَمِّرُوهم فتفتنوهم) : أي لا تبقوهم ولاتحبسوهم مدة طويلة بارض العدو ، فتفتنوهم : أي توقعوهم في الفتنة والاثم من الرغبة في الاقامة والفتنة بالنساء وحب الاموال وتزيين المعاصي •

٣٨/١٨ : (فإنهم دَرْءُ العدو) : أي هم الذين يصدون العدو ويدفعونه، من الدرء وهو لدفع ، ودرأ الشيء بالشيء : جعله له رِدْءً أي حِصناً •

٤١/١٠ : التنقيب في البلاد : أي السير في البلاد للبحث عن الاخبار أو الإخبار عنها •

٤٢/٢٤ : القِرى : اطعام الضيوف الطعام والاحسان اليهم • والمِقراة: القَصْعة التي يُقْرى الضيف فيها •

٤٣/١ : الذِمام : الحق والحرمة •

٤٨/٧ : نكاح الاستبضاع : نوع من نكاح الجاهلية نرى انه كان معدوماً لعدم ملاءمته طباع العرب وغَيْرَتهم على اعراضهم وذلك ان المرأة كانت تطلب جماع الرجل لتنال منه الولد فقط • وكان الرجل منهم يقول لامرأته أولأمَتِه إذا طهرت من طمثها أرسلي الى فلان فاستبضعي منه ويعتزلها فلا يمسها حتى يتبين حملها من ذلك الرجل • وانما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد • ولم يشر القرآن الكريم الى هذا الضرب من النكاح مما يدل على انه لم يكن موجوداً عند العرب ، او كان نادراً جدا لايؤبه به • على ان هذا النوع من النكاح كان موجوداً في اوربة وكانت الغاية منه الحصول على وارث شرعي • وكان معروفاً عند اليونان ايضاً • (راجع

ص ٢٤ــ٢٧ من كتاب « الامومة عند العرب » •

٤٨/٨ : نكاح الرهط : ويطلق عليه أيضا : زواج المشاركة • وهو أن يشترك عدة رجال بأمرأة واحدة يكون عددهم دون العشرة ، وقد يسمى الولد باسم امه لصعوبة معرفة الأب في هذه الحالة • وهذا النوع من النكاح لا يتفق وتقاليدالعرب ايضا ، ولا ينسجم مع فكرة الوأد • ولا شك في انه كان نادراً جدا أو معدوماً • ولم يشر اليه القرآن الكريم وانما اشار الى نكاح المقت وهو التزوج بزوجة الأب وقد نهى عن ذلك • كما نهى القرآن عن اتخاذ الأَخْدان وهو المعاشرة مع الأَخِلاّء من غير الازواج •

٤٨/١٥ : نكاح الذواق : وهو من الانكحة الموقتة في الجاهلية ويظهر انه كان يعقد من دون شروط • وكانت المرأة تطلق الرجل إذا جربته ولم يرق لها ، وتتزوج غيره • وان صح وجود هذا النكاح فهو نوع من الزنا ، على ان من المعروف في تاريخ العرب ان بعض النساء اذا تزوجت رجلاً واصبحت عنده كانت تشترط ان يكون الطلاق بيدها • كما ان بعض المتزوجات كن يفضلن الاقامة في اهلهن اذا كنّ ذوات مال وحسب وكان ابناؤهن يبقون معهن •

ويلاحظ ان اشتراط المرأة ان تكون عصمتها بيدها جائز في الشريعة الاسلامية عند الامام ابي حنيفة • وفي التاريخ ان سلمى بنت عمرو الخزرجية كانت لا تنكح الرجال لشرفها في قومها حتى يشرطوا لها ان أمرها يكون بيدها اذا كرهت رجلا فارقته فلما تزوجها هاشم بن عبد مناف شرط ابوها على هاشم « ألا تلد ولداً الا في أهلها » وقد حملها هاشم معه الى مكة فلما اثقلت ردّها الى أهلها ، فولدت له شيبة المعروف بعبدالمطلب فتركه ابوه عندها حتى كبر ، ثم خرج

اليه عمه المطلب فألحقه بقومه بمكة •

١٥/٤٨ : الظِهار والمظاهرة : اذا قال الرجل لامرأته أنتِ عليّ كظهر امي أو كظهر ذات رحم ، وكانت العرب في الجاهلية تُطلّق بهذه الكلمة فلما جاء الاسلام نُهوا عنها ، وأوجب الكفّارة على من ظاهر من امرأته •

١٠/٤٩ : الانصاب : حجارة كانت حول الكعبة تنصب فَيُهَلّ عليها ويذبح •• والانصاب : الأوثان أيضا •

١٠/٤٩ : الازلام : مفردها الزَّلَم وهو القِدْح الذي لا ريش عليه• والازلام هي السهام التي كان أهل الجاهلية يستقسمون بها اي يعرفون بها قسمتهم ونصيبهم ، مكتوب عليها أمر ونهي: افعل ولا تفعل أو نعم ولا •

٦/٥١ : المِلَل والنِحل : الملل اتباع الديانات السماوية وهي الاديان الصحيحة • والنحل اتباع الديانات الارضية وهي الديانات الباطلة •

٧/٥١ : الصوامع : مفردها صومعة • والصومعة من البناء سميت صومعة لتلطيف اعلاها ودقة رأسها وهي منار الراهب ، وصارت تطلق على مأذنة المسجد عند المسلمين •

٧/٥١ : البِيَع : مفردها البيعة وهي كنيسة النصارى وقيل كنيسة اليهود • وقد كانت البيع والصوامع متعبدات لهم •

٧/٥١ : الصلوات : كنائس اليهود وهي بالعبرانية (صلوتا) • قال الزمخشري في الكشاف ج٣ ص ٣٤ ــ ٣٥ و « سميت الكنيسة صلاة لانها يصلى بها » • وقيل هي كلمة معربة أصلها بالعبرانية صَلُوتا • ولكن هذا غير جيد ولا راجح وان اتفقت حروف الكلمة مع حروف العبرانية ، وهي اخت العربية أو هي فرع محرف عن العربية الاولى ولم يرض « الراغب » في المفردات الا ان يذهب الى ان المراد موضع

الصلاة . وان موضع العبادة يسمى الصلاة ، وقد رويت قراءات منكرة شاذة في كلمة « وصلوات » فقال ابو حيان في البحر (٦ ــ ٣٧) وينبغي ان تكون قراءة الجمهور يراد بها الصلاة المعهودة في الملل ، واما غيرها مما تلاعبت فيه العرب بتحريف وتغيير فينظر ما مدلوله في اللسان الذي نُقل منه فيفسر به .

٥٢/٨و٩ : البيانية أو السمعانية : نسبة الى بَيان بن سمعان التميمي ولاءً . وهو اول من قال بخلق القرآن . وكان يعتقد أن إله السماء غير إله الارض . وقد بشر اتباعه بانه نبي مرسل الى البشر وان القرآن ذكره بالآية : « هذا بيان للناس » . ويفتري البيانية على ابي هاشم عبدالله بن محمد بن الحنفية انه نص على إمامة بَيان ونصبه إماما !! . وقد تمكن خالد ابن عبدالله القَسرِي من قتله في خلافة هشام بن عبدالملك وصلبه عند منظرة العاشر بواسط .

٥٢/٩ : المُغيرية : وهي من أخطر الحركات السرية التي سعت لهدم الاسلام . تنتسب الى المغيرة بن سعيد العِجْلي بالولاء (وفي رواية البَجَلي) وقد جعل الامام علياً وأبناءه في مرتبة فوق البشر ، وقال بألوهية « الامام علي » واتخذ « محمد الباقر » اماماً له . فلما علم بموته نصب نفسه اماماً من بعده. وادّعى النبوة لنفسه. وقد تمكن خالد بن عبدالله القَسْري من قتله أيضا سنة ١١٩هـ وصلبه بواسط .

٥٢/٩ : المنصورية : نسبة الى ابي منصور العِجْلي من بني عبد القيس . وقد ادعى انه من اتباع « محمد الباقر » لكن « الباقر » بعد ان تحقق من سوء افعاله تنصل منه وطرده. فزعم انه هو الامام . ودعا الناس الى نفسه بعد موت «الباقر» وقتَل المغيرة بن سعيد العِجْلي. واطلق على نفسه

«الكِسْف» وادعى ان القرآن عناه بقوله : « وانْ يَرَوا كِسْفاً من السماء ساقطا يقولوا سحاب مركوم » وقد اباح كل المحرمات في سبيل اخضاع المجتمع الى نفوذه • لكن يوسف بن عمر والي العراق تمكن من قتله وصلبه •

٩/٥٢ : الخطابية : نسبة الى أبي الخطاب الاسدي بالولاء • ويذكر المقريزي خمسين فرقة سرية كانت تنتسب كلها الى الخطابية• وكانوا يتدينون بشهادة الزور لموافقيهم على خصومهم ، وكانوا يرون خنق مخالفيهم ويحللون الزنا ويبيحون المحرمات• ويجمعون على ان الامام «جعفر الصادق» هو إله وان أبا الخطاب نبيه وقد استحل المحارم ورخّص فيها وترك جميع الفرائض • وقال : من عرف الامام فقد حل له كل شيء كان حرّم عليه ولذلك تبرأ منه الامام «جعفر الصادق» ولعنه وكتب الى البلدان بالبراءة منه واللعنة عليه • وقد تمكن عيسى بن موسى العباسي من قتله وصلبه بالكوفة سنة ١٣٨ هـ •

١١/٥٣ : التطفيف : هو الاخذ برجحان والاعطاء بنقصان •

٩/٤٠ : الصياصي والآطام : لصياصي مفردها صيصة، وهي الحصن وكل شيء أُمْتُنِعَ به وتُحصِنَ به • والآطام : مفردها أُطُمْ وهو حصن مبني بحجارة • وقيل هو كل بيت مربع مسطح • وفي حديث بلال انه كان يؤذن على أُطُم وهو بناء مرتفع • وفي الحديث : حتى توارت بآطام المدينة يعني بأبنيتها المرتفعة كالحصون •

١٤/٥٨ الرُقُم الطينية : الالواح الطينية التي كانت تستعمل للكتابة في العراق في العصور القديمة مكان الورق • وقد تفخر بالنار أي تشوى بها بعد الفراغ من الكتابة عليها •

١٤/٦٠ السكك : مفردها السكة وهي الحديدة يطبع عليها الدينار أو الدرهم فسميت بها سكة الدنانير والدراهم • ويقول ابن

خلدون انها كانت « اسماً للطابع أي الحديدة الخاصة ثم نقل الى اثرها وهي النقوش التي على الدنانير والدراهم ، ثم نقل الى القيام على ذلك والنظر في استيفاء حاجاته وشروطه وهي الوظيفة فصار علماً عليها » •

٢/٦١ : النار الاسلامية : مركبات كيماوية قابلة للاشتعال تشبه النار الاغريقية لكنها اشد فتكاً منها يزيدها الماء اشتعالاً استعملها المسلمون في الحروب الصليبية مع الجيوش الاوربية وانتصروا عليهم بواسطتها لشدة فتكها بهم •

١٢/٦١ : الترقيد : تنويم اغصان الشجر ودفنها في الارض للتكاثر •

١٠/٦٢ : المِزْوَلَة : نوع من الساعات الشمسية التي يستعمل فيها الظل لمعرفة الاوقات الزمانية ، ومواقيت الصلاة • وقد عرفها البابليون والمصريون واستعملها العرب كثيراً لمهارتهم في الرياضيات وعلم الميكانيك والفلك •

١/٧٢ : الحِرار واللابات : الحَرّة : أرض ذات حجارة سُودٍ ، نَخِرَة كأنما أُحرقت بالنار وتكون مستديرة ، وللعرب في جزيرتهم حِرارٌ معروفة • ومثلها اللابات •

١٠/١٠٥: الارباع: الرَّبْعُ : المنزل والدار بعينها،والوطن متى كان وبأي مكان كان • وجمعه اربعْ ورباع وربوع وأرباع •

١٦/١١٥ : الفصْدُ : شقُّ العِرقِ أو قطعه ليستخرج دمه • ويقال فَصَدَ وافتصد • وقد عالج العرب به ضغط الدم •

٣/١١٨ : بكيّ اللسان : قليل الكلام • يقال للعيي في الكلام •

١١/١١٨ : المعاناة والمكابدة : المعاناة : بمعنى التجَشُّم والتعب والمكابدة : المشقة والشدة ومثلها الكَبَد • ويكابد أي يعالج أمر الدنيا والآخرة • ومكابدة الأمر : معاناة مشقته ، ومقاساة شدته ، وركوب أهواله •

١٢/١١٨ : الوَهْم : خطرات القلب •

١١٨/١٣ : المَتْحُ : لمَتْح : اخراج الماء من البئر • والماتح : المستقي في أعلى البئر • ومتح الدلو يمتحها متحاً : إذا جذبها مستقياً بها • وبئر مَتُوح : يُمْتح منها على البَكرة •

١١٨/١٣ : المقارعة : المضاربة بالسيوف ، أو مضاربة القوم في الحرب • والمناقلة : المحادثة والمجادلة من ناقلتَ فلاناً الحديث إذا حدثته وحدثك • وتناقل القومُ الكلام بينهم تنازعوه •

١٢١/٧ : قد زُبِر عليه حُلَّتان : أي نُقِش •

١٢٢/٨ : النِّدُّ : المِثْل والشبيه وهو ما كان المشركون يعبدونه من دون الله • وقد شبهوها بالله في استحقاق العبادة •

١٣٩/٩ : الحجارة المهندمة : الحجارة المنحوتة المقصوصة على مقدار معين وهي كالآجر المنجور عندنا •

١٩٣/١٩/٢٠ : السِّلم والسَّلم : معناهما الصلح والامان• والاسلام والسَّلْمُ معناهما الخلوص من الشوائب •

٢٠٧/١٧ : الاحتبَاء في المجلس : أي الاشتمال بالثوب أو الجمع بين الظهر والساقين بِعمامة ونحوها •

٢١٢/١٢ : ما بَلَّ بحرٌ صُوفةً : الصوفة مفردٌ،وجمعها : الصوف• وصوف البحر على شكل الصوف الحيواني • ومن الابديات قولهم : لا آتيك ما بلَّ بحرٌ صوفة او ما بلّ البحر صوفة •

٢١٢/١١ : أمر بالقَلْب فَعُوِرَتْ : أي طَلَبَ هَدْم الآبار •

٢١٦/١٣ : رأيت العرب قد رمتكم عن قوسٍ واحدة : كناية عن الوحدة واجتماع الكلمة •

٢٢٠/١٢ : احمى الحِمى : أي زاد في الحمى لأبل الصدقة عندما زادت• وقد حمى النبي (ص) نقيع الخضمات لخيل المسلمين • وحمى عمر نقيع الخضمات أيضاً لخيل المسلمين • كما حمى السَّرْف والرَّبْذَة • —

٢٢٠/١٤ : حَكَّمَ في دينَ اللهِ الرجال : يريد ان الامام علياً حَكّم في اثناء الخصومة بينه وبين معاوية رجالاً في أمر هو من الله تعالى وليس له ذلك لان التحكيم في رأي الخوارج يدل على انه شك وارتاب في حقه بالخلافة •

٢٢١/١٢ : التصريح والتوقيف : التصريح : التوضيح والتبيين الذي لا تشوبه شائبة والكلام بدون كناية وهو الذي تطمئن له القلوب • والتوقيف : التبيين أيضا •

٢٤٢ : بعد السطر الرابع: وعن لباقر قال: قال النبي (ص): لا تسبوا قريشاًولاتبغضوا العرب،ولاتذلوا الموالي،ولاتساكنوا الخوز، ولا تزوّجوا اليهم فان لهم عرقاً يدعوهم الى غير الوفاء » (سفينة البحار ج٢ ص ١٧٢) •

٢٥٢ : بعد السطر الرابع : عن جعفر الصادق ، عن ابيه ، قال في انه ما انزل الله كتابا ولا وحيا إلاّ بالعربية فكان يقع في مسامع الانبياء بألسنة قومهم وكان يقع في مسامع نبينا — ص — بالعربية فاذا كلم به قومه كلمهم بالعربية ، فيقع في سامعهم بلسانهم •

وكان احد لا يخاطب رسول الله (ص) باي لسان الاّ وقع في مسامعه بالعربية ، كل ذلك يترجم جبريل له وعنه تشريفا من الله عزّ وجل له • (سفينة البحار ج٢ ص ١٧٢) •

٣١٢/١٤ : « ••• وبَشّر المُخْبِتِين » : أي المطمئنين •

٣١٣/١٣ : « ولا يأْتَلِ اولو الفضل : » من ألَوْتُ أي قصَّرت • أو من الائتلاء وهو الحِلْف • والمراد بالآية : لا يقصّر في ايتاء اولي القربى ، أو لا يحلف •

٣٦٨/١٨ : لَبَّبَهُ بردائه : أخذ بمجامع ثيابه : من لَبَّبَ الرجل أي جعل ثيابه في عنقه وصدره في الخصومة ثم قبضه وجره واخذ بتلبيبه وتلابيبه • واللَبّة موضع الذبح •

٩/٣٧٦ : الجزية : الضريبة التي وضعت على رؤوس أهل الذمة •
أما الخراج فهو الضريبة التي وضعت على الارض التي فتحت عنوة • والجزية تسقط عمن اسلم ، أما الخراج فيبقى على الارض سواء كان أصحابها مسلمين أم غير مسلمين لانها ملك الدولة والخراج عليها بمثابة الايجار • وكان الخراج يقدر على وحدة المساحة ، وكانت يومئذ الجريب •

١/٣٨٣ : ونحن احراض : الاحراض : جمع حَرَض وهو الكالّ العيي، والمشرف على الهلاك • يريد أنهم غير قادرين على الحرب لكبر سنهم •

٢/٣٨٣ : لا نُقَلِّب مَخْصَرة بكف • المَخْصَرة : ما يتوكأ عليه من عصا ونحوها •

٢/٣٨٣ : ولا نرمي دُحْروجة بيد : الدحْروجة : ما يدحرجه الجُعَل من لبندق • واذا كانت الكلمة (حَدَجة) فجمعها : (الحَدَج) وهو الحنظل الصغير • يريد أنهم لا يستطيعون القتال لعجزهم وضعفهم وكبر سنهم •

١٧/٣٨٣ : انسجابتي لا تَبُلُّ على بُلالهم: البلال بكسر الباء وضمها الماء • يريد انه لا يتمكن من مجاراتهم •

١٣/٣٩٧ : بهائم هاملة : أي مهملة وهي التي لا قيمة لها •

١٨/٣٩٧ : ليس لها أول تَؤُمه : أي ليس لها مثال تحتذيه وتتوخاه وتقصده وتتبع ما يسنه لها •

٧/٣٩٨ : نحائز مؤدبة : طباع وسجايا حسنة ، مفردها نَحيزة •

١٢/٣٩٨ : الانواء : الامطار : مفردها : نَوْء وهي في الاصل مساقط الكواكب في المغرب أو المشرق •

١٣/٣٩٨ : الأقِط : طعام يتخذ من المخيض الغنمي أو من اللبن الحليب يطبخ ثم يترك حتى يَمْصُل •

١٥/٣٩٨ : صَدَق المصاب : المصاب: المكان الذي يقصدونه للانتجاع: يريد خصوبة الارض •

٣٩٨/١٦ : أرْفَغَ المنتجع : ارفغ له المعاش : وسعه : أي عاش في سعة ورفاهية .

٣٩٨/١٦ : تلاقوا على المحاضر : المحاضر : المناهل تحضرها القبائل وتجتمع عليها ، مفردها مَحْضَر : يريد اجتماعها على الآبار والعيون .

٣٩٨/١٩ : قاموا بالحَمالات : دفعوا الدّيات والغرامات ، يحملها قوم عن قوم . يريد انهم يتعاونون ويساعد بعضهم بعضاً .

٣٩٨/٢٠ : تداعَوا الجَفَلَى : دعا بعضهم بعضاً الى الطعام دعوة عامة .

٣٩٨/٢٠ : تعافَوا النَّقَرَى : كرهوا الدعوة الخاصة للطعام .

٣٩٩/٥ : سهواً رَهْواً : عفواً بلا مشقة .

٤٠٠/٦ : وهو في بتّ : أي مرتدياً بتّاً ، وهو كساء غليظ من صوف .

٤٠٠/٧ : يحتمل الكَلّ : يمون الضعفاء الذين لا يستطيعون الكسب .

٤٠٠/١٧ : سوق هَجَر : هجر : بلاد البحرين .

٤٠٠/١٧ : المُشَقَّر : حِصْن بالبحرين كان لعبد القيس .

٤٠٠/١٨ : ديار دَبا : دَبا : سوق من اسواق العرب بعمان كانت قديماً قصبة عُمان . وتعرف اليوم بـ (دُبَيْ) .

٤٠٠/١٨ : صُحار : بلدة بعُمان تقع على البحر .

٤٠٠/٢١ : اللَّطائم : نوافج المسك : أي اوعيته او الابل التي تحمل المسك . الواحدة لَطيمة .

٤٠١/١ : مَعافِر : مِخلاف باليمن : تنسب اليه الثياب المعافِرية .

٤٤٠/٢٠ : الزّيج والازياج : مجموعة الارصاد الفلكية التي كان يقوم بها الفلكيون العرب ، والجداول الرياضية التي كانوا يرتبونها لحركات الشمس والقمر والكواكب السيارة في الفضاء الخارجي لمعرفة مواقع النجوم والاستفادة منها في علم الهيأة والاسفار البحرية . ومن اشهر الازياج العربية : زيج ابراهيم الفَزاري ، والزيج المأموني ، وزيج ابن حماد الاندلسي ،

وزيج السمح الغرناطي ، وزيج ابن الشاطر ، وزيج ابن يونس وزيج ابي حنيفة الدِّينَوَري ، وزيج ابي مَعْشَر المنجم ، وزيج البَتّاني ، والزيج الشامل لابي الوفاء البوزجاني ..

٤٥٣/٣٢: الوَرَق والوَرِق: الوَرَق الكاغد: والوَرِق : النقود الفضة

تصويب الاخطاء المطبعية

ص س

٢٧ : ١٥ ـ احذف (وهو)
٤٨ و ٤٩ ـ ضع في الهامش : (٢) و (٣) : الرسالة ص ٣٤٧
٥٢ : ٩ ـ ضع « المنصورية » بعد كلمة « المغيرية »
٨٤ (١) من الهامش : ظفار
٩٠ : ١٩ ـ ومنهم من يقول . والسطر (٢٢) : ويرى آخرون
٩١ : ١٢و١٤ ـ الانبراطور و الانبراطورية
٩٢ : ٣ ـ قد بنيت بالصّفاح
٩٣ : (١) من الهامش ـ راشيه
١٠٠ : (١) من الهامش ـ ساباط
١٠٩ : ٨ ـ وليس
١١٤ : ١٦ ـ وعرفوا
١١٩ : (١) من الهامش ـ المدنية والاسلام
١٢٩ : ٨ ـ احذف : والمجوسية
١٢٩ : ٢١ ـ معاصرا لامرىء القيس
١٤٧ : ١١ ـ والسطر ٧ ص ١٤٩ ـ الجزيرة
١٦٠ : ٢٣ ـ دور العلم
١٦٣ : ١٨ ـ زينة لها لنبلوهم ...
١٦٨ : ٢١ ـ تحث الناس
١٦٩ : ١٠ ـ وإن يستغيثوا . والسطر ١٩ ـ لِمَ تؤذونني
١٦٩ : ١٨ ـ ... ومالهم من دون الله من وال ..
١٧٠ : ٤ ـ يثبت الله الذين آمنوا
١٧٩ : ٩ ـ احذف : والانس في ١٨ آية .

المصـــادر

أولاء – المصادر العربية المطبوعة :

١ ــ القرآن الكريم .
٢ ــ كتب الصحاح وكتب السنن .
٣ ــ مؤلفاتي المختلفة : تاريخ علمـاء المستنصرية ، المدارس الشرابيـة . المراصد الفلكية ببغداد ، عروبة المدن الاسلامية ، عالمات بغداديات، التوقيعات التدريسية ، علماء ينسبون الى مدن اعجمية وهم من أرومة عربية ، نشأة المدارس المستقلة في الاسلام ... الخ .
٤ ــ بحوثي المنشورة في المجلات المختلفة . وقد إشـــير الى بعضها في هوامش الكتاب .
٥ ــ مؤلفات الاستاذ احمد امين .
٦ ــ مؤلفات الاستاذ ابي زهرة .
٧ ــ المؤلفات المذكورة في الحواشي والتي لم نشر اليها في هذا الثبت .

وإليك المصادر الرئيسة والثانوية المطبوعة من الكتب القديمة والحديثة مرتبة بحسب الحروف الهجائية :

٨ ــ الآثار الباقية عن القرون الخالية : ابو الريحان البـيروني . مكتبـة المثنى . عن طبعة لايبزك سنة ١٩٢٣م .
٩ ــ الاحكام السلطانية والولايات الدينية : أبو الحسن الماوردي الشافعي المتوفى سنة ٥٤٠ هـ . مصر ١٩٠٩م .
١٠ ــ أحكام السوق : مجلة المعهد المصري للدراسات الاسلامية في مدريد ١٣٧٥ هـ ــ ١٩٥٦ م .
١١ ــ احياء علوم الدين : أبو حامد الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥هـ . مطبعة مصطفى البابي الحلبي . القاهرة : ١٣٥٨ هـ ــ ١٩٣٤ م .
١٢ ــ آراء واحاديث في القومية العربية : الاستاذ ساطع الحصري . دار العلم للملايين . بيروت : ١٩٥١م .
١٣ ــ الاستعمار والمذاهب الاستعمارية : الدكتور محمد عوض محمد . دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٧م .
١٤ ــ أسد الغابة في معـرفة الصـحابة : عزالدين ابن الاثـير . المطبعة الوهبية سنة ١٢٨٠ هـ .
١٥ ــ الاسلام والحضارة العربية : محمد كرد علي . دار الكتب المصرية. القاهرة : ١٩٣٤ ــ ١٩٣٦ .

١٦ ـ الاصنام : هشام بن محمد بن السائب الكلبي المتوفى سنة ٢٠٤هـ
تحقيق احمد زكي باشا . القاهرة ١٩١٤ .
١٧ ـ أصول النظام الاجتماعي في الاسلام : محمد الطاهر بن عاشور .
المطبعة الرسمية . تونس ١٩٦٤ .
١٨ ـ اعجاز القرآن : مصطفى صادق الرافعي . الطبعة السادسة .
مطبعة الاستقامة بالقاهرة سنة ١٩٥٦ .
١٩ ـ الاعلاق النفيسة : احمد بن عمر بن رسته . ليدن ١٨٩١م .
٢٠ ـ الاعلام بأعلام بيت الله الحرام : قطب الدين الحنفي النهروالي
المتوفى سنة ٩٩٠هـ . المطبعة العثمانية ١٣٠٣هـ والطبعة الاوربية
٢١ ـ الافادة والاعتبار في الأمور المشاهدة، والحوادث المعاينة بأرض مصر:
عبداللطيف البغدادي المتوفى سنة ٦٢٩هـ . المطبوع سنة ١٩٦٥
مع الترجمة الانكليزية .
٢٢ ـ الالفاظ الفارسية المعرّبة : أدّي شير . بيروت ١٩٠٨ م .
٢٣ ـ الامتاع والمؤانسة : أبو حيّان التوحيدي المتوفى سنة ٣٧٦ هـ .
تحقيق احمد امين واحمد الزين . مكتبة الحياة بيروت .
٢٤ ـ الاموال : ابو عبيد بن سلاّم المتوفى سنة ٢٢٤هـ . تحقيق محمد
حامد الفقي . القاهرة ١٣٥٣هـ .
٢٥ ـ الامومة عند العرب : ويلكن Wilken ترجمة بندلي صليبا
الجوزي . طبعة قازان ١٩٠٢ م .
٢٦ ـ انساب الاشراف : احمد بن يحيى بن جابر البلاذري المتوفى سنة
٢٧٩هـ . تحقيق الدكتور محمد حميد الله . دار المعارف بمصر
١٩٥٩ م .
٢٧ ـ البدء والتاريخ : مطهر بن طاهر المقدسي . بعناية كليمان هوار
باريس سنة ١٩١٦ م
٢٨ ـ البداية والنهاية في التاريخ : ابن كثير وهو أبو الفداء اسماعيل بن
عمر بن كثير القرشي المتوفى سنة ٧٧٤ هـ . القاهرة . مطبعة
السعادة ١٩٣٢ .
٢٩ ـ بغداد مدينة السلام : ابو بكر الخطيب البغدادي . بغداد ١٩٣١م .
٣٠ ـ بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب : محمود شكري الالوسي .
تحقيق محمد بهجة الاثري . المطبعة الرحمانية بمصر ١٩٢٥م .
٣١ ـ البيان والتبيين : عمرو بن بحر الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ .
تحقيق عبدالسلام محمد هارون . القاهرة ١٩٦٠ .

٣٢ ـ تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي . اربعة اجزاء : الدكتور حسن ابراهيم حسن . القاهرة ١٩٦٤ ـ ١٩٦٨ .
٣٣ ـ تاريخ التمدن الاسلامي : جرجي زيدان . القاهرة . دار الهلال ١٩٥٨ م .
٣٤ ـ تاريخ الحضارة الاسلامية : بارتولد ، ترجمه من التركية حمزة طاهر . مطبعة دار المعارف بمصر ١٩٤٢ م .
٣٥ ـ تاريخ الخلفاء امراء المؤمنين : جلال الدين السيوطي . مصر . الطباعة المنيرة سنة ١٣٥١ هـ .
٣٦ ـ تاريخ الرسل والملوك : محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠هـ . المطبعة الحسينية بالقاهرة .
٣٧ ـ تاريخ الشعر العربي : نجيب محمد البهبيتي . دار الكتب المصرية. القاهرة ١٩٥٠ م .
٣٨ ـ تاريخ العرب قبل الاسلام : جرجي زيدان . القاهرة سنة ١٩٠٨م
٣٩ ـ تاريخ العرب قبل الاسلام : الدكتور جواد علي . طبعة المجمع العلمي العراقي . بغداد .
٤٠ ـ التاريخ العربي القديم : ديتلف نيلسون . ترجمة الدكتور فؤاد حسنين علي . القاهرة ١٩٥٨ م .
٤١ ـ تاريخ علم الفلك في العراق : عباس العزاوي ط . المجمع العلمي العراقي . بغداد سنة ١٩٥٨ م .
٤٢ ـ تاريخ اليعقوبي : ابن واضح الاخباري : طبعة النجف سنة ١٣٥٨هـ
٤٣ ـ تجارب الأمم : مسكويه المتوفى سنة ٤١٢ هـ . طبعة امدروز . مطبعة شركة التمدن الصناعية . القاهرة ١٣٣٤هـ ـ ١٩١٦م .
٤٤ ـ تحفة الامراء في تاريخ الوزراء : أبو الحسن هلال الصابىء المتوفى سنة ٤٤٨هـ . دار احياء الكتب العربية . القاهرة سنة ١٩٥٨م. تحقيق عبدالستار احمد فراج .
٤٥ ـ تذكرة الحفاظ : شمس الدين الذهبي المتوفى سنة ٧٢٨هـ . حيدر آباد ١٣٣٣ هـ .
٤٦ ـ تراث الاسلام : آرنولد . لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر سنة ١٩٣٦ م
٤٧ ـ تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك : قدري حافظ طوقان. دار القلم بالقاهرة ١٣٨٢هـ ـ ١٩٦٣م .

٤٨ ــ تفسير الطبري وهو « جامع البيان عن تأويل القرآن » : محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠هـ . دار المعارف بمصر . تحقيق محمود محمد شاكر . دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٨ .
٤٩ ــ تفسير ابي الفداء اسماعيل بن كثير القرشي المتوفى سنة ٧٧٤هـ . دار احياء الكتب العربية بالقاهرة .
٥٠ ــ تلخيص مجمع الآداب : ابن الفوطي الشيباني المتوفى سنة ٧٢٣هـ الجزء الرابع . تحقيق الدكتور مصطفى جواد . المطبعة الهاشمية بدمشق سنة ١٩٦٢م .
٥١ ــ التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان : محمد بن يحيى بن أبي بكر المتوفى سنة ٧٤١هـ . دار الثقافة ببيروت سنة ١٩٦٤م .
٥٢ ــ التنبيه والاشراف : المسعودي . دار الصاوي . مصر سنة ١٩٣٨م
٥٣ ــ تهذيب اللغة : أبو منصور محمد بن احمد الازهري المتوفى سنة ٣٧٠هـ . تحقيق عدد من الادباء .
٥٤ ــ الثقافة الاسلامية والحياة المعاصرة : محمد خلف الله . مكتبة النهضة المصرية .
٥٥ ــ ثمار القلوب في المضاف والمنسوب : الثعالبي : أبو منصور عبدالملك ابن محمد المتوفى سنة ٤٢٩هـ . القاهرة ١٣٨٤هـ ــ ١٩٦٥م .
٥٦ ــ الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير : ابن الساعي المتوفى سنة ٦٧٤هـ . ط . بغداد سنة ١٩٣٤ . تحقيق الدكتور مصطفى جواد .
٥٧ ــ جهود المسلمين في الجغرافية : نفيس احمد . ترجمة فتحي عثمان دار العلم بالقاهرة .
٥٨ ــ حاضر العالم الإسلامي: لوثروپ ستودارد . ترجمة عجاج نويهض . وتعليقات الامير شكيب ارسلان . القاهرة ١٣٥٢ هـ .
٥٩ ــ الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري : ترجمة محمد عبدالهادي ابي ريدة . القاهرة ١٩٤٠م .
٦٠ ــ حضارة العرب : گوستاف لوبون الفرنسي . ترجمة عادل زعيتر . القاهرة سنة ١٩٥٦م .
٦١ ــ الحوادث الجامعة : المنسوب لابن الفوطي . بغداد سنة ١٣٥١ تحقيق الدكتور مصطفى جواد .
٦٢ ــ الحيوان : الجاحظ . تحقيق عبدالسلام هارون . طبعة مصطفى البابي الحلبي . القاهرة ١٩٣٨م ــ ١٩٤٥م .

٦٣ ـ الخراج : الامام ابو يوسف الانصاري المتوفى سنة ١٨٢ هـ .
المطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٥٢ هـ .
٦٤ ـ الخراج : يحيى بن آدم القرشي المتوفى سنة ٢٣٠هـ . المطبعة السلفية ١٣٤٧ هـ .
٦٥ ـ الخراج وصنعة الكتابة : أبو الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي المتوفى سنة ٣٢٠هـ . طبعة ليدن ١٨٨٩ هـ مع كتاب المسالك والممالك .
٦٦ ـ خزائن الكتب القديمة في العرق : كوركيس عواد . مطبعة المعارف بغداد سنة ١٩٤٨ .
٦٧ ـ خلاصة تاريخ العرب العام : سيديو Sèdillot . مطبعة محمد افندي مصطفى بمصر سنة ١٣٠٩ هـ .
٦٨ ـ المدارس في تاريخ المدارس : عبدالقادر النعيمي الدمشقي المتوفى سنة ٩٢٧هـ . تحقيق جعفر الحسني . مطبعة الترقي بدمشق سنة ١٣٦٧هـ ـ ١٩٤٨م .
٦٩ ـ دراسة جديدة عن الرق في التاريخ وفي الاسلام:مصطفى الجداوي. الاسكندرية ١٩٦٣م .
٧٠ ـ دراسات في حضارة الاسلام . هاملتون جب . ترجمة الدكاترة : احسان عباس ، محمد نجم ، محمود زايد . بيروت سنة ١٩٦٤م.
٧١ ـ الدعوة الى الإسلام : آرنولد . ترجمة الدكتور حسن ابراهيم حسن . القاهرة ١٩٤٧م .
٧٢ ـ دور القرآن في دمشق : عبدالقادر النعيمي المتوفى سنة ٩٢٧ هـ.
٧٣ ـ رسائل الجاحظ : تحقيق حسن السندوبي . المطبعة الرحمانية بمصر سنة ١٣٥٢هـ ـ ١٩٣٣ .
٧٤ ـ رسائل الجاحظ : عمرو بن بحر الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ . تحقيق عبدالسلام هارون ـ ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م ـ ١٩٦٥ .
٧٥ ـ رسائل الصابيء : أبو اسحق ابراهيم بن هلال الصابيء المتوفى سنة ٣٨٤هـ . الكويت ١٩٦١ م .
٧٦ ـ الرسالة : الامام الشافعي . تحقيق احمد محمد شاكر . القاهرة ١٣٠٩ هـ .
٧٧ ـ رسوم دار الخلافة : أبو الحسين هلال بن المحسن الصابيء المتوفى سنة ٤٤٨هـ . تحقيق ميخائيل عواد. مطبعة العاني . بغداد سنة ١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٤م .

٧٨ ـ الرعاية لحقوق الله : أبو عبدالله الحارث بن أسد المحاسبي . دار الكتاب العربي بالقاهرة .
٧٩ ـ روح الدين الاسلامي : عفيف عبدالفتاح طبارة . لطبعة الثالثة سنة ١٩٥٩ م.
٨٠ ـ سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون : ابن نباته . طبعة بولاق القاهرة ١٢٧٨ هـ .
٨١ ـ السلوك في معرفة دول الملوك : تقي الدين المقريزي المتوفى سنة ٨٤٥هـ . القاهرة سنة ١٩٣٩ م .
٨٢ ـ سيرة النبي : أبو محمد عبدالملك بن هشام . مطبعة حجازي بالقاهرة . تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد .
٨٣ ـ سيرة عمر بن الخطاب : عبدالرحمن بن الجوزي التيمي البكري البغدادي المتوفى سنة ٥٩٧هـ . مطبعة السعادة . القاهرة ١٣٤٢هـ ـ ١٩٢٤م .
٨٤ ـ سيرة عمر بن عبدالعزيز : عبدالرحمن بن الجوزي التيمي البكري البغدادي المتوفى سنة ٥٩٧هـ . مطبعة المؤيد . القاهرة ١٣٣١هـ تحقيق محب الدين الخطيب .
٨٥ ـ شذرات الذهب في اخبار مَنْ ذهب : ابن العماد الحنبلي المتوفى سنة ١٠٨٩ هـ .
٨٦ ـ شرح المنار وحواشيه في علم الاصول : ابن عبدالملك عبداللطيف بن عبدالعزيز . المطبعة العثمانية سنة ١٢١٥ هـ .
٨٧ ـ شرح نهج البلاغة : عزالدين بن ابي الحديد الشافعي . بيروت .
٨٨ ـ شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام : تقي الدين الفاسي المكي . دار احياء الكتب العربية ١٩٥٦م .
٨٩ ـ شمس العرب تسطع على الغرب : زيكريد هونكه . ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي . بيروت ١٩٦٤ م .
٩٠ ـ صبح الاعشى في صناعة الانشاء : ابو العباس احمد القلقشندي المتوفى سنة ٨١١هـ . المطبعة الاميرية بالقاهرة سنة ١٣٣٣ هـ ـ ١٩١٥ م.
٩١ ـ طبقات الاطباء والحكماء : ابن جلجل ابو داود بن حسان الاندلسي . القاهرة ١٩٥٥ م .
٩٢ ـ طبقات الأمم : القاضي صاعد بن احمد الاندلسي التغلبي . المطبعة الكاثوليكية . بيروت سنة ١٩١٢ م .

٩٣ ـ طبقات الشافعية الكبرى : تاج الدين السبكي المتوفى سنة ٧٧١هـ القاهرة . المطبعة الحسينية ١٣٢٤ هـ .
٩٤ ـ الطبقات الكبرى : ابن سعد ، محمد بن منيع الزهري . دار صادر بيروت ١٣٧٦ هـ ـ ١٣٧٧ هـ .
٩٥ ـ الطرق الحكمية في السياسة الشرعية : ابن قيم الجوزية . القاهرة ١٣١٧ هـ .
٩٦ ـ الظرف والظرفاء : أبو الطيب محمد بن اسحق بن يحيى الوشاء المتوفي سنة ٣٢٥هـ . مطبعة التقدم بمصر سنة ١٣٢٤ هـ .
٩٧ ـ عجائب المقدور في أخبار تيمور : ابن عربشاه . القاهرة سنة ١٣٠٥ هـ .
٩٨ ـ العقد الفريد : ابن عبد ربه الاندلسي . مطبعة مصطفى محمد سنة ١٣٥٣ هـ ـ ١٩٣٥م .
٩٩ ـ عصر النبي وبيئته قبل البعثة : محمد عزة دروزة . دار اليقظة العربية . بيروت ١٣٤٨ هـ ـ ١٩٦٤م .
١٠٠ ـ العلم والديمقراطية والاسلام : همايون الكبير . القاهرة . دار الهلال .
١٠١ ـ علم الفلك : نللينو : مكتبة المثنى عن طبعة روما ١٩١١م .
١٠٢ ـ عمدة الطالب في انساب آل أبي طالب : ابن عِنَبَة . بمبي سنة ١٣١٨ هـ .
١٠٣ ـ العواصم من القواصم : أبو بكر بن عربي . القاهرة ١٣٧١ هـ .
١٠٤ ـ عيون الانباء في طبقات الاطباء : ابن ابي اصيبعة . موفق الدين احمد بن القاسم السعدي الخزرجي . تحقيق امرىء القيس بن الطحان . المطبعة الوهبية سنة ١٢٩٩هـ ـ ١٨٨٢م .
١٠٥ ـ فتوح البلدان : البلاذري احمد بن يحيى بن جابر المتوفى سنة ٢٧٩هـ . القاهرة . المطبعة المصرية بالازهر سنة ١٣٥٠هـ ـ ١٩٣٢ م .
١٠٦ ـ الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية : ابن الطقطقى محمد بن علي بن طباطبا المتوفى سنة ٧٠٩هـ . مصر سنة ١٩٢٣ .
١٠٧ ـ الفرج بعد الشدة : التنوخي . القاهرة . المطبعة المحمدية ١٩٥٥م .
١٠٨ ـ الفرقان : ابن الخطيب . دار الكتب بالقاهرة ١٣٦٧هـ ـ ١٩٤٨م .
١٠٩ ـ الفكر العربي ومكانته في التاريخ : اوليري . ترجمة الدكتور تمام حسان . القاهرة ١٩٦١م .

١١٠ ــ الفهرست : ابن النديم . طبعة فلوگل . لايبزك سنة ١٨٧١م .
١١١ ــ الكامل في التاريخ : ابن الاثير الجزري الشيباني المتوفى سنة ٦٣٠ هـ . بيروت صادر سنة ١٣٨٥هـ ــ ١٩٦٥م .
١١٢ ــ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الاقاويل في وجود لتأويل : جارالله الزمخشري . مطبعة البابي ــ ١٩٤٨ م .
١١٣ ــ كشف الاسرار : عبدالعزيز البخاري على أصول فخر الاسلام ابي الحسن علي بن محمد بن حسين البَزْدَوِي . مكتب الصنايع ١٣٠٧ هـ .
١١٤ ــ كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون : حاجي خليفة . إستنبول ١٩٤١ م .
١١٥ ــ لارق في الاسلام : ابراهيم هاشم الفلالي . دار القلم بالقاهرة .
١١٦ ــ لسان العرب : ابن موظور جمال‌الدين محمد بن مُكرّم الانصاري المتوفى سنة ٧١١هـ . طبعة بولاق .
١١٧ ــ ماهي القومية : الاستاذ ساطع الحصري . دار العلم للملايين . بيروت ١٩٥٩ م .
١١٨ ــ مجموعة الرسائل الكبرى : احمد بن عبدالحليم بن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨هـ ط . مصر ١٣٢٣هـ .
١١٩ ــ المحاسن والمساوىء : ابراهيم بن محمد البيهقي . دار صادر . بيروت ١٩٦٠ م .
١٢٠ ــ المُحَبَّر : محمد بن حبيب بن أمية بن عمر الهاشمي البغدادى المتوفى سنة ٢٤٥هـ رواية السكري عنه . حيدر آباد الدكن . سنة ١٣٦١هـ ــ ١٩٤٢م .
١٢١ ــ المُحلّى : ابن حزم الاندلسي المتوفى سنة ٤٥٦هـ . الطباعة المنيرية بالقاهرة سنة ١٣٤٩ .
١٢٢ ــ مختصر تاريخ الدول : ابن العبري ابو الفرج بن غريغوريوس بن هارون المتوفى سنة ٦٨٥هـ . بيروت ١٨٩٠م .
١٢٣ ــ مدارس دمشق وربطها وجوامعها وحماماتها : ابن زُفَر بدرالدين الاربلي المتوفى سنة ٧٢٦هـ تحقيق محمد احمد دهمان . دمشق ١٣٦٦هـ ــ ١٩٤٧م .
١٢٤ ــ مذهب السلف القويم في تحقيق مسألة كلام الله الكريم : ابن تيمية . المنار بمصر سنة ١٩٤٩ م .
١٢٥ ــ مراصد الاطلاع في معرفة لامكنة والبقاع : صفي‌الدين بن عبد

المؤمن بن عبدالحق الحنبلي البغدادي المتوفى سنة ٧٢٩هـ . دار احياء الكتب العربية بالقاهرة ١٩٥٤ .
١٢٦ ـ مروج الذهب : المسعودي . باريس ١٨٧٤م .
١٢٧ ـ المُزْهِر في علوم اللغة : جلال الدين السيوطي . القاهرة . الطبعة الرابعة سنة ١٩٥٨ م .
١٢٨ ـ مسالك الثقافة الاغريقية الى العرب : الدكتور اوليري . ترجمة الدكتور تمام حسان . طبعة القاهرة سنة ١٩٥٧م . وترجمة متي بيثون ويحيى الثعالبي . طبعة بغداد سنة ١٩٥٨م .
١٢٩ ـ المسْتَصْفَى من علوم الاصول : ابو حامد الغزالي . القاهرة . الطبعة الاولى ١٣٥٦هـ ـ ١٩٣٧م .
١٣٠ ـ المشتبِه في الرجال : اسمائهم وانسابهم : شمس الدين الذهبي المتوفى سنة ٧٢٨هـ . دار احياء الكتب العربية سنة ١٩٦٢م .
١٣١ ـ المعارف : ابن قتيبة . تحقيق ثروة عكاشة . دار الكتب العربية سنة ١٩٦٠م .
١٣٢ ـ معالم القربة في أحكام الحسبة : ابن الاخوة محمد بن محمد القرشي المتوفى سنة ٧٢٩هـ . طبعة كمبرج ١٩٣٧م .
١٣٣ ـ معجم الادباء أو طبقات الادباء ، وهو ارشاد الاريب الى معرفة الاديب : ياقوت الحموي المتوفى سنة ٦٢٦هـ . طبعة مركليوث .
١٣٤ ـ معجم البلدان : ياقوت الحموي المتوفى سنة ٦٢٦هـ بيروت سنة ١٩٥٥ ـ ١٩٥٧ م .
١٣٥ ـ المعَرَّب من الكلام الاعجمي على حروف المعجم : ابو منصور الجواليقي المتوفى سنة ٥٤٠هـ . القاهرة . دار الكتب المصرية سنة ١٩٦١ م .
١٣٦ ـ المقدمة : ابن خلدون : مطبعة مصطفى محمد بالقاهرة .
١٣٧ ـ مفاتيح العلوم : ابو عبدالله محمد بن يوسف الخوارزمي . القاهرة سنة ١٣٤٢ هـ .
١٣٨ ـ مفتاح كنوز السنة : الدكتور فنسنك . ترجمة محمد فؤاد عبدالباقي . الطبعة الاولى سنة ١٣٥٣هـ ـ ١٩٣٤م .
١٣٩ ـ مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين : ابو الحسن الاشعري المتوفى سنة ٣٢٤هـ . طبعة ريتر ١٣٨٢ هـ ـ ١٩٦٣ م .
١٤٠ ـ الملل والنحل : محمد الشهرستاني . لايبزك سنة ١٩٢٣ .

١٤١ ـ المنتظم في تاريخ الملوك والامم : عبدالرحمن بن الجوزي التيمي البكري المتوفى سنة ٥٩٧ هـ حيدر آباد سنة ١٣٥٧ هـ .
١٤٢ ـ مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي : روزنتال . بيروت ١٩٦١
١٤٣ ـ من روائع حضارتنا : مصطفى السباعي . دمشق سنة ١٩٥٩م .
١٤٤ ـ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار : تقي الدين المقريزي المتوفى سنة ٨٤٥ هـ القاهرة ١٣٢٦ هـ .
١٤٥ ـ الموجز في تاريخ الحضارة العربية : ناجي معروف والدكتور عبدالعزيز الدوري . بغداد . مطبعة النجاح . سنة ١٩٤٩م .
١٤٦ ـ نشوار المحاضرة واخبار المذاكرة : ابو علي المحسّن التنوخي المتوفى سنة ٣٨٤هـ . دمشق سنة ١٩٣٠م .
١٤٧ ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة : جمال الدين يوسف بن تَغْري بَرْدي المتوفى سنة ٨٧٤هـ . طبعة دار الكتب بالقاهرة .
١٤٨ ـ الهفوات النادرة : غرس النعمة ابو الحسن محمد بن هلال الصابىء المتوفى سنة ٤٨٠هـ . تحقيق الدكتور صالح الاشتر . من مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م.
١٤٩ ـ الوافي بالوفيات : خليل الصفدي . استنبول . مطبعة وزارة المعارف ١٩٤٩ . باعتناء ديدرينغ .
١٥٠ ـ الوحدة والتنوع في الحضارة الاسلامية : گرنباوم . ترجمة الدكتور صدقي حمدي . مطبعة اسعد ببغداد سنة ١٩٦٦ .
١٥١ ـ الوراقة والوراقون في الاسلام : حبيب زيات في مجلة المشرق بيروت ١٩٤٧م .
١٥٢ ـ ورقات عن الحضارة العربية بافريقية التونسية : حسن حسني عبدالوهاب . مكتبة المنار . تونس ١٩٦٥ .
١٥٣ ـ الوزراء والكتاب : ابو عبدالله محمد بن عبدوس الجهشياري المتوفى سنة ٣٣١هـ . مطبعة البابي الحلبي بمصر سنة ١٩٣٨م.
١٥٤ ـ وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان : شمس الدين بن خلكان المتوفى سنة ٦٨١هـ . القاهرة ١٩٤٨م .

ثانياً : المصادر العربية المخطوطة

١ ـ أسماء الاعيان من تاريخ الذهبي : ابن قاضي شهبة . مخطوطة باريس .
٢ ـ الاعلام بتاريخ الاسلام : ابن قاضي شهبة . مخطوطة لندن .
٣ ـ التاريخ الغياثي : مخطوطة الأب انستاس الكرملي بمكتبة المتحف العراقي .

٤ ــ التاريخ المجدد لمدينة السلام : ابن النجار . مخطوطة باريس والمكتبة الظاهرية بدمشق .
٥ ــ لخراج وصنعة الكتابة : ابو الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي المتوفى سنة ٣٢٠ هـ . مخطوطه جامعة بغداد ــ المكتبة المركزية . رقم م خ ١٣ .
٦ ــ طبقات الحنفية : طاش كبري زاده المتوفى سنة ٩٦٢ . مخطوطة لندن .
٧ ــ طبقات الشافعية : الاسنوي . مخطوطة مكتبة الاوقاف .
٨ ــ طبقات الشافعية : ابن قاضي شهبة . مخطوطة لندن .
٩ ــ العسجد المسبوك في تاريخ دولة الاسلام وطبقات الخلفاء والملوك . المنسوب لأبي الحسن علي بن الحسين الخزرجي المتوفى سنة ٨١٢هـ . النسخة المصورة بالمجمع العراقي .
١٠ ــ الوافي بالوفيات : النسخة المصورة بالمكتبة المركزية ــ جامعة بغداد.

ثالثاً : المصادر الاعجمية

1 - De Lacy O'leary . Arabia befor muhammad . London New York 1927.
2 - Hoefer : Chaldée, Assyrie, mèdie, mesopotamie etc Paris 1852.
3 - Encyclopedie de L. Islam. tome III : masjid.
4 - Didoros Siculus : Histoire Universelle de Didore de Secile . Paris .
والترجمة الانكليزية المطبوعة في لندن ونيويورك .
5 - The Legacy of Islam Edited By Arnold and Guillaume. Oxford 1931 .
6 - Gautier : moers et Coutumes des musulmans. Paris 1955
7 - Y . Moubarac : Opera minora de Louis massignon Tome I. دار المعارف بلبنان
8 - Aydin Sayili : The Observatory in Islam. Ankara 1960 .
9 - Palgrave : Voyage dans L'Arabie Centrale . Paris 1886 . والترجمة الانكلازية :
Central and Eastern Arabia .

فهرس الخرائط والصور

	الصفحة	
١	—	صورة الغلاف : رواق المدرسة الشرابية ببغداد بمقر نصاته الآجرية
٢	— ٧٢	الجزيرة العربية قبل الاسلام
٣	— ٨١	الدول العربية الجنوبية
٤	— ٨٩	الانباط والتدمريين والغساسنة
٥	— ٩٧	الدول العربية الشمالية
٦	— ١٠٣	القبائل العربية في الجزيرة العربية
٧	— ١٢٤	اديان الجزيرة العربية في العصور الجاهلية
٨	— ١٣٨	سور مأرب القديم
٩	— ١٤٣	حرم بلقيس
١٠	— ١٤٨	خريطة سد مأرب
١١	— ١٥٥	صورة اربعة آلهة تمثل رجلاً وثوراً واسداً ونسراً كانت في بيت امية بن ابي الصلت في الجاهلية .
١٢	— ٣٤٨	صيدلية ببغداد سنة ٦٢١هـ (١٢٢٤م)

فهرس الموضوعات

الصفحة　　　　　المــــادة

٣　　الاهـــداء

٤ ــ المقـدمة　　روح الحضارة العربية

الباب الأول

١٥ ــ ٦٦　　: الحضارة العربية في الجاهلية والاسلام

١٧ ــ الفصل الاول : الادوار والمراحل التي مرت بها الحضارة العربية

٢٣ ــ الفصل الثاني : شخصية الحضارة العربية

٤١ ــ الفصل الثالث : أهمية العصر الجاهلي في دراســة الاســلام والحضارة العربية

٥٨ ــ الفصل الرابع : مقارنة بين الحضارة العربية والحضارات القديمة

٦٣ ــ الفصل الخامس : مقارنة بين الحضــارة العربيــة والحضــارات الحديثــة

الباب الثاني

٦٧ ــ ١٥٦　　: مدنية العرب في الجاهلية

٦٩ ــ الفصل الاول : نظرة في الجزيرة العربية

٧٣ ــ الفصل الثاني : نظرة في سكان الجزيرة العربية

٨٠ ــ الفصل الثالث : الدول العربية الجنوبية

٨٨ ــ الفصل الرابع : الدول العربية الشمالية

١٠٢ ــ الفصل الخامس : حكومة قريش

١٠٩ ــ الفصل السادس : نظرة في معنى الجاهلية

١١٣ ــ الفصل السابع : معارف العرب في الجاهلية

١١٩ ــ الفصل الثامن : اديان العرب في الجاهلية وآلهتهم في الجزيرة العربيــة

١٣٢ ــ الفصل التاسع : أهلية العرب للتمدن

١٣٦ ــ الفصل العاشر : ملامح المدنية العربية في العصر الجاهلي

الباب الثالث

١٥٧ ـ ٢٢٤ : مزايا الحضارة العربية وخصائصها
١٥٩ ـ الفصل الاول : مقومات الحضارة العربية وعناصرها
١٦٥ ـ الفصل الثاني : الحيوية في الحضارة العربية
١٧١ ـ الفصل الثالث : الشمول في الحضارة العربية
١٧٤ ـ الفصل الرابع : الولاء للاسلام في الحضارة العربية
١٧٨ ـ الفصل الخامس : النزعة الانسانية في الحضارة العربية
١٨٥ ـ الفصل السادس : عزة العرب بالاسلام
١٩٠ ـ الفصل السابع : النزعة السلمية في حضارة الاسلام
١٩٥ ـ الفصل الثامن : النزعة العلمية في الحضارة العربية
٢٠١ ـ الفصل التاسع : النزعة العقلية في الحضارة العربية
٢٠٧ ـ الفصل العاشر : الشورى و((الديمقراطية)) في الحضارة العربية

الباب الرابع

٢٢٥ ـ ٣٨٤ : اتجاهات الحضارة العربية في الاسلام
٢٢٧ ـ الفصل الاول : بداية الحضارة العربية في الاسلام
٢٣٧ ـ الفصل الثاني : الفتوح الاسلامية ومعاملة العرب الامم المغلوبة
٢٤١ ـ الفصل الثالث : القرآن اساس الحضارة العربية
٢٥٦ ـ الفصل الرابع : الدعوة الى الحرية والمساواة والاخاء
٢٧٣ ـ الفصل الخامس : الدعوة الى تحرير الرقيق وعتق العبيد في الاسلام
٢٨٣ ـ الفصل السادس : قواعد الحكم ومكارم الاخلاق في الاسلام
٢٩٩ ـ الفصل السابع : الدعوة الى العمل والتامين الاجتماعي من الفقر
٣٤١ ـ الفصل الثامن : الدعوة الى الضمان الاجتماعي من المرض والجهل
٣٥٧ ـ الفصل التاسع : الدعوة الى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر
٣٧٣ ـ الفصل العاشر : الدعوة الى الجهاد في الاسلام

الباب الخامس

٣٨٥ ـ ٤٧٩ : الاقتباس في الحضارة العربية
٣٨٧ ـ الفصل الاول : التفاعل بين الحضارة العربية والحضارات العالمية القديمة

٣٩٣ ـ الفصل الثاني : **تراث العرب القديم**
٤٠٢ ـ الفصل الثالث : **تراث الاغريق والرومان**
٤٠٧ ـ الفصل الرابع : **تراث الفرس والسريان والهنود**
٤١١ ـ الفصل الخامس : **اثر الاديان العربية واليهودية والنصرانية في الحضارة العربية**
٤١٦ ـ الفصل السادس : **المراكز الثقافية في الهلال الخصيب ومصر**
٤٢١ ـ الفصل السابع : **العلوم التي اقتبسها العرب**
٤٢٧ ـ الفصل الثامن : **الترجمة الى العربية**
٤٣٢ ـ الفصل التاسع : **اشهر النقلة الى العربية**
٤٣٧ ـ الفصل العاشر : **معاهد الترجمة والتأليف :**
٤٣٧ **بيت الحكمة البغدادي**
٤٤٥ **بيت الحكمة التونسي**
٤٤٧ **دار الحكمة بالقاهرة**
٤٤٨ **خزانة الحكمة الخاصة بعلي بن يحيى المنجم**
٤٤٨ **خزانة الحكمة الخاصة بالفتح بن خاقان**
٤٤٩ **المراصد الفلكية**
٤٥١ **المستشفيات**
٤٥٢ **دور العلم او دور الكتب**
٤٥٦ **المدارس والجامعات**
٤٦٠ **الربط**
٤٦٢ **الخزائن الخاصة**
٤٦٥ **المساجد والمشاهد**
٤٦٩ **ملحق بالشروح والمصطلحات والتعليقات**
٤٨٣ تصويب الاخطاء المطبعية
٤٨٤ **المصادر العربية المطبوعة**
٤٩٣ **المصادر العربية المخطوطة**
٤٩٤ **المصادر الاعجمية**
٤٩٥ **فهرس الخرائط والصور**
٤٩٦ فهرس الموضوعات
٤٩٩ آثار المؤلف المطبوعة

آثار المؤلف المطبوعة

أولا : كتب ورسائل :

١ ـ المنتخبات الادبية . بغداد مطبعة الكرخ سنة ١٩٣٥ .
٢ ـ المدرسة المستنصرية . بغداد مطبعة دنكور سنة ١٩٣٥ .
٣ ـ مقدمة في تاريخ المستنصرية وعلمائها . بغداد ـ مطبعة العاني سنة ١٩٥٨ .
٤ ـ تاريخ علماء المستنصرية في مجلد واحد . بغداد مطبعة العاني سنة ١٩٥٩ .
٥ ـ المدخل في تاريخ الحضارة العربية . بغداد ـ مطبعة العاني سنة ١٩٦٠ .
٦ ـ المدرسة الشرابية . بغداد ـ مطبعة العاني سنة ١٩٦١ .
٧ ـ خطط بغداد . بغداد ـ مطبعة العاني سنة ١٩٦١ .
٨ ـ تثنية الاسماء التاريخية . بغداد ـ مطبعة العاني سنة ١٩٦٢ .
٩ ـ الترقيعات التدريسية . بغداد ـ مطبعة العاني سنة ١٩٦٣ .
١٠ ـ عروبة المدن الاسلامية . بغداد ـ مطبعة العاني سنة ١٩٦٤ .
١١ ـ المدارس الشرابية ببغداد وواسط ومكة . بغداد ـ مطبعة الارشاد سنة ١٩٦٥ .
١٢ ـ تاريخ علماء المستنصرية في مجلدين . بغداد ـ مطبعة العاني سنة ١٩٦٥ .
١٣ ـ مقدمة في تاريخ مدرسة ابي حنيفة وعلمائها . بغداد مطبعة العاني سنة ١٩٦٥ .
١٤ ـ علماء ينسبون الى مدن اعجمية وهم من ارومة عربية . بغداد مطبعة الحكومة سنة ١٩٦٥ .
١٥ ـ نشأة المدارس المستقلة في الاسلام . بغداد ـ مطبعة الازهر سنة ١٩٦٦ .
١٦ ـ حياة اقبال الشرابي . بغداد ـ مطبعة الارشاد سنة ١٩٦٦ .
١٧ ـ مدارس واسط . بغداد ـ مطبعة الارشاد سنة ١٩٦٦
١٨ ـ مدارس مكة . بغداد ـ مطبعة الارشاد سنة ١٩٦٦ .
١٩ ـ تخطيط بغداد ـ دار الجمهورية سنة ١٩٦٦ .
٢٠ ـ المراصد الفلكية ببغداد في العصر العباسي ـ دار الجمهورية سنة ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م .

٢١ ـ علماء المستنصرية . بغداد . مطبعة العاني سنة ١٩٥٩ .
٢٢ ـ عالمات بغداديات في العصر العباسي ـ دار الجمهورية سنة ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م .
٢٣ ـ دار المذهب العراقي . دار الجمهورية سنة ١٣٨٩هـ ـ ١٩٦٩م .
٢٤ ـ اصالة الحضارة العربية ط . اولى بغداد ـ مطبعة الزمان ١٣٨٩هـ ـ ١٩٦٩م . ط. ثانية مطبعة التضامن ١٢٨٩ ـ ١٩٦٩م.

ثانيا ـ كتب للمؤلف بالاشتراك مع مؤلفين آخرين :

٢٥ ـ المطالعة العربية الحديثة ثلاثة اجزاء . بغداد ـ مطبعة النجاح سنة ١٩٣٤ . بالاشتراك مع الاستاذين : محمد بهجة الاثري وباقر الشبيبي .
٢٦ ـ تاريخ العرب (عدة طبعات بعدة مطابع) سنة ١٩٤٩ فما بعدها بالاشتراك مع الدكاترة عبدالعزيز الدوري ومصطفى جواد وخالد الهاشمي .
٢٧ ـ موجز تاريخ الحضارة العربية (عدة طبعات بعدة مطابع) ـ بغداد سنة ١٩٤٩ فما بعدها. بالاشتراك مع الدكتور عبدالعزيز الدوري.
٢٨ ـ دروس التاريخ (عدة طبعات بعدة مطابع) ـ بغداد . مع السيدين توفيق يونس وعبدالجبار شوكة .
٢٩ ـ تاريخ العرب في القرون الوسطى (عدة طبعات بعدة مطابع) ـ بغداد. بالاشتراك مع الدكتورين صالح العلي وعبدالله الفياض .
٣٠ ـ بغداد . بالاشتراك مع الدكاترة مصطفى جواد واحمد سوسة ومحمد مكية . مطبعة رمزي سنة ١٩٦٩ م .

ثالثا ـ بحوث مختلفة في المجلات العراقية : كمجلة كلية الآداب ، ومجلة الكتاب ، والاقلام ، والمعلم الجديد ، والاجيال ... ومجلة كلية الشريعة، ومجلة الرسالة الاسلامية ..الخ منها :

١ ـ تكوين رأي عام لعقد مجمع للتشريع الاسلامي .
٢ ـ اسلوب البحث العلمي عند المحدِّثين .
٣ ـ تكوين الجيل الصالح .
٤ ـ بلاد اوربية حضَّرها العرب .
٥ ـ اول تأميم في العراق .
٦ ـ أول جامعة ببغداد .
٧ ـ الضمان الاجتماعي في الاسلام .
٨ ـ موارد الضمان الاجتماعي في الاسلام .

٩ ـ ضوء جديد على اوقاف المستنصرية .
١٠ ـ مشروع الضحية . وقد ترجم الى اللغة الروسية .
١١ ـ خزانة المستنصرية .
١٢ ـ مدارس الشرابي واعماله الخيرية .
١٣ ـ عصر الشرابي ببغداد .
١٤ ـ المدارس الرباعية بمكة .
١٥ ـ صفحات من حضارة بغداد .
١٦ ـ زوارق بغداد وجسورها في العصر العباسي .
١٧ ـ مزايا الحرف العربي .
١٨ ـ العملة والنقود البغدادية .
١٩ ـ مستشفيات بغداد في العصر العباسي .
٢٠ ـ الثياب البغدادية في العصر العباسي .
٢١ ـ المجتمع العربي في ظل الاسلام .
٢٢ ـ العمل والتأمين الاجتماعي في الاسلام .
٢٣ ـ الدعوة الى الجهاد في الاسلام .

... الخ

ORIGINALITY OF ARAB CIVILIZATION

By

Prof. Naji Marouf

Attathamun Press - Baghdad

1389 - 1969